

# علم الاجتماع

## حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها

تأليف

نقولا الحداد

صاحب مجلة السيدات والرجال

## الكتاب الاول

## حياة الهيئة الاجتماعية

يبحث في كيفية تكوُّن المجتمع وأطواره ، وفي عقلية الجماعات ، والرأي العام ، وفي العوامل المختلفة التي كوَّنت المجتمع وطوَّرته ، وفي اعتراك هذه العوامل وتوازنها

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بشارع علوي رقم ٥ بمصر


الى روز
شريكتي في الحياة والفكر
أهدي هذا الكتاب
نقولا

# مقدمة

لم اجرأ ان أقدم على تأليف هذا الكتاب في هـذا الموضوع ، المترامي الأطراف ، المشتبك المظاهر ، المعقد البواطن ، إلاّ بعـد ان قضيت خمسة عشر عاماً أدرس وأطالع نخبة المؤلفات الاجتماعية على اختلاف وجهاتها ومناحيها . ومع ذلك بقيت أتهيّب الكتابة في هذا الموضوع لتشعّب الأبحاث فيه ، ولاسيما لأنّ كلاً من المؤلفين نحا فيـه منحىً يختلف كل الاختلاف عن مناحي الآخرين . وسبب هـذا الاختلاف أن هذا العلم حديث العهـد في دائرة العلوم ، فلم يُتّفق بعد على نواميس للاجتماع يتمشّى عليها المجتمع الانساني طويلاً ، وتعدُّ قواعد ثابتة لهذا العـلم ، لأن تقلُّبات الأحوال الاجتماعية المختلفة ، وتغيُّراتها السريعة ( السريعة بالنسبة الى تغيرات الطبيعة ) لا تدع للباحث الاجتماعي بالاً يتثبت من سنّة اجتماعية مُطّردة .

مع ذلك بذلت الجهد في أن استصفي من مباحث كبار الباحثين ، ونخبة المفكّرين ، ومما ألهمني اليه درسي وتفكيري ، صفوة النواميس والسنن الاجتماعية ، وأن أنسقها تنسيقاً أظنه اكثر انطباقاً على المنطق من سائر المؤلفات التي اطلعت عليها ، وأن أتبسّط بها تبسطاً لا يعاني القارئ كثيراً في تفهمه . وقد اكثرت من الأمثلة والشواهد الشرقية لكي أقرّب تلك النواميس والسنن الى افهام قرّائنا ما امكن . وبذلك أصبح الكتاب مطوّلاً في هذا العلم ، يليق أن يكون مدرسياً ، إذا استحسن مديرو المدارس تدريسه

الى ان ظهر كتابا « روح الاجتماع » و « سر تطور الامم » تأليف جوستاف لابون وترجمة المغفور له فتحي زغلول باشا ، كان هذا العلم غريباً عن لغتنا العربية ،على ما أظن، لأني لا أعرف كتاباً قبل ذينك الكتابين بهذا الموضوع . وكذلك الحضارات الاولى

لجوستاف لابون ترجمة محمد صادق افندي رستم ، قد يعد كتاباً اجتماعياً أيضاً . و يعتقد البعض ان مقدمة ابن خلدون بحث اجتماعي . اجل انها لمن هذا القبيل ، ولكن ابن خلدون لم يستخرج من الحقائق العمومية الشاردة هنا وهنالك ، مبادىء عامة يصح ان تُعَدّ سنناً او نواميس أو قواعد لعلم خطير الشأن كعلم الاجتماع ، بل هو وصف الاحوال الاجتماعية السياسية كما كانت لعهده . فمقدمة ابن خلدون بيان للشؤون السياسية في عصره ، لا علم اجتماعي

وروح الاجتماع لجوستاف لابون يقابل الباب الثاني من هذا الكتاب ، وسر تطور الامم ، والحضارات الاولى ، يقابلان الباب الثالث من الكتاب الثاني الذي سنصدره ان شاء الله في العام المقبل . ومع ذلك سيرى القارىء ان ما كتبه لابون يختلف عما استصفيناه في ذينك البابين من حيث المبادىء المنطقية التي تعد سنناً اجتماعية يمكن ان يتمشى عليها المجتمع دهراً طويلاً .

فلذلك يعد مؤلفنا هذا ، وقد جمع الوجوه الرئيسية في فلسفة الاجتماع كما تراها في فهرست الكتابين ، أول مؤلف مطوّل باللغة العربية في هذا العلم (١) فعسى أن يليق أن يكون خدمة نافعة للآداب العربية ، والاَّ فيكون ممهداً السبيل لمن يحسن الخدمة اكثر ، أو مذكراً لمن هو اكثر أهلية لهذه الخدمة ، فينبري لها

وقد أشرت في أول كل باب الى المؤلفات التي عوّلت على بعض نظرياتها ، واتخذتها قاعدة لبعض مباحثي ، على أني لم أتقيد بمباحث تلك المؤلفات بتاتاً بل استقللت في أبحاثي . ولذلك جاء الكتاب ذا شخصية واحدة مستقلة بارزة ، ونسق واحد—بناء واحد يقوم بعضه على بعض متناسق الهندسة كما ترى . والله الملهم الى الصواب م ؟

نقولا الحداد

(١) سمعت ان حضرة الوطني المشهور الدكتور عبد الرحمان شهبندر ترجم كتابا في علم الاجتماع وطبعه . وبحثت عن هذا الكتاب في مكاتبنا فلم أظفر بنسخة منه

# فهرس

## الكتاب الأول

### مقدّمة



---

(١) جاء عنوان هذه النبذة في صفحة ٧٥ بحرف صغير خطاء ، وحقه أن يكون بالحرف الكبير الشديد السواد

## الباب الثاني — العقل الاجتماعي



---

(١) سقط سهواً عنوان هذا الباب فنرجو من القارىء ان يكتبه بقلمه في محله في صفحة ٢٢٣

## القسم الاول — القوى العاملة في الاجتماع

### الفصل الاول — القوة الحيوية للحرص على الحياة الاجتماعية



### الفصل الثاني — القوة النسلية الـكافلة استمرار الحياة الاجتماعية



### الفصل الثالث — القوى الاجتماعية



### الفصل الرابع — القوى البيئية



## القسم الثاني — عمل العوامل الاجتماعية

### الفصل الخامس — اعتراك القوات



---

(١) وقد ورد هذا العنوان في صفحة ٢٩٠ سهواً هكذا : « اختلاف العامل النسلي » فنرجو من القارىء ان يصححه بقلمه

الفصل السادس — توازن القوات





## تنبيه مهم

يحسن بالقارىء ان يلتفت كل حين بعد آخر الى فهرس كل باب أو فصل ليعلم في أي موقف هو من الموضوع

# مقدمة

## ما هي الاجتماعية

١ً علل الاجتماعية . ٢ً منشأ الاجتماعية . ٣ً تبويب علم الاجتماع .

---

## ١ — علل الاجتماعية

الطبيعي والصناعي

يقال عن الشيء انه طبيعي اذا كان متمشياً على سنة الطبيعة وحدها . فاذا تسلطت على إحدى حالتيه من حركة أو سكون إرادة العقل البشري وتسيطرت عليها ، يقال انه غير طبيعي ، ويغلب أن يقال انه صناعي . فمجرى النهر طبيعي، والقناة صناعية . الكهف مأوى طبيعي ، والبيت مأوى صناعي . جمال البدوية طبيعي ، وجمال الحضرية المتطرية صناعي

كل شيء متغير

الاعتقاد الشائع أن الطبيعي لا يتغير . وسبب هذا الاعتقاد ما يرى أو يتراءى من أن الطبيعي يسير على وتيرة واحدة . ولهذا أصبح لفظ الطبيعي يشمل معنى الدوام أو الخلود أيضاً . أجل انه لكذلك اذا قيس بالامد القصير الذي تتحرك فيه حياة العقل البشري المجردة عن دقة الملاحظة والاستنتاج . فمجرى النيل طبيعي لأن النيل يجري مجراه منذ القديم وليس مايدل على أنه يغيض أو يغير مجراه في المستقبل . وظواهر فصول السنة الأربعة قديمة كقدم الأرض كما نراها الآن . ولكن العلم أثبت

لنا أن الأرض وظواهرها الجوية والجيولوجية والجغرافية لم تكن كما هي الآن ، حتى النظام الشمسي نفسه لم يكن كما هو الآن، بل ان كل شيء كان يتغير ولا يزال يتغير . فالجبل الذي تراه شامخاً لم يكن في القديم إلاَّ مهداً للماء وقد يتمهد في المستقبل . والأرض ستبرد كما برد القمر قبلها . والانسان لم يكن إنساناً إلا بعد أن كان همجياً، وربما أمسى في المستقبل مجموعة عصب

سبب التغير التطور

فالطبيعي قابل للتغير لأن عوامل الكون المختلفة مناهض بعضها بعضاً . وكل ما تراه من حوادث التغير انما هو نتيجة هذه المناهضة . ومن أفضح الاغلاط القول السائر ، ان التاريخ يعيد نفسه . فاذا كان فصل واحد من فصول السنة لا يتكرر بكل تفاصيله في العام التالي ولا بعد عشرة أو مئة أو الف عام — واذا كانت الأرض لا تدور حول الشمس في نفس الدائرة التي دارت فيها في العام السابق ( ولعل هذا هو سر عدم تكرر فصل طبق الأصل تماماً ) — واذا لم يمكن أن يتكرر شيء في الوجود مرتين متماثلتين تماماً ، فكيف يمكن أن يتكرر حادث تاريخي ؟ أجل أنَّ بعض الحوادث تتشابه في بعض الوجوه ولكنها تتخالف في كثير من الوجوه . فالتاريخ قد يعيد نفسه في بعض الكليات ولكنه لا يعيد نفسه في تفاصيل الجزئيات العديدة

فاذا قلنا ان هذا الشيء طبيعي ، فليس المعنى انه هكذا نشأ وهكذا سيبقى الى الابد ، بل لا بد أن يكون متطوراً على الدوام . وتحوله من حال الى حال لا يبطل طبيعيته ، لان المتطور نفسه نتيجة تفاعل السنن الطبيعية أو بالأحرى هو حاصل عوامل الطبيعة المتناهضة

الاجتماعية مفعول عوامل طبيعية

واذا قلنا «ان الانسان اجتماعي بالطبع» عنينا ان اجتماعيته نتيجة عوامل طبيعية ( بعضها فيه و بعضها خارجة عنه ) كانت تعمل فيه ولا تزال . ولكننا لا نعني بهذا

القول ان اجتماعية الانسان سائرة على وتيرة واحدة لكونها طبيعية . بل بالعكس يجب أن نفهم جيداً ان اجتماعية الانسان متطورة على الدوام تبعاً لتطور العوامل العاملة في الانسان والمفضية الى اجتماعيته

يلزم عن ذلك ان شكل الاجتماعية البشرية اليوم يختلف عنه في العهود الماضية ، وان لكل عهد من عهود الانسان شكلاً اجتماعياً خاصاً . واذا استقصينا عن بدء اجتماعية الانسان في عهوده الماضية ، وبحثنا عن منشئها لا نجد لهـا منشئاً ولا بدءاً . وربما اهتدينا الى منشأ الانسان وبدئه ولكننا لا نهتدي الى بدء اجتماعيته ومنشئها ، لأن هذه الاجتماعية انما هي ارث ورثه الانسان من الاحياء الدنيا التي تسلسل منها ، بل ان الاحياء الدنيا نفسها ورثت هذه الاجتماعية من العناصر التي تألفت منهـا . فالاجتماعية سنة طبيعية موجودة في كل جماعة جمادية وحيوية وبشرية على السواء . وانما كل عالم من هذه العوالم يتميز عن غيره بشكل اجتماعيته ، والانسان لم يتميز عن الاعجم الا بشكل اجتماعيته الانسانية . فبعلم الاجتماع نعني الاجتماع الانساني

لا يمكن أن نتمادى في هـذا البحث قبل أن نفهم معنى الاجتماعيـة جيداً . فما هي الاجتماعية ؟

معنى الاجتماعية

أنت في بلد تطوف فيـه كل يوم فترى منازل وحوانيت ومرافق وحانات وشوارع وأشجاراً وحدائق ومركبات وبهائم وبشراً وطيوراً الخ . فهـل تسمي كل هذه المذكورات جماعة ؟ والا فما الذي تسميه جماعة ؟

لا تقدر أن تسمي كل هذه المذكورات معاً الا خليط أشياء . ولكنك اذا شئت أن تقول أي قول عن شيء منها، أجملته وحده وخصصته بلفظ يفيد معنى الجماعة أو بلفظ الجماعة نفسـه . فتقول جماعة البهائم أو جماعة الطيور أو جماعة البيوت أو جماعة الاشجار الخ ، أي لا يمكن أن تقول عن مجموعة هذه الاشياء جملةً جماعة ؛ بل انك تفصل كل صنف منها وحده وتجعله مجموعة قائمة بنفسها وتخص به لفظ الجماعة . فما الذي حدا بك الى ذلك التفصيل وهذا التخصيص

التماثل سر الاجتماعية

بالبداهة تقول ان جميع الاشياء المتماثلة أو التي يشتد التشابه بينها انما هي صنف قائم بنفسه ويطلق على مجموعة أفراده لفظ « جماعة » واحدة . فمجموعة البيت والشجرة التي الى جانبه وسكانه الخ، لا يصح القول انها جماعة . وانما يقال عن بشر البلد جماعة البشر وعن منازله جماعة المنازل وعن شجره جماعة الشجر الخ

فاذاً الجماعة تتعين بتماثل أفرادها أولاً . فحيث وجدت أجزاء متماثلة في مجموعة وجدت نواة الجماعة ، وامكن تعيين الجماعة في تلك المجموعة وتمييزها عن سائر الاجزاء التي لا تماثلها . فالتماثل هو الجامعة ( أو الرابطة ) التي تجمع الاجزاء المتماثلة في جماعة

ولكن هل كل جماعة ذات اجتماعية ؟ هل يمكن اطلاق لفظ الاجتماع على كل جماعة ، أي كل مجموعة أشياء متماثلة الاجزاء ؟ والا فما هو الاجتماع ؟ أو ما هو معنى الاجتماعية ؟

اذا رأيت عرمة أحجار غير مبنية ، صح أن تعتبرها جماعة لتماثل أجزائها . واذا رأيت منزلاً مبنياً من أحجار فهل تعتبر أحجاره جماعة أحجار ؟ لاخطاء في اعتبارها جماعة أحجار لولا أن بناءها في شكل معين استغرق وحدات أجزائها ( احجارها ) وجعل لها وحدة جديدة هي المنزل برمته . فهي أولى أن تسمى منزلاً من أن تسمى جماعة أحجار لان بينها جامعة الوظيفة فضلاً عن جامعة المماثلة ، أي ان هذه الاحجار اشتركت في تكوين المنزل ، وبهذا الاشتراك الذي هو وظيفة كل حجر منها امتازت على أحجار العرمة غير المبنية .

كذلك تعتبر الاشجار المتفرقة في شوارع المدينة وديارها جماعة أشجار ، ولكن مجموعة الاشجار التي في حديقة تسمى حديقة ، فضلاً عن جماعة أشجار لانها اشتركت في تكوين الحديقة

الصفات المشتركة تنشيء الاجتماعية

وهكذا تسمي الناس الذين في الترام جماعة بشر ، ولكنك تسمي أهل

المنزل الواحد عيلة ، فضلاً عن جماعة . وكذلك تسمي العمال الذين يشغلون في مرفق جماعة عمال ، والصناع في نقابة عمال جماعة صناع

فاذاً اجتماعية الجماعة تتعين باشتراك أفرادها في عمل مختص بالجماعة ، وغايته فائدة أفراد الجماعة . وهذا الاشتراك انما هو رابطة أخرى لافراد الجماعة فضلاً عن رابطة التماثل ، و به تتعين اجتماعية الجماعة

و بناء على هذا التمهيد يمكن تعريف الجماعة الاجتماعية بكونها مجموعة أفراد متماثلين ومشتركين في أفعال ترجع نتيجتها لفائدة هؤلاء الافراد الذين يتقاسمونها جميعًا

التماثل العقلي

أما التماثل المعنيُّ هنا فعقلي لا جسدي ، وهو تماثل الافراد في الافكار والتصورات والاعتقادات والأميال والعواطف . والافراد يكتسبون هذا التماثل بالارث أو بالامتزاج أو بكليهما . أما بالارث فلأنه يتسلل معهم من أسلافهم اذا كانوا كلهم من قبيلة واحدة، وأما بالامتزاج فلانه يشيع بينهم بحكم التقليد أو القدوة (كما سنفصل ذلك في فصل خاص في عقلية الاجتماع ) هذا اذا تكونت الجماعة من خليط جماعات أو أفراد مختلفي العشائر

وأما الافعال المشتركة فاجتماعية محضة ، أي هي مالا يمكن أن يقوم بها الفرد مستقلاً وحراً كالنظام السياسي ، والنظام الديني ، والنظام الاقتصادي ، والعمل الصناعي ، والحركة التجارية الخ

والتماثل الذي بين أفراد الجماعة يعتبر شكلاً ماديًا للجماعة أو صورةً لجسمها . وأفعال الجماعة التي يشترك فيها الافراد تعد حركةً للجماعة . وكل حركة أو شكل للجماعة يوصف بلفظ « الاجتماعي » . والجماعة ذات الشكل والحركة تسمى « جماعة اجتماعية »

وكل من تلك الافعال الاجتماعية وتلك التماثلات الاجتماعية رابط يربط الافراد في جماعة . وشدة ارتباط الافراد في جماعتهم تتوقف على أهمية تلك الروابط وتعددها

ولـكن لماذا هذا الارتباط ؟ وكيف نشأت هذه الروابط ؟

منشأ الروابط

نشأ هذا الارتباط من تلاشي استقلال الفرد وزوال انفراده وحلول تعاون الافراد محلّ استقلالهم . فمهما حاول الفرد ( الاجتماعي ) أن يعمل مستقلاً لا يجد نفسهُ الا مشتركاً مع غيره في عمل ما ، أو أنه ينجز حلقة من سلسلة أعمال يعمل فيها آخرون

فاذا قال الفلاح المتناهي في القناعة اني أزرع الارض وآكل غلتها مستقلاً عن الناس ، فلا يلبث أن يجد نفسه محتاجاً الى أدوات الفلاحة كالمحراث والمعزقة والمعول الخ ، وهي صنع الحداد والنجار وغيرهما . وان قال اني أنسج القطن ثوباً لي فلا يلبث أن يجد نفسه في حاجة الى أدوات النول وهي من صنع الصناع الاخرين أيضاً . وكذلك اذا قال أنه يبني كوخه . واذا رام أن يصطنع أدوات الفلاحة وأدوات البناء وأدوات النسج وجد نفسه بازاء سلسلة من أعمال قد لايفرغ منها ، ولذلك يستسهل أن يشتريها مستغنياً عن صنعها . يشتريها بما يفضل عنه من حاصل غلته ، وهنا يجد نفسه في حاجة الى البدال لـكي يشتري منه و يبيعه

واذا قال المتدين اني أعبد الله مستقلاً ، فلا يلبث أن يجد نفسه مشتركاً مع آخرين في بناء معبد وانه في حاجة الى رئيس دين

وهكذا ان قال طالب العلم اني اعلّم نفسي ، فلا يلبث أن يجد نفسه دارساً في كتب الفها آخرون وطبعها آخرون وكاتباً على ورق صنعه آخرون

ومهما قنع المرء ببسيط الحياة ورضي بشظف العيش حتى يستقل عن الناس فلا يلبث أن يجد نفسه محتاجاً الى ثلاثة على الاقل : معاون له على رد غارات الغازي ، ومؤنس في حالة الوحشة ، ومغيث في حالة العجز من مرض أو شيخوخة

حتميّة الارتباط

ناهيك عن ان الاختبار علمه أن التعاون أوفر له سعادة وهناء لما فيه من

الاقتصاد في بذل القوى لتحصيل هذه السعادة . فالاختبار علم الفلاح أن استبدال ما يفضل عنه من حاصل غلته بأدوات الفلاحة و بالثوب الذي يكتسيه والنعل الذي ينتعله الخ ، خير له من أن يعاني في صنع الأدوات نفسها ونسج الثوب الخ .

ذلك هو سر حلول التعاون محل الاستقلال المطلق . ولذلك نرى أن التعاون ليس من اختراع الانسان بل هو ارث ورثهُ من سائر الأحياء التي سبقته في النشوء . فما من طائفة من الاحياء إلاَّ لها صنف من التعاون ، حتى انك لتجد جرثومة هذا التعاون في طوائف الجراثيم الميكروسكوبية

# ٢ — منشأ الاجتماعية

الاجتماعيات الجمادية والحيوية

اذا تعمقت في استقصاء منشأ الاجتماع بلغت الى الجوهر الفرد الكيماوي . فان المواد التي يتألف منها الجسم الحي ( انسان أو حيوان أو ميكروب ) انما هي دقائق كيمية ، وكل دقيقة عبارة عن جماعة جواهر فردة لها خاصة الاجتماعية أي انها تتحرك ( تهتز ) معاً متوافقة متآلفة . والخلية أو الحويصلة الحيوية مؤلفة من مجموعة دقائق متحدة معاً اتحاداً خاصاً يجعل للخليــة قواماً حيوياً . وكل جسم حي فوق الميكروبات مؤلف من مجموعة حيوية متحدة معاً اتحاداً يجعل للجسم قواماً حيوياً ايضاً كجسم الانسان الذي هو فرد اجتماعي

الجراثيم المفردة الخلية ( أي التي كل جرثومة منها خلية واحدة فقط كالميكروبات على أنواعها ) انما هي طوائف متعددة ينازع بعضها بعضاً جماعات جماعات . وكثير من جماعات بعض هذه الطوائف تقاتل جماعات خليات الاجسام الحية العليا كالانسان والحيوانات الفقارية حتى الديدان . فللميكروبات اذاً خاصية الاجتماعية

الاجتماعية الحيوانية

واذا ارتقينا الى الاحياء الواطئة المؤلفة من خليات حيوية متعددة كالديدان

والحشرات نجد فيها خاصة الاجتماعية ايضاً ، وان كانت هذه الخاصة ضعيفة جداً فيها وفي الميكروبات . وانما لا ينكر انها تعيش وتنمو وتتوالد متجمعة وتنقرض متفرقة . ولا تحتمل عوادي اعدائها إلا متجمعة ، ولا تقدر أن تستفيد حقها من الطبيعة إلا متجمعة . واشهر الحيوانات الاجتماعية طـوائف النمل والنحل . وتكاد اجتماعيتها العجيبة تعد في مقدمة اجتماعية سائر الاحياء غير الانسان

تقدم الى الحيوانات الفقارية تجد خاصة الاجتماعية فيها أظهر وأجلى . وتجد التنازع أشد عنفاً ،حتى انك تجد لـكل طائفــة منها وطناً أو أوطاناً محدودة . بل تجد بين أفراد جماعاتها روابط متعددة تؤيد اجتماعيتها كالسعي إلى الغذاء ، والالتجاء الى المأوى ، والتجمع للدفاع أو الغزو

اجتماعية الحيوانات العليا

وآكلة النباتات منها أشد اجتماعية من آكلة اللحوم ، لأن اضطرار تلك الى اتقاء غارات هذه أوجب عليها أن تتجمع وتتحد للدفاع عن جنسها . وأكثر الحيونات الآكلة اللحوم اجتماعيةً طائفة الذئاب ، فانها تغزو الماشية والطيور والحيوانات الوديعة كالغزلان - تغزوها وهي جماعات وقطعان .

وضعف اجتماعية آكلة اللحوم هو سبب قلتها وسبب ندور بعضها وسبب انقراض بعض طوائفها ، مع انها أقوى جسماً وأشد سطوة من آكلة النباتات ، وانما تنقصها مزية التعاون الاجتماعية التي لهذه . وقوتها جعلتها في غنى عن هذا التعاون

وأما آكلة النباتات فكلها اجتماعية وبعضها أشد اجتماعية من بعض . وهي لضعفها في حاجة الى الاجتماعية لصد أعدائها

ان كثيراً من طوائف الطيور تعيش أسراباً وأشهرها بهذه المعيشة أسراب الحمام ، وكثير من الطيور تجوب البلاد وتهاجر من وطن الى وطن اسراباً اسراباً

الفيلة تعيش جماعات من خمسة الى ١٥٠ وتتعاون في الهجوم والدفاع . قطعان الوعول تعيش جماعات ولها شيء من النظام البسيط ، فان لفِرَقها زعماء تقود وتنذر من الخطر

جميع الدواجن كالبقر والغنم والمعزى تسير قطعانًا متراصة ولا سيما ساعات الخطر

اجتماعية اشباه الانسان

قرود افريقيا تعيش عشائر اجتماعية ولها بعض النظامات . وقرود النوع المسمى سيركوبيتيكوس Cercopithicus تطوف جماعات تحت قيادة زعماء . والزعيم يتسيطر ويأمر وينهي ويعين خفراء، وجماعته تفهم أوامره وتطيعها . وللنوع المسمى سينوسيفالوس Cynocephalus نظامات أرقى من ذلك (١)

اشباه الانسان كالغورلا والبابون والاورانوطان تعيش عيشة اجتماعية أرقى من عيشة القرود

اجتماعية الانسان

على ان الفرق بين اجتماعية العجماوات واجتماعية الانسان أن الاولى غريزية طبيعية والثانية تعقلية مصطنعة . فالعجماوات تنتظم في جماعة غير مدركة ما تفعل وغير مقايسة بين الحاضر والماضي . وربما كان للعليا منها كأشباه الانسان جرثومة قوة المقايسة، وانما هي ضعيفة فيها جداً . وبالاجمال يقال أن العجماوات اكتسبت غريزتها الاجتماعية بحكم ناموس الانتخاب الطبيعي كما سيتضح ذلك فيما بعد

أما الانسان فانه يدرك انه اجتماعي ويفهم ان اجتماعيته أفضل له من انفراديته، ويفعل أفعاله الاجتماعية بناء على أحكام المقايسة والاستدلال والاستنتاج

واما كيف صار الحيوان الأعلى انسانًا اجتماعيًا فسنلمّ بهِ في الكتاب الثاني « تطوُّر الهيئة الاجتماعية » في الباب الثالث منه « التطور التاريخي »

---

(١) The Elements of Sociology—Blackmar صفحة ٥٢

## ٣ - تبويب علم الاجتماع

يفهم من كل ما تقدم ان الاجتماعية البشرية هي نظام كسائر الأنظمة الكونية الرئيسية : النظام الفلكي ، والنظام الكيمي ، والنظام البيولوجي ، والنظام العقلي . وقوام هذا النظام الاجتماعي : العقل الانساني والحيوية الحيوانية

ويفهم أيضاً أن المجتمع اقنوم[1] حيٌّ ذو عقل . فالبحث في المجتمع أو في علم الهيئة الاجتماعية ينحصر في فعل العقل البشري وفعل الحياة الحيوانية في تكوين المجتمع وحياته ونموه واعماله وانظمته وتطوره

فلذلك يتبوَّب بحثنا على هذا النحو :

اولاً – البحث في كيفية تكوُّن المجتمع والمواد التي يتألف منها . أي في « بنية المجتمع » . وقد فصلنا البحث في فصول التجمع ونسيج المجتمع وانظمته

ثانياً – البحث في القوة العقلية المدبّرة المجتمع . ومحور عملها : المحاكاة ، فالاقتباس ( التقليد ) ، فالمناقشة التي تبرز الرأي العام

ثالثاً – البحث في القوات التي تعمل في تكوين الاجتماع واحيائه وتطويرهِ من داخله ومن خارجه . وقد فصلنا هذه القوات في الحيوية والنسلية والاجتماعية

في هذه الابواب الثلاثة ندرس ( حياة الهيئة الاجتماعية )

وفي ابواب اخرى ثلاثة ندرس ( تطور الهيئة الاجتماعية ) وهي :

اولاً . نبحث في ان المجتمع البشري جسم حيٌّ له خواص الأجسام الحية من نمو وتوالد وشيخوخة . وهو باب جسمانية المجتمع

ثانياً . نبحث في أن هذا الجسم متمشٍّ على سنن التطور التي تسير عليها الاحياء من تنوُّع وتكييف ووراثة وانتخاب طبيعي . وهو باب نواميس التطور الاجتماعي

---

(١) الاقنوم يونانية الاصل نصرانية الاستعمال — ومعناها الاصل والشخص ، وقد استعملناها هنا لان في ما نعنيه بها يشعرنا بحسن استعمالها

ثالثاً . نبحث في ما تقلب على تطور المجتمع البشري من التطورات منذ صار الانسان اجتماعيًا حتى اليوم . وهو باب تطور المجتمع التاريخي

ثم نختم البحث بفصل عن الامراض الاجتماعية

---

ملاحظة للقارىء

لقد جعلنا في اول كل باب فهرسًا عموميًا له . وجعلنا في اول كل فصل فهرسًا تفصيليًا . والغرض من ذلك أن يعود القارىء الى الفهرس كلما انتقل من فصل الى فصل أو من نبذة الى نبذة حتى يتذكر في أي موقف هو من مباحث هذا الكتاب المبوّب المفصل ، تبويبًا وتفصيلاً منطقيين



# الباب الأول

## بنية المجتمع

الفصل الاول — التجمع

الفصل الثانى — نسيج المجتمع و بناؤه

الفصل الثالث — نظام المجتمع

مصادر هذا الباب

اقتبسنا في هذا الفصل بعض نظريات

جيدنز The Principles of Sociology — Gidings

وبلاك مار Elements of Sociology — Blackmar



# الفصل الاول

## التجمع

### ا – حتمية التجمع

١ – اجتماعية العجماوات . ٢ – اجتماعية البشر

### ب – اساليب التجمع

١ – التجمع المتسلسل – سننه – تجزئته . ٢ – التجمع المختلط – سنة الاختلاط . ٣ – التجمع المزجي – نمو المجتمع ودوامه

### ج – المتجمَّع ، اي مكان التجمع

١ – الخصب . ٢ – سهولة الحركة . ٣ – الاقليم . ٤ – حدود المجتمعات

### د – التجمع علة التجمع

١ – مركز التكتل . ٢ – مركز التجمُّع . ٣ – تضخم المدن . ٤ – تغلب الاجتماعي على الطبيعي . ٥ – شيخوخة عامل التجمع .

## ا – حتمية التجمع

معظم الأحياء اذا لم نقل كلها تعيش جماعات بعضها اكثر اجتماعية من بعض . وبعضها أصعب تفرقاً من بعض . اذا تفرّق بعضها في بيئة فلا تلبث أن تتجمع في اخرى . المتفرِّقة تأول غالبًا الى الانقراض وما يتجمع منها ينمو ويتكاثر . وتَطوُّرها يتوقف على درجة اجتماعيتها ونوعها. وأبسط ظواهر الاجتماعية التعاون المتبادل

والمواصلة ، وكلاهما يستلزمان الاحتكاك ،والاحتكاك يفتق الحيلة لتحسين التعاون . لذلك يندر أن تجد أفراداً من الاحياء عُزلاً ، لأن الاعزل ينقرض سريعًا . وبهذا الاعتبار تعد المملكة الحيوانيةً كلها اجتماعية بحكم الطبع

## ١ — اجتماعية العجماوات

« الادغال التي وراء جبال أليغاني في شمالي اميركا كانت منذ قرن تقريباً مكتظة بالحيوانات اكتظاظاً لا يكاد يصدّق . فقد رأى الصيادون الاولون الذين جابوا تلك الاراضي طرقاً قديمة طرقتها قطعان الابقار الوحشية ( Bison بيزون ) مدة قرون . ووجدوا حول الملاّحات طرقاً طرقتها هذه الابقار والايائل والوعول والذئاب ، فكانت كالشوارع حول مدينة . وشاهدوا السناجب اسراباً لا يحصى عديدها تهاجر من جبل الى جبل وتعبر الانهر معاً . وأغرب من ذلك أن أسراب الحمام كانت كالجراد تحجب الشمس وتقع على الغصون فتتكسر تحتها لوفرتها .

« ولما امتلك الروسيون سيبيريا وجدوها مكتظة بالحيوانات المختلفة الانواع ولم يستطيعوا استيطانها وتعميرها الاّ بعد أن توالت حملات الصيد عليها مدة قرنين . وحتى الآن لم يزل في سهول اواسط اسيا زُمَر عديدة من الخيول البرية والقرود والجمال البرية

« وكذلك لم يزل في بعض جبال اوروبا كجبال الالب وجبال اميركا قطعان من الايّل والوعول والغزلان والخراف والمعزى البرية . وفي سهول اوروبا واميركا كثير من مستعمرات الفئران والجرذان والسناجب وكثير من الحيوانات القارضة . واعجب منها مستعمرات كلاب الماء Beavers التي لم تنقرض الى الآن ( وفي مزارع فلسطين كثير من مستعمرات الفئران الفاتكة بسنابل القمح )

« وادغال اسيا وافريقيا لم تزل موطناً لزمر الفيلة وبقر النهر ولجماعات القرود العديدة . وفي الشمال لا تزال الغزلان تعيش جماعات ايضاً . وفي الشمال الاقصى قطعان من بقر الوحش أوالغزلان المسكيّة وزمر الثعالب القطبية التي لا تحصى

« وشواطىء الاوقيانوس الاتلانتيكي وطن لقطعان الفقمة ومياهها مسرح لجماعات الحيتان Cetaceans . وليست الحيوانات المفترسة الا شراذم صغيرة بالنسبة اليها » (١)

## ٢ — اجتماعية البشر

فاذا كانت الحيوانات العجماء تعيش جماعات بحسب مقتضى بيئاتها ، فكيف بالانسان وهو نائىء عنها باجتماعيته ؟

خذ احط طبقات البشر التي هي بقايا العصور الهمجية التي تقدمت عصور المدنية — وهي الطبقات التي بقيت حتى اليوم تعيش متبدّية ( غير متحضّرة ) كجماعات الفتية السود Blackfellows في استراليا ،والبوشمان Bushmans في جنوب افريقيا ،والفدا Vaddes في سيلان ،

(١) Principles of sociology, Giddings, صفحة ٨٠

والفوجيان Fuegians في جنوبي اميركا الجنوبية Tierra del Fuego والهيلاندرفي جريئلاند(١) كل هذه القبائل المتوحشة بالرغم من انها صغيرة وعرضة للتبعثر هنا والتجمع هناك ليست الاّ جماعات ، وكل واحدة منها مؤلفة من عدة عيلات

وليس في وسع انسان أو بالاحرى عيلة مهما كانت منحطةً أن تعيش مستقلة عزلاء ، فان لم تنمُ عاجلاً حتى تصبح جماعة انقرضت تحت فواعل الطبيعة المقاومة للاجتماع . وربما استطاع الانسان المتمدن أو المتحضر أن يعيش أعزل مستقلاً زمنًا . ولكنه يكون في الظاهر كذلك . والحقيقة انه ليس أعزل ولا مستقلاً ما دام يستمد حاجياته من بلد أو من جماعة أخرى . فهو جزء من تلك الجماعة وان بعد عنها . واذا انفردت عيلة في أرض تنتج الرزق بالزراعة والتعدين أو غيرهما حسب مقتضى الحالة فلا تلبث أن تتكاثر بالتوالد وبمن يهاجر اليها ، إذا كانت خيرات الارض جذّابة ، حتى تصبح جماعة كبيرة

لاحظ ان الجانب الاكبر من أية أمة أو أي شعب يقيم في مدن مكتظّة بالسكان ، والجانب الاصغر مبعثر جماعات صغيرة في قرًى وكفور ومزارع ، بالرغم من ان النفقة اكثر في المدن منها في القرى والمزارع . ذلك لأن الالفة الاجتماعية كالالفة الكيمية تقضي بالتجمع

فالتجمع ، بالرغم من وفرة العوامل الاجتماعية التي تفضي اليه وتعمل له ، طبيعي الأصل . ولذلك هو أمر حتمي

## ب — اساليب التجمع

يحدث التجمع الاجتماعي في أساليب مختلفة يمكن حصرها في ثلاثة : ١ً – التجمع المتسلسل : ٢ً – التجمع المختلط : ٣ً – التجمع المزجي

### ١ — التجمع المتسلسل

اذا امكننا أن نستقصي بدء أيّ تجمع أو أن نتحرّى أصله توصلنا الى جماعة

(١) ترى وصف هذه القبائل وكثير من امثالها في كتاب سلالات الانسان.
Races of man, by J. Deniker

صغيرة ينبض في عروق أفرادها دم واحد ، أي ان أفرادها أقارب متسلسلون من أبوين . فمنشأ الجماعة العيـلة ، في الجيل الأول أقامت في صقع ، ثم توالدت فيه بضعة أجيال حتى صارت عشيرةً ، فقبيلة ، فأمة بعد أجيال . هذا إذا قطعنا النظر عما يمكن ان يكون قد امتزج فيها ممن هاجر اليها من القبائل الاخرى . وقد تكون العشيرة أو القبيلة برمتها احتلت الصقع وتكاثرت فيه وانحصر التزاوج فيما بين أفرادها

فالتجمع المقتصر على سلالة واحدة نسميه « التجمع المتسلسل » . وكلما اتسع نطاق هذا التجمع استحال ان تسلم الجماعة المتمدنة من امتزاج عناصر أخرى فيها ، وقل الامتزاج في القبائل المتبدّية

سنن التجمع المتسلسل

والسنن العمومية للتجمع المتسلسل هي : أولاً ، كلما اتسعت دائرة التجمع الجغرافية بعدت القرابة وكثر الامتزاج الدموي . ثانياً ، كلما كانت الجماعة منحطة كانت أخص دماً وأقل تعرضاً لهذا الامتزاج . والعكس بالعكس ، أي انه كلما كانت الجماعة راقية كانت اكثر تعرضاً للامتزاج . ثالثاً كلما انحصرت البيئة في حدود منيعة سلمت الجماعة من شائبة الامتزاج

هيهات ان تجد جماعة بشرية مهما كانت منحطة خلواً من هذا الامتزاج . لانه يطرأ عليها ولو من قبيلة مشتركة معها في السلالة ، أي ان كلتا القبيلتين تفرعتا من سلالة واحدة فافترقتا حيناً ، ثم نمتـا فتصادمتا في حين آخر ، قضت الأحوال الطبيعية والاجتماعية بهذا التصادم ، فتمازجتا

لا يندر أن تجـد تجمعاً متسلسلاً محضاً في الحشرات الاجتماعيـة المعروفة كالنمل والنحل والزراقط . فلا شك ان مستعمرة من النحل أو من النمل نقية السلالة أي أنها لم تمتزج بسلالة أخرى . وربما امكن تعيين سرب من الحمام في برج ، أو شرذمة من السمك في بحيرة صغيرة أو في جون ، موحدة السلالة

أي نوع من الميكروبات المرضية التي تعيش في جسم حي انمـا هي موحدة السلالة . البهائم والطيور في مزرعة واحدة موحدة السلالة غالباً

القبائل البشرية القديمة التي كانت محصورة في بيئات محدودة وكانت تحافظ على وحدات سلالاتها كأسباط بني اسرائيل وقبائل العرب كانت خير نماذج للتجمع المتسلسل. الاسرائيليون الذين عاشوا في برية سينا ٤٠ سنة كانوا حينئذ سلالة نقية الدم. والقبائل الهمجية الباقية الى اليوم تعد أنقى دماً من الأمم المتمدنة. ونعني بنقاوة الدم وحدته وعدم امتزاجه بدم آخر. فهنود اميركا الشمالية وهمج اميركا الجنوبية وسكان الفيلبين الأصليين — كل هؤلاء أنقى دماً من مواطنيهم البيض الذين استعمروا بلادهم وهم مزيج من عناصر اوروبية مختلفة

وكلما ارتقينا في سلم المدنيـة قلّت هذه النقاوة في التجمع المتسلسل. فالزنوج في القطر المصري أو في الولايات المتحدة الأميركية أنقى دماً من أهالي البلاد التي يعيشون فيها، وربما كانوا أنقى دماً من اخوانهم الذين في وطن الزنوج الافريقي

واذا تقدمنا الى البلاد المتمدنة فكل أمة تعد بالنسبة إلى غيرها تجمعاً متسلسلاً. بل كل عنصر في كل امة يعد كذلك بالنسبة الى العناصر الأخرى. فالترك والأرمن والاكراد والعرب المسلمون والعرب النصارى واليونانيون في تركيا — كل هؤلاء عناصر متمايزة بوحدات سلالاتها. وكل عنصر يعد تجمعاً متسلسلاً قائماً بنفسه اذا قيس بغيره

وكل طائفة قائمة بنفسها تعد تجمعاً متسلسلاً كطوائف لبنان من دروز وموارنة وارثوذكس وكاثوليك ومسلمين الخ.

بل يعد أهالي كل بلدة وحدهم (على افتراض انهم من طائفة واحدة والتزاوج بينهم شائع) تجمعاً متسلسلاً.

وأية جماعة انعزلت في صقع واحد لا تلبث أن تصبح تجمعاً متسلسلاً. من أمثلة ذلك المانيو فلسطين، والاكراد الذين جيء بهم إلى ضاحية دمشق، وبعض النزالات الشرقية التي احتلت مواطن معينة في أميركا

تجزئة المجتمع المتسلسل

ما دامت حيوية الحي مفضية حتماً الى نموّه فحيوية الجماعة التي هي مجمل حيوية

الحي مفضية حتماً الى تكاثر الجماعة واتساع نطاقها . ولما كانت البيئة الجغرافية ( أي المكان الذي تعيش فيه الجماعة ) غير قابلة الامتداد أو المط إلاَّ إلى نهاية حدودها الطبيعية كانت اذا اكتظَّت بالأحياء المتجمعة فيها ، ينفجر حدٌّ من حدودها في جهة لكي ينفصل من الجماعة قسم ويتجاوز الحد الى بيئة أخرى

من أمثلة ذلك قدماء العرب الذين لما ضاق بهم رزق الجزيرة تدفق جانب منهم الى وادي النيل وهم أسلاف الفراعنة على ما يُظن . والجرمان الذين لما ضاقت بهم بلادهم تدفقوا الى بريطانيا الكبرى . والاوربيون هاجروا الى أميركا لما ضاقت بهم بلادهم

سنة التجزئة

فترى مما تقدم أن حيوية الجماعة التي كانت علةً لاتساع دائرة تجمعها المتسلسل آلت أخيراً الى ايقاف هذا التجمع عند الحد الذي عينته البيئة . فاذا استمر هذا التجمع المتسلسل بالرغم من ضيق البيئة عليه نبذت البيئة ما زاد منه على سعتها الى بيئة أخرى ، ونشأ هنالك جانب آخر من الجماعة . فكأنّ الجماعة انشقت الى جزئين أو أجزاء كانشقاق الحويصلة البروتوبلاسمية الناضجة الى حويصلتين . من أمثلة ذلك اشتقاق رومانيا من روما . فان هذه تكونت من مهاجري رومه [1] منذ ١٦ قرناً . وهي تبعد عن رومه ٥٠٠ ميل وتحيط بها الشعوب السلافية والهنغارية

يغلب أن يكون الانفصال من المجتمع المنحط جماعات أو شراذم كبيرة أو صغيرة . ويندر أن يكون أفراداً لما ينتاب الفرد من الخطر في المهاجرة . وأما في المجتمع الراقي فينفصل الأفراد منفردين متتابعين لما في وسع الفرد الراقي من تحايد الأخطار واتقائها ، ولا سيما اذا هاجر الى مجتمع راقٍ لا خطر فيه على الدخيل

متى قلَّ المرعى على قطيع من الحيوانات انفصل عنها قطيع صغارها حين يبلغ سن الاستقلال وانتجع كلأً جديداً . ذلك لأن قطيع الصغار يعجز عن مزاحمة

---

(١) راجع كتاب «شعوب اوربا القديمة والحديثة» تعريب المؤلف وطبع مجلة الهلال ، صفحة ٢٣

قطيع الكبار . وفي الكلإ الجديد يتوالد القطيع الصغير ويصبح جماعة إلى أن يضيق به مرعاه فينفصل عنه صغاره . هذه هي النظرية الطبيعية ، ولكن القطيع الصغير قد ينقرض اذا لم يصادف مرعى أو إذا صادف ضواري تفترسه .

قبائل فدّاه في سيلان والبوشمان في جنوب افريقيا والفوجيان في جنوب اميركا الجنوبية تنفصل منها عائلات من تلقاء انفسها وتنضم الى قبائل اخرى من نوعها او تحتل اصقاعاً اخرى وتصبح قبائل جديدة

الأمم المتمدنة تكثر المهاجرة منها واليها أفراداً وجماعات حسب مقتضيات الأحوال و بنسبة ضواغط الوطن المهجور وجواذب الوطن المهجور اليه .

اكثر الشعوب الاوربية مهاجرة شعب نروج معدله ٥٥،٤ بالمئة ، وأقلها شعب فرنسا معدله ١،٥ بالمئة . واليك البقية : انكلترا ٣٢،٧ — المانيا ٢٠،١ — ايطاليا ٢٢ — اسوج ٥٠ سويسرا ٣٤،١ — دنيمرك ٢٢،٢ بالمئه

أما شعب سوريا ولا سيما لبنان فيضارع شعب نروج في المهاجرة . وربما فاق الشعب الارمني عليهما . والشعب الانكليزي اعظم الامم مهاجرة فقد ملأ اميركا واوستراليا وجنوبي افريقيا وغربيها

على ان تجزئة المجتمع وتشتت بعضه وانصراف هذا البعض الى بيئات أخرى لا تقتصر على ازدحام البيئة بالمجتمع فقط بل تتأتى أيضاً عن أسباب أخرى اجتماعية أهمها تشتت الجماعة تحت ضغط جماعة أخرى غازية لها ومهاجرتها الى بيئات آمن . أو انشقاق الجماعة نفسها بسبب حروب أو ثورات شبت بينها فتنفصل عنها شراذم الى بيئآت اخرى

من امثلة ذلك مهاجرة الهولانديين ( الذين استعمروا جنوب افريقيا اولاً ) الى جهات الترنسفال بعد أن طغى عليهم سيل المهاجرين الانكليز . وتدفق العثمانيين الارمن والاروام والسوريين الى اميركا واوستراليا وجنوب افريقيا فراراً من شدة ضغط المظالم التركية .

٢ — التجمع المختلط

رأيت أن حيوية المجتمع التي هي علة نموّه تفضي أخيراً الى تجزئته وتشتيت بعض أجزائه أو كلها . فماذا يكون من أمر الشراذم أو الجماعات المشتّتة الغارات أو بالاحرى المهاجرة . (١) بعضها ينقرض اذا صادف من عوادي الطبيعة ما لا يستطيع التغلب عليه . (٢) وبعضها يكون جرثومة مجتمع جديد اذا صادف بيئة صالحة للارتزاق

(٣) و بعضها يصادف مجتمعاً آخر فيختلط فيه . وسترى في الباب الثالث كيف تحدث عملية الاختلاط

أما الامثلة على الأول فليست كثيرة لقـلة آثار الشراذم المتفرقة على هذا النحو . وأما الأمثلة على الثاني فكثيرة وهي المستعمرات الافريقية واوستراليا وجزر الباسفيك والاتلانتيك البعيدة عن اوروبا . وأما الثالث فأفصح الأمثلة عليه الولايات المتحدة الأميركية التي هي خليط من امم متعددة وانما يتغلّب فيها العنصر الانجلو سكسوني

الجماعة المستعمرة قلما تخسر في بيئتها الجديدة من صفاتها القومية التي تشترك فيها مع المجتمع الذي اشتقت منه الاّ بقدر ما تؤثر عليها عوامل البيئة الطبيعية مع الزمان . وهذه العوامل قليلة التأثير اذا قيست بالعوامل الاجتماعية التي تقع تحتها الجماعة المختلطة بجماعة اخرى غريبة عنها . ولذلك تبقى الجماعة المستعمرة محافظة ما استطاعت على عادات قومها وصفاتها الى أن تحتك بهـا جماعات اخرى مهاجرة اليها ،فتشترك حينئذ العوامل الاجتماعية مع العوامل البيئية في تكييف صفات الجماعات المختلطة . وحينئذٍ يحدث تفاعل اجتماعي بين تلك الجماعات فتؤثر بعضها على بعض كثيراً أو قليلاً وسريعاً أو بطيئاً بنسبة تقاربها في سلالاتها ودرجة مدنيتها

### سنة الاختلاط

كلما كانت الجماعات المختلطة متقاربة في الدم وفي درجة المدنية سهل تفاعلها الاجتماعي وأسرع ، ونتج عنه تيسر امتزاجها . وكلما تباعدت في الأمرين صعب التفاعل و بطؤ وتعذّر الامتزاج

فاذاً ، حيث تتباين الجماعات في السلالة والمدنية يكون المجتمع خليطاً ، وحيث تتقارب يكون المجتمع مزيجاً أو مزجياً

ربما عُدَّت مدينة نيويورك خير مثال على المجتمع المختلط، فان سكانهاخليط من امم متباينة كل التباين في السلالة ودرجات المدنية . ومع شدة اشتباك الناس في المصالح والمعايش ترى سواد كل قوم من أقوامها يقطنون في حيّ معين ولا يزالون يتخاطبون فيما بينهم بلغاتهم القديمة ، ولا يزالون في عاداتهم القومية وتقاليدهم . ويغلب أن ينحصر التزاوج في كل جالية بين أفرادها . ومثل هذا ترى في كل مدينة كبيرة كالقاهرة والاستانة وغيرهما .

الولايات المتحدة كلها معاً تُعَدُّ خليطاً اذا قوبلت بفرنسا وتُعَدُّ مزيجاً اذا قوبلت بنيويورك

٣ — التجمع المزجي

يغلب أن يأول التجمع المختلط تدريجاً بطيئاً أو سريعاً الى تجمع مزجي بحسب السنة المذكورة آنفاً

الفرق بين التجمع المختلط والتجمع المزجي أن أقوام المجتمع المختلط يكونون أقل تواطناً وأشد تمايزاً وأكثر تبايناً في صفاتهم القوميــة وأندر تزاوجاً . وبالعكس أقوام المجتمع المزجي فانهم يكونون اكثر تواطناً وأقل تمايزاً وأكثر تشابهاً في صفاتهم، والتزاوج بينهم شديد التواتر . وهو العامل المهم في امتزاجهم حتى متى مرَّ عليه بضعة أجيال تعذر التمييز بين الجماعات الأصلية التي تكوَّن منها التجمع المزجي

وأما سنة التجمع المزجي فهي : أن الجماعة الأغنى حيوية أشد فاعلية في الجماعات الاخرى أي انها تكسبها من صفاتها اكثر مما تكتسب هي منها

وتقاس الحيوية بدرجة الرقي العقلي والأدبي والعملي أولياً وبعدد الجماعة ثانوياً. فالجماعة الأرقى أشد فاعلية في تكوين صفات المجتمع المزجي الجديد ، واذا كانت في الوقت نفسه أوفر عدداً استقلَّت بهذا التكوين . وأما الجماعة المنحطة إن كانت أوفر عدداً فيكون تأثيرها بطيئاً جداً في تكييف صفات المجتمع بل في تحويل المجتمع المختلط الى مزجيّ

العنصر الانجلوسكسوني في الولايات المتحدة الأميركية أوفر عدداً وأرقى مدنيةً وأغنى حيويةً ، ولهذا قبض على زمام القيادة واستقل وحده تقريباً في تكوين صفات الهيئة الاجتماعية الأميركية . ولذلك تغلبت اللغة الانكليزية على سائر اللغات وتغلّبت سائر الأخلاق الجوهرية التي امتاز بها ذلك العنصر

وفي بعض الأقوام المنحطة يكون المجتمع مزجيا من غير أن يتقدمه التجمع

المختلط . وذلك لأن عادة هذه الأقوام أن يخطف الواحد امرأة من قبيـلة غير قبيلته ، ولأن بعض النساء يهربنَ من القبيلة الواحدة الى الأخرى . فقد ذكر لمهولتز الذي عاش مدة في كوينسلاند الشمالية ان « للفتيان السود » هناك المعدودين أحط الجنس البشري ، هاتين العادتين أي خطف النساء وفرارهن . وبين سكان اوستراليا الأصليين تكثر عادة فرار المرأة من قبيـلة الى اخرى . وفي بعض القبائل التي هي أرقى قليلاً من همج كوينسلاند واوستراليا جُعل تبادل الزواج بين قبيلة وقبيلة كشريعة محتمة . ومن بواعث التزاوج بين القبائل المختلفة غزو بعضها بعضاً ووقوع بعضها أسرى عند البعض الآخر . ومن نتائج ذلك سبي النساء

واذا كان التجمع المختلط يتحوّل تدريجًا الى تجمع مزجيّ بطيئًا أو سريعًا فهذا التزاوج المتبادل بين العناصر والسلالات المختلفة في المجتمع الواحد لا بد منه بطيئًا او سريعًا

فترى أن المجتمع المختلط يتكوّن من متعدِّد العناصر المختلفة الصفات ويتحول مع الزمان الى مجتمع مزجي عامّ الصفات

نمو المجتمع ودوامه

يندر أن تجد مجتمعًا اقتصر على التجمع المتسلسل وخلا من الاختلاط والامتزاج . ولذلك يشترك عملا التجمع المتسلسل والتجمع المختلط معًا في انماء المجتمع

فالمستعمرات لأول عهدها تنمو بفعل التجمع المختلط . وبعد جيلين أو أجيـال قليلة يرجح عمل التجمع المتسلسل . لأن المجتمع ينمو ويزداد بأرجحية المواليد على الوفيات اكثر مما يزداد بالمهاجرين القادمين

ولما كان التجمع المختلط يأول غالبًا الى التجمع المزجي ، فالتجمع المتسلسل يستقل أخيراً في انماء المجتمع وادامتهِ لتوالي التوالد من جرّاء التزاوج المتبادل

التجمع المتسلسل يضمن انماء المجتمع وتضخُّمه ولكنه لا يضمن دوامه على الأرجح ( في رأي بعض الاجتماعيين ) لأن المجتمع الذي ينحصر التزاوج في أفرادهِ تنحط حيويتهُ تدريجًا مع الزمان لما هو معلوم من سوء نتائج الزواج الصحية بين ذوي

القربى فلكي تدوم حيوية المجتمع وتتحسن لا بد من حدوث التزاوج بين أفراد متباينين في الصفات الأمر الذي لا يتم الاَّ باستمرار قدوم المهاجرين اليه من مجتمعات اخرى ،أي باستمرار عمل التجمع المختلط . فاذاً ، كما ان التجمع التسلسل يضمن نمو المجتمع ، فالتجمع المختلط يضمن دوامه ، وكلاهما قِرْنان أو صنوان متلازمان يعملان معًا متعاونين

والأرجح ان من اسرار حيوية الأمم الأميركية وسائر المستعمرات ونشاطها تواتر التزاوج بين عناصرها المتباينة . وستجد تعليل صحة هذه النظرية في بحثنا في باب التطور الاجتماعي ، في الكتاب الثاني ان شاء الله

## ج - المتجمع او مكان التجمع

اذا كان التجمعُ سنةً اجتماعيةً واذا كانت الاجتماعية سنة طبيعيةً كما رأيت فلا يمكن أن يكون الاحياء موزعين على سطح البسيطة توزُّعًا متوازنًا أو متناسبًا ، أي انهم لا يكونون متوزعين قدراً من الأحياء لقدرٍ من الأرض على نسبة واحدة . لماذا ؟ وأين يتجمع الأحياء وأين لا يتجمعون ؟ وما هي حدود المجتمعات ؟

حيوية الحي متوقفة على ما تهيئه الطبيعة لحيـــاته . وحياته تتطلَّب غذاءً وافراً لأودهِ ، وموطنًا سهلاً لحركتهِ ، وطقسًا موافقًا لمزاجه . فهذه العوامل الطبيعية الثلاثة اذا توفرت في مكان كان بيئة تتجمع فيها الأحياء بفعل هذه العوامل واليك شرحها:

١ً — الخصب

الصقع الاكثر خصبًا أجذب للأحياء .وهو أسبق بيئةٍ للمجتمع ، فحيث يتوفر الغذاء ويسهل جنيه يتلاقى الأحياء ويتجمعون ،فيتألف منهم مجتمعٌ . ولا يتشتتون من تلك البيئة بعضهم أوكلهم الاَّ متى ضاقت بهم وقلَّ رزقها عليهم وتهددهم الجوع ، أو متى أجدبت تلك البيئة أو أقحلت

وأخصب الأصقاع السهول والأودية التي تجري فيها المياه لأن حياة الأرض

ماؤها ولا سيما في فصلي الزرع والجني . فوادي النيل وما بين دجلة والفرات كانا في التاريخ أقدم ما عُمِّرَ من المعمورات التي لا تزال معمورة بسلالاتها القديمة حتى اليوم. وضفات هذه الأنهر الثلاثة كانت اكثر احتشاداً بالسكان من سواها

والآن ترى اكثر الأصقاع احتشاداً بالناس غير وادي النيل ضفات نهر الكنج في الهند والنهر الأصفر في الصين ونهر الرين في المانيا ونهر البو في ايطاليا ونهر السين في فرنسا ونهر التيمس في انكلترا ونهر الدنواب في النمسا ونهر المسيسبي في اميركا الشمالية ونهر الامازون في اميركا الجنوبية

وبعكس ذلك ترى صحراء العرب وسائر صحاري أسيا قليلة السكان جداً وصحاري افريقيا قفراء وصحاري أميركا تكاد تكون خلواً من البشر

وكلما بعدت عن تلك الضفات وجدتَ نسبة السكان الى الأرض اقلَّ، اللهم الاَّ حيث نشأت العوامل الاجتماعية الآيلة للتجمع كالحركتين الصناعية والتجارية — أي حيث تكثر المعامل ويتسع نطاق السوق التجارية ، أو حيث يوجد سبب آخر اجتماعي للاستيطان كبلاد الحجاز التي يعد الحج الاسلامي مورد الرزق لها ، ولولاه لكانت قفراً يباباً لعدم وجود وسائل طبيعية للارتزاق فيها

أضف الى خصب الأرض وفرة المعادن التي هي مورد طبيعي آخر للرزق ، فان الأرض الغنية بمعادنها أصبحت في عصر المدنية بيئة خطيرة الشان كالبيئة الخصبة تجذب الناس اليها . من شواهد ذلك الاسكا بلاد الذهب

أضف أيضًا الى ذينك الجاذبين شواطيء البحار حيث يتسنى الصيد . وقد كان الصيد في الأعصر القديمة مورداً للرزق لا يستهان به . وكان علةً لنشوء الملاحة التي أصبحت عاملاً من العوامل الاجتماعية التي لعبت أدواراً خطيرة الشان في تطور العمران ولا تزال

٢ً — سهولة الحركة

كما ان وفرة الرزق عامل طبيعي لتجمع الأحياء ، كذلك الصقع الذي تسهل فيه حركة الأحياء عامل آخر لتجمعهم . لأنه حيث لا يستطاع أو لا يسهل تواصل الناس

وتعارفهم وتعاملهم وتخالطهم يستحيل أو يتعذر تجمعهم . فلا اجتماع الاّ حيث يسهل الاختلاط .

وكما أن الماء علة خصب الأرض كان أيضًا الذريعة الأولى لتحرك الأحياء وانتقالهم من بيئة الى أخرى . ولعل الانسان قد ركب الزورق قبل أن ركب الجمل وطوع اللجّة قبل أن طوّع الجواد

فترى أن تطلُّب سهولة الحركة ، كتطلُّب الصقع الخصيب ، قضى بتجمُّع الناس حول ضفاف الأنهر الصالحة لمخر الزوارق كما انه قضى بتجمعهم على شواطىء البحار. لذلك كانت شواطىء البحر المتوسط منذ بدء التاريخ ، اذا لم تقل قبله ، شديدة الاحتشاد بالسكان . وكان هذا البحر الصغير مسرحًا عجيبًا لامم التاريخ ، والصلة الوحيدة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . وربما كانت شواطىء آسيا الغربية لعهد الفينقيين أضخم المجتمعات البشرية . والآن ترى معظم المدن الكبرى المكتظة بالسكان هي على شواطىء البحار وعلى ضفاف الأنهر العظمى

ولا نُغفِل السهول والأودية العظمى ، فقد كانت مسرحًا للقوافل البرية ، وبالتالي كان لها نصيبٌ من المجتمعات الضخمة . ولدينا من شواهد ذلك مدن الممالك القديمة في الشرق ، كبابل ونينوى وبعلبك وتدمر ودمشق الخ

وفي العصر الحاضر الذي جعل فيه البخار يلعب دوراً خطيراً في تسهيل المواصلات البرية صرنا نرى مجتمعات ضخمة حتى في الجبال والصحاري . ولا بدع أن تقضي المواصلات الجوية في المستقبل القريب بتعمير قمم الجبال وواحات الصحاري وثلوج القطبين

وحاصل القول أن السهول والأودية والشواطىء أكثر ازدحامًا بالسكان من الجبال والوعور

٣ — الاقليم

الاقليم عامل من عوامل التجمع لا يستهان به قط . فالاعتدال في الحرارة

والحركات الجوية أجذب للبشر من التطرّف في الأمرين ، ولذلك تجد معظم السكان في المناطق المعتدلة ، وأقلهم في المناطق الحارّة ، وأندرهم في المناطق المتجمّدة ، اللهم الاّ حيث تغلبت العوامل الاجتماعية على العوامل الطبيعية وحيث استطاع الانسان أن يقهر عوادي الطبيعة و يقاومها و يتّقي أذاها

فترى مما تقدم أن نواة العوامل الثلاثة الطبيعية التي تجذب الأحياء للتجمع في البيئات التي توفرت فيها هذه العوامل هي الماء . فالماء علة الخصب ومسهّل الحركة ومعدِّل الأقليم . وحيث الاقليم متطرّف في الحرارة أو البرودة لا تجد ماء صالحاً للحياة بل تجد إماً قيظاً أو جليداً ، وكلاهما مقاومان للحيوية . ولا بدع في ذلك فان الحياة نشأت في الأصل في المياه . ولا تزال تتطوّر في المياه و بواسطتها

تجد توسُّعاً وتبسطاً في هذا البحث في فصل العامل البيئي ، وهو آخر فصول العوامل الاجتماعية من الباب الثالث

٤ — حدود المجتمعات

اذا كانت الطبيعة تقضي حتماً بالتجمع في الأصقاع الصالحة للاجتماع بحيث يحتشد السكان في أصقاع دون أصقاع ، فهي تقضي أيضاً بوجود حدود أقل صلاحية للاجتماع أو عديمة الصلاحية له تفصل بين معمور ومعمور

من أمثلة ذلك أن سلسلتي الجبال الممتدتين الى جانبي النيل والصحراوين المنبسطتين الى جانبي الدلتا والبحر المتوسط هي حدود طبيعية للقطر المصري منذ تكون الاجتماع البشري. وصحراء العرب وبحر الروم حدّدا سوريا . وجبال ارمينية والاناضول وبلاد فارس حدّدت العراق . وبحرا الروم والادرياتيك وجبال الالب حدّدت ايطاليا .

وهكذا حيثما وجدت صقعاً محاطاً بجبال أو صحار أو بحار كان بيئة طبيعية لمجتمع طبيعي قائم بنفسه . ونسمي هذا المجتمع طَبيعياً لأنه يباين سائر المجتمعات في كثير من الصفات الاجتماعية . وأهم هذه الصفات اللغة التي هي وسيلة تفاهم القوم ، والعقائد التي هي زبدة تصورات القوم وأساطيرهم التقليدية ، والاخلاق التي هي نتيجة تفاعلهم الاجتماعي الداخلي ونتيجة تفاعلهم مع بيئتهم . كل هذه الصفات تميز المجتمعات الطبيعية ( أي المحدودة بحدود طبيعية ) بعضها عن بعض ، و بها تتباين تبايناً بيّناً .

الأمر كذلك لأن الحدود الطبيعية تحول دون تواصل هذه المجتمعات واختلاطها بعضها مع بعض — الاختلاط الكافي لتعميم تلك الصفات بينها . كما انها تحول دون غزو مجتمع لمجتمع آخر ، والغزو من جملة ذرائع الاختلاط

فالحدود الطبيعية هي العوامل الطبيعية القاضية بتكوين ذاتية المجتمع و بتخصيصهِ بصفاته الاجتماعية . وفي مقابل هذه العوامل الطبيعية عوامل اجتماعية تقوم في بعض الأحوال ضدها وتقاومها كلما تقدم الانسان في اجتماعيتهِ . أي ان العامل الطبيعي والعامل الاجتماعي قوتان متضادتان ، كل قوة منهما تناقض عمل الأخرى ، وأقواهما أرجح تأثيراً طبعاً . العامل الطبيعي يحصر المجتمع في البيئة ، والعامل الاجتماعي يحاول أن يشق العامل الطبيعي لكي يتدفق المجتمع منه ويوسع دائرته . والغالب أن العامل الاجتماعي يأتي متأخراً عن العامل الطبيعي ، ولكنه يتفوّق عليه حتى يكاد يلاشيه

فقد كانت العنصرية اليونانية محصورة في شبه الجزيرة اليونانية أمداً طويلاً . فلما ارتقت في المدنية طفت هذه العنصرية وتجاوزت حدودها الى شواطىء اسيا الصغرى حتى بعض شواطىء افريقيا . وقد تلتها العنصرية الرومانية فمثلت الدور نفسه تقريباً . وكانت بلاد العرب مهد العربية ، فلما أزهر التمدن الاسلامي تجاوز العرب حدودهم الى سوريا ومصر وطراباس وتونس ومراكش والجزائر حتى اسبانيا

والشعب التيوتوني مثّل هذا الدور اذ تجاوز المانيا الى بريطانيا . واعظم من ذلك ان العنصر الانجلوسكسوني تجاوز الاتلانتيك الى اميركا الشمالية ، والعنصر اللاتيني الى اميركا الجنوبية

فتأمل كيف ان العامل الاجتماعي تغلب على العامل الطبيعي ولاشاهُ ، حتى انك تجد الآن أن العامل الطبيعي في تحديد المجتمع يكاد يكون لغواً أو مشلولاً لدى طَوْل العامل الاجتماعي الذي يعمل بسرعة وفاعلية في اختلاط الأمم ومزجها .

ستری بحثاً ضافياً بهذا الموضوع في باب العوامل الاجتماعية

# د - التجمع علة اشتداد التجمع

١ — مركز التكتل

التجمع نفسه سبب لاستمرار التجمع . فهو طبيعي ان المادة تتكتّل حيث يتهيّأ مركزٌ للتكتُّل . فمن أمثلة ذلك في الجماد ان بعض المحلولات الكيماوية لا تتبلور الاّ اذا وُضع في المحلول بلورة من نفس المادة المحلولة ، فتشرع قوة التبلور تعمل عملها ، وتشرع البلورات تتكون حول تلك البلورة التي وُضعت عمداً لهذا الغرض . بل ان أية بلورة في محلول تتكون تدريجًا برسوب دقيقة واحدة اولاً ، وتتجمع الدقائق الأخرى حولها تجمُّعًا هندسياً .

فريق العمال من النحل يتجمع في غصن شجرة متى نزلت على الغصن نحلتان أو ثلاثة ، وثم يرحل الفريق كله دفعة واحدة الى « القفير »

وحيث تجد نملةٌ او اكثر غلّةً أو أي طعام لها كالسكر أو العسل تجمعت النملات الأخرى معها وتنظمت في طريق خاص لنقل تلك الغنيمة الى وكرها . ومهما كثرت الغنائم حولها فلا تتشتت بين تلك الغنائم ، بل تتجمع على أقربها الى وكرها وأسهلها طريقًا اليه .

٢ — مركز التجمع

ليس البشر أقلَّ من العجماوات تمشّيًا على هذه السنة . متى نزل رهط من القوم في بقعة تجمعت أرهاط اخرى تدريجًا فيها مُعرِضةً عن سائر البقاع وان كانت مساوية لها في الخصب . ولا يتفرّقون عن بقعتهم وينتجعون غيرها إلاَّ اذا أقحلت وأمحلت . ولا تنفصل منهم جماعات لتنتجع بقاعًا أخرى الاَّ متى ضاقت البقعة بهم وزاد عددهم على ما تنتجه لهم من الرزق .

وسبب هذا التجمع المستمر في بقعة دون اخرى هو ان البقعة متى أصبحت

مأهولة نشأ فيها عامل[1] التجمع الاجتماعي فضلاً عن عامل التجمع الطبيعي الذي هو خصب الأرض . والمراد بعامل التجمع الاجتماعي هنا هو ما يكسب الفرد من حماية القوم له ، ومن ثمرة تضامنه معهم ، فضلاً عما يناله من لذة عشرتهم

فترى أن للبقعة المأهولة مزية على البقعة غير المأهولة بما لها من العامل الاجتماعي الذي تنقصه هذه . وهذه المزية هي سر استمرار التجمع ما دامت البقعة تحتمل مزيداً من السكان وما دام خيرها يكفيهم

٣ — تضخم المدن

وهذا هو سر تكوُّن المدن وتضخُّمها بالرغم من أن أرض المدينة وضواحيها لا تفي بأود سكانها . وانما عامل التجمع الاجتماعي العظيم الذي يتفوّق جداً على العامل الطبيعي هو الذي يجمع جمهوراً عظيماً من السكان في بقعة صغيرة هي المدينة . هذا العامل الاجتماعي يسطو على العامل الطبيعي على أبعاد شاسعة عن نقطة التجمع ويستورد الرزق منها الى المجتمع . فالمدينة تمتص أرزاقها من القرى ومن الكفور بفعل هذا العامل الخطير الشأن . والعامل الاجتماعي مهَّد الطُرق من المدينة الى المزارع والمصانع ، وحسَّن وسائل النقل والمواصلات ، ونظَّم وسائل الخزن والادِّخار من فصل الى فصل حتى أصبحت لوازم العيشة موفورة في المدينة في كل فصل ، ونظَّم وسائل المعاملات التجارية بين أهل المدينة وأهل القرى . وهكذا أصبحت المدينة بفضل هذا العامل مركز دائرة الحركة الاقتصادية في كل القطر الذي يحيط بها والذي هي نواته

هذا العامل الاجتماعي العظيم يقضي على الفرد أن يفضل عيشة المدينة على عيشة القرية أو الكفر ما دام يجد رزقه فيها ولو ضئيلاً جداً . ولا يترك المدينة الاّ إذا قهره الفقرُ أو اذا تعلَّلت نفسه بالكسب الأوفر في الحقل أو المصنع أو أي عمل

(١) اوردنا العامل الاجتماعي في هذا الفصل بصيغة المفرد تسهيلاً للتعبير وتفادياً من تشتيت فكر القارئ . والحقيقة ان العوامل الاجتماعية عديدة سترد في الباب الثالث من هذا الكتاب

آخر في القرية . كما ان ساكن القرية والحقل متى وفرت مكاسبه طمحت نفسه الى سكنى المدينة وان كانت سكناها تستنفد من ماله اكثر مما تستنفده القرية

٤ — تغلب الاجتماعي على الطبيعي

فترى مما تقدم أن عامل التجمع الاجتماعي هذا يتقوّى تدريجًا ويتفوّق جداً على العامل الطبيعي الى أن يلاشيه تقريباً ويحل محلّه ويصبح وحده عامل التجمع الوحيد . وعلى هذا العامل يتوقف توزُّع البشر المتمدنين توزعاً متفاوتاً جداً بين المدن والقرى والمزارع . وجميع وسائل الانتقال والمؤاصلات التي كان البخار والكهرباء سبب وفرتها قضت بالازدحام العجيب الداهش في المدن مع ان الموارد الطبيعية في هذه المدن لا تقوم بأود نزر زهيد من سكانها . بل ان مساحات أرضها التي أثقلتها الأبنية والطرق والمتنزهات وغير ذلك من مقتضيات المدنية لم تعد تنبت رزقًا البتة . وانما أصبح رزق أهل المدن مترتبًا على الحركة الاقتصادية التي تتفرع من المدينة الى سائر القطر المحيط بها الى أبعاد لا قاعدة لقياسها .

خذ لندن فانها تعيش على جميع موارد المملكة البريطانية حتى ان مستعمرات هذه المملكة الضخمة تقدم نصيباً من رزق هذه المدينة العظيمة . قس على لندن نيويورك وبرلين وباريس وفينا والاستانة ومصر وسائر مدن العالم الكبرى

فازدحام التجمع على نحو ما تقدم هو الشاهد الجليّ على أن الاجتماعية غريزة في الأحياء وسليقة في الانسان على الخصوص ، وهو أساس التطوّر الاجتماعي . ولولاه لانتفى التطوّر ولم يكن من اجتماع البتة . وسترى تفصيل ذلك في باب التطوُّر الاجتماعي في الكتاب الثاني

٥ — شيخوخة عامل التجمع

قد يكون العامل الاجتماعي سببًا لاقفار الصقع كما يكون سببًا لعمرانه أي أن العامل الاجتماعي يكون في مكان وفي زمان مُعمِّراً وفي مكان وزمان مُدمِّراً .

فقد يطرأ على المجتمع طوارىء داخلية كانغماسه في اللهو والبطالة ونحوهما فتضعف قواهُ على اختلاف أنواعها ويفضي ضعفهُ الى انحطاط مدنيته عاجلاً أو

آجلاً ، أو طوارىء خارجية كأن يسطو على المجتمع شعبٌ أقوى منه ولكنه أحط منه مدنية . ونتيجة الاصطدام أن الأضخم يفعل في الأصغر

من شواهد ذلك ان العراق او ما بين النهرين بعد ان كان في ازمنة عديدة مستقرًّا لامم عظيمة ومهداً لمدنيات راقية أصبح قفراً، واصبح سكانه الحاليون على قلتهم في صف الامم الضعيفة. قيل ان العراق في ابان عمرانه وزهوه كان مأهولاً بنحو اربعين مليوناً من السكان . واما سكانه الحاليون فلا يناهزون المليونين . وسوريا كانت في عصور كثيرة أوفر عمراناً منها اليوم

وشواطىء افريقيا الشمالية من طرابلس الغرب الى آخر الجزائر كانت حتى أوائل القرن التاسع عشر أقل سكاناً منها في ازمنة الرومانيين والفينيقيين والقرطجنيين



# الفصل الثاني

## نسيج المجتمع او بناؤه

### أ – الوحدة الاجتماعية

١ً – العيلة منشأ الجماعة ٢ً – العيلة وحدة بسيطة ٣ً – سلسلة وحدات مركبة ٤ً – تطور العيلة – الوحدة ٥ً – العيلة في الحيوانات العجماء والهمج .

### ب – أطوار الزواج

١ً – الزواج المشترك ٢ – تعدد الازواج ٣ً – تعدد الزوجات
٤ً – الزوج الفردي بلا طلاق ٥ً – الزواج الفردي مع امكان الطلاق

### ج – التآم الوحدات الاجتماعية

١ً – ارتخاء الوحدات استعداداً للالتآم ٢ً – حوائل الالتآم ٣ً – نشوء وحدات اجتماعية

### د – أنواع الجماعات

#### ١ – الجماعات السلالية

(ا) – طبقات الجماعات السلالية ١ً – الشراذم ٢ً – الجماعات الشرذمية ٣ً – الجماعات الشعبية
(ب) – انتساب الجماعات السلالية ١ً – الامومة – الطوطمية ٢ً – الابوة

#### ٢ – الجماعات الأممية

١ً – تكون الجماعات الاممية ٢ً – طبقات الجماعات الاممية : أولا الطبقات الاولية (ا) فئة الطبقات الحيوية (ب) فئة الطبقات الشخصية (ب) فئة الطبقات الاجتماعية : ثانياً الطبقات الثانوية

# ١ - الوحدة الاجتماعية

١ — العيلة منشأ الجماعة

ربما كان منشأ الجماعة الاجتماعية البشرية في العيلة المؤلفة من الأبوين والبنين. وفي أول الأمر قبل أن يصير الزواج نظاماً اجتماعياً لم يكن الأب عضواً في العيلة على الأرجح. وكانت العيلة مقصورة على الأم وأولادها لما ورثته بنت حواء عن أسلافها العجماوات من عاطفة الأمومة نحو الأولاد — هذه العاطفة التي تقضي على الأم بأن تحضن أولادها وتعولهم وتحميهم — تفعل ذلك إلى حد التضحية لأجلهم، وهم ينقادون اليها ويطاوعونها. فلذة الأم في العطف على أولادها وانقياد أولادها اليها هما الرابطتان اللتان تعيّنان اجتماعية العيلة. هنا نشأت جرثومة الجماعة الاجتماعية البشرية على الأرجح. وقد توثقت هذه الجرثومة وصارت وحدة اجتماعية تامة حين انضم الأب الى العيلة وارتبط بها برباط العاطفة والحب الجنسي

« فالعيلة هي المركز الذي تنبض منه نبضات الحياة الاجتماعية. وهي النظام الحيوي الذي تتخلد به السلالة. بل هي العالم الاجتماعي برمته مصغراً، لأنه في العيلة ومعها نشأت السيطرة والدين والتربية والشريعة والصناعة. وهي الجماعة الاجتماعية التامة المنظمة، ومنها تنبعث العواطف الحيوية. وهي ينبوع الأخوية الانسانية الكبرى [1] »

أجل ان العيلة هي البزرة التي نفقت عن الجماعة الاجتماعية. وهذه البزرة أقدم من عهد الانسانية لأنها وجدت بحكم الطبع في العجماوات وسائر الأحياء التي هي أسبق من الانسان في سلسلة تطور الحياة

وقد مرّ عهد طويل قبل أن تكون العيلة الوحدة الأولى التي تتكون من مجموع أضعافها الجماعة. بل كانت العيلة جماعة اجتماعية قائمة بذاتها. فقد كانت هذه الوحدة مرتبطة برباط عاطفة الأمومة الى أن يبلغ البنون أشدّهم فيتفرقون ويتبعثرون.

---

(١) بلاك مار رقم ٧

وكل أنثى ( على الأقل ) منهم تكون منشأ عيلة جديدة تنمو وتتفرق كسابقتهـا الى عيلات منفردة غير متحدة . فكانت العيلات على هـذا النحو كالجراثيم الميكروبية المنفصلة ، وكل جرثومة منها تنمو حتى متى نضجت انقسمت الى اثنتين مستقلتين أو انفجرت عن عدة بزيرات منفصلة تعيش كل منهـا مستقلة وتنمو كسابقتها ، وهكذا دواليك من غير رابط بينها اللهمّ الا رابط البيئة الذي عددناه رابطاً اجتماعياً ضعيفاً

ولذلك لم تكن العيلة في ذلك العهد شديدة الارتباط ، كما صارت بعد أن توثقت الاجتماعية الانسانية وتطوّرت تطوراتها العديدة ، حتى بلغت شأنها في عهود المدنية ، بل كانت مرتخية سريعة الحلّ . ولذلك لم تكن وحدها كافية لتكوين هيئة اجتماعية ، بل لم يكن بد من عمل عوامل أخرى طبيعية واجتماعية لهذا التكوين ، كالبيئة والقرابة والعقيدة والتعاون واللغة الى غير ذلك مما سيرد بيانه

٢ — العيلة وحدة بسيطة للمجتمع

المجتمع – قوماً أو قبيلة أو أمةً أو شعباً – انما هو مجموعة أفراد . ولكنه اجتماعياً لا يُعدّ مؤلفاً من هؤلاء الأفراد لخلو الفرد ( منفرداً ) من خواص الاجتماعيـة . وانما يؤلف المجتمع من العيلات لاشتمال العيلة على جميع خواص الاجتماعية . فالعيلة اذاً هي الوحدة الاجتماعية الصغرى التي يؤلف من عديدها أي صنف من صنوف المجتمعات. فنسبة العيلة الى المجتمع كنسبة الخلية البروتوبلاسمية الى الجسم الحي

والعيلة تؤلف من ثلاثة أضـلاع متلازمة كتلازم دقائق المادة في الخليـة البروتوبلاسمية بحيث اذا فقد ضلع لا تتألف العيلة بتاتاً — فهي مؤلفة من الزوجين والبنين . الزوج الواحد وحده لا يؤلف عيلة . والزوجان متى ولدا بنين تكونت العيلة . وهما بلا بنين سقط اجتماعي . لانهما اذا ماتا عقيمين لا يتركان عيلة أو عيلات أخرى تحل محلها فى جسم المجتمع . وكان حكم العيلة العقيمة حكم الخلية المندثرة في الجسم بلا خلف

العيلة تشتمل على جميع خواص الاجتماع الطبيعية والاجتماعية واليك أهم هـذه الخواص :

١ — حيوية العيلة. فلها خاصة التناسل التي تضمن نموّ المجتمع ودوامه كما رأيت

٢ — تعاون أفرادها الاقتصادي . فهم مشتركون في انتاج الثروة واستهلاكها

٣ — تضامن أفرادها الأدبي . فهم مشتركون في المسأولية ، ويغلب أن يكون الاب ممثلاً العيلة كلها في الحقوق والواجبات

٤ — النظام الاجتماعي — فالعيلة تمثل مجتمعًا سياسيًا يغلب أن يكون الأب رئيسه أو حاكمه

٥ — العقل الاجتماعي — تتكون نواة العقل الاجتماعي في العيلة . فأفراد العيلة يشتركون في تصوراتهم وعواطفهم وارادتهم . ولهم نسق واحد في التربية

٦ — التربيـة الاجتماعية — تبتدىء في العيلة حيث يمارس البنون المحبة والطاعة والمحافظة على الحقوق والقيام بالواجبات و يفهمون نسبة بعضهم الى بعض

٧ — العقيدة — في العيلة تُتوارَث العقيدة دينيـة وسياسية ، ويتعود الجيل الجديد أحكام السلطتين الدينية والسياسية

٣ً — سلسلة وحدات مركبة

قلنا ان العيلة هي أصغر وحدة في المجتمع ، على ان المجتمع لا يؤلف رأسًا منها ، وانما يؤلف من سلسلة وحدات كل واحدة مؤلفة من وحدات أخرى .

فالعشيرة المؤلفة من عيلات هي وحدة في القبيلة . والقبيلة المؤلفة من عشائر هي وحدة في الأمة [1]

والبلدة المؤلفة من عيلات هي وحدة في الولاية مثـلاً ، والولاية المؤلفة من بلاد هي وحدة في المملكة

---

(١) وقد تميزت جماعات العرب في طبقات . قال فيها « صاحب الكشاف» : «الشعب الطبقة الاولى من الطبقات الست التي عليها العرب. وهي الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل . والقبيلة تجمع العمائر . والعمارة تجمع البطون . والبطن يجمع الافخاذ . والفخذ يجمع الفصائل. فخزيمة شعب . وكنانة قبيلة . وقريش عمارة . وقص بطن . وهاشم فخذ . والعباس فصيلة . وسميت الطبقة الاولى شعباً لان القبائل تتشعب منها» . وقد زادوا طبقة سابعة وهي العشيرة يريدون بها بني الاب الاقربين (محيط المحيط)

وكل وحدة صغيرة بسيطة أو كبيرة مركبة انما هي حاصل تجمع متسلسل ، وفي إمكانها أن تعيش مستقلة وتنمو وتستمر

٤ — تطوُّر العيلة — الوحدة

والعيلة تمشت على سنن التطور ككل نظام اجتماعي ولا بد أن تطورها كان بطيئًا ومترددًا بين الصالح وغير الصالح . ولا ريب ان العيلة قبل ان صارت وحدة اجتماعية كانت قليلة المتانة أو سريعة الانحلال لسببين : أولاً . لأن الزواج لم يكن سنة اجتماعية ، أي انه لم يكن ذا قيود ، فكان الرجل يساكن المرأة أمداً غير معين ، وقد يكون الأمد قصيراً أو طويلاً . وثانيًا لأن البنين يهجرون أمهم متى بلغوا أشدهم واستطاعوا الاستقلال عنها . ففي هذا الطور الأول للعيلة، وهو المرافق لطور الوحشية الصرف ، لم تكن العيلة القديمة الا ظلاً للعيلة الاجتماعية المتينة . في هذا العهد كانت العلاقة بين الذكر والانثى مقتصرة على الاختلاط الطبيعي فقط

٥ — العيلة في الحيوانات العجماء والهمج

« لا أثر للعيلة في الحيوانات العجماء التي هي أدنى من الطيور . ومعظم أنواع الطيور تعيش عيلاتٍ . فالذكر يعاون الانثى في بناء العش وفي حماية الفروخ واطعامها . وبعضهم يذهب الى ان الزواج الحقيقي يوجد بين الطيور فقط . وأما ذوات الاثداء فليست كلها ذات عيلات مع ان حنو الامومة شديد في كل نوع منها . ففي بعض الأنواع الاجتماعية يعيش الذكر مع الانثى كحارس ومعيل الى أن يكبر الصغار . من أمثلة ذلك الفقمة والحوت وجاموس البحر Hippopotamus, whales والكركدن والخلد والوعل والإيّل والغزال . وأما في ذوات الأربع ، كالقرود ، فالعيلة الحيوانية في أرقى درجة . وجميع الذين درسوا طبائع أشباه الانسان كالاوران اوطان والغورلاً والشمبانزي يؤكدون أن غريزة العيلة فيها تكاد تضارعها في الانسان »[١]

---

(١) Giddings, page 154, Book I, chapt. 3rd.
جدنز : الفصل الثالث من الكتاب الاول صفحة ١٥٤

وأما في الاقوام المتوحشة فأبسط شكل من أشكال العيلة هو مساكنة الزوج للزوجة مدة الحمل والحضانة فقط كقوم المنكو بيس في جزائر اندامان في الاوقيانوس الهندي Mincopis فان الزوج عندهم يهجر زوجته حالما تفطم ولدها . والاقوام الامتن عيلةً من هؤلاء ، وان كانت مدة المساكنة الزوجية لا تطول كثيراً ، هم الفتية السود الاوستراليون ، والاسكيمو في جرينلاند ، وهنود الامازون في البرازيل . وبالاجمال يقال أن الهجر والطلاق وتعدد الزواج تكثر جداً عند الاقوام المتوحشة

## ب - اطوار الزواج

ان استيفاء البحث في العيلة يستلزم البحث في تطوُّر الزواج . فللزواج أطوار مختلفة بحسب اختلاف الاقوام لا بحسب الأدوار التي مرَّت على الهيئة الاجتماعية البشرية . أي ان تعدد أطوار الزواج لا يدل على ان كل امة مرَّت في تطورها العام على أطوار الزواج هذه

فاذا درسنا الهيئة الاجتماعية القديمة لأول عهدها بقدر ما يمكن الدرس ، ودرسنا الأقوام المتوحشة والهمجية التي لا تزال أثراً حيًّا من آثار فجر المدنية رأينا أن أبسط أطوار الزواج هو مجرد الاختلاط فقط من غير قيد ولا سنَّة البتة ، أي زواج غير شرعي . ولكن حالما تكونت القيود الاجتماعية كان قيد الزواج من جملتها . وأبسط قيودهِ وجوب مساكنة الزوج للزوجة مدة الحمل والرضاعة على الأقل . على ان هذا القيد لا يمنع الزوج أن يساكن زوجة أخرى

وأما أنواع الزواج التي عرفت في الاقوام المختلفة في درجات مدنيتها فأهمها :

١ – الزواج المشترك

٢ – تعدد الأزواج

٣ – تعدُّد الزوجات

٤ – الزواج الفردي بلا طلاق

٥ – الزواج الفردي مع امكان الطلاق

١ — الزواج المشترك

وهو ان جملة من الاخوة يتزوجون جملةً من الاخوات زواجًا مشتركاً ، أي ان كل ذكر زوج كل الاناث ، و بالتالي تكون كل انثى زوجة كل الذكور . وهذا الزواج كان مألوفاً جداً في جُزُر هوايا ولم يزل مألوفًا عند قبائل الطودا الهندية(Todas)

٢ — تعدد الازواج

وهو أن يكون للمرأة الواحدة عدة أزواج في وقت واحد . و يكاد يوجد عند معظم القبائل التي جاوزت عهد الوحشية الى عهد الهمجية . وهو على نوعين

الاول – تعدد الأزواج التبتي . وقد سمي بالتبتي لأنه دُرس في تيبت بتدقيق تام . وهو أن يكون الازواج كلهم اخوة

ويجوز لكل واحد من الاخوة أن يقتني زوجة وانما لا يشترك معه في زوجته الاَّ الاخوة الذين هم دونه سنًّا ، وأما اخوته الاكبرون فتحرَّم زوجته عليهم . فزوجة الاخ الاكبر تكون مباحة لجميع اخوته ، وزوجة الاصغر محرمة على جميع اخوته . وأما الاولاد من زوجة الاكبر فيكونون له ،وسائر اخوته الاصغرين أعمام لهم . وحق الطلاق للمرأة ، وهي صاحبة الامر والنهي

وقد ذكر سترابون المؤرخ اليوناني أن عرب اليمن القدماء قبل المسيح كان الزواج عندهم مشتركا فيتزوج الاخوة امرأة واحدة .فمن دخل منهم اليها أولا ترك بالباب عصاه التي عليها علامته ، حتى اذا وافى أخ آخر عرف ان عندها أحدهم فيعود . والليل خاص باكبرهم . وكان من تزوج من غير عيلته يعاقب . وقد يتزوجون اخواتهم . ويمكن أن يأتوا امهاتهم

الثاني — تعدد الازواج النايري نسبة الى ناير Na ir وهي أيالة في جنوبي الهند، ومقتضاه أن لا يكون الازواج ذوي قربى ، وهو أقل شيوعًا من النوع الاول

ولم يزل تعدد الازواج شائعاً في جزيرة سيلان . وما بطل الا حديثاً من جزيرة نيوزيلاند وقد كان معروفاً من عهد غير بعيد في بلاد كاليدونيا الجديدة ،وفي جزر الباسفيك ،وفي جزر اليوتيا، وعند قبائل الكورياك شمال اوخوتسك وقبائل القوزاق الصابورجين . وعُرف أيضاً عند القبائل الهندية في الاورينوكو . وهو شائع في جزائر الكناري . وكان شائعاً في افريقيا عند الهوتنتوت والدامارا وقبائل الباتتو الجبلية . ولم تزل له آثار عند قبائل الهوفا في مدكسكر . وثبت انه كان مألوفاً عند قبائل البكت والارلنديين . وهناك أدلة عديدة على انه كان يحدث أحياناً عند سائر السلالات الآرية وكل السلالات السامية والحامية

٣ — تعدد الزوجات

وهو أن يكون للزوج غير زوجة واحدة في وقت واحد. وكان ولا يزال اكثر شيوعاً من تعدد الأزواج لزوجة واحدة. ولكنه لم يكن وحده صيغة للعيلة في قبيلة من القبائل الاَّ نادراً. لان حدوثهُ يتوقَّف على مقدرة الزوج على أن يعول عدة زوجات وأولادهنَّ. وتواتر حدوثه يتوقف على وفرة الاناث، وكلا الامرين هيهات أن يتوفَّرا في قبيلة واحدة. فلذلك كان غالباً يوجد الى جانب تعدد الزوجات أنواع أخرى من الزواج. فاذا كان الأغنياء متعددي الزوجات كان الفقراء بعضهم مفردي الزوجات وبعضهم أزواجاً متعددين لزوجة واحدة. وربما بقي بعضهم عازباً لعدم استطاعته الحصول على زوجة أو قسط من زوجة

لم ينحصر تعدد الزوجات في الامم المنحطة بل وفر في بعض الامم المتمدنة كالصين وتركيا وسائر البلاد الاسلامية. حتى في الولايات المتحدة الاميركية كان حلالاً عند طائفة المورمون. وما حرَّمته شريعة البلاد الاَّ في العهد الاخير. ولكنه لم يزل شائعاً في اوربا واميركا سرًّا بغير مسوغ قانوني

٤ — الزواج الفردي بلا طلاق

وهو أن يكون الزوجان مختصين احدهما بالآخر وليس لاحدهما حق أن يكون له أو لها زوجاً ثانياً. وقد حتمته النصرانية. وجميع الامم النصرانية جعلتـه شريعة مدنية أيضاً فضلاً عن كونه شريعة دينية

٥ — الزواج الفردي مع امكان الطلاق

النصرانية حتمت الزواج الفردي كل العمر ولم تجز الطلاق الاَّ في أحوال معروفة. والكثلكة أصعب من غيرها في اجازة الطلاق. على ان الامم التي جعلت الزواج الفردي شريعة مدنية توسعت جدًّا في اجازة الطلاق

ولذلك كان الزواج الفردي قليل المتانة في اوربا واميركا حتى تعددت حوادث الطلاق المدني فيهما. على أن الزواج الفردي يمكن أن يكون متيناً بأحوال أخرى سيأتي بيانها

## ج - التئام الوحدات الاجتماعية

رأيت فيما تقدم أن لنمو الجماعة واتساع نطاقها وسيلتين : الأولى طبيعية وهي تكرار تكون العيلة أو تجددها وبعبارة أخرى التناسل . والثانية اجتماعية وهي التجمع على نحو ما علمت في كيفية تجمع القوم ، وتجمع القبائل ، وتجمع الجماعات على نمط الامتزاج والاندغام . والتجمع عامل يستمر ما دامت الجماعة ( أو اذا شئت فقل الشعب أو الامة ) قابلة للنمو والاتساع ولم تطرأ عليها طوارىء تفضي الى انحلالها وتمزقها وتبعثرها واندغام أجزائها في جماعات اخرى ، أو الى ضمورها بمهاجرة أقوام منها ، أو الى انقراضها بامتصاص جماعة أخرى لها

١ — ارتخاء الوحدة استعداداً للالتئام

وفي غضون نموّ الجماعة واتساعها بفعل عاملي التناسل والتجمع المزجي يحدث تطوُّر جوهري ، وهو ان العيلة التي كانت في بدء الاجتماعية وحدة اجتماعية تشرع تنحل قليلاً أو ترتخي لكي يرتبط أفرادها رأساً في مجموع الامة أو بالأحرى في مركز نظام الأمة ، أي أن ارتباط أفراد العيلة في النظام العام يصبح أشد من ارتباطهم بعضهم ببعض . تصبح مسأوليتهم لهذا النظام أهم من مسأوليتهم بعضهم لبعض ، وواجباتهم نحو هذا النظام وحقوقهم عليه أشد حتميةً من واجباتهم وحقوقهم بعضهم لبعض . يصبحون وسائر أفراد الامة في مستوى واحد لدى النظام العام

واذا خرجنا عن دائرة العيلة الى دائرة القبيلة أو العشيرة نجد القبيلة تنحلُّ تدريجاً انحلالاً تاماً حتى تغرق في المجموع كله ولا تعود تتميّز ، ولا سيما اذا كان التزاوج مطلقاً من قيود النسب ، أي انه مباح بين أفراد القبائل وغير محصور في كل قبيلة وحدها . فحينئذٍ تتلاشى القبائل في الأمة كلها اذ تمتزج بعضها ببعض

وكذا يقال عن الجماعات المتجمعة والمندغمة بعضها ببعض ، فانها تنحل وتمتزج معاً في تكوين الامة برمتها . وحينئذٍ تصبح الأمة مجموعة أفراد مترابطين رأساً بنظامها العام

٢ً — حوائل الالتئام

وانما يستدرك من هذا القول عمل ثلاثة عوامل خطيرة تحول دون هذا الامتزاج وهي عامل اللغة وعامل العقيدة الدينية ، وعامل التباين في المدنية

أما عامل اللغة فيقضي على الغالب بتحديد منطقة لكل أهل لغة ، لأن كل لغة تجتذب أهلها للمواطنة في وطن واحد ، أو تقضي ببقائهم في منطقتهم ، وتقاوم حركة مهاجرتهم الى المناطق الاخرى ، وتحول على الغالب دون حركة الزواج المختلط الاَّ نادراً

وأما عامل العقيدة الدينيـة فيغلب أن يحول دون حركة الزواج المختلط لما يغلب في العقيدة من أمر تحريم هذا الزواج حتى ولو كان مختلفو العقيدة متواطنين

فكلٌ من عاملي اللغة والعقيدة يقضي بتميُّز الجماعات المختصة كل منها بلغة أو بعقيدة . ولا يندر أن يقضي أيضاً بتميز نظام كل جماعة عن نظام الاخرى ، ويكون ارتباط هذه الجماعات بالنظام العام رأساً ، ويقل ارتباطها بعضها ببعض

والأصح في هذه الحالة أن تُعَدُّ هذه الجماعات امماً متعددة متحالفة ، لا أن تُعَدُّ امة واحدة ، بقطع النظر عن كون السلطة العليا التي تربطها وتدير نظامها مطلقة أو ديموقراطية . ومن أمثلة ذلك أممَ تركيا ، وامم بريطانيا العظمى ، وامم روسيا ، وامم النمسا ، وامم الهند ، وامم الصين

وأما عامل التباين في المدنيـة فشديد الفاعلية في الحيلولة دون امتزاج الأمتين المتباينتين ، ولا سيما اذا كان التباين في درجة المدنيـة لا في نوعها فقط . مثال ذلك عدم امتزاج مهاجري اوربا الى اميركا مع هنود اميركا وقبائلها المنحطة . وعدم امتزاج بيض آسيا مع زنوج افريقيا حيثما يختلطون ويتواطنون

٣ً — نشوء وحدات اجتماعية جديدة

نعود الى الأمة التي تتكوّن من مجموعة جماعات منحلة . هل تصبح بعد تكوُّنها

مجموعة أفراد متماثلين ومترابطين رأسًا في مركز النظام العام ؟ أي هل تصبح الأمة جماعة واحدة بسيطة بعد أن تركَّبت من جماعات منحلة الى أفراد مرتبطين رأسًا بالنظام العام ؟

كلاً

حينما تكون الجماعات المتجمعة آخذة في الانحلال لكي تتألف من أفرادها الجماعة الكبيرة أو الأمة العظمى على نحو ما تقدم بيانه تشرع جماعات جديدة مختلفة بطبيعتها عن الجماعات الأصلية تتكوَّن تدريجًا، بفعل العوامل الاجتماعية البحتة، من سياسية ودينيـة، واقتصادية وتهذيبية الخ . فلا تتلاشى تلك الجماعات الطبيعية قبل أن يتم تكوُّن هذه الجماعات الاجتماعية .

بتكوُّن هذه الجماعات الجديدة يتكوَّن النظام الاجتماعي وينمو ويتّسع . فهو بنية الهيئة الاجتماعية الحقيقي . وهذا النظام يكفل بقاء الامة

ومَثَلُ هذا التطوُّر كمثل بيضة الطَّير المؤلفة من النواة الملقَّحة والمحّ والبياض . ففي مدَّة الحضانة تتحوَّل هذه الثلاثة الى جنين . ولكن الجنين ليس شيئًا بسيطًا ، بل هو جسم مركب من أعضاء عديدة مختلفة ذات وظائف متنوعة ، تعمل معًا لحفظ كيان الجسم برمته

فكأن القوم أو المجتمع يتكيف مرتين ، أو يقاسي ضربين من التكيف : الأول تجمع طبيعي ، والثاني تجمُّع اجتماعي . الأول اجتماع سلالة ، والثاني اجتماع انتظامي . ولا يندر أن يلتحم الضربان معًا في مجتمع واحد فيكونان كالنسيج ذا سداة ولحمة . أي ان النظام يتبين ويتميز في الجماعة ، أو الأمة ، في حين ان جماعاتها الطبيعية لا تختفي بل تبقى متمايزة . من أمثلة ذلك المملكة النمساوية ( التي انحلت بعد الحرب الكبرى ) فانها كانت مؤلفة من عناصر مختلفة متمايزة ، ولكن نظامها السياسي وسائر نظاماتها الاجتماعية كانت شاملة كل تلك العناصر .

والأفضل هنا أن نسمي الجماعات الجديدة فئات ، تمييزاً لها عن الجماعات الأصلية القديمة .

لا يمكن تعيين أية الفئات الجديدة التي تتكون أولاً . لأن الحقيقة ان جميع

الفئات تشرع تتكون وتنمو معًا بالتدريج ، وذلك لاشـتراك بعضها مع بعض في النمو والاتساع والاستقواء والتعاظم . على ان الفئة السياسية تبدو أولاً على الأرجح، اذ لا يخفى أن تكوّن الجماعة الاصلية التي كانت نواة الامة استلزم نشوء زعيم لها كما علمت ، فالزعامة هي منشأ الهيئـة السياسية . ومتى توطد مركز الزعيم تتسع دائرة سلطته وسيطرته باتساع دائرة الجماعة أو الأمة . وكلما اتسعت دائرة سلطته احتاج الى أعوان لتقرير النظام السياسي وتنفيذه . وهكذا يصبح مركز الزعامة أو السلطة السياسية مؤلفًا من أفراد يزداد عددهم بازدياد مهمات ذلك المركز . فالقائمون بأمر سياسة الأمة هم الفئة السياسية فيها .

تكون الفئة السياسية في بادىء أمرها بسيطة ، اي انها تؤلف من الزعيم وأعوانه، ولكنها كلما وفرت مهامها باتساع دائرة الامة ونموها توزعت هذه المهام على أفرادها، وكلما تمادى هذا التوزع تقسّمت الفئة السياسية الى فئات متعاونة . وعلى هذا النحو اشتقت من الزعامة تدريجًا جميع هيئات الحكومة ، وجرت هذه الهيئات في حياتها على سنة التطور ، حتى بلغت شأواً عظيماً في جميع البلاد المتمدنة ، وأصبحت تشغل سواداً كبيراً من أفراد الأمة

في الوقت نفسهِ الذي تنشأ فيه الفئة السياسية تنشأ الفئة الدينية . والغالب أن السياسة والدين ينشآن معًا وتكون لهما فئة واحدة حتى انهما تعتبران نظامًا واحداً . وكلما تطوّر هذا النظام بدا الفرق فيه بين ضلعيه الدين والسياسة . و بالرغم من ظهور هذا الفرق يبقى الاثنان في أحوال كثيرة مرتبطين في نظام واحد لاشتراكهما في التشريع ، ولأن السلطة السياسية تستمد قوة من السلطة الدينية

## د - انواع الجماعات

الجماعة تؤلف من العيلات ( الوحدات الاجتماعية ) كما ان كل عضو في الجسم البشري يؤلف من الخلايات

والجماعات صنفان : جماعة سلالية ، وجماعة أممية

١ — الجماعة السلالية انما هي مجتمعٌ حدث بعمــل التناسل . والقرابة رابطته التي تربط وحداته أو عيلاته . فهم من دم واحد تقريباً .

٢ — الجماعة الامية انما هي مجتمع مختلط وممتزج ،حدث بعوامل المصلحة المختلفة. فهي جمهور من الناس ربطتهم العلائق الاقتصادية والمصالح المتبادلة ومقتضى التعاون، وقد قلَّ بينهم حساب السلالة أو الدم القرابي

بقليل تفكير تلاحظ أن الجماعات الامية انما هي الجماعات الكبيرة الراقية المتمدنة التي قطنت بقاعاً محدودة في الأرض ، والتي جعلت لنفسها أنظمة ادبية واقتصادية وسياسية . والجماعات السلالية انما هي الجماعات الاخرى التي دونها الى أحط الجماعات الهمجية التي تنحصر في بقاع من الارض صغيرة محدودة

## ١ — الجماعات السلالية

## (١) — طبقاتها الاجتماعية

يمكن حصر الجماعات السلالية في ثلاثة أصناف بحسب درجات بنائها الاجتماعي :
١ً — الشراذم : ٢ً — الجماعات الشرذمية : ٣ً — الجماعات الشعبية

### ١ً — الشراذم

الشراذم أحط الجماعات السلالية . وهي تؤلف من العيلات . و يتراوح عددها بين الخمسة والعشرين والمئة . وما وجدت شرذمة من هذه الشراذم مستقلة مطلق الاستقلال، ولا رابط يربطها بشرذمة أخرى ، بل لا بد من وجود شراذم أخرى مماثلة لها تتصل بها وترتبط معها بالسلالة واللغة ونسق المعيشة . فكأنها أجزاء جماعة سلالية مبعثرة ،ولهذا تراها تتجمع تجمُّعاً وقتياً اذا اقتضى الامر تجمُّعها ،إما لخوف من طارىء، أو للاشتراك في رزق ، أو للمهاجرة . ولا تتجمع الشراذم اجتماعاً دائماً تحت زعامة زعيم أو قيادة قائد حربي أو سياسي . وليس لها نظام ، ولا شريعة ، ولا عبادة ، ولا أي عمل اجتماعي مشترك يربطها كلها في جماعة واحدة دائمة

مثل هذه الشراذم تجد في أواسط أفريقيا ، وفي أعالي السودان . واذا كانت من جدّ واحد عدّت عشيرة

ومن هذا الصنف جماعات الفداه Veddahs في سيلان، والمنكوبس Mincopis في جزائر اندمان Andaman في خليج بنغال، والفتيان السود الاوستراليين Australian Black Fellows، و بوشمان Bushman جنوبي افريقيا ، والفوجيين Fuegians في تيارا دل فوجو Tierra del Fuego ، والانويت Innuit في شواطيء « اميركا الشمالية » الغربية والشرقية الشمالية ، والاوتس Utes في الجبال الصخرية وهنود الغابات الامازونية

المنكوبس يعيشون رُحَّلا كل ٣٠ او ٤٠ شخصاً معاً ولكنهم يتحدون احياناً في جماعات كبيرة للهجوم او الدفاع . البوشمان مشتتون في مناطق كبيرة ومنقسمون الى عدة جماعات من ١٠ الى ٥٠ الى مئة شخص كل جماعة . الفوجيون يبلغون نحو ٢٠٠٠ نسمة . ويعيشون كل ٣٠ او ٤٠ نفساً معاً اي بضع عيلات . يقول دارون ان هذه الشراذم ليس لها حكومة ، وهي تتكلم بألسنة مختلفة . والانويت يقطنون في قرى او كفور صغيرة كل كفر يشتمل على بعض عيلات . وبالاجمال لا نظام حكومي لهم

٢ — الجماعات الشرذمية

وهي مجموعة شراذم اتحدت معًا في جماعة واحدة ، وفي بقعة واحدة معينة ، وهي ذات لغة واحدة وشعور باتحادها ووحدتها

ويمكن أن شرذمة واحدة تنمو وتتكاثر وتتفرع الى شراذم متعددة وتبقى مرتبطة بعضها ببعض في نظام واحد . وأصغر جماعة مؤلفة هكذا من شراذم صغيرة كل منها مجموعة عيلات تُعَد قبيلة

فمن أمثلتها الشراذم الاوسترالية ، وهي ليست اكبر من تلك الشراذم الآنف ذكرها . ولكن يظهر أن بينها اختلاطاً اكثر ورجالها يخطفون النساء من شراذم أخرى ليتزوّجوهنّ

وهم ينتسبون الى الامهات ورابطتهم الطوطمية التي سيرد شرحها في النبذة التالية . فان عدداً عديداً من الأفراد ذكوراً وأناثاً يربطهم شعار طوطمي ، ويجهلون قرابتهم من جهة الآباء ، ويحسبون أنفسهم كلهم من دم الأم فقط ، أي انهم اخوة

وأخوات . ولا يمكن أن يتزوج الواحد منهم من شرذمته أو جماعته الشرذمية ، أي انه لا يتزوج أختـه الطوطمية . ومع ذلك لا تكون الجماعة او الشرذمة ذات قرابة أمومية نقية ، لانهم يقبلون في الجماعة غريباً يندمج فيها بشبه قانون غامض

ولما كانت النساء يُخْطَفْنَ ، أو انهن يهجرن من جماعة الى أخرى طوعاً لتكون الواحدة منهن زوجة ، وكانت القرابة تُعَدُّ من قبيل الأم فقط ، كان بحكم الضرورة ان الجماعة أو الشرذمة تشتمل على نساء من شراذم مختلفة . ولهـذا ترى ان اعضاء الطوطمية الواحدة يُبَعثرون هنا وهنالك في سائر الشراذم . فيتعذر أن تحصى سلالة أنثوية تمام الاحصاء . ولمـا كان أفراد كل جماعة أو شرذمة مرتبطين في حالتي الدفاع والهجوم كان أعضاء الطوطميات يخاصمون بعضهم بعضاً بحكم الضرورة . ولذلك متى شبت خصومة في جماعة هاجت سائر الجماعات لارتباطها بعضها ببعض بالطوطميات

٣ — الجماعات الشعبية

وهي قبائل مجتمعة مرتبطة متآزرة ومتعاونة . ولكنها لم تترقَّ فيها بعدُ النظامات الاجتماعية من أدبية ودينية واقتصادية وسياسية وصناعية وعقلية ، حتى تستحق أن تسمى أمة متمدنة . فهي شعوب . وقد سميت كذلك بالعربية لتشعب القبائل منها

## (ب) — انتساب الجماعات السلالية

الجماعات السلاليـة نوعان مختلفان اختلافاً بيّناً بحسب طبيعتهما السلاليـة : الأول أمي أي ( نسـبة الى الأم ) أو أمومي ( نسبة الى الأمومة ) ، وهو أن تكون الأم منشأ الرابطة القرابية في الجماعة . والثاني أبوي ، وهو أن يكون الأب منشأ الرابطة فيها . والنوع الأميّ أقدم

١ — الامومة

الجماعات الامومية ، أي الانثوية السلالات ، تُعَدّ أقدم أصناف الجماعات ، لأنه في

أول عهدٍ من عهود الانسانية كانت الأم كسائر أناث العجماوات تهتم وحدها بتربية بنيها اذ لم يكن ارتباطها بالزوج وثيقاً ولم يكن الا الى حين . ولهــذا كانت النساء صلات القرابة ، والناس ينتسبون بعضهم الى بعض من قبيل أمهاتهم (وستجد فصلاً مسهباً لذلك في الباب الثالث في فصل العامل النسلي )

الطوطمية —

مثل هذا الصنف من الجماعات يوجدالآن في هنود أميركا الشمالية . فهناك قبائل متعاونة متكاثفة ، تؤلف من عدة شراذم ، وكل شرذمة تنتسب الى سلسلة من الامهات وتسمى أو تلقب باسم نوع من النبات أو الحيوان يعتبرونه مؤنثاً ، و يعتقدون ان الجماعة نشأت منه .

وعلماء أجناس البشر يسمون هذا الحيوان أو النبات الذي تنتمي الجماعات اليه « طوطماً » . وهؤلاء الهنود يعبدون هـذا الطوطم باعتبار أنه حامٍ لهم من الضرر . ولكل جماعة ، أو بالأحرى لكل شرذمة ، طوطمها الخاص . فالطوطمية هذه هي الكنية أو نسـبة القرابة . وكان هؤلاء الهنود الاميركان يتميزون بعضهم عن بعض بطوطمياتهم . والنساء يتزوّجن رجالاً من غير قبائلهم ، ولا عبرة بالزوج في وحدة الشرذمة أو القبيلة الطوطمية ، بل العبرة في المرأة

واذا اتفق ان قرابة أو نسابة اشـتركت بين قبيلتين طوطميتين او اكثر كان المعنى ان تينك القبيلتين تشعبتا من قبيلة واحدة

لكل جماعة طوطمية نظام حكمٍ قائم بذاته ، مشتمل على مجلس وزعيم أو قاضٍ وقائدٍ . واحياناً يكون القاضي والقائد شخصاً واحداً . والقبيلة التي تجمع عدة جماعات طوطمية لها مجلس حكم عام مؤلف من زعماء هذه الجماعات

ولكل قبيلة مقاطعة كبيرة تجول في ارجائهـا ضمن حدودها للصيد والقنص . ولها ضمنها قرى تكون عادة حول مجاري المياه او البحيرات او الخلجان الخ

ومن امثلة القبائل التي تربطها الامومة ايضاً في «غيرامير» قبيلتا الدمارة Damaras في جنوبي افريقيا ، وقبائل الكونغو غربي افريقيا ، والزنوج الذين في اواسط افريقيا ، وقبيلة الكاسياس Kasias في بنغال ، وقبائل التاهيتان Tahitans ، والتونغانس Tongans في بولينيزيا Polynesia ، وقبائل الهوفاس Hovas في مادغسكر ، وقبائل مالاغاسي

واهم هذه القبائل التونجان في جزائر تونجا Tonga ، فهي متحدة في مملكة واحدة ذات نظام مزدوج ديني وسياسي . فانهم يعتقدون ان توي تونجا Tooi Tonga الذي يعدونه مسلسلا من الهة التونجان بسلالة انثوية هو الزعيم الديني لكل اهل تلك الجزائر . واعظم نبيل فيهم هو الملك او الزعيم الاول . وهم يعتقدون ايضاً ان الملك تسلسل من السلالة الانثوية التي تسلسل منها الزعيم الديني ايضاً، ولكن الحكم انتقل الى سلالة اخرى اغتصبته اغتصاباً بنصر حربي . ولذلك يعد جميع اقرباء الكاهن او الزعيم الديني اشرف وانبل من الملك ،وهو مضطر ان يقدم لهم الاحترام والخضوع في هذه القبيلة السلالة انثوية ، والنسب عن طريق الامومة ، فاذا تزوج رجل فتاة شريفة النسب اكتسب بنوها شرف نسب امهم ، وعلى الاب ان يبدي لها ولهم الاحترام . واذا كانت الام وضيعة والاب شريفاً وجب عليها وعلى اولادها ان يقدموا الاحترام له

واما قبائل مالاغاسي Malagasy فيؤلفون مملكة عظيمة تعد نحو ٤ ملايين ونصف مليون نسمة . وانما قرابة هذه القبائل اصبحت مختلطة ملتبسة ، على ان الامومة فيها اساس القرابة . وحتى العهد الاخير كان ابن اقرب النساء للملك يعد الولي الشرعي للعهد

ولا ريب ان كثيراً من الأمم المؤلفة من قبائل يربطها رباط الابوة كانت في الاصل انثوية السلالة

« في السنة الثالثة والثلاثين لعهد بطليموس فيلادلفوس كانت الامومة شريعة في مصر. فقد ظهر في اوراق بعض الدعاوي القضائية اشخاص ينتسبون الى امهاتهم ولا ذكر لآبائهم . وذكر في بعض اوراق البابيروس ( البردي ) ان الشاب متى تزوج اغفل كنيته وانتسب الى كنية زوجته، واعطاها كل ما يملك لكي تربي عيلتها المقبلة ، ولا يترك لنفسه شيئًا سوى حق ان تعوله زوجته حتى مماته . والراجح انه في اول عهد تاريخ الجرمان واليونان كان الانتساب انثويًا ايضًا » (١)

٢ — الابوة

كل الأمم المتمدنة جماعات ذكرية السلالة ، وانما معظمها تضعضعت انسابها والتبست القرابة بينها

---

(١) Giddings صفحة ١٦٥

على ان افضل مثل للامم الذكرية السلالية التي لا تزال سلالاتها متميزة قبائل السنتال او السندل Santal في بلاد البنغال السفلى . فهي تعد نحو مليوني نسمة، وتشغل منطقة مستطيلة طولها نحو ٤٠٠ ميل وعرضها نحو ١٠٠ ميل . وتقسم الى ٧ قبائل ( وبعضهم يقول ١٢ قبيلة ) وكل قبيلة تقسم الى بطون . والقرابة فيها عن طريق الاب

وهي ، بعكس قبائل الامومة ، تعتقد انها لم تتسلل من اناث حيوانات او نباتات ، بل من سبع بنين لاب واحد هو جد القبائل كلها . وكل عشيرة من كل قبيلة ايضاً تعتقد انها تسلسلت بطريق الابوة من جد واحد واتخذت كنيته او لقبه

وهذه القبائل لا تجيز للرجل ان يتزوج من قريباته من جهة اجداده الذكور ، فلذلك تشتمل العشيرة على جميع ابناء وبنات الذكر فيها ، ولكنها لا تشمل ابناء ولا بنات الانثى منها ، لان هؤلاء ينتسبون لابيهم . على ان هذه السنة غير مرعية بالضبط والتدقيق

وقد تشتمل العشيرة على بنين متبنّين ليسوا بنين حقيقين . وسواء كان الابن ( او الابنة ) حقيقياً او مُتَبَنَّى اذا ارتكب وزراً خطير الشان نفي من عشيرته . ومتى تزوجت الفتاة تركت نسبها وآلهتها واتخذت نسب زوجها وآلهته

## ٢ — الجماعات الامية

### ١ — تكوُّن الجماعات الامية

فرغنا من شرح كيفية تكوُّن الجماعات السلالية ، بقي أن نبسط كيفية تكوُّن الجماعات الأمية . فهي تتألف كتلك من العيلات لحسبان ان العيلة وحدة لها . وانما تختلف عن تلك بأن الجامع بينها الجوار لا القرابة . والرابط بينهـا النظام السياسي ، فيمكن أن تكون مؤلفـة من سلالات مختلفة . فالجماعة الصغرى هي القرية الصغيرة أو الحي المحدود في مدينة . ومجموعة القرى والمدن في مقاطعة أو مديرية أو نحو ذلك تؤلف جماعة اكبر . وجميع المقاطعات أو المديريات أو الولايات تؤلف جماعة المملكة

ولكل مملكة نظام خاص من هذا القبيل . ففي القطر المصري تؤلف القرى المركز ، والمراكز المديرية ، والمديريات والمحافظات التي هي المدن الكبرى تؤلف القطر كله

وربما كانت الولايات الاميركية اكثر البلاد تعدداً في جماعاتها الامية . فأصغر ما فيها القرية ثم البرو ثم الدستريكت ثم الكونتي ثم الولاية ثم الجمهورية . ولكل من هذه الجماعات بارلمان مؤلف من مجلسين . والولايات المتحدة تؤلف من نحو خمسين ولاية ، كل ولاية كأنها دولة قائمة بذاتها . المانيا كانت قبل الحرب تؤلف من ٢٥ مملكة مستقلة وبلدية ومدينة حرة .

وهنالك نظام سياسي آخر يجمع بعض الممالك في جماعة واحدة كالتحالف الثلاثي ( فرنسا وايطاليا وروسيا ) والثنائي ( المانيا والنمسا ) اللذين كانا قبل الحرب
وجميع الامم التي تعترف بقانون دولي عام تعد جماعة كبرى تربطها المعاهدات وهذا القانون

الجماعات الاقطاعيـة

نظام الاقطاع Feudalism الذي شاع في القرون الوسطى في اوربا مثال واضح على تكوُّن الجماعات الكبرى من جماعات صغرى . وموجز بيانه أن البـلاد تحسب منحة للملك من الله تعالى ، وهو يقطعها مقاطعات لنبلاء رعاياه ،وكل نبيل يقسم مقاطعته الى مقاطعات صغرى ويقطعها لأشراف دونه . والشريف يُقطع مقاطعتـه أيضاً لأعيان دونه . وقد يتسلسل الاقطاع على هـذا النحو حتى الدرجة الخامسة . وكل ذي مقاطعة يستمد من الملك سلطة الحكم والقضاء ، ويمنحها لمن هو دونه . وفي مقابل ذلك يتعهد كل ذي مقاطعة في كل درجة أن يدفع أتاوة مناسبة لسيده ، وأن يقدم عدداً من الجنود للدولة

فترى أن هـذا النظام يجعل المملكة مجموعة جماعات متعددة ، يحددها ويميزها بعضها عن بعض هذا النظام الاقطاعي . فهي تشبه نظام اللامركزية الحديث ، والفرق بينهما ان اللامركزية نظام ديموقراطي ، والاقطاع نظام اريستوقراطي

مثل هـذا النظام كان قديماً في بلاد العرب . « فاليمن كانت في أقدم عهودها تقسم الى محافد ( جمع محفد ) والمحفد يقسم الى قصور ، والقصر كالحصن أو القلعة يحيط به سور ، ويقيم فيه شيخ أو أمير أو وجيه ، يحف به الأعوان والحاشية والخدم ، كما كانت حكومات بابل قديماً لعهد حمورابي . ويُعرَف صاحب المحفد أو القصر بلفظ «ذو» أي «صاحب» يضاف الى اسم المحفد ، فيقال «ذو غمدان» أي صاحب محفد غمدان « وذو معـين » أي صاحب معين . وتعرف هذه الطبقة من الحكام بالاذواء او الذوين [1] وهم كالبارونات واللوردات في نظام الاقطاع . وكانت هـذه المحافد عديدة لكل منها حكومة قائمة بنفسها . وأشهر المحافد أو القصور التي وصلت

---

(١) فكلمة « ذو » تقابل كلمة de في معناها تماماً وتكاد توافقها لفظاً . فهل يستحيل ان تكون اللفظتان من اصل واحد ؟

الينا أسماؤها : غمدان وتلغم وناعط وصرواح وسلحين وظفار وشبام وبينون وريام وبراقش وروثان واريا ب وعمران »[1]

٢ً — طبقات الجماعة الامية

ستعلم ان غاية الاجتماع تعاون الافراد في الدفاع والاسترزاق واشتراكهم في التمتع بملذات الحياة . ولكنك تعلم بالاختبار ان الناس غير متشاطرين الرزق وملذات الحياة بالتساوي ، لان اختلاف أحوالهم وظروفهم قضى بهذا التفاوت بينهم . وهذا الاختلاف قضى بتنازعهم الى حد ، بالرغم من اجتماعيتهم القاضية بائتلافهم ضمن نظام رضخوا له . وهذا التنازع يقضي حتماً بالانتخاب الطبيعي ، أي ان يهلك الأضعف و يستقوي الاقوى، و يتفوق هذا على ذاك، و ينال هذا اكثر من ذاك . وكذلك قضى أيضاً بأن يتفاوت الأفراد في نموّهم العقلي ، ونموهم الأدبي ، بل في نموهم الجسدي أيضاً

اولاً — الطبقات الاولية

اذاً لا بد أن يكون أفراد الجماعة الواحدة ثلاثه أنواع من الطبقات بحسب تفاوتهم هذا : ١ً طبقات حيوية أي متفاوتة في الحيوية البدنية: ٢ً طبقات شخصية أي متفاوتة في قوى العقل : ٣ طبقات اجتماعية أي متفاوتة في القوى الادبية . هذه طبقات الجماعة الرئيسية

وهناك طبقات للجماعة ثانوية ، كالطبقة السياسية ، والطبقة الصناعية ، والطبقة الاقتصادية الخ

على أن هذه الطبقات ممتزجة بتلك فقد تجد صانعاً أو سياسياً أو تاجراً مثلاً في كل من الطبقات الرئيسية

( ا ) — فئة الطبقات الحيوية

الطبقات الحيوية أبسط نتائج الاجتماع . فهي تنشأ من اختلاف الناس في وراثتهم الطبيعية ،ومن ظروفهم التي نشأوا فيها ، والتي عرضت لهم في حياتهم . و يستدل

(١) كتاب « العرب قبل الاسلام » لزيدان

على حيوية كل طبقة من معدل مواليدها ووفياتها . فالطبقة العظيمة الحيوية تكثر مواليدها وتقل وفياتها ، وهي تشمل فئة الفلاحين الملاّك على الغالب . والطبقة المتوسطة في الحيوية قليلة المواليدوالوفيات معًا . وهي تشمل على الغالب أهل الحرف والاشغال في المدن . والطبقة القليلة الحيوية هي التي تكثر مواليدها وتكثر وفياتها أيضًا . وتشمل على الغالب فئات العمال الفقراء في المدن

( ب ) — فئة الطبقات الشخصية

هذه الطبقات كتلك نتيجة تأثير الوراثة الطبيعية والظروف والعوامل الاجتماعية المتقلبة وهي تشمل : ١ — النوابغ ذوي المواهب : ٢ — الناس الاعتياديين : ٣ — المعطوبين

أما النوابغ فتراهم في أهل العلم ، وفي اهل الفنون الجميلة ، وفي أهل السياسة ، وفي المخترعين ، وفي قواد الجنود ونحو ذلك

وأما المعطوبون فهم المصابون بالآفات العقلية كالمصروعين والمهوّسين والبله والمجانين ، واكثر المصابين بالآفات الجسدية كالعمي والعرج والكسح والصم والبكم الخ ، وهم يكونون غالبًا من الطبقة الثالثة . وقليلهم يكونون من الاعتياديين ، وأندرهم من النوابغ

عندنا النابغة الدكتور طه حسين الكاتب والكاظمي الشاعر الكفيفا البصر من النوابغ . وكان المعرّي وهوميروس ضريرين

( ج ) — الطبقات الاجتماعية

وهي تمايز باختلاف طبائعها الاجتماعية . وتنشأ من جهة بفعل الوراثة الطبيعية، ومن جهة أخرى بتأثير التربية الاجتماعية ، وتفاعلات الائتلاف الاجتماعي الذي يتوالى فعله على الأفراد مختلفًا باختلاف شخصياتهم ، ويسبك بعض الأفراد سبكاً يؤهلهم للاندماج التام في الحياة الاجتماعية ، ويكيف بعض الافراد بعض التكييف لهذا الغرض أيضًا . ولا يخفى أن لزحام السكان تأثيراً ذا شأن في هذا التكييف أيضًا . فالاشخاص النظاميون الاجتماعيون يزدادون اجتماعية وتهيؤًا للاندماج في الجماعة .

والاشخاص الشاذون يزدادون شذوذاً ويصبحون مناهضين للائتلاف الاجتماعي . وأخيراً لا يبقون صالحين للحياة الاجتماعية

واليك أهم الطبقات الاجتماعية :

ا — الطبقة الاجتماعية
ب — الطبقة اللااجتماعية
ج — الطبقة الاجتماعية الزائفة
د — الطبقة المضادّة للاجتماع

ا — الطبقة الاجتماعية . هذه الطبقة تؤلف من الافراد الذين ارتقت فيهم الفكرة الاجتماعية ، وأدركوا حقيقة وحدة الجماعة وتضامنها ، والذين يعملون للحرص على الروابط الاجتماعية . فمن هذه الطبقة ينشأ الساسة ، والمهتمون بالسياسة العمومية ، والقادة والزعماء الذين يوحون الى الجمهور والذين يقودونه ، وأصحاب المشروعات العمومية التي يشترك بفائدتها الجمهور كله ، وأصحاب المشروعات الخيرية ، والمصلحون والافراد الغيريّون الذين يضحون بمصالحهم ، وأخيراً بأنفسهم لأجل خير الجماعة . لولا هذه الطبقة لما كانت الجماعة تستطيع أن تسير في طريق النجاح . وبقدر مافي الجماعة من هؤلاء الافراد يكون نجاحها

ب — الطبقة اللاجتماعية . تؤلف من الافراد الزمانيين الذين لا يهتمون الا بأنفسهم . يفهمون فكرة وحدانية الجماعة وقيمة تضامنها ، ولكن هذه الفكرة صغيرة عندهم وغير مجسمة كما هي مجسمة عند الطبقة السابقة . ومن طبعهم انهم قليلو الميل للتضامن ، قلما يقبلون معروفاً أو يُسدُون معروفاً .

هذه الطبقة تعد الطبقة الاساسية الأصلية التي تنشأ منها الطبقة السابقة والطبقتان الأخريان . ففيها منشأ الفضيلة ومنشأ الرذيلة . فهي في الوسط عرضة لاندفاع بعضها الى فوق وبعضها الى تحت في مجرى الحياة الاجتماعية

ج — الطبقة الاجتماعية الزائفة . تؤلف من طبقة الفقراء الذين انحطت قيمة الوحدة الاجتماعية في يقينهم ، وقلما يثقون بتضامن الجماعة ، بل هم يائسون منه ، ولذلك

قلما يعرفون أن ينتفعوا من هذا التضامن ، بل يرغبون أن يعيشوا عالة على غيرهم ، فيكونون على الغالب فريسة النحس

على أنه في وسط هذه الطبقة أفراد كثيرون يكونون فريسة للنحس و يظهرون كأنهم منها . والحقيقة انهم من الطبقة الاجتماعية الحقيقية ، وانما سوء بختهم هوى بهم الى هذه الطبقة

د — الطبقة المضادة للاجتماع . وهي تشتمل جميع الائمـة الذين في أنفسهم غريزة الاجرام ، وهم الذين لم تطرق أذهانهم فكرة وحـدة الجماعة وتضامنها ، بل بالعكس يكرهون النظامات الاجتماعية ، و يريدون أن يعيشوا على اختلاس حقوق الغير .ولا يودون أن تقوم للنظام قائمة تصون حقوقهم ومصالحهم اذ لا مصالح خاصة لهم.

مع ذلك يوجد بين هؤلاء أفراد كثيرون دفعتهم الاحوال الى ذلك الحضيض وما هم من طبقته ، بل لا تزال عندهم الروح الاجتماعية حية ، و يمكن اصلاحهم

ثانياً — الطبقات الثانوية

تتكون هذه الطبقات بفعل تنوع العلائق الاجتماعية المختلفة من مذهبية وسياسية ومعاشية وعملية الخ . وهي متعددة بقدر ارتقاء الأمة في المدنية . وقد يتعذر احصاؤها وتبويبها لتنوعها وتفرعها ولـكنها ظاهرة لا تحتاج الى عميق بحث

وقد رتب بلاكار فئات الهيئة الاجتماعية الراقية في كتابه Elements of Sociology ترتيباً مبنياً على وظيفة كل فئة في المجتمع نورده فيما يلي بتصرف

١ — الفئات المعاشية — اقتصادية

فئة المنتجين — زراع

« المستخرجين — المعدّنون وأمثالهم

« المولين — صنّاع

« الناقلين — تجار

« المقايضين — صيارفة ( البنوك ) وسماسرة الخ

٢ — الفئات الكافلة دوام الجماعة — حيوية العيلة

فئة الطبيين

« الصحيين

٣ — فئات المواصلة — لازمة للفئات الاقتصادية

فئة الطباعة — الصحافيون والمؤلفون الخ

« التلفون

« التلغراف

« النقل — الملاحة والسكك الحديدية والموكبات

٤ — الفئات التهذيبية — عقلية

المعابد — أهل الدين

المدارس — الاساتذة والطلبة

الجمعيات العلمية — أهل العلم

الاندية —

الملاعب ونحوها

٥ — الفئات المنظمة والحامية — سياسية وادارية

النظام الدولي

« التشريعي

« القضائي

« التنفيذي

نظام الشرطة ، وهو أوسع من النظام التنفيذي

النظام الحربي

٦ — جمعيات اختيارية

نقابات العمال
أحزاب سياسية
شركات ضمانات
شركات مالية
جمعيات تعاون
جمعيات خيرية
أخويات

# الفصل الثالث
## نظام المجتمع



### مقدمة – العلاقة النظامية بين الافراد

نظام الهيئة الاجتماعية يقوم بتنظيم أفرادها في جماعات خاصة لاجل القيام بأعمال مختلفة لاغراض اجتماعية

خذ أي بلد أو ولاية أو مملكة متمدنة راقيــة تجد فيها حكومة متشعبة المصالح والاغراض ، ومعابد ومصانع ومصالح ، وشركات مالية ، وجمعيات علمية وأندية الخ

فالجماعات أو الفئات القائمة بهذه الاعمال تعمل معًا متوافقة متعاملة لغرض أعم ، وهو حفظ حياة الجماعة وسعادتها . فمجموعة نظامات هـذه الاعمال نطلق عليها النظام الاجتماعي

العلاقة التي بين أفراد الجماعة النظامية الواحدة ليست علاقة قرابة ونسب كما هي الحال في الجماعات النشئية كالقبائل والعشائر الخ ، وانما هي علاقة تعاونية في عمل. ولهذا قد يمكن أن يتفرق أفراد العيلة أو الاسرة الواحدة في عدة جماعات نظامية أو مصالح مختلفة ، أي ان الجماعة النظامية الواحدة تشتمل على أفراد متفرقي النسب . فالرابط الذي يربط أفراد الجماعة النظامية الواحدة هو الغرض الذي يتعاونون لاجله ، وينحل هذا الرابط حالما ينتهي الغرض . ولكل جماعة غرض خاص ونوع واحد من العمل . فاذاً للجماعة وظيفة نظامية خاصة

ولذلك يجب أن يكون أفراد الجماعة شديدي التماثل في الغرض والوظيفة والعمل حتى يمكن ارتباطهم في جماعة نظامية . خذ جماعة رجال الدين الواحد ، فهم يعتقدون عقيدة واحدة ، ويعملون عملاً واحداً ، ويتزيون بزي واحد تقريبًا . خذ فئة عمال التلغراف فانهم كلهم يعرفون معرفة واحدة ، ويعملون عملاً واحداً لغاية واحدة ، وفي نقابتهم لهم عاطفة واحدة أيضًا . كذلك قل عن فئة الصحفيين ، وفئة المثالين ، وفئة المحامين ، وفئة الشرطة الخ

١ — النظام الاجتماعي في الحيوانات

في الحيوانات الدنيا يندر أن تجـد النظام الاجتماعي في غير النحل والنمل حيث تقسمت الاعمال وتعينت لكل فئة وظيفة من العمل .

٢ — النظام الاجتماعي عند الهمج

في جماعات البشر المتوحشة قـد تجد تعاونًا أحيانًا ، ولـكن النظام الاجتماعي ضعيف جداً حتى يكاد يكون معدومًا ، الا في العيلة حيث يكون التعاون نظامياً لغرض يفرض فيه على كل فرد عمل خاص للقيام بشؤون العيلة

متى وجدت في جماعة، مهما كانت حقيرة، هيئة للقضاء أو للعبادة أو جندية بزعامة زعيم، أو زعماء، متحالفين أو مطاوعين لزعيم أعلى، عُدَّت الجماعة نظامية

٣ — النظام الاجتماعي عند المتمدنين

في الامم المتمدنة النظام الاجتماعي صاحب الشأن الأول في كيان الامة ومتانتها، وهو الدرجة العليا في بنيـة الامة. وجماعات الامة النظامية تعول على رابطها النظامي اكثر ممـا تعوّل على روابطها الطبيعية الاخرى، كالقرابة والسلالة والجنسية. فقد يختلف أفراد العيلة الواحدة فيما بينهم اذا اختلفت جماعاتهم النظامية

كل نظام اجتماعي يشتمل على أعضاء متفاوتين في الرتب أو الدرجات. وأقل مافيه من الدرجات رئيس ومرؤوسين. وكثيراً ما تتعدد الدرجات حتى يشمل النظام الواحد سلسلة أو سلاسل من الرؤساء والمرؤوسين.

أعظم نظام اجتماعي في الامة المتمدنة هو نظام الحكومة الذي يسيطر به العقل الاجتماعي ( وبعبارة اخرى الرأي العام ) على الهيئة الاجتماعية كلها، ويوحي الى سائر جماعاتها وظائفهم وواجباتهم وحقوقهم، حتى تتجه أعمالهم كلها الى غرض واحد، وهو حياة المجموع وسلامته وسعادته

٤ — انواع النظامات

النظام الحكومي كالمجموع العصبي في الجسم يغلغل الى جميع أعماقـ الامة وأطرافها ويمس كل شخص بلا استثناء. فهو نظام عام شامل

وضمن هـذا النظام تقوم نظامات خاصة أضيق دائرة من نظام الحكومة لاغراض أخص أيضًا. وهي تنقسم الى الانواع التالية :

أولها : النوع السياسي. وهو يشمل الاحزاب السياسية التي تشتغل مستقلة عن الحكومة في تدوير دفة السياسة الوطنية. فهذه الاحزاب قد تكون ظاهرة ماثلة للعيان في البلاد الراقية الحرَّة، وقد تكون خفية في البلاد التي لا تزال تحت نير الاستعباد

ثانيها : النوع التهذيبي. وهو يشتمل على الجماعات المختلفة التي تعمل لترقية العقل

والأدب والعلم والأخلاق الخ . فمنها النظامات الدينية ، والجمعيات العلمية والادبية ، الى غير ذلك مما لا قيد له

ثالثها : النظامات الاقتصادية التي تقوم بمهام الحياة الجسدية المختلفة . وهي نظامات عديدة لا تكاد تحصى . تشمل جميع الاعمال الاختيارية التي يعملها الناس مشتركين لتعيشهم

رابعها : جمعيات مختلفة لاغراض اجتماعية متنوعة بعضها جهرية وبعضها سرية يراد منها تقويم شأن الجماعة من الوجهة الادبية والعدلية على الخصوص . كالجمعية الماسونية مثلاً . وكجمعية تركيا الفتاة التي كانت تسعى لقلب الحكم الاستبدادي . وكجمعية الامتناع عن المسكرات . وكجمعية المطالبة بحقوق النساء ، الى غير ذلك مما اختلفت أغراضه

الجمعيات السرية تكثر في البلاد التي يشتد فيها الاستبداد . وتُعدُّ الصين أغنى البلاد بالجمعيات السرية

## ا — نظام الدولة

نظام الدولة من الوجهة الاجتماعية يستغرق كل فرد من أفراد الجماعة الاجتماعية، ويشمل جميع الجماعات الاختيارية التي تؤلف منها الامة . فالدولة الدستورية مهما كان نوع حكومتها تشتمل على حكام وموظفين قائمين بادارة الحكم ، وعلى رعايا يمدون أولئك بالسلطة والقوة الاقتصادية — المال — للتنفيذ . والفرق بين هؤلاء وأولئك في الوظيفة فقط : اولئك يعملون على حساب هؤلاء ، وهؤلاء مفوضون أولئك . فالجميع اذاً يؤلفون الدولة . حتى في الدولة الملكية المطلقة الحكم، والتي حكمها استبدادي يكون الامر كذلك ضمناً، بدليل أنه في حالة ملل الرعية استبداد الحكام تثور الرعية وتقلب الحكومة . ولا يخفى ما في ذلك من تأييد الحقيقة الاجتماعية وهي : ان الهيئة الحاكمة تستمد سلطتها وقوتها من مجموع الرعية . ولذلك يُشترط لقيام الحكومة ان تكون الرعية موالية للسلطة الحاكمة ، ومريدة أن تمدها بالقوة ، والا فتكون الحكومة

متداعية وقائمة الى أجل قصير. وأما الافراد الخونة والفئات، القليلة المتمردة، فلا تعد من الدولة، وان كانت موجودة فيها

اذاً. من قبيل نشوء السلطة واستعمالها تعـد الدولة الدستورية مؤلفة من ثلاثة عناصر رئيسية :

ا — منشئو السلطة الشرعية

ب — ملقنو السلطة الشرعية

ج — وكلاء السلطة الشرعية أو منفذوها

١ً — منشئو السلطة الشرعية

تختلف الفئة المنشئة السلطة الشرعية باختلاف نوع الحكم، والحكم أنواع : حكم ملكي مطلق، وحكم جمهوري، وما بينهما من الدرجات المتفاوتة في الحكم الذاتي

في الحكم الملكي المطلق يكون الملك منشأ السلطة الشرعية، فهو يصدر القوانين والشرائع واللوائح الادارية

كذا كانت السلطة الشرعية في تركيا قبل اعلان الدستور . وكذلك كان في روسيا وفي بلاد العجم وغيرهما من الممالك الشرقية . وكذا كانت في مصر في عهد الخديوية

وأما في الحكم الجمهوري فمنشأ السلطة الشرعيـة أفراد الشعب الذين ينتخبون النواب عنهم في مجلسي الشيوخ والنواب

هكذا الحال في فرنسا واميركا وسائر جمهوريات العالم التامة النظام الجمهوري النافذته . فجميع المصوتين او المنتخبين ينتخبون مجلس شورى ( نواب وشيوخ ) يسنون الشرائع والقوانين وينتخبون ايضاً مديراً ( رئيساً ) ينفذ تلك الشرائع تحت اشراف مجلس الشورى كما هو الحال في اميركا . او ان مجلس الشورى ينتخب الرئيس كما هي الحال في فرنسا . والرئيس يختار موظفي الادارة الذين يعاونونه في الرأي والتنفيذ

مهما كان الحكم نيابياً فليس كل فرد صاحب صوت في الانتخاب. ففي بعض البلاد يحرمون الاميين من حق التصويت، وفي بعضها يحرمون النساء والاحداث. وفي العهد الأخير نالت النساء في كثير من البلاد حق الانتخاب

ولذلك لا يعد الحكم نيابياً بحتاً الا بمعنى ان المنتخب من العيلة ينوب عن عيلته، والامي ينوب عنه قريبه وهلم جرًّا، أي أن كل نائب يراعي مصالح ذويه غير الناخبين

و بين هذين النوعين من مصـــدر السلطة : الحاكم المطلق وطائفة المنتخبين من الشعب ، توجد مصادر مختلفة في مقدار ما تصدره من السلطة . فقديشرك الحاكم طائفة من الشعب معه في اصدار السلطة الشرعية كثيراً أو قليلاً ، كما كانت الحال في المانيا وأسبانيا والنمسا وغيرها من البلاد التي لم تكن تعد نيابية الاحكام تماماً

على ان القرن العشرين جعل يطهّر الامم الراقية من الاحكام المطلقة ، ويحوّلها الى أحكام نيابية بحتة . وقد لاينتصف هذا القرن حتى تكون جميع الامم المتحضرة جمهوريات ، وربما بقي بعضها إمارات وملكيات مقيدة بالاحكام النيابية ، كما هي الحال الآن في انكلترا وايطاليا مثلاً

٢ً — ملقنو السلطة الشرعية

هؤلاء ليسوا فئة معينة ولا محدودة ، ولا هم اشخاص رسميون . وانما لهم نفوذ يستمدونه من علمهم ومن دهائهم ، وممن يحف حولهم من الاعوان ، ويلوذبهم من الاتباع

ففي الحكم الملكي المطلق يحفُّ هؤلاء بالملك او الامير الحاكم ويتزاحمون حول سلطانه ليقايضوه النفوذ والقوة . وأنجحهم من يكون أقدر على عضد الحاكم بالقوة والرأي وتحمُّل المسأولية .

فهذه القوات غير الرسمية التي تحف حول الملك تكثر او تقل حسب شخصية الملك واعوانه . فقد تتغلَّب قوة الملك حتى تستغرق قوات الاعوان ، كما كانت قوة السلطان عبد الحميـــد في تركيا مستغرقة كل قوات اعوانه . وقد تكون بالعكس قوة الحاشية والاعوان مستغرقة قوة الملك ، كما كانت الحال لعهد نقولا الثاني قيصر روسيا . وقد تكون بينَ بينَ كما كانت لعهد محمد علي شاه العجم السابق اذ تكون السلطة مترددة بين الملك والاعوان . ففي اول الامر تغلبت سلطة الشاه فشنق الاعوان المخالفين له . ثم ما لبثت ان تغلبت سلطة الأعوان فخلعوه

ذلك هو الحال في الممالك الملكية المطلقة الاحكام او المقيدة للهيئة الحاكمة فيها بعض القيد . واما في الجمهوريات وسائر البلاد النيابية الاحكام فتكون هذه الفئة هي الملقنة السلطة بصفة غير رسمية : اولاً في دوائر زعامات الاحزاب ودوائر ترشيح

المنتَخبين . وثانياً في جماعة النواب الاعظم نفوذاً في الشورى . وكثيراً ما تكون هذه الهيئة مستترة وراء هؤلاء ، ومستمدة قوتها من اموال المتمولين ، ونفوذ اصحاب الاعمال والمصالح الكبيرة

اذاً ، ترى انه وراء السلطة الشرعية منشأ آخر لها . ولما كان هذا المنشأ غير رسمي فقد دعوناه بملقّن السلطة

ولولا وجود هذه الفئة المستترة أو المتوارية التي توحي السلطة وتمدها بقواتها لاستحال وجود حكم ملكي مطلق . لأن فرداً واحداً يستحيل عليه ان يحكم بمطلق ارادته شعباً . وانما يحكمه بمعونة اعوانه . وهؤلاء يتقوون بمعونة من حولهم من الاعوان ايضاً . وهكذا دواليك حتى يمتص النفوذ والقوة من اطراف العامة جميعاً . ولهذا قلنا فيما سبق انه مهما تطور نوع الحكم فسلطتـــه مستمدة من الجمهور ( من معظمه )

وكذلك مهما كان الحكم جمهورياً نيابياً بحتاً فلا يمكن ان تكون السلطة صادرة من الجمهور كلهِ ما دام هناك فئات مستترة تؤثّر على الهيئة النيابية من ورائها . ومن ذلك تفهم مبلغ هذه القوة غير الرسمية التي تلقن السلطة

٣ — وكلاء السلطة الشرعية او منفذوها

هؤلاء هم الذين يعيّنهم اصحاب السلطة الشرعية لتنفيذ رغائبها بحسب ما تسنُّه لها من الشرائع والقوانين — هم رجال الحكومة . وما الحكومة الاَّ ادارة اعمال لمصلحة الجمهور — كذا تسميها الامة الاميركية ، وتسمي مدة رئاسة الرئيس «ادارة» فتقول : « ادارة ويلسن » ، « ادارة هاردن » الخ . وهي تعني مدة حكم ويلسن وهاردن

وسترى في الفصل الاخير من الباب الثاني اسهاباً في هذا الموضوع

أما وظائف الحكومة الرئيسية التي لا يمكن أن يقوم بها أحد غير الحكومة فهي:

١ الدفاع عن البلاد — وزارة الحربية والبحرية

٢ حفظ الامن في داخل البلاد — وزارة الداخلية ومن ضمنها نظام الشرطة

٣ القضاء العادل بين أفراد الشعب — وزارة الحقانية
٤ تدبير النفقات اللازمة لكل هذه المصالح — وزارة المالية
٥ تدبير العلائق مع الأمم الاخرى — وزارة الخارجية

وأما ما سوى ذلك من المصالح فلا يعد من وظائف الحكومة الرئيسية مهما كان حيوياً . وانما تقوم به الحكومة حرصاً على رفاهة الشعب وتسهيل المعيشة له . ومن هذه المصالح التي تعد ثانوية في الاهمية

١ التعليم — وزارة المعارف
٢ الاعتناء بالصحة العمومية — وزارة الصحة
٣ تحسين زراعة البلاد — وزارة الزراعة
٤ تحسين صناعة البلاد — وزارة الصناعة
٥ توفير المواصلات في البلاد مع الخارج — وزارة المواصلات . البوسطة والتلغراف الخ

و بعض الحكومات تهتم بأمور اخرى بغية إنجاح البلاد ، كتولي مصالح التلفون والترام والسكك الحديدية الى غير ذلك مما لا يتصدى لعمله المتمولون عند مسيس الحاجة اليه . وكثيرٌ من البلاد المتمدنة تسيطر الى حد معين على قوة البلاد المالية وعلى شؤون الصرافة

مصالح البوسطات كلها في ايدي الحكومات بلا استثناء . ومصالح التلغراف في اوروبا في ايدي حكوماتها . واما في الولايات المتحدة ففي ايدي شركتين . مصالح السكك الحديدية في بعض البلاد في يد الحكومة ، كما هي في يد الحكومة المصرية الآن ( الاَّ السكك الضيقة )

مصلحة التلغراف في مصر في يد الحكومة . مصلحة التلفون كانت في يد شركة فانتقلت ليد الحكومة المصرية . مصلحة الملح والصودا كانت في يد الحكومة المصرية فانتقلت ليد شركة . كانت الملاحة في يد الحكومة المصرية فسلمتها ليد شركة انكليزية

التعليم في تركيا كان في يد الارساليات الاجنبية .

وبالاجمال يقال ان هذه المصالح بحسب النظام « الافرادي » من شؤون ذوي الاموال . وانما تقوم بها الحكومة خدمة للرعية . ولكن النظام الاشتراكي المتقدم الآن في اوروبا يقضي بأن تكون جميع المصالح في ايدي الحكومة وجميع الناس بلا استثناء مستخدمين عند الحكومة

النظام الديني

وهناك أمر آخر ذو مساس عظيم بالنظام الاجتماعي وهو النظام الديني . في بعض البلاد ممتزج تمام الامتزاج بالنظام السياسي ، اي ان السلطة الدينية والسلطة السياسية متحدتان كما كانت الحال في اوروبا في الاجيال الماضية ، وكما كان في روسيا حتى خلع نقولا الثاني ، وكما كان في تركيا

وفي بعض البلاد انفصلت السلطتان ، وانما بقيتا جنباً الى جنب كما هي الحال في المانيا وانكلترا . وفي البلاد الاخرى الغيت السلطة الدينية وجعلت اختيارية بحتة كما هي في فرنسا واميركا

والميل العام في العالم انما هو الى الغاء السلطة الدينية وجعل النظام الديني اختيارياً بحتاً لمن يشاء أن يطاوعه .

## ب - النظامات الاجتماعية الاختيارية

١ ــ النظامات السياسية

تؤلف الجمعيات او الاحزاب السياسية من الافراد المتماثلين او المتفقين في العقيدة او المصلحة او في كليهما . ولهذا قد ترى في الحزب الواحد افراداً يختلفون كل الاختلاف في امور كثيرة . قد يختلفون في عنصريتهم ، او في حرفهم ، او في تهذيبهم ، أو في غناهم الخ

الجمعيات السياسية بعضها سرّي و بعضها جهري .

( ١ ) — الجمعيات السرية تكثر حيث تقيد الحرية بقيود مختلفة ، وحيث لا يسوِّغ القانون المحلي الشغل بالسياسة . ولذلك يغلب أن تكون هذه الجمعيات خطرة ، لأنها لا تقدر أن تنفذ سياستها الا بثورة تقلب الحكومة

في القرن التاسع عشر كثرت الجمعيات السياسية السرية في روسيا والنمسا والبلقان ، كما كثرت في فرنسا مدة الثورة ، وفي انكلترا في القرن التاسع عشر ،

في تركيا نشأت جمعية تركيا الفتاة ، ولما نجحت تقمصت في جمعية « الاتحاد والترقي » التي سيطرت على تركيا حتى نهاية الحرب العظمى .

من الجمعيات السرية العظيمة جمعية الحماية الاميركية في الولاية المتحدة الاميركية التي كان غرضها مقاومة نفوذ الكثلكة هناك ، وقد انتشرت حتى عمت الولايات كلها وكانت ذات نفوذ عظيم وسيطرت على عدة انتخابات في تلك البلاد .

وتتلوها الآن في الاهمية جمعية كوكلاكس كلان Ku Klux Klan لمثل هذا الغرض وغيره أيضاً

وحيث يشتد التضييق على الجمعيات السرية واضطهادها تصبح هذه الجمعيات أشد خطراً لانها حينئذ لا تعود تحوي غير المجرمين والاشرار وتصبح فوضوية ، كجمعية النهليست الروسية، وجمعية مافيا الايطالية

( ٢ ) — الجمعيات السياسية الجهرية هي جمعيات الأحزاب السياسية التي توجد في كل بلاد دستورية ، وكل بلاد اطلقت فيها الحرية السياسية . ففي عهد اللورد كرومر الذي كان معتمد انكلترا في مصر اذ كانت الاجتماعات السياسية غير محظورة نشأ الحزب الوطني المصري ، وكان جمعية منظمة ، وغرضه السعي بكل الوسائل السليمة لاقناع الانكليز بالخروج من مصر . ثم نشأت بعده احزاب أخرى ضعيفة خالفته في كيفية الطرق لاخراج الانكليز من مصر

في البلاد النيابية الأحكام لا بد من انقسام البلاد الى احزاب متعددة مختلفة الأغراض والسياسات لاختلاف درجات الناس وغاياتهم . فهيهات ان وجد في مملكة واحدة حزبان فقط . وكثيراً ما تتعدَّد الاحزاب في المملكة الواحدة حتى تناهز العشرة . ولكن الغالب ان هذه الأحزاب في اوقات الانتخابات تدغم في حزبين كبيرين فقط ، لأن الأحزاب الصغيرة ، وهي مؤكدة عدم النجاح ، تساوم الحزبين الكبيرين على اصواتها ، فالحزب الذي يقرر في برنامج سياسته ما يوافق

مصالحها تنضم اليه . وهكذا تتحالف الاحزاب في حزبين متعارضين يتنازعان السلطة . والرابط الذي يربط الافراد في الحزب هو النفع المشترك

معظم الاحزاب السياسية في أوروبا واميركا الآن مستقطبة في قطبين : قطب الاعيان والاغنياء ، وقطب العمال والفقراء . حزب المحافظين في انكلترا ، وحزب الجمهوريين في الولايات المتحدة الاميركية ، وحزب الجمهوريين في فرنسا في القطب الاول . وحزب الاحرار في انكلترا ، وحزب الديموقراطيين في الولايات المتحدة الاميركية، وحزب الرديكاليين في فرنسا في القطب الثاني

الأحزاب الاشتراكية ناشئة في كل بلاد دستورية تقريباً وهي تقوى تدريجاً . ولا يبعد ان تكون في المستقبل صاحبة السلطة . الى الآن لم يظفر حزب اشتراكي بسلطة ، بيد ان جماعة ثوريين ظفروا بالحكم في روسيا بثورة ، وحاولوا ان يجعلوا الحكم اشتراكياً . والى الآن لم يعلم ان كانوا قد نجحوا

٢ — الجمعيات شبه السياسية

وقد تتألف أحياناً جمعيات لاغراض سياسية ولكنها لا تشتغل فعلاً بالسياسة بالانتخاب ، وانما تكون ذات شأن وتأثير في السياسة ، ولا سيما السياسة الخارجية ، كجمعية اخاء الأمم التي انشئت في أوروبا قبل الحرب ، وجمعية اتحاد الأمم التي انشئت في الولايات المتحدة في مدة الحرب ، لدعوة الدول الى تأليف جمعية الأمم ، وكجمعيات النقابات التي تجمع النقابات لتوحيد سياستها

أول نادي سياسي انشيء في لندن سنة ١٦٦٩ باسم Civil Club وبعده Club politique في باريس سنة ١٧٨٢

ج — النظامات الاقتصادية

الجماعات الاقتصادية تؤلف من اشخاص متماثلين في المقدرة والتربية والتعليم . والرابط الرئيسي فيها النفع . ويعظم شأن هذه الجماعات في البلاد الناجحة من الوجهة المالية كاميركا وانكلترا والمانيا وفرنسا الخ . وأعظم الجماعات الاقتصادية في الولايات المتحدة

١ — الشركات

وقد مهّد لنشوء هذه الجمعيات الاقتصادية العظمى أمران : الأول تكاثر الغنى ، والثاني تطلب الاعمال العظيمة لرؤوس المـال العظيمة . فلما كان متمول واحد لا يقدر ان يقوم وحده بمشروع سكة حديد مثلاً ، او مشروع اسطول تجاري ، اولا يريد ان يخاطر بماله كله ، كان يشترك مع غيره في المشروع

ولما كان ميدان التزاحم والتناظر مفتوحاً صار زيد وعمر يضمان عملهما الواحد الى الآخر لكي يستقويا على بكر فيناظرانه . وعلى هذا النحو تنضم الشركات بعضها الى بعض حتى تحتكر الصنف وتستبد به كما تشاء .

ولولا هذه الشركات التي هي أقوى الذرائع لتضخم رأس المال لمـا امكن ان يقوم عمل من الاعمال العظيمة المشار اليها الاّ اذا كانت الحكومة تقوم بهذه الاعمال على حساب الأمة كلها ، فتكون الأمة كلها مساهمة بها .

نعم ان لهذه الشركات الفضل في انشاء المشروعات الكبيرة . ولكنها من جهة اخرى تحتكر الأعمال فتصبح تحت سيطرتها ، وتعود أرباحها الى أصحاب الأموال وحدهم . هذا هو سبب الاستقطاب الاقتصادي ، أي تحوّل المال الى القايلين من أصحاب الأعمال ، وتحول الفقر الى جانب العمّال

٢ — النقابات

في مقابل شركات الأعمال المختلفة التي احتكرت القوة الاقتصادية واستقلت بها حتى استطاعت ان تستبد بالعمل ، قامت نقابات العمال لمناهضة أصحاب الأموال والأعمال . فحيثما آل أي نوع من الأعمال الى افراد ، او بضعة أفراد مشتركين ، او الى شركة مالية مساهمة غير اسمية ، تألب العمال لحماية أنفسهم في نقابة يتحالفون فيها ويتحدون على المطالبة والاحتجاج والاعتصاب والأضراب حسب مقتضى الحال . ويناهضون الشركة بطلب زيادة الاجور وانقاص ساعات العمل ، وأخيراً يتهددونها ببث الاشتراكية في السياسة وبذل الجهد في تحويل السلطة الى يـد الحزب الاشتراكي

وكما ان الشركات تنضم بعضها الى بعض لكي تتقوى وتتغلب وتستبد، كذلك النقابات تنضم بعضها الى بعض ضمن نقابة واحدة عليا تسمى نقابة النقابات .

وكما ان الشركات تتَّسع دائرة أعمالها حتى تنتشر في كثير من انحاء المعمور كشركة الدخان الاميركية التي كادت تملأ الأرض ( ومنها شركة مسبرو فرار التابعة لها في مصر ) وكشركة الزيت الاميركية ( ستندرد أويل ) ، كذلك نقابات العمال في الممالك المختلفة ألفت فيما بينها تحالفاً عاماً يسمى اتحاد العمال الاممي ( الدولي ) تعقد له كل عام مؤتمراً في بلد . وقد أصبح هذا الاتحاد العام قوة لا يستهان بها

## د - النظامات التمدنية

يأتلف فريق من الناس أحياناً في جمعية نظامية لغرض تمدني بحيث يتشابهون في العقيدة والميل والذوق والسجايا . وأهم الجمعيات التمدنية : ١ - الجمعيات الدينية ٢ - الجمعيات الخيرية ٣ - الجمعيات العملية ٤ - الجمعية التهذيبية ٥ - الجمعيات الفنية ٦ - الجمعيات الرياضية

١ — الجمعيات الدينية — لا بد من وجودها في البلاد التي فُصِل فيها الدين عن السياسة وجعل حُرًّا بلا قيد — فأهل العقيدة الواحدة يؤلفون مجلساً مليًا فيما بينهم ، ويسنون له قانوناً ، ويقيدون أنفسهم فيه، ويستصدرون من الحكومة اعترافاً به ، كما تستصدر الشركات الاقتصادية اعترافاً من الحكومة بها ، او إقراراً له ، ويستعينون بالحكومة في تنفيذه

ومن أنواع الجمعيات الدينية الرهبنات ، وأهمها رهبنة اليسوعيين المشهورة ، والاخويات العلمانية ونحوها التي يتعاهد فيها أعضاؤها على خدمة دينية معينة. وكذلك جمعيات ارساليات التبشير في العالم . وفي أميركا نحو ١٠٠ جمعية من هذا النوع انتشرت أعمالها في كل الاعمال . ومن ذلك جمعية نشر الكتاب المقدس التي طبعت التوراة والانجيل باكثر من ٣٠٠ لغة ونشرته في كل العالم ، وجمعيات الكشافة

٢ — الجمعيات الخيرية — وهي الجمعيات التي تجمع المال من أعضائها ، ومن متبرعين بوسائل مختلفة ، لكي تنفقه على الفقراء والمساكين ، بأساليب مختلفة ، كالملاهي والمستشفيات والاحسانات الفردية الخ . ولا تكاد بلاد متمدنة ولو قليلاً تخلو من هـذه الجمعيات ، واكثرها وأهمها في أرقى البلاد . وربما عدت أميركا أغنى البلاد بالجمعيات الخيرية لوفرة جمعياتها هذه ولعظم غناها ولتفرع أغراضها . ومن أهم هذه الجمعيات جمعية الشبان المسيحيين المنتشرة في العالم ، وجمعية الصليب الأحمر ، وجمعية الهلال الأحمر

٣ — الجمعيات العلمية — وهذه الجمعيات من خواص البلاد الراقية في التمدن . فنها جمعيات للتعليم والتهذيب تجمع الاموال للانفاق على التعليم العالي . لأن الحكومات حتى الآن لم تجعل التعليم العالي واجباً عليها . ولهذا تقوم بهِ جمعيات ويبذل المال لها جماعة متمولون خيِّرون . وفي الولايات المتحدة ٤٥١ كلية وجامعة انفق عليها أفراد أخصاء نحو ٩٤ مليون ريال ما عدا ما تجمعه من الاكتتابات وما ينتج من ريع أملاك هذه الجمعيات .

ومنها الجمعيات العلمية المختلفة بغية البحث في فروع العلم . وهي عديدة متنوعة ، ووفرتها في البلاد تدل على رقي أهلها . وبعض هـذه الجمعيات جعلتها الحكومات رسمية اذ وضعتها تحت رعايتها ، كالاكاديمية الفرنساوية ، والمجمع العلمي الانكليزي

٤ — الجمعيات التهذيبية — وهي توسُّعٌ في الجمعيات العلمية والدينية معاً . وغرضها ترقية الآداب والاخلاق والمبادئ . الجمعية الماسونية تعد أهم هذه الجمعيات . وتليها جمعية الشبان المسيحيين التي اتسع انتشارها حتى ملأت الأرض . وهناك جمعيات أخرى لالقاء الخطب الادبية والعلمية ونحوها .

٥ — الجمعيات الفنية — كجمعيات التمثيل والتصوير والموسيقى ونحو ذلك ، مما يراد بها ترقية الفنون الجميلة وغـير الجميلة أيضاً . كالجمعيات الطبية ، والجمعيات الكيماوية ، والجمعيات الكهربائية الخ .

٦ — الجمعيات الرياضية التي يراد بها ترويض النفس او الجسد اوكليهما ، كاندية الأنس ، والاندية الرياضية البدنية ، واندية الاجتماعات للتسلية الخ .

***

عددنا هذه الجماعات نظامات اجتماعية تميُّزاً لها عن الطبقات والهيئات الاجتماعية لأنها ذات انظمة وقوانين وشرائع مقرَّرة متفق عليها ومنفَّذَة في أعمالها . وكل جماعة ليست ذات قانون ولا شبه قانون ليست جماعة نظامية وانما هي فئة او طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية .

فلذلك نرى أنه كثيراً ما يكون الفرد الواحد في عدة جماعات نظامية . فقد يكون موظفاً في دواوين الحكومة ، وعضواً في جمعيات علمية وخيرية وفنية الخ .

فقوام الجماعة النظامية ليس افرادها بل القانون الذي يربط افرادها

لهذا جعلنا النظام الاجتماعي في بنية المجتمع فصلاً قائماً بذاته يتميز عن فصل نسيج المجتمع . فنسبة هذا الفصل الى ذاك كنسبة الوظيفة الى العضو . ذاك تشريح المجتمع ، وهذه فسيولوجيا المجتمع .والفصل الثاني ( نسيج المجتمع ) هستولوجيا المجتمع

فلا بدع اذاً ان يكون الباب الثاني التالي ( عقلية المجتمع ) بسيكولوجيا المجتمع

ويمكن حسبان الباب الثالث « عوامل الاجتماع » امبريولوجيا المجتمع ( أي علم تكوين الجنين الاجتماعي )

# الباب الثاني

# العقل الاجتماعي

---

## تمهيد - ماهية العقل الاجتماعي

## الفصل الاول - المنابهة والمحاكاة

ا — تفاوت المنابهة والمحاكاة

ب — سنن المنابهة والمحاكاة

ج — فعل المنابهة والمحاكاة في الجمهور

د — احتدام المنابهة والمحاكاة في الجمهور - التهوُّس

## الفصل الثاني - الاقتباس المكاني — العادات الاصطلاحية

ا — الازياء

ب — العُرف

## الفصل الثالث - الاقتباس الزماني - التقاليد

ا — طبيعة التقاليد

ب — العوامل المساعدة التقاليد

ج — العوامل المقاومة التقاليد

د — تعذر الاندماج بين الجماعات التقليدية

ه — تنازع التقاليد والعادات

# الفصل الرابع - الاقتباس القويم - الرأي العام

ا — سنن الاقتباس القويم

ب — اصطدام المقتبسات

١ً — النزاع الصامت
٢ً — العوامل التي تبت النزاع الصامت
٣ً — النزاع الصائت — المناقشة
٤ً — حالات النزاع الصائت

ج — فض النزاع

د — الرأي الاجتماعي

ه — الزعامة

# خاتمة - التوازن العام والاضطراب الاجتماعي

---

عولنا كثيراً في نظريات هذا الباب الرئيسية على نظريات روس The Social Psychology — Ross

# تمهيد

## ماهية العقل الاجتماعي

١ً — الاجتماع البشري عمل عقلي ٢ً — نسبة العقل الانساني الى العقل الاجتماعي
٣ً — الاشتراك العقلي ٤ً — التشبه ٥ً — تفصيل الباب

---

### ١ً — الاجتماع البشري عملٌ عقلي

العقل الانساني يصدر من مصنع الدماغ ، ويعمل في مُعتمَل المجتمع البشري، والدماغ او جميع الجهاز العصبي يأخذ المواد التي يصنع منها العقل الانساني من مُعتمل المجتمع نفسهِ . فكلا العقل والمجتمع متعاملان ( كما سيتضح لك في هذا الباب وفي آخر فصول الكتاب الثاني « تطور المجتمع التاريخي » ) وكلاهما يتفاعلان بحسب سنن الحركة الطبيعية التي هي حاصل عمل المادة والقوة .

المجتمع البشري لم يكن مجتمعاً بالمعنى الذي نفهمه ونريده ، كما اتضح في الباب السابق في الفصل الأول ، الاّ بالافعال العقلية التي تحدث فيه . فالاجتماع البشري ليس تجمع أفراد وجماعات ، وانما هو سلسلة أنظمة اصطنعتها العقول المتفاعلة . فالافراد المجتمعون بلا غرض ولا غاية ولا واسطة لا يعدون جماعةً بتاتاً ، ولا هم شيء في نظر علم الاجتماع . وانما الافراد المجتمعون في عرس ، او مأتم ، او حفلة ، او عمل ، كبناء دار ، او مشورة ، او أي غرض يشتركون فيه جميعاً ، يعدون مجتمعاً او جماعة . لا يعدون كذلك بالنظر الى اجتماع أجسادهم في مكان واحد بل بالنظر الى افعالهم التي هي ثمرة أفعال عقولهم . والدليل على ذلك أنه يمكن ان تقوم الجماعة بعمل اجتماعي وهي متفرقة ، كهيئة الحكومة التي تعمل وافرادها متفرّقون ، وجمعية الرهبنة ، والشركة المالية المساهمة ، الى غير ذلك من الأمثلة التي لا تحصى

اذاً العبرة في المجتمع بالأعمال العقلية المتوافقة ، لا بالابدان المجتمعة . ولذلك يعد

المجتمع جسماً عقلياً كما تُعَدُّ الشخصية الانسانية جهازاً عقلياً. وكل مباحث علم الاجتماع تدور حول الحركة العقلية التي في المجتمع، ولا شأن لمادة المجتمع الا من قبيل مساسها بالموضوع

اذاً ما هي النسبة بين العقل الانساني الفردي والعقل الاجتماعي ؟

٢ً — نسبة العقل الانساني الى العقل الاجتماعي

العقل الانساني حاصل عمل خليات الدماغ، وهذا العمل يبدو في صورٍ مختلفة تدعى قوى عقلية أهمها الشعور الحسي، والتصور، والادراك، والتخيُّل، والاستدلال، والوجدان . فهذه الاعمال صور مختلفة لحركات الخليات الدماغية، كما أن النور والحرارة والكهرباء صور مختلفة لامواج الذرّات الاثيرية

اما العقل الاجتماعي فليس المراد منه ان يكون للمجتمع قوة شعورٍ حسيّ واحدة، وقوة تصور واحدة، وقوة ذاكرة واحدة الخ، بل المراد منه ان تشترك أي قوة من هذه القوات العقلية في جميع أفراد الجماعة في عمل واحد، كقولك ان أفراد الجماعة يشتركون معاً في سمع العزف الموسيقي، فيشعرون شعوراً واحداً بالعزف، ويتأثرون تأثيراً متماثلاً باللحن، فيتحركون كلهم معاً لتصفيق الاستحسان، ومتى انتهى العزف انتهى الاشتراك بينهم . وكقولك ان الطلبة سمعوا جميعاً محاضرة الاستاذ عن نواميس الجاذبية، وشاهدوا العمليات المؤيدة للبرهان، وبقوا بعد ذلك يتذكرون ما سمعوا وما شاهدوا، وتكونت في أذهانهم عقيدة واحدة في الجاذبية ونواميسها . فاشتراكهم في تصور واحد، وتذكر واحد، واقتناع واحد، هو تعقُّل اجتماعي

اذاً المجتمع ليس له قوة تصور، او قوة ذاكرة، او قوة وجدان قائمة بذاتها ومستقلة عن قوى عقول أفراده، بل له جميع قوى أفراده منفصلة بعضها عن بعض ولكنها مشتركة في كل عمل اجتماعي بالاتفاق . اذاً المراد بالعقل الاجتماعي اشتراك أفراده في أي فكر، او عاطفة، او عقيدة، او ارادة — وبالتالي في أي عمل، لان العمل حاصل الفكرة والعاطفة او العقيدة والارادة

فنسبة العقل الاجتماعي الى العقل الفردي، كنسبة الجسم الحيواني الى الخلية

التي يتألّف من تعددها . كل خلية هي حي قائم بنفسه . فالجسم الحيواني ليس حياة واحدة بل هو مجموعة حَيَيات[1] متوافقة في عمل مشترك هو نمو ذلك الجسم وتوالده . حتى ان خليات كل مركز من مراكز الدماغ ، وهي تعد بالملايين ، تصنع الفكر مشتركة . وما أدرانا ان تكون كل خلية تصدر الفكر كاملاً . والفكر الذي يبدو من الدماغ انما هو مجموعة افكار هذه الخلايات المشتركة فيه . أي انها كلها تفتكر معاً فكراً واحداً ولكنها مستقلة بعضها عن بعض ، كما اننا نحن البشر نفتكر فكراً واحداً او نحس احساساً واحداً مع اننا مستقلون بعضنا عن بعض

فبحثنا في هـذا الباب يجول ضمن دائرة « اشتراك الافراد في أفكارهم وعواطفهم وعقائدهم وارادتهم وأعمالهم » . نبحث في كيفية حدوث هذا الاشتراك ووسائله ونواميسه ونتائجه الاجتماعية المباشرة والقصوى

٣ً — الاشتراك العقلي .

الناس بفعل الوراثة الطبيعية ، وفعل البيئات المختلفة والطوارىء المتعددة مختلفون متباينون ، ليس بينهم اثنان يتفقان في فكر ، او عاطفة ، او يقين ، او عمل اتفاقاً بديهياً او ناموسياً . فهم بحكم الطبع متباينون مختلفون متنافرون . ولكن للاجتماع الذي قضت به البيئة الجغرافية اولاً ، والنواميس الطبيعية ثانياً ، عوامل قوية لا تُرَدُّ (ستعلمها في الباب الثالث) توجب على هؤلاء الافراد ان يُعدِّلوا افكارهم وعواطفهم ، وعقائدهم وارادتهم ، واعمالهم أخـيراً ، بحيث تتوافق وتتشاكل وتتحد ، ومن اتحادها يتكون الجسم الاجتماعي . فمهمتنا في هذا الباب ان نبين كيف يمكن هذا التعديل ، وهذا التوافق ، وهذا الاتحاد

كل فرد ، وهو لا مناص له من ان يعيش بين أفراد آخرين ، مُلزَمٌ ان يعرف ماذا يفتكر غيره ، و بماذا يحس ، والى ماذا يميل ، وماذا يفعل — مُلزَمٌ ان يعلم ذلك وان يفهمه حتى يمكنه ان يكيف عمله ما استطاع بحسب عمل غيره ، وحتى يحاول ان يكيف عمل غيره ما امكنه ان يكيفه لكي يوافقَ عملَه هو — أنه مضطر الى

(١) جمع حياة قياساً على وفَيَات جمع وفاة

هذا التكييف لأنه، وهو مختلط مع غيره، تعارض أعماله أعمالَ الغير لتباين بينه و بين الغير في الفكر والعاطفة والارادة فضلاً عن القوة . واذا لم يفعل كذلك فلا يستطيع ان يعيش بل يهلك ، لأن الأفراد ، وهم محتكون بعضهم ببعض ، تكون أعمالهم وافكارهم وعواطفهم وعقائدهم وارادتهم متصادمة دائماً . وفي غضون تصادمها يشذِّب بعضها بعضاً ، ويقوِّم بعضها بعضاً ، وينمي بعضها بعضاً ، ويلاشي بعضها بعضاً . والحاصل من هذا الصدام هو الافكار والعواطف والعقائد والارادات والأعمال التي يشترك فيها الأفراد متفقين — هي العقل الاجتماعي

الانسان مخلوقٌ ذا طبيعة مستقلةٍ، في بيئة قد لا توافق طبيعته تماماً، ولا سيما لانها هي متقلبة أيضاً . فلكي يستطيع البقاء يجب ان يكيف نفسه بحسب مقتضيات هذه البيئة . فلذلك لا تظن ان فكرك نشأ من دماغك وحدك ، ولا عواطفك هي مفعول مشاعرك وحواسك وادراكك وحدك ، بل قسم كبير منها اقتبسته من غيرك ، والزمت دماغك ان يتكيف حسب دماغ غيرك . فاذاً أنت تعمل ليس بحسب ارادتك وحدك ، بل بحسب ارادة غيرك ايضاً . والاَّ فما أنت انسان اجتماعي، ولا تقدر ان تعيش في المجتمع ساعة واحدة

٤ — التشبُّه

يشترك الناس في فكر او عاطفة او عمل بفعل المحاكاة او التقليد او التشبه . ترى غيرك يصفِّق فتصفِّق . يأكل الناس الصبح والظهر والمساء ، وينامون في الليل فتفعل كذلك ، مع انك وانت رضيع لم تكن مماشياً هذا النظام . فالتقليد او التشبُّه هو وسيلة اشراك الناس في أحوالهم العقلية . وهو السمط الذي تنتظم فيه فصول هذا الباب

فالتشبُّه الفجائي ندعوه « محاكاة » ، ومنها المجاراة والمباراة . والتشبه البطيء ندعوه « اقتباساً » ومنه التقليد والاقتداء .

وحاصل اشتراك الناس في عواطفهم وأفكارهم وعقائدهم واعمالهم هو عاداتهم . فعلم عقلية الاجتماع انما هو علم عادات الناس في كل جيل

والعادات في الزمن الذي تنشأ فيه تسمى « عرفاً » او « اصطلاحاً » او « عادات عرفية او اصطلاحية » . فاذا استمرت من جيل الى جيل سميت« تقاليد» او « عادات تقليدية »

اذاً العادات ذات خاصتين : مكانيَّة وزمانية . فبالتعبير المجازي تُعَدُّ الاولى سطحية أفقية ، والثانية عمودية . الأولى تنتشر في دائرة العمران من المركز الى المحيط كانتشار الزي من العاصمة الى الأرياف . والاخرى تنحدر من علو قِدَم التاريخ في طبقات الدوائر العمرانية المنضدة بعضها فوق بعض أعلاها أقدمها ، وادناها أحدثها كعُقَل نبات القصب . وسيتضح لك ذلك جلياً في الفصول التالية

٥ً — تفصيل الباب

اذاً يتفصل هذا الباب بحكم طبيعة الموضوع هكذا :

١ — الدرجة الاولى من التشبه ، وهي « المحاكاة » الوقتية التي تحدث بين أفراد الجمهور ، واحدُها « التهوُّس »

٢ — الدرجة الثانية من التشبه ، وهي الاقتباس المستمرُّ المتكرّر بين أهل الجيل الواحد في دائرة المجتمع الحي ، وبه تنشأ العادات العرفية والاصطلاحية

٣ — الدرجة الثالثة ، الاقتباس المستمر المتكرر المُتَوارَث من جيل الى جيل ، وبه تصبح العادات العرفية « تقاليد »

٤ — الدرجة الرابعة ، الاقتباس القويم ، وهو أرقى الدرجات ، اذ يحدث تحت أمرة القوى العقلية السليمة ، بواسطة المناقشة ، وبه يتكون الرأي العام الذي هو الغاية القصوى من هذا البحث . والرأي العام هو ثمرة العقل الاجتماعي

# الفصل الاول
## المنابهة والمحاكاة

---

### تمهيد — سنة حركة الامواج

١ً — الاستهواء ٢ً — المحاكاة ٣ً — ابسط ضروب المحاكاة

### أ — تفاوت المنابهة والمحاكاة

١ً — في الجماوات ٢ً — في الاطفال ٣ً — بين الزوجين
٤ً — بين مختلفي الامزجة ٥ً — في النساء ٦ً — بين السلالات

### ب — سنن المنابهة والمحاكاة

١ً — مصدر المنابهة والمحاكاة ٢ً — وسائل المنابهة
٣ً — الحالات العقلية الموافقة للمنابهة ٤ً — المثابرة
٥ً — الانتشار — رد فعل التواتر

### ج — فعل المنابهة والمحاكاة في الجمهور

١ً — انفعال الفرد من الجمهور ٢ً — تحول الجمهور الى غوغاء
٣ً — حالات تحول الجمهور الى غوغاء ٤ً — طبائع الغوغاء
٥ً — درجات الغوغاء

### د — احتدام المنابهة والمحاكاة في الجمهور

١ً — الغوغاء المتهوّس ٢ً — سنن التهوّس ٣ً — تدارك التهوّس

( ا ) — الوسائل العقلية ( ب ) — الوسائل الصحية
( ج ) — الوسائل الاجتماعية ( د ) — الوسائل الادبية

---

# تمهيد – سنة حركة الامواج

اذا وضعت في حوض حمام مملوء ماء فلّينتين في طرفيه ، وجعلت تحرّك أحداهما حركة عمودية ، أي صعوداً ونزولاً ، في الماء ، فلا تلبث ان ترى الفلّينة الاخرى في الطرف الآخر ترتفع وتهبط أيضاً ، لان تحريك الفلينة الاولى سبّب أمواجاً في الماء ، وهذه الامواج سبّبت حركة الفلينة الاخرى — صعوداً وهبوطاً مع الموجات . فاذا تركت الفلينة التي في يدك في مكانها في المــاء ، رأيت الفلينتين تتفقان في الهبوط والصعود ، على معدل واحد ، من السرعة ، لان للأمواج قياساً واحداً

على هذا النحو نفسه يرنّ الوتر في البيانو ( من غــير ان نضرب عليه ) اذا ضربت على وتر آخر هو قرارٌ او جوابٌ لهُ ، لأن ضربك على هذا الوتر الآخر جعل هذا يهتزُّ هزات معدودة في وقت معين ، وهذه الهزات سبّبت أمواجاً محاكية لها في المسافة والعدد في وقت معين ، حتى اذا صدمت هذه الامواج الهوائية وتراً آخر تساوي هزاته هزّات الوتر الاول ، او انصافها ، او مضاعفاتها ، اهتزّ بقوة هذه الامواج الهوائية

وعلى هذا النحو اذا تخالف رقاصا ساعتين متجاورتين ، في خطرانهما ، وهما في طول واحد فلا يلبثان ان يتوافقا بعد حين ، لأن الامواج الهوائية التي بينهما توفِّق بين خطرانيهما

وعلى هذا النحو تضرب العدة التلغرافية السلكية نفس الضربات التي يضربها التلغرافيُّ في العدة الأخرى ، لان الأمواج الكهربائية التي تنتقل في سلك من العدة المصدرة فعلت نفس الحركة في العدة القابلة

وكذلك الأمر في التلغراف اللاسلكي اذ تنبعث الأمواج الكهربائية من العدة المصدرة في الأثير الفضائي ، فيتموج الاثير بها ، ويفعل نفس الحركة في العدة القابلة

وكذلك الأمر في كل عدة كهربائية سلكية او غير سلكية . ففي السلكية يكون التموج في الكترونات السلك ، وفي اللاسلكية يكون التموج في الاثير الفضائي

ومن ذلك يفهم ان الحركة يمكن ان تنتقل من متحرك واحد الى متحرك آخر في وسط او وسيط بينهما ، من هواء او معدن او أثير ، كما تقدم الوصف

٦ — الاستهواء

ويمكن ان يكون السلك العصبي وسطاً لنقل الحركة أيضاً من المتحرك الواحد الى المتحرك الآخر . مثلاً :

تسمع شخصاً يغني أغنية مألوفة ، فـلا تلبث ان تشترك معه في الغناء من غير روية ولا تعمُّد ، بل تشعر كأن النغم استهواك فغنيت . فحركة الغناء في حنجرة المغنّي الاول موَّجت الهواء ، فقرعت أمواجه طبلة اذنك ، فارتجّت ارتجاجاً يتفق مع أمواج ذلك الغناء ، فانتقلت الرجّة في سلك عصب سمعك الحساس الى المركز السمعي ، فارتجّ هذا المركز أيضاً ، وارتجاجه حرك سلك العصب الآمر لعدة الصوت في حنجرتك ،فتحركت أوتارها حركة اهتزازية كحركة أوتار المغنّي الاول

من غرائب المصادفات انه فيما اكتب هذا الكلام في متنزه على النيل مر زورق فيه بعض العامة يضرب احدهم على دربكة ضرباً مرقصاً وهم يصفقون . فما لبثت سيدة جالسة في المتنزه على مقربة مني ان جعلت تصفق مع المصفقين . ثم ما لبثت ان انتبهت لهجنة امرها فأمسكت نفسها . وكأن المصادفة الغريبة اعدت لي شاهداً على هذه النظرية

بهـذه النظرية تعلّـل تثاؤب المتثائبين حين يتثاءب احد الجلاّس . وتعلل تساوق صف الجنود في المشي على وقع الموسيقى ،أو وقع الطبل ، او الطبلة الصغيرة ، او على وقع اقدامهم. وتعلل استفزاز الموسيقى المرقصـة بعض الناس للرقص . بل به تعلل كل ضرب من ضروب المحاكاة بين افعال البشر حتى الاستهواء والتنويم المغنطيسي الخ

فمتى كان أفراد أي جماعة يتأثرون جميعاً من أمر واحد ، يرون نفس المنظر ، ويشعرون شعوراً واحداً ، ويرون كل واحد في الآخر نفس الملامح التي تعبّر عن عواطفهم ، فمن غير مفاوضة ولا مناقشة ولا تواطوء يفعلون جميعاً فعلاً واحداً ، لان السبب المحرك للفعل واحد

اذا كان جماعة في مكان وسمعوا اصواتاً او ضوضاء او عزفاً موسيقيّـاً بعيداً عنهم نهضوا جميعاً واتجهوا الى جهة الصوت لكي يعلموا ما هو ، ومن يحدثه

حتى بعض العجماوات تفعل نفس الفعل. يشاهد في الهند دائماً جماعة الافيال تتألّـب على الفيل الدخيل وتلطمه بخراطيمها حتى تطرده . وكذلك تفعل الكلاب اذا هاجها ثعلب أو ابن آوى

٢ — المحاكاة

فاشتراك الناس في الافعال والاقوال والاخلاق والعادات والآراء والعقائد الخ مبنيٌّ على هذه النظرية ، نظرية المحاكاة ، المحاكاة المتطوّرة والمترقية بما يعتورها من العوامل المختلفة في الأحوال المختلفة

فالرأي العام مثلاً انما هو تطوُّر رغائب او رغيبة اشترك في التفكير والمناقشة فيها أفراد الجمهور ، وقرعت آذانهم من جهات مختلفة صِيَغ البرهان الواحد على موافقتها ، وتداولت السنتهم هذه الصِيَغ حتى انطبعت في أذهانهم جميعاً صيغة واحدة ، وتشربت قرائحهم قياساً منطقياً واحداً لها ، ورسخت في أذهانهم عقيدة واحدة

فأول خطوة من خطوات اشتراك الجمهور في الرأي ، او العقيدة ، او العادة ، او التقليد انما هي المنابهة (١) والمحاكاة . الواحد ينبه الآخر اوالآخرين لأمر فيفطنون للأمر فيحاكونه في عمله او في قوله . أي ان المنابهة والمحاكاة هما الخيطان الأولان اللذان يُنسج منهما العقل الاجتماعي

وليس ذلك فقط ، بل ان العقل الفردي ، أي عقل الشخص الاجتماعي الواحد ، انما هو ثمرة تفاعله مع عقول بني جنسه . ولولا هذا التفاعل لما ارتقت قوى العقل الانساني من وجدان وتصوُّر وتخيل وادراك وذاكرة واستدلال واستنتاج وتعليل الخ ، ولولا ان يكون الانسان اجتماعياً يتسنَّى له هذا التفاعل العقلي لما ارتقى عن درجة البهمية بتاتاً .

فاجتماعية الانسان لم ترقّ العقل الاجتماعي فقط ، بل كانت السبب الأساسي في ارتقاء العقل الفردي أيضاً . واذا حجبت طفلاً عن سائر العالم ، وربّيته منفرداً ، شبّ وهو لا يزال أبله ، قد لا يختلف عن سائر العجماوات الاَّ باستعداده الوراثي للتعلم والاختبار . فهذا التفاعل العقلي لا يتأتى الا بوسيلة المنابهة والمحاكاة

---

(١) فعل نابه مشتق من نبَّه على القياس . والمراد منه ان الواحد ينبه الآخر لأمر فيفطن له هذا الآخر . فالأول منابهٌ والآخر محاكٍ له اي يعمل كعمله او يقول كقوله

٣ — ابسط ضروب المحاكاة

المنابهة والمحاكاة هما عملية عقلية مفاجئة تحدث من غير رويّة ومن غير ارادة جازمة ، بل هي مطاوعة طبيعية بفعل تأثير متحرك على متحرك آخر . كتثاءبة الواحد اذا تثاءب الآخر .

اذا رأيت شخصاً يحييك باشارة اليد تحييه في الحال بمثل اشارته ، وانت لا تزال تفكر في شؤونك الخاصة التي استغرقت كل فكرك . وقد لا تتذكر انك رأيته يُحييك ، وانك رددت له التحية . تشم رائحة الطعام الشهي فيسيل امابك اشتهاء له ، تسمع عزف آلات موسيقية فلا تلبث أن تضرب بكفك على ركبتك ، او على الخوان الذي امامك ، او بقدمك على الارض كضرب « التـك » و « الضم » الذي يضربه الموسيقيون . واذا كنت تالف اللحن فلا تلبث ان « تدندنه » ، اي تغنيه همسا

وقد يكفي الوهم ان يحدث المحاكاة ، او هذه المطاوعة التي اشرنا اليها آنفاً . مثال ذلك ان طبيبا ابلغ امرأة تحت العملية الجراحية انه « سيبنجها » تبنيجاً موضعياً فلا تحس بالألم . ولكنه شرع يشق الخرّاج من غير أن ينبج التبنيج الموضعي ، والسيدة لم تتألم الا قليلاً جدًّا لاعتقادها ان الطبيب بنّج مكان العملية

ومما روي من هذا القبيل ان استاذاً في الكيمياء قال لتلامذته ان في الزجاجة التي امامه سائلاً ذا رائحة خاصة تفوح في الهواء سريعاً ،وانه يريد ان يعلم من يشمها اولاً ومن يشمها اخيراً. ثم سكب قليلاً من الزجاجة على قليل من القطن ، وترك القطن امامه ، وجعل ينظر الى الطلبة ليرى من يرفع أصبعه أولاً للدلالة على انه شم الرائحة ، ففي بعض الدقيقة كان معظم الصف الاقرب اليه يرفعون اصابعهم . ثم تلاهم آخرون . وفي نهاية الدقيقة كان ثلاثة ارباع الطلبة يدّعون انهم شموا الرائحة . والحقيقة ان السائل كان ماءً اعتياديًّا لا رائحة له . وانما أراد الاستاذ ان يمتحن فعل الوهم في الطلبة

وحاصل ما تقدم ان المنابهة والمحاكاة عملية عقلية طوعية ، قلّما يكون للارادة والتعقل شأنٌ فيها . واذا تصدّت لها الارادة وانبرى لها التعقل حالا دونها . اذا كان من داعٍ للحيلولة . فمتى تنبهت الى ان التصفيق مع المصفقين لا يعد لائقاً امتنعت عنه لأن التعقل والارادة يكفانك عن المحاكاة

## ا — تفاوت المنابهة والمحاكاة

فلهذا السبب تتفاوت قوة المنابهة والمحاكاة باختلاف الاشخاص من وجهات مختلفة كالسن والجنس والسلالة الخ . وانما القاعدة العمومية هي أنه حيثما يكون التعقل والارادة ضعيفين تكون المنابهة والمحاكاة قويتين ، والعكس بالعكس

١ — في العجماوات

تجد المنابهة والمحاكاة في الحيوانات التي لها شيء من طبيعة الاجتماعية ولا سيما في اشباه الانسان ، الاوران والشمبانزي والغوريلاً ، وما دونها ( كالقرود ) وهي مشهورة بالتقليد ، والحيوانات التي تعيش قطعاناً واسراباً كقطعان الغنم والمعزى .

فاذا وضعت في معبر ضيق أمام قطيع من الغنم عصاً تواثبت الغنمات من فوقها تباعاً . واذا ازلت العصا في اثناء ذلك بقيت تتواثب الى ان تعبر كلها ، كان العصا لم تزل موجودة. فليس وجود العصا ما كان يحمل الغنمات الاخرى على الوثوب ، بل منابهة سابقاتها لها ، ومحاكاتها هي لتلك. طيران الحمام اسراباً انما هو من هذا القبيل ، وبفعل هذه القوة تحتفر اسراب النمل اوكارها ، وتصنع اسراب النحل شهدها

روى بنيامين كد في كتابه « علم القوة » [1] أنه ربى نوعاً من الحمام مع طيور الزاغ والصقر التي تأكل اللحوم النيئة ، فكبر الحمام معتاداً أكل اللحوم اقتداء بالصقر والزاغ ، مع ان الحمام من آكلة الحبوب فقط . ولما كبر ذلك الحمام لم يعد يأكل الحبوب اذا رميت له

وذكر أيضاً ان الأرنب البري لم يعتد حفر الأوجرة قط ، فربى أرنباً برياً مع الارانب الداجنة، فما لبث أن جعل يقتدي بها في حفر الوجار والحفر بيديه الأماميتين، ويقذف بالتراب الى ما بين ساقيه الخلفيتين .

٢ — في الاطفال

الاطفال أشد البشر مطاوعة او خضوعاً لقوة المنابهة والمحاكاة . كلٌّ منا يلاحظ ان الطفل الواحد يتشبه تمام التشبه بأخيه ، او إخوته الذين هم اكبر منه ، او بأبويه اذا كان الابن الأول . تراه يعمل كأنه ينسخ عمل غيره طبق الأصل تماماً ، حتى أنه يمثل أدق الحركات . وهذا هو السبب في ان الابن يأتي نسخة لأبويه في اخلاقه وعاداته ولهجة كلامه وألفاظه الخ .حتى انه يزداد مشابهة لأبويه في السحنة، لان أفعاله المشابهة لافعالهما تؤثر في شكل ملامحه ، فتقرب لملامحهما ، فضلاً عما يرثه منهما بسبب ناموس الوراثة الفطري

---

(١) Science of Power, Page 281-2.

لهذا السبب يجب ان نعلق أهمية عظمى على القدوة للأطفال، والحذر الكلي من اتيان أي منكر او فرية او أي عادة سيئة، او من لفظ أية كلمة بذيئة أمام الأطفال ، لأنهم لضعف تعقلهم وارادتهم تستحكم فيهم قوة المنابهة والمحاكاة في ما تقدم . هذا هو معنى القول ان عقل الولد كالشمع سريع الانطباع . وهو مصداقٌ للقول « العلم في الصغر كالنقش في الحجر »

ولهـذا السبب لا تقبل شهادة الاطفال، لأن المستجوب يستطيع بمهارته في الاسئلة ان يستخرج من الطفل الشهادة التي يريدها، اذ يمكنه ان يوهم الطفل أنه رأى وسمع مالم يرَ ولم يسمع

٣ً — بين الزوجين

الزوجان اكثر تلازمًا في الحياة من سائر أفراد الجماعات ، فتتكرَّر بينهما المنابهة والمحاكاة دائمًا . ولذلك لا بد ان يحدث بينهما التشابه والمشاكلة في كثير من العادات والاخلاق والآراء والافعال . وتشاكلهما او محاكاتهما في أفعالها اليومية تؤثر تدريجًا على ملامحهما ، لأن الملامح تحت فعل تأثيرات الحركات العضلية . فكلما تماثلت الحركات العضليَّة في الوجه وسائر الجسم تكيفت تلك العضلات تبعًا لاعمالها متشابهة كتشابه أعمالها . فلا يكاد ينقضي العمر الطويل حتى ترى الزوجين متشابهين في السحنة كثير التشابه

٤ً — بين مختلفي الامزجة

الغالب ان الاشخاص العصبيّي المزاج والحاديّ الطبع اكثر خضوعًا لقوة المنابهة والمحاكاة من الباردي الطباع . ولابدعَ، فأن اولئك شديدو التَّسرُّع . والتسرع لا يدع فرصةً لحكم الارادة . والاشخاص اللينو العريكة اللطفاء الودعاء اكثر مطاوعة لقوة المنابهة والمحاكاة من الاشخاص الشكسين الشرسين

لاحظ ان الخطيب أو الواعظ يؤثر على ٧٠ أو ٨٠ بالمئة من الناس بواسطة عواطفهم ، وعلى ٢٠ بالمئة بواسطة تعقلهم.وبهذا تنجح الخطابة التي تضرب على اوتار العواطف اكثر من التي تضرب على وتر العقل ، لان تلك أرنُّ جدًّا من هذه ، واسرع مردًّا للصدى . نقول هذا لان

تأثير الخطابة ضرب من ضروب المنابهة والمحاكاة، والمطاوعة للتنبيه . اذا القى خطيبٌ خطبة في امر ذي شأن عظيم عند الجمهور ،فبقدر ما له من قوة الاستهواء وتحرك العواطف، وبقدر ما في الجمهور من الاشخاص العصبي المزاج يكثر القائلون من حضّارة: « الحق معه » ويقل القائلون: « المسألة فيها نظر » . واقل منهم من يقول: « انه مهوّل مهيلم » . وكلما مرَّ الوقت على الخطبة انسحب الافراد من القائلين الاولين وانضموا الى الآخرين

لاحظ في حفلات الرقص والغناء ونحوها تجد ان العصبي المزاج أول من يتحفزون للرقص او للغناء حالما تعزف الآلات الموسيقية . وهم اكثر من يصفق للخطيب . فقد يبتديء الباردو الطباع الصلبو المزاج بالتصفيق لانهم استوعبوا المعنى قبل غيرهم، وينتهون منه على اثر ابتداء العصبي المزاج به .واقوى هؤلاء مزاجاً عصبيًّا آخرهم في التصفيق ، فكأنهم لا يصفقون للخطيب بل لمحاكاة غيرهم المصفقين

٥ً — في النساء

واذا كان المزاج العصبي من أهم أسباب المطاوعة لقوة المنابهة والمحاكاة فالنساء اخضع لهذه القوة من الرجال، لان مزاجهنّ اكثر عصبية من مزاج الرجال . ونساء الشرق أخضع لها من نساء الغرب، للسبب عينه . ولعل السبب في ذلك ان المراكز العصبية العاطفية في النساء أهيج منها في الرجال، فلا يسهل على المراكز العقلية العليا السيطرة عليها حين هياجها لضعفها . وسبب هـذه الحالة العقلية في المرأة انها أقل تمرساً على التفاعلات العقلية من الرجل

يقول الخبيرون بالتنويم المغنطيسي ان النساء اكثر خضوعاً للتنويم من الرجال . وان ٢/٣ الهستيريات يخضعن له في حين ان ١/٥ الهستيريين فقط يخضعون . ولا يخفى ان الاستهواء المغنطيسي أقوى ضروب المنابهة والمحاكاة .

وقد احصى احد اساتذة التنويم ٣٦٠ حادثة تنويمية منها ٢٦٥ مرأة و٤٥ ولدا و٥٠ رجلاً . ويلاحظ ان الهستيريا التي تمنح ذويها خاصة الخضوع بقوة المنابهة والمحاكاة هي اكثر حدوثاً بين النساء منها بين الرجال

ويلاحظ ان تبشير المرسلين المسيحيين في الامم الاخرى بغية تنصيرهم اعظم فعلاً في النساء منه في الرجال . فقد روى احدهم انه استطاع ان ينصر رجلاً واحداً مقابل ست نساء نصرهنَّ . ولا يخفى انَّ لقوة المنابهة والمحاكاة شأناً عظيماً في الاعمال التبشيرية من ترتيل ووعظ

ترى في البلاد التي تشيع فيها العرافة « وقراءة البخت » ان العرّافات اكثر من العرافين لانهن انجح بين النساء من العرافين بين الرجال . وفي القرون الوسطى كانت العرّافات في اوربا خمسين ضعفاً للعرّافين .

ولشدة استسلام المرأة لفعل المنابهة والمحاكاة يخشى من منحها حق الاشتراك مع الرجل في الانظمة السياسية والاجتماعية ، مالم تتمرّس كالرجل على التفاعلات العقلية ، حتى تقوى فيها المراكز العقلية المسيطرة التي تصون عواطفها من ذلك الاستسلام .

٦ً — بين السلالات

قد يمكن الاستنتاج من جراء الاستقراء ان قوة المنابهة والمحاكاة تضعف قليلاً مع التمدن ، لتمرُّس القوى العقلية على الحكم السريع في الامور ، وسيطرة المراكز العقلية العليا ، كالتعقل والاستدلال الخ على المراكز العاطفية . ولذلك تعد عقول الاقوام المنحطة الين لقبول التنبيه وللمحاكاة بلا تروٍّ ولا حكم

لهذا تلاحظ ان القبائل الهمجية اذا هبَّ فرد فيها للرقص هبَّ الكلُّ معه . يكاد يستحيل ان تجد واحداً او قليلين يرقصون في حلقة من جمهور ، بل كلهم يرقصون ، وكذلك كلهم يعدون لو ضرب احدهم الارض او عماد الخيمة او اي شيء بعصاه لحذا حذوه كثيرون في الحال من غير ان يكون لذلك سبب

« في سنة ١٨٨٩ الى ١٨٩٢ نشأت بين هنود اميركا رقصة دينية روحانية ، فانتشرت بسرعة غريبة بين عديدهم وهم يناهزون الستين الفاً . فالقصد الاساسي منها الرقص المقدس ، وانما يوحيها للراقصين حكيمٌ او طبيب فيهم بفعل التنويم المغنطيسي ، حتى يستولي عليهم الذهول . ولا يزالون يرقصون تحت تأثير الحكيم حتى يتهكوا الواحد بعد الآخر ، وينصرعوا في حلقة الرقص ، الى ان يبلغ عدد المنتهكين المئة ، فيتوقفون عن الرقص ، ثم يجلسون في دائرة ، وكلما ثاب واحداً من الصرعى الى رشده دعي الى وسط الحلقة لكي يروي ما شعر به »(١)

في اواسط الصين شيء من ذلك اذ تسطو على عقول بعض الافراد حال شبه جنونية ، فلا تلبث ان تنتشر بين الجمهور الى حين . والغريب في هذه الحالة ان الشخص المفتون الاب تبدو فيهِ شخصية اخرى غير شخصيتهِ المعهودة في حالته العادية

الأُمم السلافية أشد الأُمم المتمدنة تأثراً بالمنابهة وتسرعًا للمحاكاه . وهذا كان السبب في خضوعها في الماضي للقياصرة ، كما أنه كان السبب في انصياعها لسلطة السوفيات ، لمجرد القول ان حكم السوفيات هو المنقذ من الاستبداد القديم

وتُعَدُّ الامم اللاتينية أخضع لقوة المنابهة والمحاكاة من الامم التيوتونية الجرمانية والانجلوسكسونية . ويلاحظ جيداً ان الافرنسيس مثلاً اشجع في الحرب وهم جيوش

---

(١) روس : الفلسفة العقلية الاجتماعية ، فصل ٢

مجيَّشة منهم وهم أفراد ، خلافاً للانكليز مثلاً ، فأن الجندي الانكليزي قلما يزيده التجمع الجيشي شجاعة على شجاعتهِ . وحاصل هذا القول ان الجندي الانكليزي او الالماني قد يكون أشجع من الجندي الفرنساوي او الطلياني او الاسباني . ولكن الجيش الفرنساوي او الطلياني او الاسباني أشجع وافعل من الجيش الانكليزي او الالماني

بهـذه النظرية يمكنك ان تعلل لطف اللاتيني وكياستهِ ، وخشونة الانكليزي او الالماني وجفاف معشرهِ . فذاك أسرع انقياداً لعواطفهِ من هذا

# ب — سنن المنابهة والمحاكاة

١ً — مصدر المنابهة والمحاكاة

الانسان لا يتنبه لكل منبِّه ، ولا يحاكي كل منابهٍ . فلا بد ان يكون في المنابه مزيَّة ، تستنبههُ او تدعو لانتباههِ ، وتثير عجبه او اعجابه ، وتوجب دهشته ، وتخبل قوة التعقل فيه حتى تحمله على المحاكاة والمطاوعة ، قبل صدور الحكم العقلي وأمر الارادة . فهذه المزايا التي يختص بها المنابه ، ويؤثر بها على المحاكي ، تختلف باختلاف الاحوال والاشخاص . مثال ذلك الطفل او الغلام لا يعجب اذا كان أبوه النجار يصنع أجمل وأفضل متاع من أمتعة البيت لأنه الف رؤية أبيه نجاراً . ولكنه يعجب اذا رآه قـد رمى ببندقيتهِ عصفوراً طائراً ، فيتمنى ان يفعل فعله ، ويحاول ذلك . فهو لا يعجب ولا يندهش الاَّ للعمل الجديد الذي يستحبه وغيره يعمله أفضل منه . فمحور المزية التي تعجبه « المقدرة » او « القوة » . بل ان « القوة » هي نواة كل مزية تقريباً ولو بالتأويل والتخريج

لذلك ترى الاحداث يشتهون ان يلبسوا الملابس العسكرية ، لأنهم يعجبون بقوة الجنود . بل ان البالغين يتوقون الى التشبه بالاشخاص الاقوياء — في أبدانهم وفي ما لهم وفي نفوذهم . فالغلام يتوق وهو صغير ان يركب الجواد ليكون فارساً .

والفتى يتوق ان يكون غنياً كفلان حتى يستطيع ان يقتني ما يقتنيه ، او سياسياً عظيماً كفلان حتى يكون ذا سؤدد وسيطرة الخ . وهيهات ان تجد من يتمنى ان يكون مثل باستور او مثل سبنسر مثلاً . تجد كثيرين عندنا يتوقون ان يكونوا مثل رياض باشا ونوبار باشا او سعد باشا مثلاً ، وقل ان تجد من يتمنّى ان يكون مثل قاسم بك امين ، او الشيخ محمد عبده

لذلك ترى ان الابطال الذين فيهم مظاهر القوة مهما اختلف نوعها هم الذين يستطيعون ان يستميلوا عواطف الجمهور ويقودونه .

كذا نابوليون قاد فرنسا لحروب اوربا عدة سنين . وكذا استطاع لنكولن ان يهيج الاميركان لاجل خاطر العبيد السود . وكذا استطاع زغلول باشا ان يسيطر على عواطف الشعب المصري — في كل من هؤلاء نوع من البطولة يدهش الجمهور فيستهويه

٢ً — وسائل المنابهة

لا يجب ان تكون المنابهة بين شخص وأشخاص ، كما تقدم الشرح ، بل يمكن ان تكون باساليب أخرى ، منها :

اولاً القراءة . فان كثيرين يتهوّسون بما يقرأون من غير ان يزنوا ما يقرأونه . فقد يقرأ الواحد الآن عن حادث فتتعيَّن في ذهنه قضية يعتقدها يقينية ، حتى اذا قرأ الحادث عن مصدر آخر فلا يلبث ان تقوم في ذهنه قضية أخرى تنقض القضية اليقينية التي تعينت في ذهنه آنفاً

كثيرون من الذين يطالعون الروايات الخيالية يتأثرون منها كأنها حوادث واقعية ، وقد يذهلون عن كونها خيالية

كثيرون ممن يقرأون عن الاشخاص الممتازين يتوقون الى ان يقتدوا بهم في كل شيء من غير ان يتحققوا ان كانوا اهلاً للاقتداء بهم . أعرف شخصاً يحب قرض الشعر ، فكان يسكر لان أحد الشعراء كان يسكر لينظم

ثانياً الخطابة . فهي أشد من القراءة تأثيراً في المنابهة . فقد يبلغ من أمر المتأثرين من خطبة الخطباء ان يتحمسوا للتضحية لاجل القضية التي يستفزهم لها الخطيب

والتمثيل من نوع الخطابة ، وانما هو ابلغ ، وله شأن عظيم في التنبيه . ما استفزت جان درك شعبها بقصة حلمها بقدر ما استفزتهم بطلوعها في طليعتهم

ثالثًا — المنابهة الذاتية . أحيانًا يأتي الانسان أمراً لا لقصدٍ منه ، بل لان أمراً آخر في يقينه نبهه اليه ،فيفعله من غير روية ، اللهم اذا كان مستغرقاً في التفكير في أمر ذي شأن . قد تضع قلم الرصاص في فمك لحسبان أنه سيكارة ، فأنت مستغرق الفكر في أمر ، فأمسكت القلم وأمامك « النفاضة » ( أي وعاء رماد السيكارة ) ، فنبهتك النفاضة للسيكارة ، فوضعت القلم في فمك كانه سيكارة

روي ان شخصاً دخل الى غرفة النوم لكي يبدل ملابسه لمقابلة شخص طالب مقابلته في منزله . فلما خلع ملابسه الاولى ذهب توًّا الى السرير ونام لان مشاهدته السرير افكرته بالنوم ، فنام وهو مشغول البال في امر ، ونسي انه دخل الى الغرفة ليبدل ملابسه استعداداً لمقابلة زائر

تاب سكير عن الشرب، ولكنه ما مرَّ من امام الحانة التي اعتاد ان يسكر فيها الاَّ دخلت بهِ قدماه اليها ، ولا يفطن الى خطائهِ الاَّ وهو في الحانة

رابعًا— التنويم المغنطيسي . ولا ريب ان التنويم المغنطيسي أفعل وسائل المنابهة والمحاكاة ، بل هو أعظم منهما استمالة او استهواء تضعف الارادة دونه ،بل ان التعقل يختبل لديه وينقاد عقل المنوَّم بكليتهِ لارادة المنوّم

الراجح جدًّا ان المشعوذين الهنود يتذرعون الى خوارقهم بالتأثير التنويمي على المشاهدين ، اذ لا تجد تعليلاً لهذه الخوارق غير هذا التأثير

فمن امثلة ذلك عملية الصعود على الحبل المعلّق في الهواء . فان المشعوذ يقذف طرف حبل في الجو ، فترى الحبل معلقاً بلا شيء ، ولكنك لا ترى طرفه اذ يتلاشى منظره رويداً . ثم ترى المشعوذ يصعد على الحبل متسلقاً الى ان يختفي ايضاً . ثم ترى ان الحبل قد سقط . وبعد قليل ترى المشعوذ داخلا عليك من جهة اخرى

وقد روى عملية الحبل هذه كثيرون من مشاهديها الذين لا ينخدعون بالظواهر بسهولة ومنهم الكولونل برنارد رئيس بوليس كلكتا . وقد صوَّر العملية بعدته الفوتوغرافية. ولكن لما رام ان يستظهر الصورة لم يجد شيئا (١)

---

(١) بسطت الحكاية في العدد الخامس من السنة الثالثة لمجلة السيدات والرجال

ومن ذلك ايضا حكاية شجرة المانجو . فان المشعوذ يدفن في الارض بزرة مانجو . وفي دقائق معدودة ترى شجرة مانغو تنبت وتنمو نمواً سريعاً فلا تلبث ان تراها شجرة ضخمة باغصان وورق وثمر ، ثم لا تلبث ان ترى غصونها قد تحولت تدريجاً الى اغصان شفافة لا ظل لها . ثم جعلت تتلاشى شيئاً فشيئاً . روى هذه الحادثة مشاهد انكليزي يدعى الدكتور هنسولد Hensoldt ، وقال ان المشعوذ كان يتكلم فيخلب الالباب . وفي خلال ذلك دخل شخص آخر الى مكان العملية ، فلم ير شيئا مما رآه الحاضرون ، لانه لم يحضر الحادثة من اولها

٣ — الحالات العقلية الموافقة للمنابهة

اولاً — الاستغراق في التفكير — أفضل الأحوال العقلية للانفعال بقوة المنابهة والمحاكاة استغراق القوى العقلية في أي أمر . لاحظ ان الطلبة في غرفة الامتحان الخطي مثلاً اذا سعل واحدٌ منهم سعل معظمهم من غـير ان ينتبهوا . اذا صفَّر احد الكتبة لحنـاً بين زملائه ، وهم مستغرقون في عملهم ، ردَّد كثيرون منهم التصفير معه

تستطيع ان تستفز الجمهور لنجدة او لأي أمر اذا كانوا منهمكين في حزن او فرح اكثر مما اذا كانوا متقاعدين في قهوة او حانة

ثانيًا — الونى العقلي والعصبي يجعل المراكز الدماغية المسيطرة على العواطف ضعيفة ، فيكثر الاستسلام والانقياد والتأثر بالاوهام — يمكنك ان تلاحظ ذلك في الاشخاص الذين يكثرون من الاشغال العقلية ويُعنتون عقولهم في التفكير والتبحُّر . ولعلَّ تهوُّس العلامة السير اوليفر لودج والمستر ستيد ( الذي انشأ مجلة الرڤيواف رفيو وغرق مع الباخرة تيتانيك) بمسألة الأرواح انما هو من هذا القبيل ، أي انقياد عقلها واستسلامها للاوهام . ويُذكر معها فلاربون أيضًا ، وان كان أقل تهوسًا منهما . ويضاف اليهم الدكتور كونان ندويل مؤلف روايات شارلوك هولمز ، فهو أشدهم تهوسًا بمسألة الارواح

يلحق بالونى العقلي اضعاف الجسم بالصوم والتقشف . والاعتقاد الشائع في كل مكان ان التصوف او الاتصال بالله لا يقوم الاَّ بالصوم فضلاً عن الصلاة . حتى الذين يستحضرون الأرواح يتذرعون الى استحضارها بالصوم

الغلام الهندي في أول سن البلوغ يظل صائماً حتى يرى روح « قرينته » أي النسخة الثانية لطيفه الروحاني . وفي هذه الحالة يكون الشخص أشدّ تأثراً وانفعالاً لأي المنبهات

ثالثاً — الهستيريا ونحوها — وربما عُدّ عصرنا هـذا أكثر العصور اجهاداً للمجموع العصبي ، وتعريضه للتأثر السريع والانفعال والمفاعلة ، قبل تسيطر التعقل والارادة . فقد أصبحت الحياة اليومية محاطة بالمنبهات العديدة المختلفة لكل فرد تقريباً ، من علائق في المعاملات ، الى مشاكل متنوعة ، الى ملاذ تهيج العواطف ، الى مناظر سنما ، الى تمثيل ، الى جرائد فكتب فمجتمعات في أندية فمراسلات فاسفار ، الى غير ذلك مما تتوزع معه أفكار الانسان وتحمِّل أعصابه أحمالاً ثقيلة . ولا يخفى ان الهستيريا والنوراستينيا ، وكثيراً غيرهما من الأمراض العصبية والعقلية ، انما هي نتيجة هذا المشاغل المتعددة والاحوال العديدة المهيجة للاعصاب . وقد علمت فيما سبق ان الهستيريا من أهم الوسائل لجعل ذويها خاضعين لقوة المنابهة والمحاكاة

٤ — المثابرة

تكرار المنابهة والمحاكاة شرط لازم لطبع سجية ، او انشاء عادة ، او انشاء أي حالة عقلية في شعب . فالزعيم لا يقدر ان يستميل جمهوراً من أول خطبة مهما كانت بليغة . فلا بدّ له من تكرار الخطب

الاعلان في الجرائد وغيرها لا يوجه نظر الزبائن وافكارهم الى المعلَن من أول مرّة ، بل لابد ان يتكرر الاعلان مراراً قبل ان يفعل فعله في ألباب الجمهور

الغلام لم يتشبَّع بعقيدة أبويه ، لأنه اقتنع بصحتها ، بل لانها طبعت في ذهنه مراراً وهو اقتنع بصحتها لتكرار هذا الانطباع ، لا لقوة البرهان

قضى المرسلون في اوغندا خمس سنين منذ سنة ١٨٨٢ حتى استطاعوا ان ينصروا شخصا واحداً . وفي السنة السابعة كانوا منصرين ١٠٠ شخص . وفي السنة التاسعة كانوا منصرين ٤ آلاف

تشابه الزوجين الذي سبقت الاشارة اليه انمــا هو من قبيل مثابرة المنابهة والمحاكاة كما علمت

٥ — الانتشار — رد فعل التواتر

الفرد يشتد تأثره وخضوعه لقوة المنابهة والمحاكاة متى كان في جمهور أكثر مما لو كان بين قليلين . واذا كانت هـذه السنة مطردة ومتمشية على كل فرد تقريباً، كان بحكم النتيجة المنطقية ان الجمهور يكون أشد احساساً وتأثراً بهذه القوة من الفرد ،او من الجماعة الصغيرة ،أي ان هذه القوة تفعل في كثيرين أكثر مما تفعل في قليلين ، كأنّ الاجتماعية تزيدها فاعلية . لا تصفق اذا صفّق واحد فقط ، ولكن اذا صفق اثنان او ثلاثة تندفع معهم بالتصفيق . فاذا صفق الاثنان او الثلاثة او عدّة استفزوا الجميع للتصفيق ، حتى ولو كان فيهم كثيرون لا يميلون اليه . أي ان الانسان يندفع مع الجمهور أكثر مما يندفع مع أفراد قليلين او مع فرد واحد

فلذلك ترى ان الاحساس اذا تبادله قليلون انتشر قليلاً ، وكلما كثر متبادلوه اتسعت دائرة انتشاره ، حتى ان المنبه الأول له ، او المنبهين الاولين الذين كانوا مصدره اولاً يصبحون مندفعين مع جمهور المحاكين كأنّهم من جملتهم ، ويصبح الجمهور برمته كأنّه المنبه . فالمصفق الأول يكون اولاً مثيراً للجمهور ، فلا يلبث ان يصبح الجمهور مثيراً له

خطر لبعض الكتاب ان يستعمل لفظة « فحسب » بمعنى فقط ، كقولك « لم يفعل هـذا فحسب، بل فعل كذا وكذا »، فتناقلها عنه سائر الكتاب معما في استعمالها من الهجنة لمخالفتها المألوف، حتى صار المستعمل الاول ومن اقتفى اثره يعتقدون انها آية في البلاغة

اغرب من ذلك انتشار استعمال اداتي الاستفهام الهمزة وهل « معا » ( أهلْ ) حتى صار الكتّاب المعروفون يستعملونهما معا هكذا غير منتبهين للخطأ . وربما استحسنوا استعمالهما بالرغم من علمهم انه خطأ من قبيل التأكيد في الطلب .ومن هذا القبيل استعمال « هو الآخر » وهو عاميّ ،وربما كان مخلاً بالبيان العربي. ومنه استعمال الادباء لفظ « ضرب عن العمل» بدل « اضرب» لاقتباسهم اياه عن السنة عمال الترام ونحوهم . واغرب من كل ذلك ان نسمع اديباً يقول اعتَقل فلانٌ ( على المعلوم) ، بدل اعتُقِل ( على المجهول)

كل ذلك يدلك على ان الجمهور يقوي فاعلية المحاكاة ويوسع دائرة انتشارها بسرعة و بسهولة

لما كان الحلفاء يهاجمون الدردنيل وقد كلّوا عنه، قال كاتب هذه السطور ذات يوم في جماعة : « لو يمكن الحلفاء ان يحتفروا قناة بين بحر ايجه وبحر مرمرة لمرور اسطولهم » ( وهي فكرة متمنّ لا محقق ) وما هي الا اسابيع قليلة جداً حتى تواتر القول ان الحلفاء عمدوا الى حفر قناة في برزخ غليبولي لعبور الاسطول، وكان بعضهم يؤكدون انهم قرأوه في الجرائد الافرنجية والعربية ايضاً. ولا يبعد ان يكون احد المحررين هنا قد تأثر من تواتر الخبر فنشره ، واخيراً ملت للاعتقاد في صحة الخبر اذ قام عندي ظن ان الفكرة لرجال الحرب ، وخطرانها في بالي كان من قبيل توارد الخواطر ، الى ان نشرت حينئذ احدى الجرائد المحلية مقالا صغيراً ابانت فيه استحالة هذا العمل في مدة الحرب

ولما كانت المدهشات أشد تأثيراً في النفوس وادعى للمحاكاة كانت اخبار الخوارق والسحر ونحوها سريعة الانتشار . وكلما اتسعت دائرة انتشارها قوي الاعتقاد بصحتها ، حتى يكاد هذا الاعتقاد يتسلط على العقول العنيدة التي لا تستسلم لاوهام الخرافات والشعوذات .

تجد في الدوائر العالية حتى في دوائر العلماء من يعتقدون بسحر الهنود ، لأن كثيرين من أهل العقول الراجحة شاهدوا الشعوذات الهندية ولم يستطيعوا تعليلها ، فاعتقدوا بسحر الهنود ، ورووا مشاهداتهم لغيرهم متقنة الرواية ، فحملوا اولئك الغير على الاعتقاد بصحتها . وهكذا صار يؤكد لك سحر الهنود وخلوه من الشعوذة كل من سمع أخباره نقلاً عمن سمعها نقلاً عمن سمعها ممن شاهدها . ولا يبعد ان يقول لك أنه هو شاهدها بعينه

فمن ذلك يستخلص أنه كلما اتسع الوسط او البيئة الاجتماعية لانتشار المحاكاة اشتد خضوع الفرد للرأي العام ، وقل استقلاله في رأيه واعتقاده ، والعكس بالعكس ، أي كلما ضاقت دائرة الانتشار قلّ تأثر الفرد برأي الجمهور ، وكان اكثر استقلالاً بفكره . وربما كان هذا الأمر سبباً في أن الجماعات الكبيرة تصنع شخصيات صغيرة . وان الشخصيات الكبيرة تنهض على الغالب من بين الجماعات الصغيرة

وبسبب هذه السنة يجد الزعيم مشقة كبيرة في بدء انشاء حزبه وتكوينه ، وسهولة في الآخر . فكلما نما الحزب قلّ عناء الزعيم ، لأن المنابهة التي كانت تصدر منه اولاً صارت تصدر من كثيرين من غيره ممن انضموا الى الحزب . وكذلك الأمر عند المعلن وصاحب كل دعوة .

## ج - فعل المنابهة والمحاكاة في الجمهور

الى هنا وجهنا النظر في الغالب الى تأثير قوة المنابهة والمحاكاة في الافراد على اختلاف طبائعهم وامزجتهم وأحوالهم وعقلياتهم الى غير ذلك . والآن ننتقل الى تأثير هذه القوة في جمهور الأفراد جميعاً ورد فعلها الى الفرد

١ً — انفعال الفرد من الجمهور

بحسب سنة انتشار قوة المنابهة والمحاكاة الآنف ذكرها تكون فاعلية هذه القوة في أشدها على الفرد حين يكون في وسط جمهور ، وهو لا يستطيع ان يكف نفسه عن الاندفاع في مجاراة الجمهور لكي يسيطر على تصرفاته وحركاته

اذا كان الانسان وهو في وسط الزحام الشديد والناس يضغطون على بدنه من كل جهة لا يستطيع ان يتحرك من مكانه كيفما شاء ، بل يضطر ان يندفع مع الحشد كيفما جرى تياره ، فما قولك اذا كان الحشد عاطفياً أيضاً، والعواطف أشد قابلية للانضغاط من الأبدان ، لأنها اكثر مرونة ؟

الهوانم المصريات اللواتي لا يجرأن ان يتفوّهن بكلمة لغير ذويهنّ لما وجدن انفسهن في وسط الغوغاء (١) المتحمّس للوطن في المظاهرات جرؤن على الوقوف في المركبات والاتوموبيلات والهتاف للوطن . وهو امرٌ لم يخطر في بالهنّ ان يجرأنَ عليه، وانما وجودهنّ في وسط الجمهور والحماسة الوطنية تضغط على العواطف من كل صوب امدتهنّ بالجرأة

---

(١) نلفت نظر القاريء الى اصطلاحنا الخاص في استعمال لفظتي الجمهور والغوغاء . فبالجمهور نعني به جمعاً لم تتجه حواسه وعواطفه الى جهة معينة يشترك فيها افراده . وبالغوغاء نعني جمهوراً اصبح تحت فعل قوة المنابهة والمحاكاة وقد تسددت حواسه وعواطفه الى موضوع معين . فالجمهور هاديء والغوغاء متحمس او متهيج او متهوّس. واذا كان الغوغاء متجه الحواس والعواطف الى موضوع واحد بلا تهوُّس ولا تحمُّس بل بشيء من التعقل نسميه « العامّة » (جمعها عوام)

ملاحظة — الغوغاء مذكر اللفظ لأن الهمزة فيه ليست للتانيث لانها مقلوبة عن واو ، واصله غوغاو ،ومثله ضوضاء . وليس في كتب اللغة معنى الرعاع او الاوغاد للفظ غوغاء كما يفهمه بعض الكتاب ويستعملون هذه اللفظة لهذا المعنى الذي شرحناه آنفا

في أثناء الثورة المصرية حين كان الغوغاء يخرب السكك الحديدية و يقطع أسلاك التلفون والتلغراف كان بين الغوغاء اشخاص لا ينطبق هذا العمل على أخلاقهم، ولا يستحسنونه في اوقات الرزانة والتعقل، ومع ذلك كانوا يشتركون مع الآخرين فيهِ .
واذا كان هذا تأثير الجمهور المتحمس على كل فرد فكيف يكون تحمّس الجمهور كله

في حالة تهيج الجمهور او تحمسه او تهوسه يكون الفرد جزءًا من كلٍّ موحَّد العقلية او الروحانية . فمهما كان متميزاً عن سائر الأفراد يصبح في تلك الحالة مستغرقاً في الجمهور . يفقد تعقله او بعض تعقله ، و يستصوب ما كان يعتقده خطاء ، ويجرأ على اتيان ما كان يظنه غير لائق . وعذره عند نفسه حينئذٍ ان ما أباحه الجمهور أصبح مباحًا ، واذا كان الجمهور كله مجيزاً هذا الأمر فلم يبق اذاً من لائم فيهِ .

الضباط الانكليز في بلادهم يأنفون ان يسبحوا في البحر عراة بل يلبسون ثوب السباحة ، ولكنهم في السودان لا يستنكفون ان يسبحوا « ربي كما خلقتني » كما يفعل سائر الجنود الوطنيين الذين تحت امرتهم ، لان هؤلاء الجنود لا يحسبون العري عيبا

٢ — تحول الجمهور الى غوغاء

لكي يتحول الجمهور الهادىء الى غوغاء متهيج او متهوِّس لا بد من أحوال تعدُّ لذلك فمنها : اولاً توجُّه الانظار او العواطف وتسديدها الى أمر منتظر . فمهارة الخطيب تعظم في الفاته انظار الجمهور من أول الأمر الى أهم نقطة في موضوعه يعلم أنها تهيج الجمهور . كذا مهارة الروائي أيضًا

كان اذا ارتفع الستار عن الشيخ سلامه حجازي وهو لم يزل ساكتاً يصمت الجمهور الذي كان منذ هنيهة يرج الملعب بالتصفيق والضرب بالعصي على الارض — يصمت صمتاً مطلقاً حتى يكاد يُسمَع وقع الابرة ، لان آذان الجميع كانت مسدَّدة الى ذلك البلبل الصداح لكي تطرب بانشاده « ان كنت في الجيش » أو « سلام على حسن » . تنقطع الانفاس وتتسدد الاصوات الى ذلك الشبح الماثل حتى تكاد القلوب تقف عن النبض الى ان يبدو ذلك الصوت الرخيم ويقبض على اعنَّة العواطف . ومتى استقرَّ على قراره كانت الاكف مصفقة من غير استئذان الارادة . واعلى الناس مقاما وابلغهم رزانة لا يتمالك نفسه عن التصفيق حينئذٍ

لما كان مجلس الوزراء في الاستانة ينتظر دخول اسير الدولة الامير بشير الشهابي الذي رويت عنه غرائب الصولة والهيبة لم يكن على استعداد لان يكرم ذلك الاسير بل كان يبتغي ان

يذل هيبته التي كان يمتاز بها . ولكن لما دخل الامير ما شعر الوزراء الاّ ان قوة فوق ارادتهم تأمرهم ان ينهضوا على اقدامهم اجلالا لذلك الامير كاجلال الصماليك للجبّار . وقفوا يقتدون بعضهم ببعض

ثانيًا . اذا كان الجمهور في حالة تأثر سابق من أمر كان عرضة للتحول الى غوغاء متهيج او متهوس بسهولة كلية ، لأن التأثر السابق يضعف قوة التعقل ويجعل العواطف أخضع من قبل لسلطة المنابهة والمحاكاة . فالناس الذين في خوف من اللصوص مثلاً يتهيجون لأي طارق . والمتخوفون من نزول الاسعار يسرعون للمبيع لأقل خبر ينذر بالنزول . وجياع سوريا في مدة الحرب كانوا يبتهجون لكل وعد بالفرج حتى لاكذب الوعود . ولما ثار الشعب المصري على أثر اعتقال سعد باشا زغلول وسائر أعضاء الوفد في مالطة واشتدّ تهوُّسه بسرعة ، حتى ارتبكت السلطة العسكرية في هذه الفتنة ولم تدرِ كيف تقمعها من غير أن يستعر لهيبها — اعتقد الانكليز ان في القطر المصري مؤامرة سرية مدبَّرة من قبل واسفوا لأنهم لم يكتشفوها قبل نضوجها . وقد صعب اقناعهم أنه لم يكن ثمت مؤامرة البتة ولا توطؤ ولا استعداد سابق . ولو كان فيهم من يفطن لدرس نفسية الشعب المصري حينئذٍ لاكتشف حقيقة اجتماعية تعلل تلك الثورة الغريبة السريعة التي انتشرت في القطر المصري في يومين مع وجود مئة ألف عسكري انكليزي فيه تحت السلاح . وهذه الحقيقة هي أن الشعب قاسى جداً في مدة الحرب من شدة ضغط السلطة العسكرية ولا سيما على الفلاح والعامل ، ناهيك عن تأثر الشعب السابق من فضح الحزب الوطني مساوىء الاحتلال المتعدّدة ، حتى نشأت في نفسهِ مرارةٌ لا تزيلها أية حلاوة . فلما اذاعت الجرائد خبر اعتقال سعد ورفاقه هاج الطلبة وتحوَّلوا الى غوغاء . ولما انتشرت الجرائد المحلية تروي خبر هياجهم كانت كالمنبه الذي لباه الجمهور وحاكاه في الحال ، فنشبت الثورة في كل مكان وصلت اليه جريدة

ثالثًا . يتوقف تحوُّل الجمهور الهادىء الى غوغاء متهوّس على قيمة عقليات أفرادهِ . فلا يخفى أن أفراد الجمهور لا يتساوون في المنابهة والمحاكاة . فبعضهم ينابهون غيرهم اكثر مما يحاكونهم ، أي أنهم يؤثرون على غيرهم اكثر مما يتأثرون .

وبعضهم بالعكس يحاكون اكثر مما ينابهون . فالاولون هم طبقة الاذكياء أقوياء الارادة سريعو التعقل ، يدركون قبل غيرهم ان كانت الموجة العاطفية توافق مصلحتهم ، فيندفعون معها منابهين اكثر منهم محاكين ، او ان كانت ضارَّة بمصلحتهم فيجتهدون ان يقفوا في سبيل التيار ما استطاعوا حتى لا ينحرفوا معه .

فنجاح تحمس الغوغاء يتوقف على فاعلية هؤلاء في اولئك . فبقدر ما يستطيع الاذكياء أن يؤثروا على الآخرين الشديدي الانصياع تحميساً او تهدئة للافكار والعواطف يتهوس الغوغاء او يهدأ

ثم أن هؤلاء الأذكياء المتعقلين أنفسهم قسمان : قسمٌ شديد التلهُّب في حالة التحمس ، وقسم بارد يتحاشى التحمس على كل حال . فاذا اقتنع القسم المتلهّب بصوابية التحمس والتهييج استطاع أن يثير الجمهور بسهولة حتى أنه يجرف معه الفريق المحايد والبليد حتى المستكره غرض التحمُّس . وهذا هو سرُّ أن المتطرفين كثيراً ما يتفوَّقون على المعتدلين لأنهم يستطيعون أن يحولوا الجمهور الى غوغاء يندفع معهم .

رابعاً . لما كانت الامور العاطفية أبهج للنفوس من الحقائق العقلية كانت تلك أروج بين الجمهور من هذه . ولهذا كان على من يستفز القوم لأمر ان يضرب على وتر العواطف لا على وتر العقول .

فلذلك ترى أن الخطيب يجذب نفوس السامعين من العوام اذا كان أسلوب خطابهِ روائيًا او شعريًا او تاريخيًا ويملُّهم اذا خطب في موضوع علمي بحت . ولكنه يسرُّ العلماء اذا خطب فيهم في موضوع علمي . ولذلك ترى الروايات أروج المطبوعات ، والمؤلفات العلمية اكثرها كساداً

لما رام ملك اليونان ان يحض شعبه على التجنيد لمحاربة الترك طاف في مركبته وايقونة المصلوب معروضة امامه . فما قال لهم افتدوا الوطن ، بل افتدوا الدين ، لان عاطفة الدين عندهم اقوى جداً من عاطفة الوطن بحكم وراثة التقاليد

ولما ثار الشعب الفرنساوي كان دعاة الثورة ينادون الحرية والاخاء والمساواة ، وهي أماني ذلك الشعب الذي قاسى طويلاً تحت نير الاستبداد . ولو كانوا يحاولون

اقناع الشعب بأن الحكم الجمهوري أصلح من الحكم الملكي لفشلوا سريعًا لأن الجمهور كالطفل لا يقتنع وانما يشتهي . فعِدْه باشباع شهوته فتستهويَهُ . ولا تحاول اقناعه فقد ينعكس القصد بالاقناع

فلذلك كلما اشتد تهوُّس الغوغاء انشل التعقُّل ، وقامت الحواجز في سبيل الآراء السديدة ، وكان الغوغاء في مثل جنون وقتي . وحينئذٍ هيهات ان يسمع صوت العاقل ، أو أن يقبل نصح الناصح ، أو ان يحتمل نقد المنتقد . فما لا ريب فيه أن الجمهور الهادىء أعقل من الغوغاء المتحمس ، وكذلك الأفراد في حالة تفرقهم أعقل منهم في حالة تجمهرهم ، و بالاحرى في حالة تهوسهم . لماذا ؟ لأن الجمهور الهادئ أقل ارتباطًا لعدم وجود موضوع واحد تتسدد اليهِ عواطف الأفراد وتتضاغط حوله . ولهذا يجد كل فرد أنه حرٌّ في أن يفتكر كما يشاء و يعطف كما يهوى . ولكن الغوغاء المتحمس مترابط الأفراد حول موضوع واحد اجتُذِبت اليه العواطف وتضاغطت حوله ، ففقد الفرد حرية تعقلهِ

الجمهور المتعقل

فمتى أمكن جمهورٌ من الجماهير ان يجتمع للتفاهم بتعقل ضمن نظام يصون حرية التعقل الفردي أمكن حينئذٍ ان يتفوق العقل على العواطف ، وان تسود الافكار والآراء الصائبة ، وان تخمد الحماسة المعرضة الجمهور للتهوس والجنون الوقتي . حينئذٍ تتصادم الافكار والآراء لا العواطف و يتولد منها أصوبها وأفضلها ، ولا سيما اذا كان الزعيم عاقلاً حكيماً . ولكن لا يضمن دائمًا ان يترأَّس العاقل والحاذق لأنه قد ينال الزعامةَ أعلى الحاضرين صوتًا ، او أقدرهم على الهيلمة ، او اوقحهم الذي يسبق غيره الى الكرسي ، او أسبقهم لخلب ألبابهم بجمل أنيقة ، لأن مجلس الجمهور الهادىء لم تمت فيه العواطف ، بل هي ساكنة ومتأهبة للوثوب حالما تُستَفَزُّ

خامسًا . ان سكان المدن أميل لتكوُّن الغوغاء من سكان القرى الريفية . لأسباب غير خافية فمنها : ١ — ان ضوضاء المدن وجلبتها واشتباك المصالح فيها تجعل المجموع العصبي دائم التأثر والتهيج والتعرُّض للنوراستينا والهستريا ، وهو في هذه

الحالة اكثر عرضة للمتابعة والمحاكاة كما تقدم بيانه : ٢- ان في المدن طبقة من العامة عديمة الرضى من أحوالها ودائمة التذمّر والتطلُّب . فهي تردد في الحال صدى كل وتر رنّان : ٣- ان سكان المدن في احتكاك دائم واتصال مستمر، فما أسهل تألُّبهم وتجمهرهم لأي سبب

الأمر بالعكس تماماً في القرى . والفرق الجوهري بين غوغاء المــدن وغوغاء القرى . ان ذاك عرضة للانشقاق الى غوغائين متناقضين ، وأما غوغاء القرى فأقلُّ عرضة للانشقاق ، ولهذا يخشى أن يتحول تحمس غوغاء المدن الى ثورة او فتن أكثر مما يخشى ذلك في القرى ، وسبب هذا الفرق أن أفراد غوغاء القرى أكثر تماثلاً وتشابهاً من أفراد المدن . فهم يعرفون بعضهم بعضاً شخصياً ، ويغلب ان يكونوا من دم واحد ، ولهم عقيدة واحدة ، ويشتركون في العادات والاخلاق ، ولهذا يسهل تفاهمهم وتعاطفهم أكثر من أهل المدن

سادساً . بقيت ملاحظة لا بد من ذكرها وهي أن ليس من الضروري لتكوُّن غوغاء او جمهور مشترك في تأثـير واحد ان يجمع أفراده في مكان واحد فقط . يمكن أن يتألف غوغاء مشترك الاحساس والعواطف والحماسة من غـير ان يلتقي أفرادهُ . يكفي أن تكون بينهم أي صلة تشركهم بهذا التأثر ، كالجريدة وما يخدمها من وسائل المواصلات ، كالتلغراف والتلفون . فاذا كان الأفراد يقرأون كلهم خبراً واحداً مؤثراً او مقالاً واحداً مهيجاً او دعوة واحدة لأمر مقبول او مرغوب عند العموم تأثروا كلهم تاثراً واحداً ، واشتركوا في نعرة واحدة ، وتحركوا حركة واحدة . على هذا النحو انتشرت حماسة المظاهرات في مصر سريعاً

ولهذا السبب أصبح الغوغاء في عصرنا أنجح منه في العصور السابقة لأنه في وقت واحد ينتشر المؤثر على الجمهور ويحوله الى غوغاء . وأما في العصور السابقة حين كانت المواصلات صعبة كانت حماسة الغوغاء في جهة تبرد قبل أن تصل العدوى الى غوغاء مكانٍ ابعد

٣ — حالات تحول الجمهور الى غوغاء

في إبّان تأثر الجمهور وتحوله الى غوغاء متحمس ومتهوّس تطرأ عليه الأحوال التالية مهما كانت دواعي تأثرهِ

اولاً العدوى . أي التأثير على من لم يكن مُنتَظراً تأثره حتى على من تكون حالة مقاومة للحركة . نلاحظ كثيراً ان بعض الاشخاص الذين لا يكترثون بالديانات بل يعدون مُلحدين اذا حضروا مناقشة في الدين تحيزوا لحزب الديانة التي نشأوا في حضنها ، وربما كانوا أشد من غيرهم حماسة لها

يروى انه في ثورة عسكرية في روسيا سنة ١٨٣١ كان جندي ينحب لانه رأى من بعيد أن الجنود يضربون قايدهم سوكولوف حتى كادوا يقتلونه . فقيل له : لماذا لا تسرع لانقاذهِ؟ فتحمس واسرع . ولكنه ما لبث ان جعل يضرب القائد مع الضاربين . ولما سئل في سبب انقلابه عليه لم يقدم سبباً سوى انه رأى رفاقه كلهم يضربونه فاشترك معهم بضربه

لما درجت عادة تصغير الشوارب كنا نرى حتى الشديدي التمسك بالقديم يصغرون شواربهم

ثانياً حدة التحمس . يشتد تحمس الفرد في وسط الجمهور متى رأى جميع من حوله مثله متحمسين . فكل فرد اذاً يعود فيرد الفعل للجمهور ، وبذلك يتضاعف سبب تحمس الغوغاء . كثيراً ما ترى بين الجمع افراداً يندفعون في التحمس والتهوس في حين لم تكن تظنهم خليقين بذلك . من شواهد ذلك ان ترى أحياناً معلم الأحداث يندفع معهم بلعب الكرة مثلاً . وبعد نهاية اللعب يندم لظنه أنه فرّط بكرامته بين تلاميذه

ثالثاً الاندفاع . فكثيراً ما يكون تحمس الجمهور توطئة الى تحمسات أخرى بعده أيسر حدوثاً . أي أن الافراد يكونون بعد كل تحمس لأمرٍ أكثر استعداداً للتحمس منهم قبله . فهو كالنار تتقد في الهشيم كلما التهمت منه تسعَّرت ، وكلما تسعَّرت التهمت أيضاً

لذلك كانت المظاهرات في الثورة المصرية الاخيرة ( ان صحت تسميتها ثورة ، لأنها كانت ثورة بلا سلاح ) كل مرَّة اعظم وافخم منها في المرة السابقة بالرغم من تحوطات السلطة العسكرية ومقاومتها لها

فالغوغاء المتحمس وليد الوقت . ولذلك ترى ان الحاضرين في دُور التمثيل

يكونون في الدّور الأخير أشد تصفيقاً لبطل الرواية منهم في الادوار السابقة . فكأنه في كل دور يحرك شيئاً من حماستهم إضافة لحماستهم في الدور الذي قبله

ومن هـذا القبيل ان المنوّم لا يقدر ان يسطو على عقل الوسيط الاّ بعد توالي تنويمه

٤ً — طبائع الغوغاء

للجمهور المتأثر او الغوغاء طبائع خاصة به يمتاز بها عن الجمهور في حالة هدوئه أهمها:

اولاً أنه ابن ساعته . أي أنه لا يستنفر الفرد دائماً وطويلاً . فلما كان الفرد يملّ ويتعب كذلك الغوغاء يمل ويتعب أخيراً . والحدة يعقبها الخمود

والجمهور عرضة لطوارىء داخلية وخارجية تحلّه . فكثيراً ما يتفرّق الغوغاء اذا نزل المطر مثلاً، او اشتدّ الحر ، او اذا تسلطت عليـه مياه مطخات الحريق او نحو ذلك مما لا يعد قوة قاهرة . وقـد يكون سبب تلاشيه بواعث داخلية كالشعور بالبرد او الحر او الجوع .

وقد امنت تركيا ثورة سوريا في مدة الحرب بتجويع السوريين فان الجوع كان مقاوما لتهيجهم ضدها ، بل لا شيء هذا التهيج الى ان حوّل الحنق على ظلم الدولة الى الضراعة ، حتى كان الناس يموتون جوعاً وهم يدعون للسلطان بالنصر . فقد روى شاهد عيان انه كان يرى الغلمان وهم هياكل عظام يستغيثون قائلين « رغيف . الله ينصر السلطان »

على ان عمر الغوغاء يتوقف على قيمة الغرض من حياته . ويمكن تحقيق ذلك بسهولة . فأن تكرر اجتماع الغوغاء علمت ان تجمعه حول غاية جوهرية . وان تفرّق ولم يتجمع بعد ذلك ، فهمت ان تجمعه كان هوساً وقتياً هوائياً

ثانياً الغوغاء سريع التقلّب . فقد يحطم اليومَ الصنم الذي كان يعبده أمس . وقد يفترس غداً الزعيم الذي كان يؤلهه اليوم

الغوغاء الذي احتفل بعظمة يوليوس قيصر ما ابث ان نادى فليسقط ، والاّ ما جسر بروتوس ان يكون شريكا في اغتياله . الشعب الفرنساوي الذي كان يؤله الجنرال جوفر نسيه حالما ظهر الجنرال فوش . وكان العالم كله يقدس اسم الدكتور ويلسون لاجل الاربعة عشر بنداً التي كانت سبب الصلح . فلما انعقد مؤتمر الصلح انقلب الناس ضده لانه لم يتسلح بقوة الاله الاعظم لـكي ينفذ بنوده . وما تذمروا قط من الدول التي نكثت بعهودها لويلسن

ثالثاً. الغوغاء ساذج سريع التصديق والاستسلام من غير تحقيق . فهو يأبي كل نداء مقرون بالحماسة ولا سيما اذا تكرَّر . ويثق بكل منادٍ يعلي صوته . ذلك لأن الأفراد في الغوغاء لا يبقون كما كانوا مستقلين ، بل يتعرون من اختبار الماضي والعبرة للمستقبل ، ويصبح كلٌّ منهم جزءاً من كلٍّ فاقداً ذاتيه ، وتكون قوى التعليل والاستدلال والحكم فيه مخدَّرة او نائمة . فاذا كان الافراد كذلك فكيف يكون الغوغاء المؤلف من افراد هذه حالتهم .

في احدى المظاهرات المصرية الحادَّة قبض المتظاهرون على فتى وجعلوا يضربونه لان احدهم صاح : « هذا ارمني ». وكان الارمن حينئذ مغضوباً عليهم لان بعض رعاعهم كانوا قد اطلقوا رصاصاً على المتظاهرين من نوافذ المنازل ، وقيل انهم كانوا مأجورين لذلك . ثم ثبت بعد قليل ان الفتى مصري بحتٌ . فكفوا عنه بعد أن تلقى نصيباً وافرا من الضرب

ولما كانت الجنود الانكليزية تهجم في اثناء المظاهرات احياناً على القهوات والحانات وتضرب الناس شفاء لغلها كان الجلاس في القهوات يهرعون الى المخابيء وفي الشوارع كلما رأوا شخصاً يركض لظنهم انه هارب من وجه الجنود . وكثيراً ما يكون ذلك الشخص من رعاع الناس يطارده وغدٌ آخر أو هذا يطارده

فالغوغاء في هذه الحالة كالطفل الساذج الذي لا يرى الاَّ الحالة التي هو فيها ، فلا يقارن حاضره بماضيه ولا يستطيع ان يحكم في أمور مختلفة في وقت واحد

رابعًا . الغوغاء شجاع . لأن كل فرد يشعر أنه مشدود الازر بجميع اخوانهِ من حوله . ولا ريب أن مجموع شجاعة الأفراد وهم متفرقون أضعف جداً من مجموع شجاعتهم وهم متجمعون بحماسة . وهذه الحقيقة من مزايا الاتحاد كما هو معلوم

بهذا الطبع الذي للغوغاء كان المتظاهرون المصريون لا تستوقفهم المدافع الرشاشة ولا بنادق الجنود . وقد شاهد كاتب هذه السطور صفاً من صفوف تلامذة مدرسة صغيرة يسيرون ولا يستوقفهم تسديد الجنود الانكليزية البنادق اليهم، وحاول هؤلاء الجنود ان ينزعوا الراية منهم فلم يستطيعوا ، بل فاز الطلبة بها فارين

واوضح الحوادث الدالة على شجاعة الغوغاء الحرب الصليبية التي تُعدُّ اعجوبة التاريخ . فان غلاماً استفزَّ رفاقه للحرب بغية انقاذ الارض المقدسة . فهرع وراءه الوف الاولاد سارين في موكب عظيم . وفي يومين كان الموكب مؤلفاً من ٢٠ الف غلام بين الثمانية والثانية عشر من العمر . وفي أيام معدودة كان مئة ألف غلام مجتمعين للسفر الى الحرب . وقد بذل أهلهم الجهد في اقناعهم بالعدول عن هذا الجنون فما استطاعوا

وليس من يجهل مزية الجيش المنظم على الشراذم والعصابات

أحياناً يظهر الغوغاء جبناً أيضاً وخوفاً ، كما يظهر شجاعة في ظروف أخرى ، كما رأيت آنفاً في حادثة اجفال الناس في القهوات

خامساً الغوغاء ضعيف الأدبية جداً . كثيراً ما يكون بلا ضمير فيأتي المنكرات ، واحياناً يكون كريماً ونبيلاً

في ثورة لبنان المشهورة باسم « سنة الستين » كان يثني على الدروز لأنهم تحاشوا جدا الاعتداء على الاعراض والعجزة والاحداث . الغوغاء الذي غزا التويلري في باريس سنة ١٨٤٨ عفَّ عن انتهاب شيء مما كان ذا قيمة ، في حين ان غوغاء في مذبحة ستمبر في الثورة الفرنساوية الاولى ما عفَّ عن شيء من النقود والنفائس التي كانت مع فرائسه

أما غوغاء تركيا وورثتها من اتراك وبلغار وسرب ويونان وأرمن فشهورون بفظائعهم ، وافظعها حريق أزمير أخيراً

أما سبب ضعف أدبية الغوغاء فهو أولاً ان كل فرد يظن أنه يستطيع ان يتنصل من المسأولية والقاء التبعة على غيره . ثانياً . ان كل فرد يقول في نفسهِ : « ان لم أنهبه انا فينهبه غيري . وان لم أقتله انا فيقتله غيري . فلماذا لا أفعل ؟ » . ولمثل هـذا السبب ترى الحكومات ترتكب من النقائص ما يخجل رجالها ان ينسب اليهم شخصياً ، ولا يخجلون ان ينسب الى حكومتهم

يمكنك ان تجمع من الجمهور في حالة تحمسه اعانات أوفر جداً مما تجمع من أفراده وهم متفرقون . والفرد يتنخَّى للمعروف ويلبي داعي المروءة وهو بين الجمهور اكثر منه وهو وحده مع الداعي او المنخِّي . الاحسان في الكنيسة او في اجتماع جمعية أنجح منه بواسطة الطواف على الأفراد في منازلهم

الغالب ان الغوغاء المؤلف من أفراد راقين يكون راقي الأدبية

سادساً . الغوغاء متهوّر لا يقدِّر عواقب ، واحياناً لا يحسب حساباً للنتائج ، ولا يشعر بمسأولية . لان كل فرد يكون أوثق بالجمهور منه بنفسهِ ، ويشعر أنه تابع لا متبوع . ولهذا يرفع المسأولية عن عاتقهِ ويلقيها على الجمهور . وهـذا هو سر جرأة الغوغاء على ارتكاب الجنايات التي ينفر كل فرد منها على حدة بل يستفظعها .

فمن امثلة ذلك حوادث تالب الغوغاء على المجرمين ومحاولة قتلهم بلا محاكمة في اميركا Lynching . وكذلك اندفاع الجمهور في مدح بعض الناس من غير تحقيق ان كانوا يستحقون المديح ، أو اندفاعهم في تقريع أحد الناس لسبب ان شخصاً أو اشخاصاً لحقد يقرعون به

ومن ذلك ايضاً اندفاع الجمهور في الثورة المصرية الكبرى للتخريب والتدمير ، كتقطيع اسلاك التلفون والتلغراف ، وتقليع قضبان السكك الحديدية وهدم ابنية محطاتها الخ

سابعاً . وهو نتيجة ما تقدم ، ان الغوغاء هو أحط أنواع الجماعات عقلياً وأدبياً . وعقليته وأدبيته أحط جداً من معدل عقلية الفرد وأدبيته . فكأنَّ الجمهرة تحط قيمة المجموع وتفسده . فالغوغاء يمكن ان يولد قوة ولكنه لا يولد ادارة ، يمكنه ان يولد حرارة بلا نور وشجاعة بلا آداب . الغوغاء يهدم ولكنه لا يقدر ان يبني . سهل على الجمهور ان يصيح كله : « لا . لا » ولا يسهل عليه كله ان يقول : نعم . نعم » . أي يقدر كله ان يتفق على الشجب او الرفض ، ولكنه لا يقدر دائماً ان يتفق على التحبيذ في موضع التحبيذ

٥ — درجات الغوغاء

لا يخفى ان تنوع طبائع الغوغاء واختلاف حالاته وتعدد اسباب تهوّسه تفضي الى التفاوت في حدتهِ بحسب اختلاف مادتهِ وأحواله المحيطة بهِ . ولما كان مستحيلاً ان تحدَّد درجات حدته ، لم يكن ثمت مناص من الاقتصار على النظر في طرفيهِ وما بينهما .

فالجمهور اذاً ثلاث أصناف

١ — جمهور معتدل يتغلب فيه التعقل على التحمس ، او لا تحمس فيه ، ونسميه « العامة »

٢ — جمهور متحمس يتغلب فيه التحمس على التعقل ونسميه « غوغاء »

٣ — جمهور متهوّر لا تعقل عنده وقد بلغ تهوّسه الى حد الجنون

أما الغوغاء المتوسط الذي لم يتعقل ولم يتهوَّس الى حد الجنون فما تقدَّم من البحث يتضمن جميع ما يمكننا ان نقوله فيهِ . واما الطرفان الآخران ، العامة والغوغاء المتهوّس ، فيختص كلٌّ منهما بأمور ، فنفرد للطرف الاول هذه النبذة الصغيرة . وأما الطرف الآخر المتطرف فله النبذة ( د ) « التالية » الكبرى

## العامة

العامة تشترك في الاحساس والتأثر بالمصالح العمومية بحسب ارشاد العقل والضمير جميعاً . وكل فرد يشعر بأنه في تأثُّر او اقتناع خاص بهِ ، قد لا يوافقه غيرهُ فيه ،ولهذا يكثر الاختلاف في الفكر والميل بين العامة ولكن من غير عداء

لما حدثت المظاهرات الحادة في مصر كان الاربعة عشر مليوناً يحسون احساساً واحدا ويتهوسون لامر واحد. ولا عبرة حينئذ بالمخالفين المعدودين حتى ولو كانوا من العظماء، لان صوتهم استغرقه دوي« الجمهور» . ولكن لما بردت حدة المظاهرات ظهرت الاراء والاماني المختلفة ، لان الغوغاء تحول الى عامة ، واصبح كل فرد مستقلاً بتأثره وباعتقادهِ وفكره وارادته

ولما كانت العامة تتنبه بوسيلة الصحافة على الغالب ، حيث لا احتكاك متبادل بين أفرادها كما يكون عادة في الغوغاء المحتشَد ، بل يكون كل فرد محتكاً رأساً بالمحرر او بالموحي فقط ، كان تهوسها قليلاً وضعيفاًو بطيئًا يبقى معه محلٌ للتعقُّل والتفكير

يمكن الفرد في هذه الحالة ان يكون جزءاً في فئات متعدِّدة . يكون مثلاً واحداً من العامة الطائفية في قضية دينية ، وواحداً من العامة الاجتماعية في قضية سياسية ، وواحداً من العامة التجارية في قضية تجارية الخ . ومتى تعددت المؤثرات في العوام وتنوعت تضاربت تموجات المنابهة والمحاكاة ، فقد يلاشي بعضها بعضاً ويخف تلاطم بحر الجمهور

ولا يعجُّ بحر الجمهورِ الاَّ اذا هبت زوبعة شديدة حركت اللجج لموجة عظيمة تستغرق جميع الأمواج فتجتاح سطح الخضمّ كله . أجل اذا ظهر بغتة حادث خطير الشأن يجتذب أفكار الناس عن سائرِ الحوادث والمؤثرات الاخرى ويشغلها عنها ويجعلها كلها حول نقطة واحدة ، حينئذٍ يتحول الجمهور من عامة رزينة الى غوغاء متحمّس

يمكن ان يعد عصرنا اكثر العصور العاميَّة ، لأن انتشار الصحافة فيه جعلت مسرح الجمهور فيه مسرح أفكار وآراء ومناقشة وبحث ، اكثر مما هو مسرح عواطف واثارة أخلاق .

ثم ان دائرة العامة أوسع من دائرة الغوغاء ، فقد تشمل دائرة العامة المملكة ، في حين ان دائرة الغوغاء تقتصر على المدينة او البلد ، واذا شملت دائرة الغوغاء المملكة كلها شملت دائرة العامة القارة كلها

ففيما ان الشعب الفرنساوي او الشعب الألماني الآن يعد غوغاء بسبب احتلال الرور ، فشعوب أوروبا وأميركا كلها تعد « عامةً » من حيث نظرها في هذه المشكلة

وبالاجمال يقال ان دائرة العامة انما هي الموقع الممهد لتأسيس الرأي العام الذي يشاد عليه بناء مجلس شورى الشعب الذي يدبر الأمور بما يمكن من التعقل والروية . وهو منتهى الطرف الواحد من الجمهور

## د — احتدام المنابهة والمحاكاة في الجمهور — التهوُّس

١ — الغوغاء المتهوّس

الغوغاء المتهوّس هو الجمهور المشترك ؛ بشعور او نزعة او عمل بـلا تعقل بتاتاً ، بل بمجرد المحاكاة والمجاراة فقط ، وتحت سلطان العواطف وحدها بواسطة التهيج العصبي البحت . حينئذٍ تكون قوة « العدوى » او التنبيه للمحاكاة في أشدها . فكل فرد يتشبه بالآخرين ويحاول ان يجعل الآخرين يتشبهون بهِ

لابد لتهوُّس الغوغاء من مركز تتفرع منه منبهات العواطف الى كل ناحية . وهذا المركز يثير عواطف ما حوله اثارة حادة الى حد ان هذه العواطف تستطيع ان تثير غيرها وتصبح كلٌّ منها شبه مركز تتفرع منه المنبهات

اذاً لابد من أن يكون ذلك المركز عظيم التأثير كحادث خطير الشأن يرجُّ أعصاب الجمهور ، مثل نفي الوفد المصري الأول الى مالطه ، او إعلان الحرب ، او زلزلة او حريقة هائلة مفاجئة ، او هجوم عصابة الى غـير ذلك من المباغتات التي يضطرب لها الجمهور وتتلاطم أمواج تهيجهِ قبل أن يستحكم التعقل فيه للتدبُّر

يؤخذ من التاريخ ان معظم حوادث التهوس الغريبة كانت لبواعث دينية او لدواعي خرافية او سحرية الى غير ذلك من الترهات والأوهام . وأوائل عهد

التاريخ المسيحي مملوء من هذه الدواعي اذ كانت العقيدة بقوة الروح او الأرواح متطرفة الى حد التخريف . ولهذا كان الجمهور تحت سلطة الأوهام وفي جو كثيف من الخرافات

وربما كانت حادثة تجند الاحداث في الحروب الصليبية من أبلغ الشواهد على التهوُّس ، بل ان الحرب الصليبية كانت تهوُّساً اذ ضُحيت فيها ضحايا هائلة لغرض لا يستحق هذه الضحايا في نظر أهل هذا الزمان

وكانت اميركا الشمالية في القرن الماضي مسرحاً غريبا لحوادث التهوُّس ، ولا سيما التهوُّس الديني ، يذكر منها حادثة كنتوكي االمشهورة في أول القرن اذ جُنَّ الجمهور في تلبية الدعوة للتوبة خوفاً من انتقام العدل الالهي . وهي من اغرب حوادث التهوس (١)

وتجد بعد ذلك سلسلة حوادث في اميركا ربما كان آخرها دعوة ماري ادي الى عقيدة العلم المسيحي Christian Science وهي شفاء الامراض بالصلاة فقط . فقد امكنها ان تجمع في بضع سنين اكثر من عشرة ملايين نفس في كنيسة هذه العقيدة

ومما يذكر من هذا القبيل تهوس العالم في جمع طوابع البريد منذ اواخر القرن السابق حتى الآن . واذا بحثت عن الغرض من جمعها لا تجعله يستحق هذا التهوس . فان غرض المنهمكين بجمعها وبذل المال في سبيله ان يبيعوها بثمن غالٍ ولهم منه ربح وافر . فاذا كان بائع الطوابع يبيع والشاري يبيع ايضاً ، فمن هو الشاري الاخير اذاً ؟ فان كان المتحف اخر الشارين فلا بد ان المتاحف استوفت حاجتها . اذاً لمن هذه المجموعات ؟

لقد حدث مثل هذا التهوس بل اعظم منه في هولاندا سنة ١٦٣٤ اذ اندفع الناس للمتاجرة بنبات السوسن ايَّ اندفاع لانه كان يُطلب لاجل زهره بكثرة . ثم ما لبث ان صار يطلب لاجل التجارة به ، فاندفع في تجارته الوف من اهل اوروبا . ولما كان الغرض الاخير استعمال زهره كسائر الزهور والورود كان مآل تلك التجارة الجنونية خساراً هائلا لكل من اشتغل بها ، اذ جعل اخيراً ثمن السوسن ينحط كما كان ينحط سعر المارك الالماني في العام الماضي

واذا كان التهوس سنة ١٩٠٧ بشراء اراضي البناء في مصر انتهى بفشل هائل وخسائر فادحة ، وكذلك اذا كان التهوس باغلاء الاسعار بعد عقد الهدنة سنة ١٩١٨ عاد برد فعل عظيم الخسارة على العالم ، فاحرِ بتجارة السوسن ان تكون اخسر ، وبتجارة المارك الالماني ان تكون ادل على غباوة الطامعين بالربح من جرائها حتى بعد الهبوط الى نحو الصفر

مثل ذلك ايضاً تهوُّس الناس في طلب الذهب من كلونديك في الاسكا ، كأنَّ هناك ميزابا منه لا ينقطع

---

(١) فلسفة العقلية الاجتماعية لروس صفحة ٥٠

٢ً — سنن التهوُّس

١ً — يستغرق التهوس وقتاً حتى يبلغ أشده . فلا يبلغه دفعة واحدة .

ابتدأت الثورة السلمية المصرية حين نفي الوفد . ولكنها بلغت اشدها حين عاد زغلول باشا من اوروبا . كذلك الثورة الفرنساوية ابتدأت سنة ١٧٩٣ وما بلغت اشدها حتى سنة ١٧٩٦ في انتخاب الرئيس. الثورة التركية الاخيرة ابتدأت بتمرد بعض القواد في الجيش، وبقتل فيظي باشا وشمسي باشا اللذين كلفهما عبد الحميد بقمع الثورة . وبلغت اشدها حين زحف شوكت باشا بفرقته على الاستانة لقمع ثورة الرجعيين ، وحينذاك خلع مجلس المبعوثان السلطان عبد الحميد

٢ً — كلما اتسعت دائرة الغوغاء المتهوس كثر وقوعْ العقل فريسة له . ونهضة البلشفية أفضل الشواهد لهــذه السُّنة . وفي المظاهرات السلمية في مصر كان اذا أشتد الحماس كثر الاعتداء والغزو والنهب والتحطيم

في سنة ١٦٦٦ ادعى يهودي يسمى سباتاي زيفي Sabbattai Zevi في اوروبا انه المسيح المنتظر، ونادي بنفسه كذلك . فاندفع اليهود وراءه وحاول كهنة اليهود اقناع الناس بضلالهم فعرضوا انفسهم للخطر حتى اضطروا ان يفروا من وجوه المتهوسين حرصاً على السلامة . وازداد اندفاع اليهود مع هذه الحركة حتى جعل اغنياؤهم يضعون اموالهم تحت امر هذا المسيح الدجال ، وبعضهم باعوا املاكهم لكي يرجعوا الى فلسطين ارض الميعاد

٣ً — كلما اشتد التهوُّس كان غرض الغوغاء أو عمله أو رأيه أشد خطاء . فمن ذلك تهوُّس بعض الناس بتجارة المارك الالماني حتى حين هبوطه الهائل وتهوُّس آخرين باختراع الحركة الدائمة ، وآخرين باكتشاف اكسير الحياة ، او اكسير الذهب لتحويل النحاس الى ذهب الى غير ذلك

٤ً — كلما احتدم التهوُّس اشتدَّ ردُّ فعله . معظم التهوسات الدينية كانت تنتهي بالاعراض عن الدين والتهور في الآثام .

٥ً — كثيراً ما يفضي التهوُّس الواحد الى تهوس آخر يهيج العواطف على نمط آخر . كان من نتائج المظاهرات الاولى التي حدثت في مصر ان أفضت الى اضراب الطلبة عن المدارس ، ثم أفضت الى اضراب الموظفين . ثم أفضت المظاهرات والاضرابات معاً الى الاجتماعات في المعابد لالقاء الخطب ، ثم الى الاحتجاجات على صفحات الجرائد حتى لم تعد صفحاتها تسعها

٦ً — في حالة التهوُّس تضعف قوة التقاليد والعادات القديمة لتغلب « المحاكاة » الحالية عليها ، فالانسان حينئذٍ يعدل عن التشبه بآبائهِ وأجدادهِ الى التشبه بالجمهور. من هذا القبيل العدول عن النعرة الدينية في الشرق في هذه الأيام ، والاعتكاف على القومية والوطنية . فمن فضائل التهوس انه يساعد التطور الشعبي

٧ً — كلما اشتد تشابه الأفراد في جميع أحوالهم واقتربوا الى المستوى الواحد كانوا اكثر عرضة للتهوُّس . فحيث يتفاوت أفراد الجمهور ويتباينون في عاداتهم وطبقاتهم وأخلاقهم الخ يقل تهوسهم ، او لا يصادف تهوُّسهم احتداماً وتسعُّراً . العالم والنبيل والغني لا يزجون أنفسهم مع الرعاع في تهوُّس

« الهوى » — مما يقارب التهوس في طبيعته ولكنه سليم العواقب الهوى او « الكيف » كأن يندفع الناس في أمر لسبب لا يستحق الاندفاع . مثال ذلك أن ترى الناس يزدحمون في تنزّه سان ستفانو في الاسكندرية ازدحاماً شديداً مع ما هنالك من ثقل النفقات على جانب كبير منهم . الأزياء الوقتية من هذا القبيل أيضاً ، كابدال القبعات بالطرابيش في سوريا بعد انهزام الترك . او كالاقبال على الطرابيش في مصر على أثر الحركة الوطنية .

٣ً — تدارك التهوس

ترى مما تقدَّم أن تهوُّس الغوغاء يعرّضه للافلات من دائرة النظام الى فلاة الفوضى حيث يتعذر ردُّه الى دائرتهِ . ولذلك يجدر بالجماعة المنظمة ان تتخذ كل الوسائل الممكنة لوقاية غوغائها من التهوُّس وعواقبه . وقد ذكر « روس » خير هذه الوسائل فندمج فيها ما لاح لنا من الوسائل الأخرى ونبوبها الى أربعة أبواب : عقلية وصحية وأدبية واجتماعية

(١) — الوسائل العقلية

أولاً التعليم العالي الصحيح الكافي . إن قوة تمين الأفكار والاراء السديدة كامنة وراء تشرُّب هذه الأفكار والاراء . فيجب ان يكون التعليم عميقاً بليغاً

بحيث ينبه تلك القوة . وأما التعليم السطحي فينبه العواطف للتهوُّس قبل ان يتنبه العقل لوزن الأمور . التعليم البسيط يدخل بالعقل الى رحبة الخرافات والأوهام ، وأما التعليم العميق فيتجاوز به هذه الرحبة الى دار المنطق العقلي حيث تقاس المعلومات الصحيحة لاستخراج نتائجها الصحيحة . فالهيئة الاجتماعية التي ينتشر فيها التعليم العالي هكذا تكون آمن لعواقب التهوس

ثانيًا نشر المعارف المختصة بالانسان وبجنس الانسان — أي ببدنه وعقله ومجتمعه . فتعليم وصف أعضاء الجسم ووظائفها وقواعد صحتها وسلامتها ، وتعليم سنن القوى العقلية والأدبية ، وتعليم الحقائق الاجتماعية من اجتماع واقتصاد وسياسة — كل ذلك أعصم للجمهور عن الهوس من العلوم الأخرى كالطبيعيات والرياضيات الخ . ذلك لأن الهوس قائم على هذه الأركان الثلاثة . فيجب ان تكون سليمة وقوية . لذلك يجدر بادارة المعارف ان تعطي هذه الفروع في التعليم حقها من الأهمية .

ثالثًا تأثير القادة من وعَّاظ دينيين وكتبة أدبيين ومؤلفين علمانين ومحررين نبلاء يوجهون في عظاتهم وأنديتهم وكتاباتهم أفكار الجمهور الى المباديء القويمة والاغراض الصالحة والمعارف الصحيحة. فلذلك يجدر بالحكومة ان تساعد الكتاب والمؤلفين والناشرين على نشر المطبوعات المفيدة المختلفة ، وان تبذل بسخاء على مكاتب المطالعة وأندية الخطابة . ومن جهة أخرى يجب ان تقاوم ما أمكن نشر المطبوعات المفسدة لأخلاق العامة والجرائد المهيجة والمبالغة في رواية الاخبار ، والمتطرفة في الحض والحث والتحريض ، لأن النشر على هذا الاسلوب يحرك العواطف ويعد النفوس للتهوُّس ، فضلاً عما فيه من التضليل لأفكار الجمهور

رابعًا . يجب قطع دابر الافاكين المتعيشين من أفكهم كالدجالين ، ومدعي قراءة البخت في الكف او الورق او ضاربي الرمل ، الى غير هؤلاء ممن يتعيشون بالنصب على حساب غباوة فريق من العامة . لأن هؤلاء الدجالين يقتلون قوى التعقل والحكم والتعليل في العامة ، ويجسمون الأوهام في الأذهان . وكل ذلك يمهد

السبيل للتهوُّس عند حدوث أقــل حادث مهيج ، لان هؤلاء الذين استسلموا للاوهام هم الذين يكونون اداة لترويج التهوُّس في الغوغاء

(ب) — الوسائل الصحية

لمـا كان التهوس نتيجة اضطراب الجهاز العصبي وانتهاكه كان كل ما يسكن اضطراب هذا الجهاز ويقويه يتدارك التهوُّس . فالجمهور السليم الابدان القوي الاعصاب قليل الاندفاع في التهوس

فأولاً يجب ان تكون الحياة اليومية صحية من كل وجه . ففي المدرسة يجب أن يعنى بصحة الاحداث كما يعنى بتعليمهم ، وفي أماكن العمل يجب الالتفات الى صحة العامة ولا سيما العمال ، ويجب الاقتصاد في قوى العاملين حتى لا تني أجسامهم ولا تهي عزائمهم ، فيصبحون عرضة للتهيج عند أقل حادث . معظم أسباب تهيج الأمم الآن انحطاط صحة الجهاز العصبي في معظم الأفراد بسبب ويلات الحرب

وكذلك يجب ان تنشط الحكومة الالعاب الرياضية في كل حال ، في المدارس ، وفي الاندية الخ ، اللهم بحيث لا تكون وسيلة للمقامرة

ثانياً تجب مقاومة توسع المدن ، وينبغي الترغيب في سكنى القرى بكل الوسائل الممكنة ، وتسهيل الوسائل لسكنى الضواحي تفادياً للزحام المضعف للابدان والمنهك للأعصاب

( ج ) — الوسائل الاجتماعية

اولاً . كذلك يجب اتخاذ كل الوسائل لتقليل الزحام في المدن لاسباب اجتماعية أيضاً . فقد علمت فيما سبق أن أهل المدن اكثر تعرضاً للتهوس من أهل القرى : اولاً لاحتكاكهم الدائم الذي يسهل الأمر للمحاكاة والمجاراة والتشبه والتقليد فيما بينهم . وثانياً لتواتر المؤثرات المختلفة على عواطف أهل المدن من مشاكل ومشاغل وملاهٍ وملاذّ وغموم وهموم الى غير ذلك مما يجعل العواطف دائمة التهيج . وثالثاً لوجود التباين بين طبقات العامة بحيث يجعل الاحتكاك بينها يقدح شرر الغضب

والسخط . كل ذلك لا تجده في القرى الصغيرة بل تجد عكسه مما يهدّيء الروع ويسكن الاعصاب ويتلافى ثورانها

ثانياً العيشة العيلية أوقى لتهوس الغوغاء من التردُّد على القهوات والحانات والاماكن العمومية حيث يشتد الاحتكاك وتتواتر المحاكاة — هناك المسرح الذي تلعب فيه المؤثرات أدوارها الخطيرة الشأن . ويلاحظ جيداً ان المرء يندر ان يعود من الاماكن العمومية الى منزله الاّ وهو متهيج ، امَّا بهجة او غضباً ، كثيراً او قليلاً

ولكن لا يُنكر أن في المجتمعات العمومية مدرسة اختبارية للمرء ، فلذلك يجب الاعتدال في التردد الى الاماكن العمومية

ثالثًا الزواج أفضل من العزوبة لتلافي التهوُّس . متى كان المرء يشعر بمسأولية نحو زوجةٍ وأولادٍ يجتهد أن يملك عنان نفسهِ عن التهوُّس تفادياً لمخاطرهِ . ولا ريب ان العزَّاب أكثر اندفاعاً من المزوجين في المغامرات والمخاطرات لشعورهم بقلة مسأوليتهم

رابعًا الامتلاك — امتلاك العقارات او المتاجر حتى احراز الوظائف العالية — كل هذا يكبح جماح الفرد عن التهوُّس مخافة أن يكون خسرانه جسيماً

فلذلك ترى ان المتظاهرين كانوا دائماً وغالباً من الطلبة والعمال الذين قلت مسأولياتهم . وأما أرباب العائلات وأصحاب المصالح فكانوا دائماً متنحين

خامسًا الانتظام في اسلاك الجمعيات الاختيارية ، من أندية وجمعيات احسان وجمعيات علمية وسياسية ودينية الخ ، فأن ممارسة حفظ النظام في هذه الجمعيات يربي الأمزجة والاخلاق على احترام النظامات والمحافظة عليها ، وتعويد النفس للحرص على كل نظام ، حتى اذا حدث حادث مهيج كانت سجية حفظ النظام واقية من الاندفاع في التهوُّس

( د ) — الوسائل الادبية

ربما كان التهذيب الأدبي أهم وسائل الوقاية من التهوُّس لأنه يقوّي الضمير وقوة الحكم ، فيقفان حارسين للنفس من هجمة التهوس . ولذلك ينبغي ان يُعتنى عناية كلية بتقوية الأخلاق التالية في أنفس الناشئة .

أولاً ضبط النفس . يجب ان يتعود الغلام ضبط نفسه عن الاستسلام لكل مؤثر ، وان تعظم في عينه هذه الفضيلة وتحسب فخراً له . فاذا استفزه مستفزٌّ يكبح نفسه عن الفزّ ريثما يحكم له عقله وضميره ان كان فزُّه حقًّا وصوابًا وأمين العاقبة ومحمود المغبة

ثانيًا احترام المرء لنفسه بحيث يأنف ان يلوثها بالدنايا والخسائس . في هذه الحالة يكبح نفسه عن تهوُّسٍ يحس ان فيه هوانًا لكرامتهِ . وفي هذه الحالة أيضًا يردع نفسه عن الشر قبل أن تردعه القوة الوازعة

ثالثًا . الاحساس الشديد بالمحرَّم والمحلَّل بحيث تتألم عواطفه اذا اتى أمراً منكراً ، وتبتهج نفسه اذا عمل عملاً صالحًا . هذا الاحساس يعصمه من التهوُّس مخافة أن يهوره في ارتكاب الآثام

# الفصل الثاني

## الاقتباس المكاني — الازياء والعرف

## ا — الأزياء

١ — سنن الازياء ٢ — التفرد سبب نشوء الزي . سننه
٣ — خواص الازياء الحديثة

## ب — العرف

١ — سنن طبيعة العرف ٢ — سنن الاقتباس العرفي : السنّة ١ تفاوت الاحوال العرفية في سهولة اقتباسها وانتشارها . السنّة ٢ الاقتباس يتنقل من الجواهر الى الاعراض . السنّة ٣ الاقتباس يسري من الاعلى الى الادنى . السنّة ٤ الغرائز والتقاليد في سبيل الاقتباس . السنّة ٥ التشبه بصاحب السلطة . السنّة ٦ تشبه اهل القرى باهل المدن السنّة ٧ الاكثرية الديموقراطية قدوة للاقلية

رأيت في الفصل السابق ان منشأ العقل الاجتماعي أي العمل العقلي الذي يشترك فيه أفراد الجمهور انما هو قوة المنابهة والمحاكاة . فهذه القوّة كاللهيب الذي يقتبسه كل جسم قابل الاحتراق من غير ان يخسره الجسم المُقتبَس منه . وبهذه القوة يتحرك فكر الواحد كما يتحرك فكر الآخر ، فينتشر الفكر في الجمهور كانتشار اللهيب في الهشيم من غير أن تقل حدته بل تزداد

فالتأثر الفوري ، والتحمس السريع ، والتهوّس الحاد انما هي عناصر الدرجة الأولى من المحاكاة . وأما التأثر البطيء المديد المتكرر فهو الدرجة الثانية من المحاكاة او التشبُّه ، وهو ما يسمى الاقتباس او الاقتداء او « التقليد » كما يفهم من هذه الالفاظ المألوفة . وانما آثرنا لفظ الاقتباس لأنه أقرب الالفاظ للمعاني التي نريدها هنا

فالاقتباس اذاً انما هو ضرب من المحاكاة ، وانما يختلف عنها بأنها فورية سريعة ، وهو يحدث على مهل . وهي قصيرة المدّة تحدث مرّة وتتكرر قليلاً في برهة وجيزة ، وهو طويل المدّة متكرّر . هي تحدث بحكم العواطف من غير روية ، وهو يحدث بتعقل بعد اقتراح العواطف وبروية وتُؤدة

مثال ذلك صاح زيدٌ من الناس : « فليحيي الوطن » فصحتَ معه ، فصاح آخرون ايضا . هذه محاكاة . رأيت زيداً يعلق في عروة ثوبة رايه صغيرة فعلقت وعلق غيرك راية مثله . هـذه محاكاة ايضاً . ولكن اذا شاع تعليق الراية الصغيرة في العروة بين جمهور ودام مدّة اصبح هذا التعليق اقتباسا — اصبح زياً

اعتصاب الطلبة «محاكاة» . وحضور الطلبة اجتماعات متكرّرة لاجل المفاوضة في الاحوال السياسية ونحوها « اقتباس » . عادة قذف الطرابيش الى «كوكب التمثيل » او «كوكب الغناء » (١) وهي تحيد التمثيل او الغناء على المسرح انما هو « محاكاة » . واما ثقب اقراص الطربوش ثقوباً مختلفة بقصد التهوية فهو اقتباس

فموضوع هذا الفصل انما هو المحاكاة المتّئدة المتكررة بناء على رغبة العواطف وحكم العقل معاً . وابسط أنواع الاقتباس الأزياء

# ا - الازياء

الزيّ هو عمل تكرّر حدوثه ، وتشبه في فعله أفراد الجمهور بعضهم ببعض . كتصغير الشوارب مثلاً اقتداء بتشارلي تشبلن ، او حمل الساعة بسَريدة او سوار حول المعصم . وهو متجدّد دوريّ كما سترى

١ — سنن الازياء

اً — يمكن أن يكون غرض الزي الرائج نفعيًّا . ولكن لا يتحتم ان يكون كذلك ، والاّ لطال أمره ريثما ينشأ زيٌّ أنفع منه . وفي الوقائع اليومية ما يدلنا على العكس ، أي أن الزي النافع قد يزول ويحل محله زيٌّ أقل نفعاً بل عديم النفع او ضارٌّ

---

(١) أعظم وأشهر الممثلات او المغنيات

مثال ذلك بطلان زي الاحذية المعتدلة العقب للسيدات ، وشيوع الاحذية العالية العقب جداً بالرغم من انه معلوم ان علو العقب ضارٌ جداً بالعمود الشوكي ومشوه لاعتدال القامة . كذلك يقال عن حلول الحذاء المستدق الراس محلَّ الحذاء العريضهُ بالرغم مما هو معلوم بالاختبار من ان الزي الاول ينشيء « الدمان » ( الـكالـّو ) الالبم في أصابع القدم . وكذلك يقال عن شيوع تعرية الذراعين حتى في فصل الشتاء — وهو الزي الشائع الآن حين طبع هذا الـكتاب

٢ً — أهم مزايا الزي أنه سريع التغيُّر والتجدُّد . وما نحن في اضطرار الى التفتيش عن الشواهد على هذه الحقيقة ، وكل واحد يعلم أن أزياء السيدات تتغير في كل فصل من السنة مرَّة على الاقل . ولـكنها لا تخضع قط لسنَّة الانتفاع . فقد يكون الزي الجديد أنفع من سابقه ولـكن لم يكن النفع غَرَضًا بل كان عَرَضًا ، والاَّ لما طرده زيٌّ آخر أقل نفعًا منه وحلَّ محله كما علمت آنفًا

٣ً — الازياء تختلف عن التقاليد والعادات . فالتقاليد والعادات اعلى درجة من الأزياء لانها تسير في سبيل التقدم والارتقاء ، ولا تتغير الاَّ إذا حلَّ محلها ما هو أفضل منها ، على أن الازياء لاتسير هذا السير . والتقاليد تكون أطول عمراً منها . والازياء لا تسير في خط مستقيم الى الأمام ، بل في مثل دائرة كثيراً ما تعود الى قديمها . فلو أمكنك ان تتحرى تاريخ أمر تقلب على أزياء مختلفة فلا يندر ان تجد أنه بعد تقلبات عديدية عاد الى زيّ قديم .

لاحظ ان فساتين السيدات منذ سنين كانت طويلة تكاد تكنس الارض ، وقد قصرت حتى كادت تشابه فساتين الفتيات الصغيرات . ثم عادت تطول الآن

٤ً — تغير الازياء لا يتوقف على حسن الذوق فقـد يكون الزيّ السابق أجمل من الزيّ الجديد كثيراً او قليلاً . وانما يستحسن الزي الجديد أولاً لأنه جديد يمتاز به من يسبق اليه . وثانيًا متى شاع واشتهر ألفته الأذواق بعض الالفة فيبدو جميلاً . وشهرة الازياء تكيِّف أذواقنا بعض التكييف . و يبقى الزي جميلاً في نظرنا الى ان تنتقل الشهرة الى زي آخر يأتي بدله ، بدليل انك اذا رجعت الى زي سابق منذ بضع سنين مثلاً وجدته بازاء الزي الحاضر شنيعًا ، مع انك كنت في حينه تستحسنه . بعد هذا البيان تسأل : اذاً ما الذي ينشئ الزي ؟

٢ً — التفرُّد سبب نشوء الزي

« خالف تعرف » هو ناموس نشوء الزي . فمهما تقصيت من أسباب نشوء الأزياء وحدوثها رجعت الى هذا السبب وهو « التفرُّد » أي ميل الشخص الى تمييز نفسه على غيرهِ ولا سيما من هم دونه .

وهذا الميل موجود عند كل الناس حتى الهمج الذين يبذلون ريعهم ثمنا للخرز والشريط المعدني اللماع ، والانسجة الملونة وغير ذلك من اصناف البهرجة الظاهرة . ويقدمون تحلية انفسهم بهذه البهارج على كساء اجسامهم ، فقد يكون الواحد منهم عريانا ولكنه يفخر بعقد من الخرز في عنقه . وهو بهذا العقد يميز نفسه على سواه ، حتى اذا اقتدى به آخرون جعل عقدهُ مزدوجاً أو مثلثا ، أو جعله اقراطاً، أو اتشح بوشاح الى غير ذلك مما يميزه على الآخرين ، ويدل على ان في طوقه ما ليس فى طوق غيره

واليك مجمل سنن التفرُّد

١ً — ان تكون علامة التفرد دليلاً على الفوز أو النصر او التفوُّق .

كاكليل الريش عند الهنود الاميركان دلالة على المهارة في صيد النسور أو الطيور ، وسلسلة من اسنان الدببة للدلالة على المقدرة في صيدها، واقتناء الجماجم دلالة على ما قتله مقتنيها من اعدائه الى غير ذلك . ومن هذا القبيل تزيين الجوَّابين في افريقيا منازلهم بجلود الحيوانات ومومياء التماسيح الى غير ذلك . ومنه ايضاً تباهي المبارزين بندوب الجروح في خدودهم أو ايديهم للدلالة على اقدامهم على المبارزة . وذكر في التوراة ان الاسماعيليين كانوا يضعون قلادات ذهب في اعناق جمالهم ( سفر القضاة ص ٨ ع ٢٤ و ٢٧ )

ومن هذا القبيل الازدهاء بالقاب الشرف والرتب والاوسمة الى غير ذلك جزاء لعمل ممتاز ، والالقاب العلمية كالدكتور والاستاذ ، والسياسية كالوزير والمدير الخ ، والحربية كالقائد والفريق واللواء الخ

فكل هذه تميّز الفرد عمن حوله . ولهذا يجتهد أقرانه في الحصول على أمثالها حرصاً على الامتياز وابتغاء للتفرد . ولذلك لاتباع هذه الامتيازات ولا تورَث والاَّ كانت خداعاً وتضليلاً

٢ً — يبتدع الزيَّ الاكابر فيتشبه بهم الاصاغر . ولهذا يقوم الزي بأمرين : التجديد أو التنويع من قبل الأكابر ، والتقليد او التشبه بهم من قبل الاصاغر . اولئك يبتغون التميز والتفوق ، وهؤلاء يبتغون المساواة ، ولذلك يستمر اولئك بتجديد

الأزياء وهؤلاء « بتقليدها » . وهذا هو السر في أن الأزياء لا تخضع لسنة المنفعة ولا السنَّة الذوق بل لسنَّة التفرد فقط . وهذا هو سبب تجديدها وتنوعها

فمتى رأت السيدة ان خادمتها تلبس فستانا كفستانها عجلت في خياطة فستان آخر ليس للخادمة مثله . ولما صار البيطار والمزين ومساعد طبيب الاسنان يُلقَّب دكتوراً صار الدكتور يتوق ان تحل لفظة بك محل لفظة دكتور . اعرف بعض اطباء يفضلون تلك على هذه ، ولما صار الفلاح الغني باشا صار الباشا يفضل ان يلفظ اسمه عارياً من الرتبة واللقب . ولما صار معلم الاحداث يلقب استاذاً صار العالم يفضل أن يذكر اسمه عاريا من لقبه أو مسبوقاً بلفظة عاديَّة. ولما صارت عروس الصانع تزف في اوتوموبيل ، صارت عروس الوجيه تتوق ان تزف في طيَّارة ، أو ان تسير على قدميها ، أو ان يُعقد زواجها في منزل ابويها حتى لا تُزَفَّ زفاً

٣ً — كلما تقدمت الهيئة الاجتماعية أو أي جماعة أو مجتمع في المساواة كثر تنويع الأزياء والأمر بالعكس . إذا كانت الجماعة ( أو المجتمع ) مؤلفة من طبقات معينة محدَّدة ، وكل طبقة تبقى في درجتها ولا تطمح الى درجة غيرها كطبقات الاعيان وأهل العمل والعمَّال ، او طبقات النبلاء والمزارعين في عهد الاقطاع — ففي حالة تحدد الطبقات هذه وتمايزها بحكم التقليد أو السياسة يقل تجدُّد الازياء ، لأن العامة لا يتشبهون بالنبلاء ولا يتطاولون الى تقليدهم . ولذلك لا يضطر هؤلاء ان يستنبطوا أزياء جديدة لكي تميزوا بها على العامة . ولكن الجماعة الديموقراطية التي لا تحدد الانظمة السياسية أو التقاليد طبقاتها ( مع وجود التفاوت الكثير بين أفرادها في مظاهر الحياة من غنى وجاه ونفوذ ) يكون صغارها دائماً في طموح الى تقليد كبارها توصلاً الى المساواة الظاهرة بهم ، اذ لا حواجز تفصل بين الجانبين

في عصر الاقطاع (١) كان الاعيان في امن من ان يطاولهم العامة او أن ويتطاولوا على ازيائهم لاقتباسها . كذا الأمر في كل بلاد كانت تحت الحكم الفردي المطلق وقد تقيدت حرية شعبها

في بعض الامم القديمة كالمصريين كان العامة تحت قانون يقيدهم بأزياء خاصة . وكان في اليابان القديمة قوانين مسهبة تعين لكل واحد من العامة ما يحق له ان يقتنيه من متاع أو يلبسه من لباس ، وعدد الامتعة والملابس التي يسوغ له اقتناؤها . وازياء الرهبنات من هذا القبيل . فلهذا السبب كان تغيير الازياء قليلاً عندهم

---

(١) راجع صفحة ٥٨ عن الاقطاع

ولكن لما تقدمت الحياة الديموقراطية وجعلت تتلاشى من أمامها الحواجز التي بين الخاصة والعامة وسادت فكرة المساواة صارت طبقات الاغنياء والوجهاء والنافذين مضطرة ان تتخذ الوسائل لتمييزها عن العامة، فجعلت تتفنن في الازياء، فكلما اقتبس العامة زيًا استنبط الخاصّة زيًا جديداً. ولهـذا يعد عصرنا عصر الازياء لزوال الحواجز التي كانت تمنع تجددها

٤ً — احتدام الجهاد في تنويع الازياء واقتباسها. فان زوال الفروق الرسمية بين الطبقات وازالة الحواجز بينها بحيث صار لكل فردٍ مجالٌ ينازع فيه غيره التفوق في الثروة والوجاهة والنفوذ — جعل الادنى يحاول التشبُّه بالمتوسط لكي يتذرع بهـذا التشبه الى مشاطرة الادنى فوائد درجته. وكذلك جعل المتوسط يتشبَّه بالمتفوق تذرعًا لمشاطرته منافع درجته. والمتفوق يضطرُّ أن يزوغ من سبيل تشبه ذاك بهِ باستنباط مظهر جديد يعجز المتوسط عن اقتباسهِ. وهكذا دواليك، حتى أصبحت الحياة الاقتصادية حلبة للسباق عنيفة الجهاد، وكثيرون بسبب هذا الجهاد الهائل يقعون صرعى في حومة الوغى، واكثرهم من الطبقة المتوسطة. هذا هو سبب أن ما كانوا يسمونه كماليات أصبح ضروريات، بل أشد ضرورة من الضروريات. فان كثيرين يحرمون أنفسهم من كثيرٍ من الضروريات لكي يتسنَّى لهم الحصول على تلك الكماليات.

من غرائب مقتضيات هذا الجهاد العنيف أن ترى خادمة تذهب الى السوق لشراء حاجات المطبخ وهي تحتذي حذاء من طراز أعلى عقب ومن افخر الاحذية. لماذا؟ لانه ليس في طاقتها ان تشتري حذاء للابهة وحذاء للشغل. فاضطرت ان تشتري حذاء الابهة وحده وتستعمله للغرضين جميعاً، ولو كان المشي بهِ صعباً في حين قضاء اشغال المنزل

وهذه الحالة قضت بتطوير آخر في الحياة الاجتماعيـة وهو ملاشاة طبقة المتقاعدين شيئًا فشيئًا، لأن الجهاد العنيف في ساحة الكسب حرصًا على طرائف الأزياء المستجدة كل يوم والمتعدِّدة جعل موقف اولئك المتقاعدين مهدَّداً. فصاروا اذا لم يجاهدوا مع المجاهدين تهدمت حصون مواردهم — ولطالما سقط من هذه

الحصون ،وكثر من افتقر من الاغنياء — أو اذا لم تنهدم تلك الحصون فأقل ما يصاب به ذووها هو ان يتفوّق عليهم من كان دونهم . والانسان طموح بالغريزة.

فلذلك ترى اصحاب الاشغال لم يعودوا يقتصرون على الاشراف من بعيد على اشغالهم لئلا تتضعضع بين وكلائهم ، بل صاروا ينزلون الى حلبة الشغل والعمل مهما عظمت ثرواتهم . وانما يضطرون ان يجاهدوا هذا الجهاد مع المجاهدين لانهم يطمعون بالتفوق على من يناظرونهم وينازعونهم هذا التفوق نفسه

٣ً — خواص الازياء الحديثة

١ً — تفاقم الأزياء . ترى الأزياء تتبدّل وتتجدّد وتتفاقم بسرعة غريبة مدهشة ، لأن الثروة تعاظمت جداً في هذا العصر ،والمعامل الحديثة تفعم الاسواق بالسلع في وقت قصير . ثم أن أهل الصنائع والفنون قد أبدعوا في التفنن بالمصنوعات، بحيث استطاعوا ان يلبوا شهوة كل صنف وكل طبقة من الناس بالثمن الذي يستطيع الناس دفعه .

فالخادمة تستطيع أن تقتني فراء كفراء سيدتها وربما ظهر اجمل منه . وانما ذاك جلد حقيقي وهذا جلد صناعي . والكاتب يقدر ان يحمل عصا مزخرفة كعصا مديره ،وانما تكون قبضته عاجاً وقبضة هذه عظماً . ويقدر الفقير ان يفرش بيته بالابسطة الاوربية النسيج أو بالسجاد الشيرازي تشبها بالغني الذي يفرشها بالسجاد الكاشاني والبخاري والكارمانشاهي . وتستطيع زوجة البدّال ان تلبس فستان كريب ايضاً كما تلبس زوجة المليونير وانما بين الكريبين فرق اقل جداً من الفرق بين الزوجين في المقدرة المالية

مثل هذا الاندفاع في الازياء لم يكن قبل القرن الاخير . بل كان في بعض الازمنة اضطرار للاقتصاد الى حد التقتير ، وقد كان في زمن من الازمنة عهد يسمى بعهد الترقيع حين كان الملك ريشار الثاني « الانكليزي » يرقع حذاءه . وكانت المرأة تورث ملابس عرسها لبناتها . ويقال ان البنطلون كان في اوربا لباس المقترين

فلذلك ترى ان تجديد الأزياء وتنويعها قد تطرّق الى كل متاع من أمتعة الدنيا بلا استثناء . فما من شيء الاّ تنوع كثيراً أو قليلاً ، حتى اذا قابلت أشياءنا بأشياء القدماء لا تجد شيئاً بقي على حاله

٢ً — انتشار الازياء . منذ قرن أو اكثر كان الزي ينحصر في المدينة أو المقاطعة أو المملكة ، وقلّ أن يتجاوزها الى سواها . أما الآن فقد أصبحت

الازياء تنتشر بسرعة غريبة في جميع ممالك الارض، بقدر ما لها من التمدن والميل للاقتباس والاقتداء. بل كثيراً ما يشيع الزي في بلاد قبل ان يشيع في البلاد التي استنبطته.

تعد باريس الآن مصدر ازياء السيدات، ولندن مصدر ازياء الرجال. ولكن مما لا شك فيه ان نيويورك بل معظم مدن اميركا تمتع بازياء لندن وباريس قبل ان يتمتع أهل هاتين المدينتين بها. فاميركا تقول لهما: « استنبطا ونحن نلبس »

٣ – صدُّ التهوس في الازياء. أن سبب هذا التهوُّس في الازياء هو افراط المتفوقين في استنباطها تميزاً لأنفسهم عن سواهم واندفاع الجمهور في اقتباس هذه الازياء تلافياً لهذا التمييز. فلا يبدو زيٌّ حتى يُحدث موجةً اقتباسيةً تنتشر في المعمور، والجمهور يقاسي من تلاطم هذه الأمواج.

على أن هناك عوامل تقاوم هذا الظلم وأهمها: أولاً، ان نفس المتفوقين يؤثرون المطل في استنباط الازياء ما استطاعوا لأنهم يقاسون من تعدد الازياء كما يقاسي الجمهور. ثانياً، أنهم جعلوا يملون هذا النزاع لأنهم لا يرون نتائجهُ تساوي اكلافه. ثالثاً، أنهم صاروا يميلون ان يكون الزي أفضل صحياً وذوقياً، حتى اذا أصاب هذا الغرض تحاشوا ما استطاعوا تغييره

يستدل على ذلك من ان بعض الازياء الضارَّة اخذت تبطل بتاتا ولا يعاد اليها، كالمشد وعقب الحذاء العالي الذي جعل يتلاشى في اوروبا واميركا الان، وطوق الرقبة العالي، وتخضيب الوجه بالالوان الى غير ذلك

وكان الرجال حتى آخر القرن الماضي اكثر عبودية للازياء من النساء ولا سيما في عهد الفروسية في القرون الوسطى. فقد تلاشت تلك الازياء الرسمية رويداً، واصبح الاخير منها عموميا كالسموكن والردينجوت، ويندر ان يحدث تغيير زهيد في الملبس الاعتيادي

ولا يخفى أن تقدم الديموقراطية يلاشي هذه المنافسة رويداً بين طبقات الشعب. وكذلك نزول المرأة الى حلبة العمل، ومباراتها للرجل في الحياة، يقضيان عليها بأن تكون اكثر تعقلاً في اختيار الازياء الصحية والملائمة للعمل وللرياضة، كالتنس ولعب الكرة الخ

# ب – العرف

## ١ — طبيعة العرف

الدرجة الثانية من درجات الاقتباس أو التقليد أو التشبه « العرف » أو الاصطلاح وهو تشبه متأيد بتعقُّل . يمتاز على الزي بأنه لا تتناظر فيه طبقات الناس، ولهذا يقلُّ فيه التجدُّد ، و يبطوء جداً كما ستدرك ذلك من الشواهد الآتية

فمن امثلتهِ العديدة ان يخطب الفتى الفتـاة لا ان تخطبه هي . وان تزّف العروس الى الى العريس . وقد شرع هذا العرف يتغير عند النصارى اذ صار العريس في بعض الاحوال يأتي الى منزل العروس حيث تجري حفلة الاكليل . وفي بعض الاحوال الاخرى صار العريس والعروس يلتقيان في فندق حيث تجري حفلة الاكليل ، ومنذ عقود قليلة من السنين كان العروسان يلتقيان في الـكنيسة حيث يعقد زواجهما

نصب السرادقات ثلاثة ايام لا اكثر ولا اقل للتعزية بالفقيد عرفٌ . تشييع النعش محمولا على الاكتاف عرف . وتشييعه محمولا في مركبةٍ عُرفٌ آخر . التزاور في الاعياد في بعض البلاد وارسال بطاقات « المعايدة » في البلاد الاخرى عُرفٌ

فترى من هذه الامثلة القليلة ومن غيرها مما يلي أيضاً أن العرف او الاصطلاح أرسخ قدماً في الهيئـة الاجتماعية من الزي ، وانه عمل حيويٌّ من أعمال الحياة الاجتماعية ، وأنه أشدُّ نفوذاً وأوسع سيطرةً على حياتنا اليومية من الزي ، لأنه لا يلعب أدوارهُ في سطحياتها ، بل يتعمق فيها حتى يتغلغل الى عقائدنا وتصوراتنا وآرائنا الى غير ذلك مما يدرِّب تصرُّفاتنا نحو أنفسنا ونحو غيرنا

العُرف الفاسد

فمن الخطاء أن نظن أن عقائدنا وتصوراتنا وأفكارنا وآراءنا مواليد أذهاننا ، لانها بالحقيقة ليست الاَّ نتائج العرف ،فضلاً عن العادات والتقاليد التي سيأتي البحث فيها . هيَ مقتبسات من غيرنا قبلتها عقولنا . .

فنحن نعتقد بدوران الارض حول الشمس ليس لانه تبرهن لنا ذلك ، بل لاننا كنا تلقناه قبله ان نفهم البرهان . كذلك نعتقد ان الحكم النيابي افضل من الحكم الملكي المطلق لاننا تعلمنا هكذا وسمعنا هذه الحقيقة كثيراً . وكذلك نعتقد بان ديننا الذي ربينا فيه اصح الاديان لا لأننا نستطيع أن يبرهن ذلك بل لاننا شببنا على هذا اليقين ، وهلمَّ جرَّا

ومما يدلك على أن العرف ينطبع في أذهاننا حتى نحسبه بداهة يقينية فينا ، وما اشتركنا فيه الاً لأنه بداهة أو يقين بديهي ،هو ان كثيراً من الاصطلاحات الشائعة فاسدة القاعدة . واذا تمحصت في بوتقة العقل والحق جيداً ظهر زيغها . ومع ذلك يعتقد بصحتها جمهورٌ أو جماهير من الناس . واليك بعض الشواهد على ذلك :

منها الاعتقاد أن وظائف الحكومة شرفٌ لا يناله اصحاب الحرف حتى ولا الفلاحون المُلاّك . ولهذا كنا نرى ولا نزال نرى الفتيان يتهافتون على وظائف الحكومة وكنا نرى كثيرين يتهافتون على الوظائف الصغيرة الزهيدة المراتب ، وهم اصحاب املاك ، ولهم من ريعهم ما يقيهم عن رواتب الوظائف ، فكانوا يهملون املاكهم بين ايدي المستأجرين طمعاً بان يقال : « ذهب الافندي الى الديوان . وعاد الافندي من الديوان » ولطالما جرّت هذه المظنة من الضرر على البلاد وقومية اهلها اذ كانت من جملة اسباب تأخرها واستحكام الاجنبي منها

ومن ذلك أن الوجاهة والنفوذ اصبحت للباشاوات والبكوات . وامام لمعان مجدهم يختفي مجد اصحاب الاملاك مهما اتسعت املاكهم ، واصحاب الاموال مهما ضخمت خزأئنهم ، واصحاب المتاجر مهما عظمت متاجرهم ، واهل العلم مهما كان علمهم . ولهذا السبب كانوا يبذلون النفس والنفيس للحصول على الرتب والاوسمة ابتغاء لهذه الوجاهة

في اميركا الأمر بالعكس ، فان العرف العام فيها أن الوجاهة والنفوذ لملوك الاعمال وامراء المال . ولهذا يقولون : « معك ريال فتساوي ريالاً »

ولكن اهل العلم والفنون هناك لا يسلمون بالوجاهة لهؤلاء، بل ينازعونهم أياها ويناظرونهم باحراز النفوذ .وفي كثير من المواقف يتوارى ذوو المال والثراء اذ تختفي وجاهتهم بازاء وجاهة اهل العلم ، ويقتصر تباهيهم بريالاتهم على المنافسة فيما بينهم فقط

فترى مما تقدمان العُـرف في امر واحد يختلف بين امة وامّة بل بين فئة وفئةمن امةواحدة

ومن ذلك ايضاً حجاب المرأة الشرقية ولا سيما المسلمة ، فلقد كان في القرن الحالي يُعتقد انهخير الفضائل واشرفها وانبلها ، الى ان قام بعضالمصاحين ، واعظمهم من هذا القبيلالمرحوم قاسم بك امين ، فأبان اضرار الحجاب وحيلولته في سبيل ارتقاء الشرق ، ومع اقتناع السواد الاعظم من الناس ان تحجُّب المرأة اصطلاح ضار ،ومع انهم صاروا يعلمون بناتهم حتى العلوم العالية ، ما زالوا يتهيبون ابطال الحجاب ، حتى ان السيدات اللواتي يشعرن بقساوة هذا العُرف عليهنّ وضغطه على حريتهنّ يتهيبن السفور ، بل يناضلن ويدافعن عن الحجاب .من ذلك ايضاً انه لا يليق بالسيدات ان يدخنَّ السيكارة ويشربنَ الاشربة الروحية في الحانات . وليس من يستطيع ان يقنعنا أن التدخين والشرب في الحانات يليقان بالرجل . بل لا ندري لماذا لا يليق للمرأة ما يليق للرجل، أو لماذا يليق للرجل ما لا يليق للمرأة . وأغرب من ذلك إن يباح للسيدات «القرقرة» بالنارجيلة في المنازل ، وفي اثناء الزيارات، في سوريا وتركيا ، ولا يباح لهنَّ تدخين السيكارة

ومن الادلة على فساد هذا الوهم أن النارجيلة اخذت تنقرض رويداً في المنازل بل بطلت في الزيارات لصعوبة خدمتها . وصارت السيدات يدخنّ السيكارة في المنازل، بل في المحلات العمومية كالمتنزهات . والسيدات الافرنجيات والمتفرنجات يشربن الاشربة الروحية في الحانات كالرجال ، بعد ان كان الاوربيون والاميركان يستهجنون تساقي السيدات في الجيل الفائت، وبعد ان كان الشرقيون يستنكرونه أي استنكار . واغرب من ذلك انه لما كادت تشيع عادة السيكارة عند السيدات جعلت عادة ابطالها تشيع عند الرجال

من ذلك ايضاً الاعتقاد الشائع ان الزلة الشهوانية لا تعيب الرجل ولكنها تعيب المرأة ، ولذلك تُغتفر له ، ولا تغتفر لها ، حتى ولو غفرها الله ، فهي تعاقب ادبيًّا بلا رحمة ، وهو يسامح بسخاء وبلا استحقاق. وسبب ذلك او حجة الجمهور فيه ، أن عار المرأة ينفضح بحكم الطبيعة ، واما عار الرجل فلا . وهي حجة اقبح من ذنب كما لا يخفى

ولعل ذلك هو السبب في حجب المرأة ، وقد قواه سبب آخر ، وهو انانيّة الرجل لانه قوي ، واستبداده بالمرأة لانها ضعيفة . فسدّ عليها المسالك حتى تطوح فيما اباح لنفسه التطوح به من الموبقات

روح العصر

أما السبب العمومي لشيوع العادات العرفية حتى الفاسد منها فهو تسيد « ما يسمونه « روح العصر» . فهو الجو العقلي الذي ينغمس فيه المجتمع كله ، ومنه يتنفس كل فرد عاداته وأخلاقه منذ يظهر للوجود الى أن يموت . فلا بدع أن يتشرب الشخص كل عرف سواء كان صالحًا أو فاسداً . ولا ينتبه لفساده الاّ العقل النير المتبحر الذي يتسنّى له ان يقارن المتناقضات، ويقابل بين جو مجتمعه وجو مجتمع آخر

فأذا نشأت فتاة في جو عيلي يحبذ الحجاب فمتى شبّت وأكرِهَت على السفور تمنعت لأنها تجد الشعور نقيصة . ولهذا ترى بين النساء الآن كثيرات يقاومنَ هتك الحجاب

واذا نشأ الانسان في جو الأحكام الملكية المطلقة الاستبدادية تعذر عليك جدًّا ان تحمله على تحبيذ الحكم الدستوري الديموقراطي او الحكم الجمهوري . ومن ذلك أن أعداء الاشتراكية وأعلاهم صوتًا في شجبها وجحدها هم المسترزقون الصغار الذين تهزمهم الشركات الكبيرة من أمامها ، كما تهزم النيران الجراد ، مع أن

أول من ينتفع من الاشتراكية هم هؤلاء المسترزقون الصغار . وسبب مناهضتهم لها أنهم ربوا وشبوا في جو « نظام افرادي »[١] وعبثاً أن تحاول إفهامهم أن الاشتراكيــة حتى في أقصى مبادئها لا تقضي باستلاب أموال ذوي الأموال وتوزيعها على الجمهور، بل هي تقضي بحماية حق العامل في ثمرة عمله من طمع المتمول الذي يستغلُّ تعب العامل بلا حق . وانما يقاوم هؤلاء المسترزقة الفكرة الاشتراكية لظنهم أنهم من طبقة المتمولين . وقد جهلوا أن مالهم الضئيل هــذا لا يحسب له حساب في الحركة الاقتصادية الحالية

## ٢ — سنن الاقتباس العرفي

**السنة الأولى** : تفاوت الاحوال العرفية من حيث سهولة اقتباسها وانتشارها

وإليك أهم هذه الاحوال :

١ً — الحركات البدنية تنتشر بسهولة كلية

عدوى التثاؤب أقرب الشواهد وأعمها . ويلاحظ كثيراً أن الضحك يستولي في بعض الأحيان على جملة من الفتيان او الفتيات في مجلس واحد بحيث لا يعود في وسعهم أن يتمالكوا أنفسهم عنه . وذلك لأن أحدهم ضحك لأمر فحاكاه آخر، فحاكاهما الآخرون، واندفعوا في الضحك فأصبح كنوبة عصبية . ولا تنقضي هذه النوبة الاَّ بتفرقهم . وقد تشتد حتى اذا اجتمع بعضهم في اليوم التالي في نفس المكان عادوا الى الضحك . هذه حالة غير نادرة . والأرجح انها ما فاتت اختبار أحد من القراء

حفلة الزار مشهور امرها في مصر، وهي علاج تدجيلي للمصابات بالهستيريا اللواتي يعتقدن ان فيهنَّ شياطين أو جنيات . فيُدعى للمصابة صواحبها لمنزلها وتُمدُّ لهنَّ الاطعمة الفاخرة، فيقضين النهار أو النهارين أو الثلاثة احياناً في التطبيل والرقص والوثب، فمتى ضُربت الدفوف أو الدربكات

---

(١) « النظام الافرادي » هو النظام الحالي الذي لم يخضع فيه بعد العالم المالي للنظام الديموقراطي . فهو عدو الاشتراكية وهي عدوته

وشرعت المصابة بالرقص والوثب والطفر تأثرت السيدات الاخريات بالوثب والرقص ايضاً، وفي دقائق معدودة ترى معظم الحاضرات أو كلهنّ يرقصن ويقضين النهار على هذا النمط ويستأنفن الأمر في النهار الثاني، الى أن تقتنع المصابة ان الشيطان أو الجن خرج منها. وقد ينجح الزار في الشفاء احياناً. ولهذا صار بعض الاطباء يصفون علاجاً وهمياً اذا استعصت الهستيريا عليهم . ولكن لا يندر ان تخرج بعض السليمات من السيدات الحاضرات من الزار وقد اصيبت بالهستيريا ، كما انه لا يندر ان يشتد هستيريا المصابة أو يتحول الى سرسام أيضاً

كان من جيراننا في حين من الاحيان عيلة يونانية ، وكان فيها فتاة تصاب بجنوب هستيرية غريبة الاعراض يحار الجيران والمعارف حتى الاطباء في كيفية علاجها . فكانت اذا اصابتها النوبة تجمّع الجيران حولها يحاولون تاطيف مزاجها ، فما انقضت اسابيع معدودة حتى صارت جارة يونانية اخرى تصاب بنوب هستيرية ايضا . ثم صار جار ارمني يصاب بالنوب ايضاً . ولولا تفرق الجيران بعد حين لربما غزتهم الهستيريا جميعا

في الجيل الثالث عشر شاعت في اوروبا عادة جلد النفس ، ولبس المسوح ، والتقشف، من قبيل العبادة حتى صار المتقشفون يطوفون في الشوارع ويجلدون انفسهم وهم سائرون في مواكبهم. فاصدر البابا امراً بمنع الجلد العلني في الشوارع والاقتصار على الجلد السري . فما مضى نصف العام على هذا الامر حتى بطل الجلد بتاتاً . لان وسيلة المحاكاة أو التشبه أو التقليد انعدمت

من العادات السائدة الآن بين الفتيات لحس شفاههنّ بالسنتهنّ كل هنيهة . ولكنك لا تجد هذه العادة في القرى حيث يقل اجتماع الفتيات، بل تجدها في المدن الكبيرة ، وعلى الخصوص بين الفتيات اللواتي يكثر لقاؤهنّ ، كالعاملات في المخازن ، او في مصلحة التلفون وغيرهنّ من النساء اللواتي يلتقين كثيراً في الملاعب والحانات الخ . ذلك لان هذه الحركة البدنية سريعة الانتشار بسهولة حيث يتيسر اجتماع الفتيات . وقد عدي بها بعض الفتيان الذين يعاشرون هؤلاء الفتيات

يقابل هذه العادة عادة مضغ اللادن ( العلك ) عند الرجال في مصر، فقد انتشرت حتى عمت الطبقة الراقية وتناولت الكهول فضلاً عن الفتيان . ولكنك قلما تجدها حيث يقل اجتماع الرجال

لاحظ أن الحركات اليدوية في اثناء الكلام عادة شائعة عند كل أمة ولكنها تختلف شكلاً باختلاف الامم

٢ — لهجة الكلام أيضاً سهلة الاقتباس

لأن المتكلم عادة لا ينتبه للهجته ، حتى ولا للألفاظ التي يستعملها اذ يوجه كل انتباهه الى المعنى الذي يعبر عنه بكلامه . ولذلك يرى نفسه بعد حين قد اقتبس لهجة القوم الذين نزل بينهم، وانتحل الفاظهم وأساليب تعبيرهم أيضًا . يقتبسها عن غير قصد منه بل بحكم المحاكاة الحتمي

وقد تتمكن اللهجة في قوم حتى تتطرّق الى اللغة الاجنبية التي يستعملونها ، كاهل دمشق فتراهم يتكلمون الفرنساوية بلهجتهم الشامية الناعمة ، حتى اذا سمعت احدهم يتكلم لغة اجنبية شعرت انه دمشقي لا ريب في دمشقيته

واذا كانت اللغة في الاصل محاكاة « صوتية » لاصوات الطبيعة والعجماوات كهبوب الرياح وهزيم الرعود ، وحفيف الاشجار ، وزقزقة العصافير الخ فلا بدع ان تسهل محاكاة لهجاتها . فما آب سوري من مصر الى سوريا الاّ عُرف انه كان في مصر . وما آب مصري من بيروت الاّ عُرف انه كان في بيروت

٣ً — الشهوات البطنية تختلف في سهولة اقتباسها

فما كان من المشتهيات للشبع يقل اقتباسه ، وما كان لتحميس الشهوة يكثر اقتباسه .

لهذا ترى ان لكل امة انواعاً خاصة من الطعام . فالملوخية لمصر . والكبيبة لسوريا . والمكرونة لايطاليا الخ. واما الاشربة الروحية فتكاد تكون عامة . وانما قد تتخصص بعض البلاد بانواع منها ، كالوسكي لانكلترا ، والبيرا لالمانيا .

وكذلك سائر المكيفات كالتدخين على انواعه عامٌ كل العالم تقريباً . واستعمال الحشيش والافيون وشم الكوكايين والمورفين والهيروين يعم بسرعة لو ازيلت المقاومات الشديدة من سبيله

ومن ذلك ترى أن الشهوات في الضروريات بطيئة الانتشار، وانما في الكماليات المكيفات سريعة

٤ً — الشهوات البهمية أسرع انتشاراً

فما انفسح لها السبيل في مكان الاّ انتشرت بسرعة هائلة انتشاراً فظيعًا جداً . ولذلك يعد قانون الزواج وقانون تحريم الفاحشة أعظم القوانين التي استنبطها الانسان حرصًا على سلامة المجتمع من التقهقر وابتغاء للارتقاء المطّرد

فلذلك حيث ارتخت هذه القوانين تفشت الفاحشة تفشي الماء في الرمال ، لأن الشهوة البهمية أعلى صوتًا في الأوتار العصبية ، وأدومها ارتجاجًا فيها .

روى لنا احد المهاجرين بعد عودته من جمهوريات اميركا الوسطى ان الحياة هناك تكاد تكون حيوانية ، لولا ما يصاحبها من الآداب الاجتماعية الاخرى التي ترفع المجتمع من درك انحطاطه البهمي قليلاً . فان الدعارة هناك امرٌ مألوف شائع لا يعدّ معرّة حتى انّ سنة الزواج تكاد تتلاشى امامها

٥ً — العواطف أسهل اقتباساً من الشهوات وأسرع انتشاراً

ولعلَّ السبب هو أن العواطف أكثر استقلالاً عن الجسد من الشهوات حين العمل . فقد ينتقل الواحد من الأمل الى الخوف بلحظة . وليس الأمر كذلك في الجوع والشبع ونحوهما . ففي امكان الزعيم ان يستنفر قومه ، او الشيخ قبيلته لمقاتلة أعدائها بمجرد أن يركب جواده ويخترق القبيلة فيتبعه الفرسان على الفور .

كذا فعل نابوليون حين عاد من منفاه من جزيرة البا ، فكان كلما تقدم في سيره نحو باريس انضم اليه الرجال حتى الجنود . وزعيم القبيلة الذي قطع جثة احدى نساء قبيلته التي قتلها الاعداء الى قطع وارسل الى كل شيخ من مشايخ القبيلة قطعة منها كان انجح جداً في استنفار قومه من الزعيم الذي يحض رجاله على القتال طمعاً بالغنائم . فذاك استثار عاطفة غضبهم في الحال ، وهذا لم يستطع ايقاظ شهوتهم على الفور

٦ً — كذلك ترى ان العواطف اكثر انتشاراً من الافكار والاراء

ذلك لأن عندنا أقيسة منطقية لتمحيص هذه وتمييز غثها من سمينها ، فلا نقبلها مالم نغربلها ونطرح زوانها مهما كانت قوة المنابهة والمحاكاة شديدة . وأما العواطف والاحساسات والشعور فليس عندنا وسائل عقليـة لاختبارها . ولهذا ترى ان الجمهور اكثر تقلباً في نزعاته منه في مذاهبه ومبادئه . فبين ترى أمة تتشبَّث بعقيدتها الدينية ، او بمذهبها السياسي ، من جمهوري أو اشتراكي ، و بأساليبها الاقتصادية ، من تجارية او صناعية ، تراها كل يوم في ميل جديد او عاطفة جديدة .

مثلاً الامة التركية كانت قبل الحرب عدوة ايطاليا لانها اعتدت عليها في طرابلس . ولما شبت الحرب الكبرى عادت تعطف عليها آملة أن تدخل الحرب معها ضد اعدائها . ثم عادت تكرهها لانها مالأت اعداءها . ثم عادت تودها في مدة عقد الصلح

ولهذا السبب عينه لا تجد في الامة الواحدة فلسفة يسلم بها الجميع بل يختلفون فيها . ولـكن تجد في الامة كلها ميلاً عاماً لشيء واحد ، وحباً واحداً لغرض واحد . ففي مصر الآن كره عام للاحتلال الانكليزي واختـلاف في الرأي في كيفية اخراجهم من البلاد

فلهذا يمكنك ان تجمع كلمة القوم تحت لواء العواطف لاضمن دائرة الحقائق . إضرب على وتر الاستقلال ، لا على وتر مناقشة الانكليز فيه

الاتحاديون الاتراك استطاعوا أن يكتسبوا رضى الجمهور يوم خلع عبد الحميد لانهم خلعوه بدعوى انه عدو الدستور الذي هو حبيب الشعب ، لا بدعوى أن دستورهم افضل من حكمه ، لان هذه مسألة فيها نظر . واما اثارة حقد الجمهور عليه فليس فيها « لام جيم »

٧ً — الاندهاش سريع الانتشار في الجمهور

لان في طبع الانسان شهوة الاطلاع على السبب . ما أسرع شخص في الشارع الاَّ أسرع آخرون ليعلموا سبب اسراعه . وما تجمع اثنان او ثلاثة حول شيء او وجهوا نظرهم الى نقطة واحدة حتى تجمع حولهم آخرون ليطلعوا على سبب تجمعهم . وما سُمِع وقع شيء الاَّ أسرع الجمهور الى مكان الصوت ليعلم السبب . وما اقتتل اثنان الاَّ تجمهر القوم عليهما ليعلموا السبب ، او ليعلموا من هو صاحب الحق او من هو المنتصر . والى حيث يضرب الطبل يهرع الناس

وبفضل هذه الطبيعة البشرية استنبطوا طريقة ضرب الطبل والنفخ بالصور لجمع المقاتلة أو التجنيد العام . لان بهذه الوسيلة تجمع الجمهور سريعاً . وبها يتذرع رجال « جيش الخلاص » في انكلترا واميركا لجمع الجمهور في قارعة الطريق ودعوتهم الى التوبة والى يسوع المخلص . وبها يتذرع الآن بعض المعلنين لالفات نظر الجمهور الى اعلاناتهم

٨ً — الفنيون اكثر سيطرة على عقلية الجمهور من العلماء واهل العمل

واذا كانت العواطف والاحساسات ونموها أسرع انتشاراً من الآراء والحقائق فالفنيون من شعراء وموسيقيين وممثلين ومصورين وروائيين وأشباههم اكثر سيطرة على عقلية الجمهور من أهل العلم والعمل والجد .

الفنيون يخلقون للجمهور المثل الأعلى الذي ينبغي أن يقبسه . ولهم المجرى الاكثر تدفقاً في تاريخ المجتمع . ولذلك يعدون اكثر خطراً على المجتمع كما يعدون أعظم نفعاً من المفكرين

٩ً — أهل الكرامة أهل القدوة

الافراد الذين يكرمهم الجمهور ويبجلهم هم الذين يقتدي بهم عامة الشعب اكثر من غيرهم .

فلما كان الجمهور يوقر الافندية موظفي الحكومة كان كل فرد يتوق ان يكون افنديا . ولما صار الجمهور يوقّرون الازهريين صار كل فرد يتوق ان يكون ازهريًّا ، وفي انكلترا يتوق الناس الى المراكز السياسية العالية لانهم يجدون ان النفوذ والوجاهة لهؤلاء ، ولم يبق منهما للوردات ما كان لهم قبلاً . وفي اميركا يتوق كل فرد ان يكون صاحب عمل عظيم لانه يرى ان فورد يلقب ملك الاتوموبيل وكارنجي ملك الحديد وركفلر ملك الزيت الخ ، وكل مرأة في فرنسا تتمنّى ان تكون اعظم ممثلة حتى يكون لها الفخر الذي كان لساره برنار .

فلذلك يجب ان يحاذَر جداً في اكرام الأفراد فلا يكرم الاّ من يصح الاقتداء بهِ .

١٠ — تاثير الارادة يكون شديداً وسريعاً اذا كانت الارادة قوية بحيث تجتذب عديد المطاوعين

والناس يتفاوتون كثيراً بهذه المزية فمنهم من خلقوا ليكونوا زعماء لأن لهم ارادة لا تقاوم . وهؤلاء يكونون قدوة في جميع حركاتهم وأقوالهم . يُقتَدَى بهم بقدر ما يكون لهم من نفوذ الارادة .

لاحظ ان اهل البلاط يقلدون الملك ، والكبراء يقلدون البلاط ، والشعب يقلد الكبراء — يقلدون في كل صُوَر الحياة الظاهرة . ولكن متى قلت هيبة الملك والبلاط قل التقليد . يقال ان اهل باريس قبل الثورة لم يعودوا يقتبسون شيئاً من ازياء البلاط وعاداته

لاحظ هنا في مصر أن المدير يفتح دائرة « للتشريفات » في الاعياد كما يفتح الملك قصر عابدين لها . وكذلك يفعل « عمدة » البلد ايضاً

## السنة الثانية — الاقتباس يتنقل من الجواهر الى الاعراض

١ — اقتباس العرض ملازم لاقتباس الجوهر

ما لبس الشرقيون الثوب الاوروبي ( السترة والبنطلون ) الاّ بعد ان صاروا يتعلمون لغات الاوربيين ، ويقتبسون علومهم ، ويتخلقون ببعض أخلاقهم . وعلى هذا النحو اقتبس الشرقيون كثيراً من عادات أوروبا ، كالاكل بالملعقة والشوكة وكالمقاعد والكراسي والاسرة والأواني الخ

وما أخذ العرب في العراق وسوريا ومصر الخ من عادات الترك وازيائهم الا بعد أن وطّد هؤلاء حكمهم في البلاد ، واصبح العرب عثمانيين في نزعتهم ، وصارت محاكمهم تركيّة وواسطة رسمياتهم اللغة التركية

٢ً — كثيراً ما يتأخر اقتباس العرض جداً عن اقتباس الجوهر .

فلما تنصر الوثنيون غيروا عقيدتهم ولكنهم لم يغيروا طقوسهم كثيراً ، ولهذا ترى شيئا من اثار الطقوس الوثنية في النصرانية حتى اليوم . ولم تزل بقية منها باقيةً في جميع الكنائس الاّ البروتستانتية .

ولما انشق الروم الارثوذكس في الشرق وتبع فريق منهم الكنيسة الغربية بقوا فيطقوسهم الارثوذكسية الشرقية حتى اليوم . فغيروا شيئاً من عقيدتهم الجوهرية ولم يغيروا طقسهم العرضي وكثيرٌ من الامم اقتبست الشرائع الفرنساوية ولكنها ابطأت في اقتباس العادات الاجرائية .

٣ً — قد تنعكس الحالة السابقة فيتأخر اقتباس الجوهر عن العرض

قد تنعكس تلك الحقيقة اذا كان الجوهر ينشر في جماعة بالقوة أي بالرغم منها . فتغير الجماعة أعراضها وتبقى متمسكة بجواهرها .

يقال أن بعض القبائل الوثنية في القوقاس اكرهها الترك على الاسلام اكراها من غير تعليم اصول الاسلام وعقائده ، فلم يكن لها من الاسلام الاّ ظواهره ولا تعرف شيئاً من جواهره

وكذلك كان الأمر حين تنصر الملك قسطنطين فكان شعبه نصرانيا بالاسم وبقي وثنيـاً بالعقيدة . ولولا طول عهد الكرازة ما تعدلت عقائد ذلك الشعب

٤ً — يعيش العرف طويلاً اذا كانت روحه تقبل التعديل

تطورت الحكومة الانكليزية نحو عشرة قرون تطورات عظيمة غيرت في جوهرها تغييرا كليًّا حتى تحولت من حكم ملكي مطلق استبدادي الى حكم ديموقراطيّ بحت ، ولكنها بقيت في شكلها كما كانت حكومة ملكية ذات تقاليد ملكية واريستوقراطية

ترى كثيراً من الاديان القديمة تطوَّرت هكذا، فتغَّيرت جوهراً وعرضاً، وانما بقيت شكلاً ولعلّ الديانة اليهودية يصدق عليها هذا القول فقد تغيَّرت جوهراً وعرضاً عما كانت لعهد موسى وانما بقيت ديانة يهودية في مجمل شكلها . الديانة النصرانية قاست شيئاً من التطور ايضاً ، فلاهوتها اليوم اكثر انطباقا على العلم الحديث من لاهوتها القديم

كان المصريون القدماء يطرحون في النيل فتاة يسمونها عروس النيل حين يتم فيضانه كتقدمة شكر له على اعتقاد انه اله الخصب ، وما زالت هذه العادة تتوارثها الاجيال المصرية حتى اليوم ، وانما تغير فيها الجوهر والعرض معاً . فالحكومة الحالية تحتفل بوفاء النيل احتفال الابتهاج ببركات الله الذي افاض النيل ، وتطرح فيه نقوداً بدل عروس النيل ، فيغوص بعض الغواصين لالتقاطها . فالعادة العرفية بقيت وانما ابدل فيها تاليه الله تعالى بتاليه النيل ، وهو الامر الجوهري . وابدل فيها طرح النقود بطرح الفتاة في النيل ، وهو الامر العرضي . وبقي الاحتفال وهو الشكل الظاهري للعرض والجوهر جميعاً

٥ — المدنية الاقوى تُقتبس اكثر مما تقتبس

في حالة اندماج عنصرين او اكثر من الامم ، أقوى هذه العناصر مدنية تحمل العناصر الأخرى على الاقتباس من مدنيتها ، التي هي مجموعة عاداتها واصطلاحاتها اكثر مما هي تقتبس منها

كانت رومه القديمة تبث مدنيتها في البلاد التي فتحتها وحكمتها . وكذلك تفعل اثينا . واما الترك الذين ورثوا البلاد التي كانت يونانية المدنية قديماً ثم رومانيتها ثم عربيتها فلم يقدروا ان يغيروا شيئاً من مدنية اهلها لان مدنيتهم كانت منحطة جداً ، بل بالعكس اقتبسوا مدنية العرب ودياناتهم لانها كانت في أول عهد الفتح العثماني ارق المدنيات حول المتوسط. ترى الآن هذه الحقيقة واضحة كل الوضوح في اميركا الشمالية ، فان مدنيتها العالية تستغرق جميع العناصر التي تهاجر اليها وتصبغها بالصبغة الاميركية سريعاً او بطيئاً ، بقدر حدة التنازع بين المدنية الاميركية ومدنية العنصر المهاجر ، حتى المدنية الفرنساوية في لوزيانا تغرق رويداً رويداً في المدنية الاميركية . كذلك الأمر في كندا حيث تتنازع المدنيتان الانكليزية والفرنساوية . وكذلك الامر في كاليفورنيا حيث تلاشت المدنية الاسبانية في المدنية الاميركية

٦ — ان اقتباس التصورات والافكار والاذواق يسبق دائماً اقتباس الفنون التي تظهرها

ان شعرنا العصري نتيجة مطالعة شعرائنا منظومات الافرنج فضلاً عن تأثرهم من مدنيتنا الجديدة التي اقتبسنا معظمها من مدنية الغرب . والتمثيل عندنا تطور كثيراً بعد أن صرنا نقرأ روايات الاجانب ونشاهد تمثيلها . يجاهد الموسيقيون الآن ان يطوعوا البيانو (الغربي) للموسيقى الشرقية لان ناشئتنا الجديدة تؤثر « موضة » البيانو على موضة العود والقانون

صار النجارون عندنا يدخلون الموازييك الشرقية على الادوات المنزلية الاوربية كخزانة الملابس والمنضدة والمكتب والمقعد الى غير ذلك من الادوات التي لم يكن عند اسلافنا مثلها

السنة الثالثة — الاقتباس يسري من الاعلى الى الادنى من الوجهة الاجتماعية

لا نكاد نرانا في حاجة الى تقديم الشواهد والامثلة على ان الأدنى يقتدي بالأعلى في جميع جواهر الحياة وأعراضها كلهجة الكلام واللبس والآداب وسائر العادات

١ — تحول الكماليات الى ضروريات

ولهذا السبب صارت الكماليات تتحوّل الى ضروريات لتعوُّد الانسان اياها حتى لم يعد يستغني عنها . فالعامي في الأزمنة القديمة لم يلبس الثوب لكي يَتَّقي بهِ البرد والحر ، بل لكي يتشبه بمن هو أعلى منه . وهذا الاعلى لم يلبس الثوب الاَّ لكي يتميز بهِ على الأدنى . ولكن لم يلبثا كلاهما أن تعودا لبس الثوب ، ولم يعد في وسعهما أن يغفلاه فصار من ضروريات الحياة .

وهكذا كان النحاس حلية للهمجي قبل ان صار له سلاحاً . وركبُ الحمار كان اولا للابهة قبل ان صار للراحة . والمركبة أنشئت اولاً للفخفخة قبل ان صارت تصنع للنقل ايضاً . وكانت اولاً لنقل ادوات الحرب ، قبل ان صارت لنقل الغلال والامتعة

حتى الفلسفة لم تكن أولاً الاَّ تأنقاً في العلم يمتاز به المفكِّرون الاعلون ويباهي بهِ الاساتذة التلامذة . والشعر لم يكن في أول الأمر الاَّ ترفعاً في الخطاب يباهي بهِ البارعون في الحديث . والرواية يباهي العامة بها الذين حولهم

٢ — الاقتباس من بلاد الى أخرى بواسطة الاعيان

اذاً الاقتباس من بلاد الى بلاد ، ومن أمة الى أمة يكون على الغالب بواسطة الطبقة العالية كالاعيان ونحوهم . فهم الذين يقتبسون ويعرضون على العامة ، فيقتدي هؤلاء بهم .

بهذه الوسيلة كان الفينيقيون يتذرعون الى نشر بضائعهم في جميع البلاد التي كانوا يسافرون اليها . فكانوا يأخذون الامتعة النفيسة والاواني الفاخرة لكي يغروا الاعيان لاقتنائها حتى متى تهافت هؤلاء عليها ضمنوا تهافت العامة على البضائع الاخرى التي هي أقل منها نفاسة . وأن لم يستطيعوا اغراء الاعيان فلا يجدون سوقاً لبضاعتهم

فالطبقات العالية من الشعوب هي المجاري التي تجري فيها المدينة من بلاد الى أخرى ، ومن أمة الى أمة ، ومن جيل الى جيل أيضاً

ولعل ذلك هو السبب في أن زيّ الملابس عند الطبقات العليا والوسطى في البلاد المتمدنة واحدٌ تقريباً . وأما ثوب الفلاَّح او الطبقة السفلى فيختلف في كل أمة عنه في الأخرى ، لأن الاقتباس لا يبلغ الى الطبقة الدنيا الا للافراد الذين

يرتفعون من هذه الطبقة الى الطبقة الوسطى كما ترى في الشرق عادة . فلا تزول أزياء الطبقة السفلى الاَّ بارتفاع هذه من دركها الى الدرجة الوسطى ، كما نرى ذلك تماماً في الولايات المتحدة حيث لا وجود لهذه الطبقة السفلى بتاتاً هناك . وهذه مزية تكاد تختص بها الولايات المتحدة دون سائر الأمم

٣ — الاقتباس بين الفئات المتعادلة اضعف منه بين المتفاوتة

اذا خلت جماعة من طبقات عالية كان الاقتباس المتبادل بين الفئات المتعادلة أضعف جداً منه بين الطبقات المتفاوتة . لأنه في هذه الحالة لا يوجد مركز عمومي تنبض منه الاصطلاحات والأزياء الجديدة ، وتنتشر الى الفروع الأخرى المتفرّعة من المركز . فاذا لم يكن في الجماعة تعليم راقٍ يدرب التصورات والأعمال والعادات والازياء والعقائد في السبل القويمة فسدت عادات الجماعة لضعف قوة المنافسة في الحرص على الافضل ، وتعرّضت وحدة العُرف للانحلال الى عدة ضروب متضاربة .

من اوضح الشواهد على ذلك أن خلو البروتستانية في اميركا من سيادة عليا تضم جميع الفروع تحت سلطانها كالباباوية مثلاً حلّها الى عدة طوائف شذّ كثير منها عن محجة الصواب

وربما كان ضعف الجمهوريات السياسي في أميركا الوسطى راجعاً لمثل هذا السبب ايضاً ، اي لعدم وجود طبقات عالية فيها مترفعة ، ولضعف التعليم والتهذيب

## السنة الرابعة — الغرائز الحيوية وضروريات الحياة والتقاليد الراسخة حدود مكينة تقف في سبيل اقتداء الادنى بالاعلى

١ — ضروريات الحياة وملذاتها تحول دون الاقتباس

في الطبقات العالية تقاوم السيدات غريزة ارضاع الطفل لأنها تمنعها من ملذاتها الاخرى . ولذلك ترى الارضاع الصناعي والارضاع بالاجرة شائعين في الطبقات العليا ، ولا تجدهما في الطبقتين الوسطى او الدنيا الاَّ نادراً أو لضرورة قاهرة . أي أن هاتين الطبقتين لا تقتديان بالطبقة العليا من هذا القبيل

الزواج الباكر يندر في الطبقات العالية لأسباب مختلفة معلومة ، ولكنه يكثر جداً في الطبقات الواطئة . وكذلك الطبقات العالية والوسطى ترغب في تقليل المواليد خلافاً للطبقات الدنيا . أما الطبقات العالية فلأنها لا تريد ان تنشغل بتربية الاولاد عن لهوها وترفها ، وأما الطبقات الوسطى فلانها تنوء بعبء الاولاد ، أما الطبقة الدنيا فتبتغي الاولاد ليكونوا ، متى كبروا ، أعواناً لوالديهم على تحصيل الارزاق . فالطبقات الدنيا لا تقتدي با لطبقات العليا في تأخير الزواج ولا في تقليل الاولاد لهذا السبب .

٢ — القوة الادبية في الطبقة الوسطى تحول دون الاقتباس

الطبقة الوسطى تمتنع عن الاقتداء بالطبقة العليا في الانغماس بالشهوات ، ليس من قبيل التوفير أو عدم الطاقة المالية ، لأن هذا الانغماس كسائر نفقات الحياة مختلف الاثمان وكل طبقة تنفق ما تستطيع . وانما تمتنع الطبقة الوسطى عن هـذا الانغماس لأنها تعتصم بقوة المزية الادبية في الجهاد لأجل الرزق . الغني يتسلح بماله في هذا الكفاح ، فينيله ما يشاء حتى أنه يشتري بهِ ستار خزيهِ في تهوره بشهواتهِ . ولكن المتوسط لا يجد ما يتسلح بهِ الاَّ الفضيلة للحرص على مسترزقهِ ، وعلى الثقة في المعاملة ، وعلى المكافأة جزاء للعمل .

وأما أهل الطبقة الدنيا فلا يعفُّون عن المشتهيات المرذولة لأنهم مغلوبون على أمرهم في ساحة النزاع ولسان حالهم « انا الغريق فما خوفي من البلل » . فلا يستحون من عار ولا يحتاجون الى سلاح ، لأنهم انصرعوا في الميدان وكفوا عن المنازعة ، وأصبحوا عبيداً يعيشون ، لا لأنهم يسعون الى الرزق ، بل لان أصحاب الأعمال يحتاجون الى عملهم فيتركون لهم من ثمرته حاجتهم الضرورية حتى لا يموتوا . فمثلهم كمثل الحمار او البغل او الثور عند الفلاح يطعمه صاحبه لكي يشغله

فلذلك ترى الطبقة الواطئـة لا تمسك عنان شهواتها بل تمادى في تهتكها ما استطاعت . ولماذا تمسك نفسها وليس من يحسب لها فضيلة ؟ بل يحسب الناس تعففها عجزاً

لهذا السبب ترى أن الاجرام يكثر في الطبقتين العليا والدنيا ، و يقل جداً في الوسطى . أما جرائم الطبقة العليا فــلا يندر أن تسترها أستار الأموال عن أعين القضاء ، فقلّ أن يعاقب مجرموها . وأما جرائم الطبقة الوسطى فهي التي تتحمل حنق القانون وغضب القضاء . اذاً للاجرام طريقان : الغنى والفقر . وللفضيلة مقام واحد وهو الوسط بينهما

ذلك هو سر القول ان الطبقة الوسطى حاملة وحدها أثقال الهيئة الاجتماعية وآلامها ، لأن الضغط الاجتماعي يقع عليها من الجانبين ، والزحام فيها يشتد من الجانبين فيزيد هذا الضغط . فمن جانب الطبقــة العليا يتساقط دائماً المسرفون المتهورون الذين ضعضعوا ثرواتهم بتهورهم ، والذين فشلوا في جهادهم للحرص على مراكزهم العليا . ومن جانب الطبقة الدنيا يتصاعد الاشخاص الذين لا يطيقون ذل حطتهم وهوانها ، ولهم أنفسٌ طامحة الى فوق

وهذا هو السبب في أن الطبقة الوسطى في البلاد الناهضة تكون اكثر الطبقات عــدداً واشدها ازدحاماً . وكلمّا نهضت الامة كانت الطبقة الوسطى تلتهم من الطبقتين حتى تكاد تستغرقهما ، كما هو الحال في اميركا الشمالية الآن حيث الطبقة الوسطى اضعاف اضعاف الطبقتين الاخريين

وفي اوروبا الطبقة الوسطى اقل منها في اميركا بالنسبة للمجموع . واما في الشرق فالطابقة الوسطى قليلة جداً والاكثرية العظمى للطبقة الدنيا

٣ً — الاقتباس من السلفاء اكثر من الاقتباس من الاعيان في البلاد التقليدية

في البلاد الموغلة في التقاليد تميل الطبقات المختلفة الى الاقتداء بالاسلاف اكثر من الاقتداء بالطبقة العليا، كما ان الطبقة العليا تقلل من الاقتباس من الجماعات الاخرى

ترى امثلة لذلك في شرقنا . بالرغم من أن الامراء والمشايخ اقتبسوا شيئاً من عادات وازياء غيرهم فان اتباعهم لا يزالون على تقاليدهم القديمة

تجد هذا الامر اوضح عند بعض سلاطين العرب الذين اقتبسوا كثيراً من معالم مدنية الغرب من قصور واوتوموبيلات وأنوار كهربائية الخ في حين ان اتباعهم حتى المشايخ والزعماء لا يزالون في عاداتهم وازيائهم القديمة

اتراك الاناضول بعد تطور ٦٠٠ سنة مازالوا يتمسكون بمعظم عاداتهم القديمة ، في حين أن اعيانهم الاستمبوليين قد اصبحوا اوروبيين في كل مظهر من مظاهرهم تقريباً

٤ً — يقتبس الاعيان من العامة كما يقتبس هؤلاء منهم

كثيراً ما يقتبس الاعيان من العامة من غير أن يشعروا كما يقتبس هؤلاء منهم. ذلك كما يحدث في عملية « الاسموسيس » Osmosis أي تخال السوائل المختلفة المحلولات او الاملاح المذابة فيها في حجاب من جانب الى جانب طرداً وعكساً ( وهي حالة كيماوية معروفة )

يقتبس الاعيان من العامة الفاظاً وعبارات في كلامهم، وأغاني وأنواع اطعمة، وأحياناً أنواع ملابس وأدوات منزلية، وأنواع رقص وعادات حفلات، بعضها يستنبطها العامة وبعضها يقتبسها المتغربون منهم كالتجار ونحوهم، من الأمم التي يحتكون بها

٥ً — جفاف الطبقة العليا يحول دون الاقتباس

اذا كانت الطبقة العليا جافة انوفة غير انيسة لا يتيسر للطبقات الاخرى أن تقتبس منها الاّ نزراً من عاداتها وأزيائها.

فالانكليز بعد احتلالهم مصر ٤٠ سنة لم يتركوا شيئاً يذكر من عاداتهم وازيائهم اللهم الاّ ما اقتبسه الافراد الوطنيون الذين عاشوا برهات مختلفة في انكلترا من طلبة وغيرهم. أقتبس اهالي مصر من الفرنساويين والطليان اكثر مما اقتبسوه من الانكليز

كذلك الترك بعد حكم الامم الاخرى ٦٠٠ سنة تركوا العرب عربا، والارمن ارمنا، والسلافيين سلافا، واليونان يوناناً، خلافاً لاسلافهم اليونان والرومان القدماء الذين بثوا مدنيتهم على شاطىء بحر الروم الجنوبي حتى جبل طارق فاسبانيا

الالمان الذين انشأوا مستعمرة في حيفا لعهد عبد الحميد لم يعدوا الفلسطنيين الذين حولهم بشيء يذكر من عاداتهم وازيائهم. اغرب من ذلك أن الرومانيين الذين هاجروا رومه الى بقعة وراء النمسا ( رومانيا ) بقوا كانهم قطعة من روما، فما اخذوا ممن حولهم ولا اعطوا، كذلك البوير الذين هاجروا هولاندا منذ ٢٠٠ سنة الى جنوبي افريقيا لم يفقدوا شيئاً من تقاليدهم، ولا انعدو ابهمجية من حولهم، كما انهم لم يعدوا من حولهم من السكان الاصليين بمدنيتهم

## السنة الخامسة — صاحب السلطة قدوة يتشبه به

١ — الملوك والحكام قدوة الشعوب في كل مكان حتى اصحاب السلطات الوقتيين كرؤساء الجمهوريات

يروى أن ملكة الانكليز السابقة رأت ان نساء الاعيان يغالين في اقتناء الحلي الى منتهى الاسراف في حين أن البلاد ليست في رخاء تحسد عليه . فظهرت ذات ليلة في أحد مراقص البلاط عاطلة من الحلي فجعلت السيدات ينزعن حليهنّ ويخبئنها

ظهر الملك مرة في شرفة دار التمثيل وقد نسي أن يعلق في صدره سلسلة ساعته ، فجعل الرجال بعد ذلك ينزعون السلاسل من ساعاتهم ويضعون الساعات في جيوبهم بلا سلاسل

وكان روزفلت يحنط الدببة التي يصطادها ويهادي بها اصدقاءه الاخصاء. فجعل الناس يقتنون الجلود ويحشونها لتظهر كاشكال الدببة . وشاعت تجارة « تدي بر » أي دب تيودور روزفلت ( وتدي مصغر تيودور ) حتى انتشرت في كل العالم

في حين من الاحيان كان كثيرون من الناس في بلاد كثيرة يعرضون شواربهم ويعكفونها على نمط شاربي غليوم الثاني المشهوري الشكل

الحكام في الشرق يمثلون في حياتهم الرسمية بلاط الملك أو السلطان . فكان الوالي في تركيا سلطانا في المدينة من حيث مظاهره وامرته وموكبه الخ . وكذلك المدير في مصر

عهد الاقطاع في القرون الوسطى كان خير مثل لذلك ، فكان الامير يحذو في ابهته وجميع مظاهره حذو البلاط الملكي تماماً . وحاكم المدينة يحذو حذو البرنس . وشيخ البلد يحذو حذو الحاكم — كلٌّ على قدر طاقته . ولذلك كان الملوك والامراء في بعض الاحوال يحددون مقدار الابهة ونوعها وشكلها لمن هم دونهم ، حتى لايطاولوهم في مجدهم وصولتهم في نظر العامة

٢ — الفائز يظفر بالسلطة ويصبح قدوة يُتشبَّه به

ليس من الضروري ان يكون صاحب السلطة من الطبقة العليا ، فقد يحرز السلطة أيضاً من يعمل عملاً عظيماً و يصبح قدوة .

الغازي مصطفى باشا كمال الذي حرر تركيا الجديدة من ايدي اليونان واعوانهم الحلفاء اصبح صاحب السلطة وقدوة لشعبه . ولا بد أن كثيرين يقتدون به في كلامه وفي خطبه وفي زيه وفي سائر حركاته وفي سفور زوجته

سعد باشا زغلول الذي استطاع أن يملك زعامة الشعب المصري بلا منازع اصبح صاحب سلطة ويقتدى به . ولهذا ترى جمله البليغة تقتبس الآن شعاراً للجرائد وغيرها

والسلطة التي تنال جزاء لعمل عظيم انما هي سلطة أمكن وأمتن من السلطة

الموروثة او المكتسبة بسبب غير العمل المستحق لها . ولهذا كان الذين يفوزون في حياتهم لا يستحون أن يجعلوا شعارهم رمزاً للاصل الذي ينشأون منه

كان احد الاعضاء في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة الاميركية يكتب على مركبته Vidi ومعناها « انشر » لانه كان نشار خشب . وكان شعار البابا اربان الرابع اداة سكافة لانه كان اسكافيًّا ابن اسكافي

٣ — انحصار السلطة في طبقة الاعيان يقلل الاقتباس، وبالعكس اطلاقها او شيوعها في الجمهور يكثره

متى كانت السلطة تنحصر في طبقة الاعيان بأي حال من حالات الاجتماع قلَّ الميل الى الاقتباس لان الادنى لا يؤمّل أن يطاول الاعلى و ينازعه مكانته ، فلا يجد نفعًا له في محاولة الاقتداء والتشبه بهِ . ذلك شأن الجماعات الار يستوقراطية الاحكام

ولكن متى كانت السلطة تتيسر لكل طامح أهل لها ولكل طامع جدير بها صار الادنى يبالغ بالاقتباس من الأعلى تذرعًا الى السلطة ، كما هو الحال في البلاد الدستورية والديموقراطية كانكلترا . ولذلك ترى بين الكبراء والطامحين من الطبقات الدنيا نزاعًا دائمًا . الطامحون يطاولون الاعلين فيتصاعدون اليهم بهمتهم وجهادهم، وهؤلاء يتساقطون بضعفهم الناجم عن ترفهم و بطرهم . وليس لهم من أدوات السلطة الا النبل الموروث وهو ضعيف السلطة ، كما أن الطامح ليس له من أدوات السلطة الاَّ القوة الشخصية الحقيقية، ولكنها ضعيفة بلا نبل . وهذا هو سبب امكان التنازع بين الفريقين

وتنازع السلطة بين الطامحين والأعيان يميل تدريجًا بالمجتمع الى المستوى الواحد ، ما دام الطامحون يرتفعون والكبراء ينزلون . وهــذا هو السبب في اتجاه المجتمع الى الديموقراطية دائمًا ، كما ثبت من تاريخ التمدن الحديث في القرون الاخيرة .

والى الآن لم تبلغ أمة قط الى الديموقراطية المطلقة ، لأنه و إن كانت السلطات المتوارثة تزول تدريجًا تصبح السلطة بعد انفلاتها من أيدي ورائها مُتَنازَع المتنازعين من أهل الطموح والقوة . فاذا كانت السلطة قد خرجت من أيدي الملوك والامراء والاعيان فقد تلقفتها أيدي ملوك المال والاعمال واساطين السياسة وأهل العلم وأبطال القلم من صحفيين وغيرهم .

فالهيئة الاجتماعية لم تبقَ بناءً ذا طبقات بعضها فوق بعض يتميز بعضها على بعض ، بل صارت هرماً مرتفعاً كتلة واحدة وكل واحد يحاول أن يكون في القمة

وما دامت الديموقراطية الحاضرة ناقصة ولا تزال تسمح بالتفاوت الاقتصادي ، أي ما دامت لم تشمل العالم الاقتصادي بحسب المبادىء الاشتراكية ، وما دام مباحاً لأفرادٍ أن يجمعوا الثروات الطائلة ، يبقى باب التفوّق العظيم مفتوحاً لكل واحد . ولهذا ترى السلطة تغتصب اغتصاباً حتى تحت ذقن الديموقراطية . لأن السلطة الأولى لم تزل للمال مع أن حقها أن تكون للعلم والاخلاق

٤ً — ولذلك ترى ايضاً ان الغني صاحب سلطة فيتشبه به الفقير

بل أن ذا المال هو صاحب السلطة الحقيقية ، هو هيكل الاله الثاني الذي تقدَّم فيه العبادة لهذا الاله . فما يقوله الغني لهو الحكمة مهما كان سخيفاً . وما يفعله لهو الحق والصواب مهما كان خطاء ، والمظهر الذي يظهر فيه لهو الذوق السليم مهما كان شاذّاً ومعوجاً . فلا بدع اذاً أن ترى المتوسط يتشبه بهِ تزلفاً ، والفقير يتشبه به اعتقاداً بأنهُ قاعدة الذوق ونبع الحكمة . هذا هو مركز الغني في كل مكان حتى في أرقى بلاد الدنيا كاميركا وأوروبا . بل أن مركز الغني هناك وهو على شيء من العلم والمعرفة كمركز الأمير والملك الحقيقي ، وله سلطة الملوك في معظم الدوائرِ الاجتماعية حتى في السياسة . وانما تقوم هناك في مقابل سلطتهِ هذه سلطة العلوم والفنون التي تحول دون استفحال سلطته الى حد الاستبداد .

وقد بلغ من مقدرة المال انه يشتري الاريستوقراطية التقليدية ، فان كثيراً من الفتيات الغنيات يتزوجن لوردات اوربيين طمعا بلقب لايدي أو كونتس أو مركيزه أو نحو ذلك . واصبح الفقراء من هؤلاء الاعيان يعرضون انفسهم عرضاً على الغنيّات الاميركيات لكي يحرزوا اموالهنّ لقاء لقب الشرف الذي يمنحونهنّ اياه بالزواج

## السنة السادسة — أهل القرى يتشبهون بأهل المدن

المدينة ولا سيما العاصمة تشتمل على مركز الحكومة الرئيسي او أحد مراكزها

الرئيسية . وتشتمل على أهم المتاجر الكبرى ، وعلى البنوك والصحف والمجلات ، وعلى المدارس العليا . وكذلك يقيم فيها الحكام وكبار موظفي الحكومة وكبار التجار والمتمولين ، وأهل الاعمال الخطيرة ، وأهل العلم والكتاب ، وجميع من هم ذوو مكانات عالية ومناصب سامية ونفوذ ، وكذلك تكون فيها الاندية الخصوصية والعمومية ، ودور التمثيل والغناء والرقص ، وسائر معاهد الفنون والعلوم . فلا بدع اذاً أن تكون مقصد أهل القرى لقضاء الاشغال تارةً ، وللتمتع بملذاتها ومسراتها في الاعياد والمواسم وأوقات الفراغ اخرى ، وللسكنى أيضًا اذا كان ابن القرية قد أصاب ثروة كافية لنفقات المدن .

ولذلك ترى الارياف القروية تغذي المدن بالناس من متعيشين او متمتعين وزوّار وقتيين . فالذي يقيم في المدينة يقتبس عادات أهلها بحكم الطبع عاجلاً او آجلاً . والذي يزورها يأخذ من عاداتها وأزيائها من قبيل المباهاة ، لأن الاعتقاد الشائع أن أهل المدن أعيان بالنسبة لاهل القرى ، ولا ريب أنهم أرقى معرفة وذوقاً.

وذلك هو سر أن المدن تتسع وتضخم بلا حد ولا نهاية حتى صارت لندن تشتمل على سكان بعدد مملكة صغيرة . وينتظر أن تفوقها نيويورك في عهد قريب . ويقدر بعض العارفين أن نيويورك قد تتصل بفيلادلفيا لان البلاد التي بينهما تكاثر وتضخم بسرعة ، فلا يبعد أن تتم الصلة بينهما، وحينئذ قد يتجاوز عدد المدينتين المتحدتين العشرين مليوناً ، وهو مالم يحلم به اهل الجيل السابق

وفي عهود الاعيان الماضية كان الملوك والحكام يبتزون الاموال من القرى لكي ينفقوها في زخرفة العواصم وابنيتها الفخمة وقصورها الشامخة وحدائقها الغناء ومتنزهاتها البهجة

اذا قارنت باريس بالارياف لعهد ملوكها الاخيرين وجدت ان باريس هي كل فرنسا ، أو أن فرنسا هي باريس وكفى ، لانك متى خرجت من باريس لا تعود ترى الا قرى حقيرة بسيطة واهلها على غاية من السذاجة والبساطة في معيشتهم. كذلك لامر في مصر، فبعد القاهرة والاسكندرية قلما تجد مدينة جميلة ، وبين مدنها وارياقها بون عظيم

كذا كانت بابل لعهد ملوكها الاقدمين . وكذا كانت نينوى وتدمر بعلبك والاسكندرية لعهد البطالسة ، وروما لعهد الامبراطورة الخ

أما الآن في عهد الديموقراطية فلم تعد تمتص العواصم الارياف لانه صار يقوم في الارياف مدن أخرى تقتبس من الحواضر والعواصم وتنسج على منوالها. في اميركا نيويورك العظمى وواشنطون وفيلادلفيا وشيكاغو الخ ولكن كيفما جلت في الولايات المتحدة وجدت نسخاً مصغرة لنيويورك واخواتها تشابهها كل المشابهة بحيث انك لو اقمت في أي بلدة صغيرة وجدت فيها من

وسائل الراحة والسرور والابهة مثل ما ترى في نيويورك ، وعلى هذا النحو ترى ان القرى الصغيرة تكاد تضارع هذه المدن الثانوية في كثير من الامور ، لان الفلاح ، وهو على شيء من العلم والتهذيب ومكاسبه وافرة ، يبني بيته جميلاً فخماً ، ويقتني رياشه واثاثه وسائر امتعته انيقة جميلة ، ويود أن يتمتع بملذات الحياة وملاهيها

## السنة السابعة — الاقلية الديموقراطية قدوة للاكثرية

١ً — للاقلية الرأي ، وللاكثرية السلطة ، حيث تكون التربية الديموقراطية ضعيفة

السلطة للاكثرية بحكم النظام الديموقراطي ، ولكن الرأي للاقلية النابغة فيها ، ذلك متى كانت الجماعة طبقات متفاوتة والناس غير متساوين في أحوالهم ، فلا بد أن يكون بينهم من هم اكثر حذقاً وذكاء ودهاء ، وسوادهم الاعظم في جهل او سذاجة . ففي هذه الحالة لا تكون السلطة للاكثرية ، بل لهؤلاء الأفراد النخبة الذين يكيفون الرأي العام على هواهم . لماذا ؟ لان عامة الناس لا يثقون بحكم الاكثرية الحقيقي فلا يستسلمون له بل يسيرون برأي هؤلاء الافراد الأخصاء .

هذا هو الحال الآن في مصر وهي تعمل لاخذ استقلالها بالفعل ولانشاء حكومتها الاستقلالية ، فعامة الشعب لا رأي لهم وانما يسيرون على اراء زعمائهم ، بلا اعتراض ومن غير تمحيص لهذه الاراء ، بل من غير مناقشة ولا طلب تفسير . فالزغلوليون يصوّتون لمرشحي الوفد الزغلولي لثقتهم العظمى بأن زغلولا وصحبه يسيرون بالسفينة الى شاطيء السلام ، وهكذا يفعل العدليون

اذاً في البلاد الديموقراطيــة التي لم ترتفع عامتها الى المستوى العالي تكون الاكثرية نفسها تابعة للاقلية فيها . وبعبارة أخرى تكون الاقلية ، لا الاكثرية ، صاحبة « الرأي العام » ومانحة الاكثرية حق السلطة

٢ً — للاكثرية الرأي والسلطة حيث تنمو الروح الديموقراطية

وكلما ارتفع عامة الشعب الى المستوى الواحد قلّت ثقة الفرد بغيره لأنه لا يعود يجد غيره أفضل رأياً منه ، وهما متماثلان ومتعادلان ، فتتحوّل ثقته الى الاكثرية ، اذ يعتقد أن الاجماع او العدد الارجح أصوب رأياً

في هذه الحالة يشعر كل فرد بافتخار في كونه مساوياً لأي واحدٍ ممن حوله وليس فيهم من يفضله . ولـكنه متى قابل نفسه بالمجموع العظيم الذي حوله يجد نفسه حقيراً بالنسبة الى هذا المجموع ، ولهذا يستسلم لحكم الاكثرية

هذا الاستسلام لحكم الاكثرية بناء على اعتقاد أن الفرد لا رأي خاصٌ له لأنه نقطة في بحر الاكثرية ، ينشيء في نفس الفرد قنوطاً او يأساً ، من تفوّق رأيه على رأي الاكثرية او رأي غيره . ولذلك في حالة تساوي الاشخاص يقل الذين يستطيعون القيادة . وخلو الجمهور من قيادة النوابغ له يعرّضه للخطر في نظر بعض المفكرين ، اذ قد يضل الصواب ، او أنه يتذبذب بين الآراء المتضاربة حسب تماوج الاكثرية بين جانبين متناقضين

لا بدع ان يضل الاجماع او الاكثرية عن الصواب والحق ، او ما هو أفضل للمصلحة العمومية ، ولا سيما في المشاكل او القضايا غير الاعتيادية التي قل اختبار الجمهور لها . ففي هذه الحالة لا ينقذ الجمهور من الضلال الا نخبة منه تفرّدوا في ذكائهم ، وكانوا كالقمم التي تقع عليها أشعة شمس الصباح قبل غـيرها من الجبال والبطاح . هؤلاء النخبة العبقريون ، الذين تخترق أفكارهم أعماق الامور ، ويرون غير ما يراه الجمهور ، يرشدون الجمهور الى الصواب وتقتدي بهم الاكثرية

فالجمهور الذي يخلو من نخبة أذكياء ، او لا تدع اكثريته الساحقة مجالاً لنبوغ نخبةٍ ، يكون عرضة للتيه في بيداء الخطاء . ليست الاكثرية لتدع مجالاً لظهور النبوغ عمداً ، وانما النابغ يشق طريقه بين ضغط الاكثرية ، ويصعد على اكتافها حتى يبرّز ويظهر

الديموقراطية تقوم بتقرير الاكثرية ، ولـكن الاكثرية الصائبة ترتشد برأي الاقلية ، اللهم أقلية النخبة العبقريين النوابغ

تجد الافاضة في هذا البحث في الفصل الرابع من هذا الباب

# الفصل الثالث

## الاقتباس الزماني – التقاليد

### ا – طبيعة التقاليد

١ً — الاقتباس العمودي والافقي
٢ً — العرف ابدال ، والتقليد انتقال
٣ً — العرف يقاوم المألوف
٤ً — للتقاليد والوراثة سنن مشتركة
٥ً — تفوّق التقاليد على الغرائز
٦ — اقتباس التقاليد ووراثة الغرائز
٧ً — تقديس التقاليد
٨ً — تهيب المجهول
٩ً — تصلب التقاليد
١٠ً — الشريعة عادة متحجرة

### ب – العوامل المساعدة التقاليد

١ً — الشيخوخة
٢ً — الحكومة تقليدية اكثر مما هي تطورية
٣ً — العزلة المكانية
٤ً — العزلة اللغوية
٥ً — العزلة الاجتماعية
٦ً — الاستيطان مرعى الخرافات
٧ً — العيشة العيلية

### ج – العوامل المقاومة التقاليد

١ً — المواصلات · ٢ً — التعليم ٣ً — الديموقراطية ٤ً — التساهل
٥ً — اللقاح الشعبي

### د – تعذر الاندماج بين الجماعات التقليدية

لا يمكن الادماج الزاماً وقهراً

### هـ – تنازع التقاليد والعادات

١ً — لا يُنْبَذ التقليد الا اذا اعترض سبيل النجاح
٢ً — العادات العمومية اثبت من العادات الشخصية
٣ً — العادات الخاصة بالاستهلاك اثبت من العادات الخاصة بالانتاج
٤ً — العادات المختصة بالعواطف اثبت من العادات المختصة بالعقائد والافعال
٥ً — الانظمة الاجتماعية المسيطرة كالشريعة والحكومة والدين والطقوس

# ا — طبيعة التقاليد

١ً — الاقتباس العمودي والافقي

في العرف والاصطلاحات بحثنا في الاقتباس او الاقتداء او التشبه بين الافراد وفئات الناس والجماعات المتعاصرين المحتكين بعضهم ببعض احتكاكاً شخصياً او بواسطة المواصلات . وأما في التقاليد فننتقل الى البحث في الاقتباس والاقتداء والتشبه بين الاجيال المتسلسلة ، بين الخلفاء والسلفاء .

العرف يقتبسه الاطراف عن المركز في الجيل الواحد ، وأما التقاليد فيقتبسها الابن عن الابوين

فالاقتباس ، في العُرف او الاصطلاح ، عَرْضيٌّ أفقيٌّ، يشع من مركز في سطح واحد الى جميع جهات السطح — الى محيطه . وأما الاقتباس ، في التقليد ، فعموديٌّ من فوق الى تحت ، من قديم التاريخ الى حديثه ، يخترق جميع سطوح التاريخ او طبقاته . بناءً على ذلك يمكن ان يكون العمل الواحد او الفكر الواحد او العقيدة الواحدة عرفاً ، متى كان يقتبسه الجار من جاره ، وتقليداً ، متى كان يقتبسه الابن من أبيه . مثال ذلك لما جعل الاميركان يحلقون شواربهم مقتدين عامتهم بخاصتهم كان حلق الشوارب عُرفاً . ولما صار الناشئة يفعلون ذلك اقتداء بأهلهم أصبح هذا العرف تقليداً (١) فكل تقليد او عادة كان في الاصل عرفاً واصطلاحاً . فلما توارثه الخلف عن السلف أصبح تقليداً ، او عادة تقليدية

٢ً — العرف ابدال ، والتقليد انتقال

متى كنا نقتبس اصطلاحات غيرنا او عاداتهم كنا مضطرين الى الغاء ماينافيها

(١) قد يمكن التمييز بين العادات والتقاليد : فبالاولى يعنى اقتباس الافعال والاعمال والحركات ، وبالثانية يعنى اقتباس الافكار والعقائد . على اننا نستعملها هنا معاً ، أو منفردين للمعنيين معاً ، لان كلا المعنيين يتفرعان من مصدر واحد عقلي ، أي ان الاعمال كالافكار والعقائد انما هي تلبية للعقل الآمر

من اصطلاحاتنا او تعديلها ، كما لو أخذنا عن الاميركان عادة حلق الشوارب اضطررنا الى الغاء عادة الشوارب ، فكأننا ابدلنا اصطلاحاً باصطلاح . ولكن متى كان بنونا يقتدون بنا في حلق شواربهم فلا يكونون ناسخين عُرفاً او اصطلاحاً من اصطلاحاتهم ، بل يكونون وارثين عادة او تقليداً ، لانهم وجدوا ولا عادة لهم ، وانما هم على استعداد للتعوُّد والتخلق والتقليد

٣ — فاقتباس الاصطلاح والعرف والعادة يستلزم مقاومة المعتاد والمألوف

لان كلاًّ من الجانبين المتحاكيين او المتقابسين ، من أفراد أو فئات او جماعات او أمم ، يؤثر على الآخر . وأكثرهما إدهاشاً للآخر يحمله على الاقتباس منه ، وعلى التنازل عن عاداته واصطلاحاتهِ . و بالتالي يقتبس كلٌّ من الآخر بقدر ما تأثر منه ، ويعطي كلٌّ الآخر من عاداته بقدر ما فتنه او أدهشه او اعجبه

على أن الاقتباس في أي الجانبين لا ينجح في حالة هدوء الشعب وسكونه وجموده الاجتماعي . بل لابد من حدوث نزاع كحرب او نكبة او غزو او احتكاك مع شعب آخر ، الى غير ذلك مما يدمر ابنية العادات والاصطلاحات الموجودة استعداداً لبناء عادات واصطلاحات أخرى جديدة

فاقتباس اليابان لمدنية اوروبا لم يحدث الاّ بعد أن هاجر كثيرون من اليابانيين الى اميركا واوروبا واحتكوا بالمدنية الجديدة وتطبعوا بها وعادوا الى بلادهم مشبعين بها ، وكذا الامر الآن في تحول الصين الى مدنية اوروبية ، وكذلك كان الأمر في جميع تطورات الامم التاريخية منذ القديم حتى اليوم . والتاريخ مملوء من الشواهد على هذه الحقيقة

والجماعات التي بقيت في جمودها ولم يحركها الاحتكاك بغيرها بقيت آماداً طويلة في عاداتها وتقاليدها . ولعل القبائل الافريقية المنحطة هي خير الشواهد على هذه الحقيقة الاخرى

بعكس ذلك اقتباس التقاليد ، فليس فيه من مقاومة لما بين الوارث والمورث ، او المعطي والمقتبس ، من التباين العظيم في التأثير . فالابن صفحة بيضاء خالية مستعدة للانطباع ولينة جداً تطبع بسرعة وسهولة . والابوان ومن حولهما حروف صلبة بارزة تطبع بوضوح . فلا بدع ان يبدو النشء نسخاً طبق الأصل للوالدين

ليس للابن قوة الحكم ، ولا قوة النقد ، ولا قوة المقارنة او المقايسة ، لكي يرفض تأثيرات والديه اذا كانت غير صالحة . بل هو يعتقد ان كل ما في أبويهِ هو المثل الاعلى . لا يستقل فكراً ورأياً وحكماً الاَّ بعد ان يكون قد انطبع فيه كل ما في أبويه في عهود ليونته الطويلة – مدة القصور التي لا تقل عن العشرين سنة ، فضلاً عما يليها من مدة العشرة بين الابناء والوالدين

٤ – للتقاليد والوراثة سنن مشتركة

من مزايا الانسان على العجماوات اختصاصه ، او على الاقل ، تفوُّقه العظيم بقوة الاقتباس التقليدي ، أي انتقال التقاليد من جيل الى جيل . فالانسان يمتاز امتيازاً عظيماً على الاعجم بقوة الاقتباس ، ولكنه يشترك معه بقوة الوراثة الطبيعية التي تحوّل العادات على التمادي الى غرائز

فصغار العجماوات مزوَّدة بقوى وغرائز تقدرها على العناية بنفسها ، وعلى الجهاد في الحياة منذ ولادتها ، او بعد مدة الرضاعة ، او الحضانة القصيرة المدة . فليس لهذه الصغار وقت كافٍ للاقتباس من والديها . فلا يورثها والدوها الاَّ الغرائز فقط ، وهيهات أن يورثوها عادات . فلذلك تمرُّ عهود طويلة على العجماوات من غير تطوُّر الاَّ تطوُّر بسيط بطيء جداً يوجبه أحياناً تغيُّر البيئة . أما الانسان فأمره خلاف ذلك ، اذ يسهِّل الاقتباسُ الطويل الامد تطوُّر عاداتهِ وتقاليده ، ويعجِّل بها . وبالتالي يعجل في ارتقاء الانسان نفسه ، لأن الاقتباس التقليدي أسرع من الوراثة الغريزية ، وأحوى منها للخصال ، فضلاً عن الخصائص العقلية . فالعلوم والحكمة والفنون والعقائد لا تأتي كغرائز وراثية بوضوحها وسموّها في الوف القرون ، كما تأتي كتقاليد وعادات

فليس بين الانسان والحيوان تشابه من حيث الاقتباس الاصطلاحي والعرفي ، ولكنهما يشتركان في الوراثة الطبيعية . على أن الاعجم اكثر اغراقاً في الغرائز من الانسان فيها . فللأعجم غرائز تقيه من الاذى وتقدره على تحصيل الرزق ، وليس للانسان مثلها . فطفل الحيوان منذ يولد يمارس السعي الى الطعام واتقاء

الحرق والغرق والسقوط الخ وأما طفل الانسان فليس له شيء من هـذه الغرائز الواقية ونحوها ، وانما يكفلها له الاقتباس التقليدي مـدة عيشته في كنف والديه او كنف من يقوم مقامهما

٥ً — تفوق التقاليد على الغرائز

وقد تتراءى هذه الغرائز العجيبة مزية للحيوان على الانسان لأنه يستغني بها عن معونة والديه . والحقيقة انها مزية سيئة للحيوان لأنها تفقده قدوة والديه ، وقد أفقدته قوة الاقتباس التي هي أعظم جداً من قوة الوراثة الطبيعية ، و بسببها استطاع الانسان ان يرتقي ، ولولاها لبقي حيوانًا فقط . فقوة اقتباس التقاليد في الانسان تقاوم الغرائز التي تقضي عليه ان يكون نسخة طبقة الأصل لأجداده او أسلافه الاقدمين . قوة الاقتباس هذه تقدره على أن يتعلم عاجـلاً الوسيلة التي اتقى بها أبوه وجده هجمات الحيوان الضاري ، وأخطار الطبيعة كالبرد والحر ، والوسيلة التي بها يحصل الرزق عاجلاً بأسهل أسلوب الخ . فاذا كان في غريزته ما يخالف هذه الوسيلة عرف كيف يقاوم غريزته لكي يظفر بهذه الوسيلة طمعًا بنتيجتها الصالحة له . بهذه القوة يتجرع الانسان الدواء الأجاج لكي يشفى ، و يستسلم لسكين الجراح لكي يسلم . ولو اقتصر على الغريزة فقط لما تجرع الدواء ، ولو كان فيه وحده حياته ، ولا خضع لجراح ، ولو كان ألمه

فما ينقصه الانسان من غرائز العجماوات يستعيض منه بالتقاليد المقتبسة التي تتفوق على الغرائز نفعًا أيّ تفوق . وسترى في الكتاب الثاني أن التقاليد ليست الاّ وراثة اجتماعية تختلف عن الوراثة الفطرية الطبيعية بأنها خارجية وهذه داخلية في بنية الانسان وجهازِهِ العصبي

٦ً — اقتباس التقاليد ووراثة الغرائز

والراجح أن الانسان بتقاليده اكثر جداً مما هو بغرائزه، بعكس الحيوان . وانما بين اقتباس التقاليد ووراثة الغرائز تشابه عظيم . فكلاهما انتقال الخواص والصفات

العقلية والادبية التي تكيف تصرفات الحي ، من جيل الى جيل — من الوالدين الى البنين ، ومن السلفاء الى الخلفاء — وكلاهما يتسلسلان بواسطة الجهاز العصبي . وانما الغرائز تتسلسل بالتكوُّن الجنيني الداخلي . وأما التقاليد فتتسلسل بعد ولادة الجنين بفعل المحاكاة والتقليد والاقتباس في أثناء العشرة والمعاملة

وكلاهما قابلان للتكيف حسب تكيفات الظروف والاحوال ، وانما التقاليد أسرع تكيفاً جداً من الغرائز . ففيما ترى الغريزة واحدة قد لا تتغير بعد مئات الاجيال ترى التقاليد تتكيف في جيل أو أجيال قليلة . وما من شخص ورث عادة عن أبيه كما ورثها هذا عن جده تماماً ، بل لا بد أن يكون قد طرأ عليها شيء من التغيير

وبين الغرائز تنازع كما بين التقاليد ، ولكن تنازع الغرائز بطيء جداً ، والفوز في كلا التنازعين للاكثر موافقة منهما للحياة ( بقاء الانسب ) .

فكما أن اختراع وسائل التدفئة أقدر الانسان أن يعيش في ابرد المناطق ، ويعدل عن عادة الانتقال في الشتاء منها الى المشاتيء الدافئة ، واكتشاف البخار ساعده على الغاء عادة القوافل ، والاعتماد على النقل في القطرات الحديدية . كذلك اضطرار الضفضعة أن تعيش احياناً في البر جعلها ان تكون ذات رئتين كما هي ذات خياشيم كخياشم السمك . فالقطار ينازع القافلة ، كما ان الرئة تنازع الخيشوم في الزحافات

وانما القطار فاز على القافلة في جيل واحد ، واما الرئة فقضت الوف الاجيال حتى فازت على الخيشوم

٧ — تقديس التقاليد

كلما طال عهد النوع في بيئة كانت الوراثة الطبيعية فيه شديدة الامانة في نسخ الغرائز طبق الاصل . وندر أن تشذّ او أن تكيّف غريزة قديمة . ولذلك ترى أن النباتات المولدة بمهارة البستانيين والزرّاع بتفننهم في تغيير البيئة من تربة ونور الخ لا تثبت على حالها الجديدة في الازهار والاثمار ، بل كثيراً ما تشذّ وتعود الى أصلها، لانها لم تتقادم بعد في بيئتها الجديدة

كذلك الأمر في التقاليد غير القديمة من عقائد وآراء وعادات فانها في تكييفها تكون متقلقلة وعرضة للتغير سريعاً وللعودة الى قدمها . فالتقاليد القديمة اذاً مزية ليست للجديدة ، لها عظمة وأبهة ليست لهذه . كما أن الجدّ القديم يبان للاحفاد

أعظم الاجداد ، هكذا التقاليد والعقائد القديمة تبدو لورثتها مقدسة . ولهذا السبب ترى المتبني مثلاً أعظم من شوقي ، وان كنت بعد النقد الدقيق تري العكس

اذاً كلما تقادم التقليد كان أرسخ وصعب على الانسان تغييره ، بل بالعكس يزداد تمسكا بهِ . لماذا ؟ لأن ما يفعله الانسان مرَّة ويستحسنه يميل الى أن يفعله مرة أخرى فمرَّاتٍ ، حتى متى كرَّر فعله ، وهو لا يزال يستحسنه ويستسهله ، يود أن غيره يفعله أيضاً ، ولا سيما اذا كان هذا الغير محبوبه كابنهِ مثلاً . وهكذا يلقن ابنه بالقدوة والتعليم عمله وعاداته واصطلاحاته . واذا استمر هذا الميل من أب الى ابن ومن جيل الى جيل تمكن . فالتقاليد والعادات كالطريق الذي كلما طرقه الناس تمهَّد ومهل السير فيه ،حتى يستصعبوا في آخر الامر أن يعدلوا عنه الى طريق آخر غير مطروق

مثل هذا يحدث في الحياة البشرية في كل زمان حتى الآن . وانما في الازمنة القديمة صار هذا التقليد أو نقل العادة والعُرف من جيل الى جيل بالتعليم والقدوة أمراً مقدَّساً ، ونشأ الاعتقاد ان مخالفة التقاليد تجلب الضرر على الجماعة او العيلة . ولا بدع أن تجلب الضرر لأن العادة المسلسلة من جيل الى جيل ما تسلسلت هكذا الاَّ لانها خلت من الضرر او كانت راجحة النفع — كذا الاختبار اثبت . ولكن العادة الجديدة التي لم تختبر بعد ، او لم يُحسَن استعمالها ، او لم يهدَ الى كيفية اتقانها قد تؤدي الى أذى ، بل لا يندر أن تؤدي اليه . ولذلك علم القوم بالاختبار أن تغيير العادة ضارٌّ ، فحسبوه معصية واثماً ، وحسبوا العادة القديمة مقدسة ، ومخالفتها أثماً يستحق العقاب . بل صار الاذى الذي ينتج من مخالفتها يعد عقاباً لهذه المخالفة ، وصار ينظر الى قوة خفية وراء العادة والتقليد تطالب تقديس العادة ، وتعاقب على مخالفتها . فأن لم يحدث العقاب في هذه الدنيا فلا بد أن يحدث في الآخرة . وعلى هذا النحو نشأت التقاليد وما بني حولها من العقائد والشرائع

٨ — تهيُّب المجهول

ولما كان الانسان في عهد همجيته الفطرية لا يفهم عوامل الطبيعة ولا يعرف

كيف يعلل مقاوماتها له صار ينسب كل أذى يأتي منها لقوة خفيـة وراءها تنتقم منه لأنه يخالفها . فاذا زرع قمحه في غير ميعاد الزرع فلا يستغله مقبلاً في مدة الحصاد ، فينسب ذلك المَحْلَ الى الالآه الذي ينتقم منه لأنه لم يزرع في فصل الزرع . وليس في اعتقادهِ هذا شيءٌ من الخطأ الاّ انه يدل على جهله ان الإلّه الذي يخاف نقمته هو الناموس الطبيعي الذي قضى بأن لا تفرخ البذرة إلاَّ في اول الربيع ، ففي أوله يجب أن تبذر

كذلك اذا عبر النهر في زمن فيضانهِ جرفه ، فنسب ذلك إلى إلّه النهر الذي ينتقم منه ، لأنه عبره في وقت فيضانه . وكذلك اذا خرج الى الغابة في حين اشتداد العواصف انقضّت عليه الصواعق ، فينسب للعواصف والزوابع قوى الآلهة المنتقمـة ، ويحاول استغفارها واستعطافها بوسائل العبادة والضحايا المختلفة . ولو علم النواميس الطبيعية لفهم انها هي الآلهة التي يجب ان يحسب حسابها ويعرف كيف يتقيها . ولكنه لما كان يجهل العوامل الطبيعية ونواميسها كان يعتمد على اختبارهِ الشخصي في اتقاء هذه العوامل . فكان ما يفعله مرّة من غير أن يتعرض فيه لأذى يكرر فعله . وما فعله مراراً بلا خطر تأكّد انه لا يُغضب الاله . والحقيقة انه يتأكد صلاحيته

وما هي نتيجة هذا التخوف من الاله المجهول ( النواميس الطبيعية ) ؟ تمكنُ العادة ، وتسلسل التقليد من جيل الى جيل ، حتى كلما تقادم زاد احترام ذويه له واصبح أخيراً شريعة مقدسة . فالعادة أقدم شريعة . وهي شريعة لم تصـدر بأمر عالٍ ، ولا أعلنت اعلاناً ، بل وطّدت نفسها كمعرفة ناتجة عن اختبار . العادة اذاً جرثومة العلم والشريعة معاً

٩ — تصلُّب التقاليد

ولكن الانسان ارتقى عقلاً وصار يعلم النواميس الطبيعية التي تقضي عليه أن يطاوعها حتى ينال منها ، وان يتحايدها اتقاء لقساوتها . فهل تنتقض العادات وتبطل التقاليد بسبب ان الانسان صار يفهم اسرار الطبيعة ؟

الوقائع تُثبت العكس — تثبت أن التقاليـد والعادات المتوارثة لا تزال ذات السلطة العليا على الانسان، بالرغم من اكتشافه نواميس الطبيعـة التي تفضح سخافة كثير من تقاليده وعاداته

فمن شواهد ذلك ان بعض العقائد الدينية تصلبت امام الحقائق العلمية الراهنة تصلباً فاضحاً يعد أفضح من جهل اهل الجاهلية، فالنصرانية لم تسلم بدوران الارض حول الشمس الا بعد قرون من اكتشاف هذه الحقيقة، لانها لم تشأ ان تخطىء يشوع الذي استوقف الشمس لا الارض. والحساب الشرعي بقي متأخراً عن الحساب الفلكي ١٣ يوماً لان المجمع الاكليريكي قرر حساب التاريخ. فقانون المجمع الاكليريكي يجب ان يكون فوق ناموس الفلك. وهناك كثير من الحقائق العلمية الواضحة كالشمس في رائعة النهار لا تزال تتحمل صدمات التقاليد القديمة

وسبب تصلّب التقاليد أو تحجرها بالرغم من تساقط أشعة الحقائق المحرقة العاملة على تفتيتها، هو ان الانسان أميل للكسل منه للعمل، ولا يقدم على التفكير الاّ متكلفاً، لأن اعنات الفكر متعب. فلذلك لا يجهد نفسه في تمحيص التقاليد والعادات لينبذ خطاءها. بل بالعكس يجد في نفسهِ ميلاً لتعليل صلاحية التقاليد بكونها قديمة متوارثة. فلو لم تكن صالحة لما بقيت الى اليوم، ولا اقتبسها الخلف عن السلف. فبقاؤها، في نظرهِ، دليل على أفضليتها

هذا ناهيك عن ان تغيير التقليد أو العادة يستلزم تغيير شيء في الاعضاء التي تقوم بهـذا التغيير أو التعديل. وهو أمر شاق يستنفد قوة، أو انه خطرٌ لإمكان ان الاعضاء لا تحسن القيام به.

فلما عدل الانسان عن ركوب الجياد الى ركوب المركبات اضطرّ ان يتعب في تمهيد الطريق، وان يمارس سوق المركبة وهو خلاف الركوب. ولما عدل الانسان عن سكنى الخيام الى سكنى الابنية اضطرّ ان يتعب في بناء هذه، وان تتحرك عضلات يديه حركات غير حركاتها في نسيج الخيام. ولما عدل الانسان عن ركوب الارماث الى ركوب السفن عانى في بناء هذه ما لم يعان في تلك. ومعنى كل ذلك ان تغيير العادة يضطر الانسان الى تحمل مشقة، وهو ما يتجنبه ما امكن

والعقبة القائمة الآن في سبيل اصلاح التهجئة في اللغـة الانكليزية هي الغاء جميع المطبوعات الانكليزية الموجودة الآن، ولا يخفى ما في ذلك من الخسائر الباهظة

على ان تحجر العادات والتقاليـد هذا لا يكون خالداً لانه واقع تحت أشعة

الحقائق المحرقة التي تعمل على تفتيتهِ دائماً . فبين التقاليد والتطورات نزاع دائم تكون الغلبة فيهِ دائماً لهذه ، إذ تنبذ القديم وتحل الجديد محله .

من أين هذا الجديد ؟

سترى في الباب الثالث ان الهيئة الاجتماعية واقعة تحت عوامل مختلفة ليس لها عليها سلطة . وهذه العوامل قاضية بالتغيير الدائم فيها توجيهاً لها الى المثل الاعلى . وسنة التغيير والتطوير هذه جارية على قاعدة السلسلة الهندسية ، أي ان التغيير يكون أسرع كلما كان أحدث . فالتغيرات التي حدثت في القرن الاخير تساوي التغيرات التي حدثت في بضعة قرون ، والتي حدثت في هذه البضعة تساوي التغيرات التي حدثت في عشرات القرون الغابرة . ولذلك كان التقليد الاقدم عهداً أكثر تعرضاً الآن لهجمات التطوُّر ، وأقرب للانقراض ، لانه أصبح أقل صلاحية للمجتمع . فقد كان أصلح يوم نشأ ، وأصبح الآن عديم الصلاحية أو قليلها

١٠ — الشريعة عادة متحجّرة

كلما توطدت العادة وتقدمت في سيرها الى صيرورتها شريعة كانت تمرُّ في دور التحجُّر . فمتى صارت شريعة ، روحية أو زمنية ، أصبحت صلبة لا تلين ، وصارت ذات السيادة التي تنحني لها الهام . حينذاك يتسلح الكاهن في اخضاع المؤمنين بالقول : « اني انفذ شريعة الله وأحترم طقوس عبادته » . والقاضي يقول : « اني أنفذ القانون » فيخضع له الكبير والصغير . والشرطي يقول : « اني انفذ اللوائح » فينقاد له المقبوض عليه صاغراً . والجندي يقول : « اني أنفذ أمر السلطة العليا » فيطلق رصاصه متبرئاً من كل مسأولية . بهذا التحجر تندمج ارادات الجمهور كلها ، فلا تستطيع ارادة واحدة أن تماص ، أو أن تقاوم

متى صارت العادة قانوناً تعذر جدًّا الاقلاع عنها ، لأن اتفاق الجمهور كله فيها أصبح « كاللحام » المتين الذي يتعذر تفكيكه

متى تحجرت العادة وصارت شريعة أو قانوناً قلّت فيها مرونة التعقل ، وكثرت فيها صلابة النظام ، فينسحق فيها كثيرٌ من عناصر الصواب

متى كان القاضي عرضة للمؤاخذة ، واللوم ، ولسوء الظن فيه ، وللاتهام بالتحيز اضطرّ أن يتمسك في أحكامه بالقانون ، حتى اذا سُئل في أمرٍ قال : « كذا ينص القانون ، وعلى القانون اعتمدت في الحكم ». يضطر أن يتمسك بالقانون الى حد أن يحكم على البريء للمذنب ، ولو كان واثقًا ببراءته ، لان ذاك عجز عن أن يبرهن براءته . ومتى كان الممتحن في المدرسة عرضة للمؤاخذة اضطر أن يحكم في استحقاق التلميذ بما يقرأه في ورق امتحانه ، فقد يحرمه النجاح لان ورقه غير نائل درجة الاستحقاق ، وان كان يعتقد انه ناجح بلا شك

والمجلس الملي لا يحكم بالطلاق لأن الزوج لا يستطيع أن يقدم الشاهد العيان

فالقانون الذي هو عُرفٌ أصمّ أعمى أبكم بلا عقــل ولا قوة حكم يصبح فوق العقل الفردي ، وصاحب السلطة المطلقة عليه ، لأنه كتلة ارادات جمهور تحجرت

فلذلك ترى أن التقاليد الشرعية أو القانونية تقف في سبيل تقدُّم المدنيــة الى الامام . فهي كالصخور التي جرفها السيل الى وسط النهر، فسدت النهر واضطرّ أن يجري من خلالها ومن فوقها ، وأن يبريها مع الزمان ، حتى يفتح بينها منافذ له ، ومع تمادي الزمان يدحرجها في سبيله ، وهي تبرى كلما تدحرجت إلى أن تتلاشى

## ب - العوامل المساعدة التقاليد

العادات الموروثة ، أو التقاليد ، متملّكة من طبعها ، ولهذا السبب تقول بلغتنا « ملكة العادة » . فاذا لم تطرأ طوارىء أخرى تزعزعها بقيت تستفحل . على أن الهيئة الاجتماعية واقعة بحكم الطبع أيضًا تحت عوامل مختلفة توجب تطور أنظمتها وعاداتها وتقاليدها . فمن هذه العوامل ما ينشط التقاليــد ويقويها ، ومنها ما يقاومها ويضعفها . واليك منشطاتها :

١ً — الشيخوخة

فالهيئة الاجتماعية تكون متطوّرة أو جامدة بقدر ما تكون حركتها في أيدي

شبيبتها أو شيوخها . وتولّي الشيوخ الرأي وادارة الحركة يُفْضِي بالمجتمع الى شيخوخة أنظمتهِ وتقاليدهِ ، كما ان الرواسب الكلسية ( الجيرية ) في شرايين البدن تفضي الى تَعَظُّمها ( أي تحولها الى مثل العظم ) وهو الشيخوخة ، لان فيه خطر الموت . ذلك لان الانسان يزداد تشبثًا بتقاليد أجدادهِ ، كلما تقدَّم في السن ، إذ لا يتاح له أن يتنبه لغيرها حتى يقتبسها ، لأن الذين يتولون ادارة المجتمع شيوخ متمسكون بالقديم . وهو لا يتولى ادارة المجتمع الاَّ متى صار شيخًا مثلهم وتملَّكت فيه عادات أجدادهِ القديمة

ولكن الشبان الذين لم تتمكن فيهم بعدُ تقاليد الاجداد يَدَعُون للعقل والمنطق وقوى الحكم والاستقراء والتعليل ، الحرية في تمحيص التقاليد ، ولهم جرأة على تعديل تلك التقاليد وتنقيحها أو ابدالها ، ولهم من الحماسة ما يدفعهم الى المخاطرة في التجربة والممارسة . فاذا تولوا الامور قبل أن يشيخوا كانت لهم فرصة للتعديل والتنقيح والاصلاح ، بحسب ما يتراءى لهم ، قبل أن تتصلب ارادتهم لعهد الشيخوخة في ملازمة القديم

اذاً . متى كانت مقاليد الامور في أيدي الشيوخ كان للقوانين والنظامات والتقاليد القديمة حظ الانتقال من جيل الى جيل ، من غير أن تتعرض لخطر الانتقاض أو التغير . وفي هذه الحال تكون الهيئة الاجتماعية « محافظة » ( القديم على قدمه ) وعلى التمادي يبدو الفرق بينها وبين هيئة اجتماعية اخرى مسرعة في التطور ، فتظهر هَرِمَة . اذا كان كل جيل يبتدىء حيث انتهى الجيل الذي قبله ، أي عند شيخوخة رجاله ، يبقى الجيل الاخير كالجيل الاول في كل عاداته وتقاليده

ولكن متى كانت مقاليد الامور في أيدي الشبان كانت التقاليد والنظامات تتعدل وتتطوَّر وتتجدد ، فتبدو دائمًا كأنها في ربيع حياتها ، لأن الشبان يتوارثونها بعضهم من بعض قبل تمكنها وتحجرها حين لا تزال رخصة تحتمل التعديل والتكييف

نعم ان الشبان عرضةٌ للتهور ، ولكن التهور ليس موتًا ، بل هو وقوع يمكن بعده القيام ، وبه يتعلم الشبان الدروس الواقية من تكراره

لاحظ جيداً ان حوادث الاصلاح والتطور في التاريخ حدثت عن يد شبان انتزعوا مقاليد الامور من ايدي الشيوخ . لما حدثت الثورة الفرنساوية كان معدل عمر الاشخاص الذين استلموا

ازمة الاحكام نحو ٣٤ سنة . ورجال الاتحاد والترقي الذين قلبوا حكم عبد الحميد كانوا في مثل هذه السن تقريباً . ولما عادت وزارة كامل باشا خيف من « رجعيتها » فقلبوها بقتل ناظم باشا وتهديد بقية الوزراء . ولو بقي امر تحرير مصر موكولاً للمتقدمين في السن لبقيت مصر تحت نير الاحتلال الى الابد . ولولا هبوب الفتيان للثورة السلمية ( بالمظاهرات ) لبقي رجال الوفد معتقلين في مالطة الى اليوم

والسبب في شيخوخة مدنية الصين الى حد الهرم هو ان ازمَّة امورها في ايدي شيوخها ، حتى العيلات تبقى السيطرة فيها للاب، بل للجد ما دام حياً . فيبقى الفتى بل الكهل في العيلة وفي الحكومة، وفي كل ادارة ونظام ، مأموراً طائعاً خاضعاً ينفذ اوامر غيره ، ويعمل بارادة غيره ، وليس له ارادة حرّة ، ولا يترقى الى درجة الآمر المسأول ، حتى يكون قد شاخ ، وانطبعت فيه تعاليم رئيسه وجده، فيصبح مثلهم في الفكر والراي والادارة والتنفيذ ، ويكون الجيل الذي بعده مأموراً خاضعاً يأتمر بأوامره كما هو ائتمر بأوامر اسلافه ، وهكذا دواليك . فلا بدع ان تهرم مدنية كهذه ، ولا تستطيع ان تقف في سبيل التيار الجديد . كذلك يمكن القول عن روسيا وغيرها من البلاد التي يحافظ اهلها على التقاليد القديمة

أما مسألة تشبث الشيوخ بآرائهم فراجعة الى سببين : الأول فسيولوجي ، والثاني عقلي . أما السبب الفسيولوجي فهو أن الجهاز العصبي ولا سيما الدماغ يقسو في الكبر فيقل تكيفه وانطباع المؤثرات الجديدة فيه . الا ترى أنك لا تقدر أن تؤثر على الكبير كما تؤثر على الصغير ؟

وأما السبب الثاني العقلي ، وهو الأهم ، فهو أن الانسان لا يقبل مناقشتك إياه في أمرٍ قد درَسهُ في ماضي حياتهِ طويلاً ، واستقرَّ رأيه فيه على قرار.وهبه رضي بمناقشتك فيه ،فقد يكون عنده من الحجج التي اتقنها في حياته الطويلة ما يفحمك، وان كانت زيفًا وبهتانًا . وان استطعت أن تفحمه فلا تستطيع أن تقنعهُ لان دماغه تصلَّب . أن قوة التفكير فيه ضمرت على التمادي فلم يعد يعلل غير ما علل في الماضي، ولا يحيد عن دائرة تفكيره الماضية .

ذلك يستلزم أن يُطلَق العنانُ لحرية الفتيان ، حتى يتعودوا تصادم الافكار وتماوجها بين الحقائق ، تفاديًا لانزوائها في زاوية واحدة

الأفكار الجديدة والاعمال المستحدثة تتولد في العقول الجديدة التي لم تخضع بعد لسلطة التقاليد . فالفتيان الذين قلّ تأثرهم بالتقاليد يكثر ميلهم للاختبار بأنفسهم ، وهو ما يحملهم على الاستنباط .

يعزى نجاح الاعمال في الولايات المتحدة الى ان معظم الوظائف التي فيها سلطة ومسأولية هما في ايدي شبان

بناءً على ما تقدم يجدر أن يكون في أيدي الشيوخ جميع الانظمة المقدسة أو شبه المقدسة التي يراد الاحتفاظ بها ، كما هي من غير أن يطرأ عليها تغيير ، كالطقوس والعقائد الدينية ، وكالقوانين الرئيسة ، والدساتير ونحو ذلك .

لهذا السبب ترى ان الكرسي البابوي في رومية لايملأه شخص دون الستين سنة من العمر بل ان ليون الثالث عشر عدّ صغيراً على الكرسي . وكذلك القضاة ولا سيما قضاة المحاكم العليا يكونون كبار السن ويبقون في وظائفهم حتى نهاية العمر . معدل عمر القضاة في المحكمة العليا في الولايات المتحدة نحو ٦٥ سنة . وقد مضى نحو ٤٣ سنة على تخرجهم في المدارس. وقضاة المحاكم الاخرى العليا معدل اعمارهم نحو ٥٧ سنة

٢ً — الحكومة تقليدية اكثر مما هي تطورية

الحكومة نظام أمري أئتماري . وكل موظف فيها آمرٌ ومأمورٌ. فهو ملزم أن ينفذ أوامر وقوانين إدارية ، ويمليها على من هم دونه ، وقلما يتاح له أن يتصرف حسب رغبتهِ . وان لاح له رأيٌ سديدٌ يجد عقبات عظيمة في سبيل تنفيذه . وقد لا يتاح له أن ينفذه بتاتاً لأنه يجب أن يستصدر به أمراً او اذناً من هيئات عليا مختلفة . فلذلك ترى أن نظامات الحكومات بطيئة التطور جداً ، فضلاً عن أنها تقوي روح الأمر والأئتمار في موظفيها فتظهر هذه الروح في حياتهم الشخصية والعيلية ، وتستوقف قوة الاستنباط والاختراع والانشاء والابداع فيهم ، بل تصغر شخصيتهم وتقلل ثقتهم بأنفسهم واعتمادهم عليها ، وتضيّق دائرة مطامحهم ، وأخيراً يتراؤون لك كأنهم آلات في معمل ، وكل واحد منهم بارع في عمله المتكرر فقط ، وهو وراء دائرة عمله ضعيف الاختبار جداً .

٣ — العزلة المكانية

الجماعة التي تعيش في بقعة من الأرض ذات حدود طبيعية حائلة دون اختلاطها بالجماعات الاخرى كثيراً او قليلاً، تكون متمادية في التقاليد القديمة، و يقلّ تطورها

ربما كان اهل جزر البحر المتوسط اكثر الامم احتفاظاً بالعادات اليونانية القديمة جداً . وانك لتجد في كلامهم الفاظاً من اليونانية القديمة . شبه جزيرة العرب لا تزال تمثل كثيراً من عادات العرب القدماء، لان البحار من جهاتها الثلاث، والجبال من الجهة الرابعة، حواجز بين اهلها وسائر العالم . وما اضطر اهلها أن يخترقوا هذه الحدود ليتصلوا بالامم الاخرى . بل ان حياتهم الاجتماعية الثورية المضطربة تبعد عنهم الامم الاخرى لما فيها من الخطر على هذه الامم . فلهذا عاشوا اجيالاً عزلاً عن العالم، فبقوا كما كان اجدادهم لعهد الجاهلية تقريباً . بعكسهم الفينقيون الذين كانوا بين حاجزي الجبال من الشرق والبحر من الغرب فشقوا الحاجز الغربي بفن الملاحة الذي تفوقوا به على سائر الامم التي عاصرتهم، كما أنهم شقوا ايضاً الحواجز البرية واتصلوا بمدنيتي الشرق بابل ومصر، واقتبسوا منهما المدنيتين ونشروهما في ما حول البحر المتوسط . وشتان بين مدنية الفينقيين ومدنية عرب الجاهلية

النصيرية الذين اعتصموا بجبلهم حرصاً على استقلالهم، وقلّ اختلاطهم بالامم المجاورة لهم، بقوا حتى الآن محافظين على عقائدهم وتقاليدهم المجوسية القديمة

كذلك يقال عن الدروز المعتصمين في جبل حوران، فقد توارثوا عادات وتقاليد وعقائد قديمة لم تغير المدنية الحديثة فيها شيئاً، لانهم منعزلون عن هذه المدنية

البوير الذين هجروا هولاندا ودنمرك منذ مئتي سنة الى الترانسفال يمثلون الآن هولاندا منذ ذلك الحين اكثر مما يمثلها الهولانديون انفسهم . اي ان اهل هولاندا تطوروا اكثر جداً من البوير، لان هؤلاء لم يحتكوا بامم اخرى كاولئك

بناءعلى هذه القاعدة ترى أن البلد المنفرد عن دائرة العمران، او الذي لا يقع في طريق الحركات العمرانية، اكثر جموداً ومحافظة على التقاليد القديمة من غيره . وكذلك ترى القرى الريفية تقليدية، والمدن تطورية . ففي القرى الصغيرة ولا سيما المنعزلة في خلجان المدنية وأجوانها ( جمع جَوْن )حيث تقل أمواج المنابهة والمحاكاة، او تصل ضعيفة، ترى التقاليد والخرافات، والعادات القديمة « مزهزهة ». فهناك ترى عادات الاعراس والجنازات كما كانت منذ أجيال . وهناك تسمع قرع الطبول والصفائح حين يخسف القمر . وهناك ترى إبالات عيد الصليب في الليل . وهناك يعرف كيف يعيش الدجال والمنجّم والمشعوذ

وأما في المدن ، والناس يحتكون بالناس ، والغرباء داخلون عابرون ، والأهالي مسافرون وعائدون من سفر ، فكل حين بعـد آخر تنتقض عادة بدخول عادة جديدة ، ويتعدل تقليد باندماجه بتقليد جديد وهلمّ جرّاً

٤ً — العزلة اللغوية حافظة للتقاليد

اللغات المختلفة في مملكة واحدة انما هي حواجز منيعة ضد الاحتكاك العقلي وتدفق الافكار والعادات من عنصر الى عنصر . فهي مانعة من الالتئام في وحدة قومية واحدة . يمكنك أن تجمع جماعات عديدة تحت راية حكم واحد ، ولكنك لا تقدر أن تجمعها في قومية واحدة ، اذا كانت متعددة اللغات ، مالم تعمم فيها لغة واحدة . أن تعميم اللغة ضرورية لتغليب القومية على العنصرية . ذلك كان سبب مصاب تركيا في عجزها عن توحيد عناصرها في قومية واحدة . أن ما بين التركي والعربي واليوناني والارمني والسلافي من التباين بقدر ما بين لغاتهم منه ، فكيف يمكن انشاء قومية عثمانية ؟ أن هذا التباين قديم جداً ، والتقاليد بين هذه العناصر متباينة جداً ، فهيهات اتحادها في قومية واحدة ، بل يستحيل ما دامت حواجز اللغات المنيعة تفرق بينها

٥ً — العزلة الاجتماعية حافظـة للتقاليد

كلُّ ما يَحُوْل دون الاحتكاك بالمعاصرين يحوِّل وجهة الاقتباس للماضي .

فاختـلاف الطوائف الدينية في سوريا جعل العناصر المختلفة قليلة الاحتكاك بعضها ببعض ، وبالتالي ابقاها متمايزة في عاداتها وتقاليدها . فترى للمسيحي عادات غير عادات المسلم ، وغير عادات الدرزي والنصيري واليهودي ، بل ترى عادات الطوائف النصرانية مختلفة متباينة . اغرب من ذلك اني رأيت في قرية واحدة ثلاث لهجات في الكلام مختلفة لثلاث طوائف : موارنة وكاثوليك ومتاولة . واختلاف لهجاتهم واضحة كل الوضوح

وسبب ذلك أن هذه الطوائف تسكن حتى في البلد الواحد منعزلة بعضها عن بعض ، ويتعامل أفراد الطائفة الواحـدة فيما بينهم ، أكثر مما يتعاملون مع الطوائف

الاخرى . وسبب هذه العزلة الاجتماعية حرصهم على تقاليدهم الدينية المقدسة مخافة أن تفسدها التقاليد الغريبة عنها . على ان هذه العزلة جعلت تقل منذ أخذ العلم يصير عقيدة الجميع

يعد اليهود في العالم اوضح شاهد على تأثير العزلة الاجتماعية . فمع تشتتهم في جميع جهات المسكونة وتكيفهم في امورهم الزمنية حسب طبائع البيئة التي يعيشون فيها تراهم في امورهم التقليدية الدينية منعزلين عن سائر العالم . فهما تشتتوا تجمعهم اللغة العبرانية وتعاليم التلمود والاعياد اليهودية وبكاؤهم على هيكل سليمان . والصهيونية ثمرة هذه العزلة الاجتماعية المتقادمة العهد

٦ — الاستيطان مرعى الخرافات

الجماعة التي تلازم وطنها ، ولا يسافر أهلوها ، ولا يغتربون ، تكون مرعىً خصيباً للتقاليد والعادات ، وتكثر فيها الخرافات . فهي كمياه المستنقعات الساكنة الآسنة التي ينسج فيها « الخز » الاخضر شباكاً بعضها فوق بعض . فقد تمرُّ عليهم أجيال وهم في آخرها كما تعهدهم في أولها . لأنهم اليوم كالامس في محيط واحد ، وجو واحد وعلى وتيرة واحدة من الحياة .

وانما اذا كان بعضهم يتغربون لاشغالهم في البلاد المختلفة يعودون الى مواطنيهم بعادات جديده تصادم تقاليدهم فتطورها . وهذا التطور يدفعهم الى الامام في سبيل المدنية والعمران

المتغربون يشعرون ، وهم في غربتهم ، انهم يخلعون أثواب تقاليدهم . وعادات البلاد التي ينزلون فيها تفتح اذهانهم ، وتحسس هممهم ، وتثير عزائمهم . الا ترى الذين هاجروا من سوريا الى اميركا ابدوا نشاطاً لم يكن لهم مثله في بلادهم فنجحوا نجاحاً باهراً

٧ — العيشة العيلية تحتفظ بالتقاليد

في الامم التي تتوثق فيها الحياة العيلية يشتد الحرص على التقاليد ، ولا سيما في الشؤون المنزلية الخاصة ، كالادوات البيتية ، وكيفية الاكل والشرب والمجالسة والمزاورة الخ

شتان ما بين العيلة الاميركية التي يقضي أفرادها معظم أوقاتهم في المطاعم والملاهي والمدارس والاشغال من رجال ونساء على السواء ، حيث يصادفون كل يوم شيئاً جديداً ويتعودون أسلوبا

في الحياة حديثا — وبين العيلة الشرقية التي يندر ان تخرج مرأة البيت من منزلها ، وهي التي تربي اولادها حتى يناهزوا سن الشبيبة ، وتلقنهم ما تلقنته عن امها وجدتها ، وتعودهم اساليب الحياة المنزلية التي تعودتها تحت سلطة امها وجدتها

العيشة العيلية تربط أفراد العيلة بالتاريخ اكثر جداً مما تربطهم بالعُرف المحلي . فالوالدان يذكران للأولاد تاريخ الاجداد ، وقصصهم وأعمالهم المجيدة ، ويلقّنانهم مذاهب الأجداد ، وآراءهم في الحياة الاجتماعية . والآية الذهبية في البيت : « هكذا قال أبونا . وهكذا فعل جدنا . وهكذا اعتقد جدنا . وكذا تعلمنا من أهلنا » . ولذلك ترى تعلّق الناس بالانساب والعصبية والعشيرة ، والاعتداد بالاجداد هو أسّ النبالة في العيلات الاريستوقراطية . وتفاخر الناس بأنسابهم هو سبب حرصهم على تقاليدهم الأسرية ( نسبة الى أسرة )

فاذا كان الناس لا يجدون في أنفسهم ما يتفاخرون بهِ فيلجأون الى التفاخر بالاسلاف من أسرهم ، كان الاعتصام بتقاليد السلالة دليلاً على التأخر أو بطء الارتقاء

وهناك عوامل أخرى يرد ذكرها مع مضاداتها فيما يلي ، كالتعصب تجده مع التساهل ، والامية مع التعليم ، والحكم الاستبدادي مع الديموقراطية

# ج - العوامل المقاومة التقاليد

## أ — المواصلات

لا يخفى أن تقدم نظام المواصلات من ملاحة وسكك حديدية وتلغراف وتلفون الخ جعل القاصي دانيًا ، والبعيد قريبًا ، والاعزل متصلاً . فنظام المواصلات علاج لآفة العزلة

منذ الآن اصبحت فلسطين تقتبس من مصر لهجة الكلام ، والحماسة الوطنية ، والوحدة القومية(لامسلم ولا نصراني) الى غير هذا . ومعظم الفضل في ذلك الى سكة حديد سينا التي ربطت القطرين . ولسوف ترى بين سوريا ومصر والعراق تبادلاً في العادات سريعاً بفضل تحسن المواصلات

ولا ريب ان سوء المواصلات في تركيا كان من اهم الاسباب لعدم امكان تترُّك العناصر العثمانية غير التركية

٢ — التعليم

المتعلمون يطالعون دائماً الكتب الجديدة والجرائد والمجلات ، فيطلعون على مستطرفات عصرهم . وبواسطة المطبوعات الجديدة يحتكون بكل ضروب العُرف والاصطلاح في عهدهم .

أما الاميون فيقتصرون على سماع الاساطير والقصص والتواريخ من المتقدمين فيهم في السن ، وهؤلاء يلقون عليهم ما سمعوه من آبائهم وأجدادهم . فالامية (عدم معرفة القراءة والكتابة ) صديقة التقاليد ، والتعليم عدوها . ولكنه لم يكن عدوها الالد يوم لم تكن طباعة ، او يوم كانت الطباعة ضعيفة ،لانه في ذلك الحين كان المرء يقرأ نفس الكتاب الذين قرأه أبوه وجده وجد جده . فكان يتعلم بواسطة الكتاب النادر الوجود ، محصوراً ضمن دائرة التقاليد . وأما الآن ، والطباعة تقدمت تقدماً عظيماً ، والصحافة انتشرت انتشاراً عجيباً ، بفضل وسائل المواصلات الغربية ، فقد أصبح العلم او معرفة القراءة والكتابة أعدى أعداء التقاليد ، لان الصحافة والمطبوعات الجديدة المختلفة تبث أروج الافكار والآراء والحوادث في كل مكان بأسرع زمان . فعصرنا اذاً هو عصر القضاء على التقاليد التي لا توافق حياتنا الاجتماعية

ثم ان نسق التعليم الحديث ينقل التعليم من صف اصدقاء التقاليد الى صف اعدائها .فقد كان التعليم في الماضي وسيلة لتلقين الطلبة النظريات القديمة كما هي،ويعد الالتفات الى النظريات الجديدة كفراً في الدين ، أو بدعة في العلم ، مضالة . فكانت طريقة التعليم حشو الذاكرة بالنصوص والمتون ، وتمرين القوى العقلية الاخرى على الاقيسة المنطقية ، من غير اهتمام في تحقيق المقدمات التي تنبني عليها النتائج . لانه كان القصد البراعة في المقايسة ، لا إزكان الحقائق الاساسية الراهنة التي هي ادوات المقايسة المنطقية . ولذلك استفحلت العلوم الكلامية كعلوم اللغة والمنطق ونحوها ، وتضاءلت علوم النواميس الطبيعية والاجتماعية

فلهذا السبب كان التعليم في الماضي مقتصراً على ازكان القواعد التعليمية كما توارثها الخلف عن السلف . اما نسق التعليم اليوم فمخالف كل المخالفة لما مضى ، لان العلوم فيه تبنى على حقائق اختبارية محسوسة ملموسة من غير احترام بتاتا للتقاليد القديمة

٣ — الديموقراطية

الديموقراطية تنقل الرأي من دائرة سلطة الفرد أو الافراد القليلين الى دائرة حرية الجماعة – تؤذن بحرية البحث والمناقشة. ووضع الموضوع في موضع البحث والمناقشة معناه، خروج الموضوع من تحت سلطة سابقة متوارثة أو مسلسلة أو سلطة مقدسة لا تُناقش ولا تُسأل، وطرحه في مجال البحث والمناقشة. وحينئذ ينشق الى وجهين، أو وجوه مختلفة، وتنشق معه الجماعة الى فرق حرَّة في تخيّرها الوجوه، أو تفضيل بعضها على بعض، أو تمييز هذا دون ذاك. ومتى خرج الموضوع مرَّة من تحت السلطة المطلقة الى دائرة المناقشة الحرَّة لا يعود ثانية من هذه الى تلك. أي تزول منه خاصته التقليدية ويصبح مُحتكًّا بالمواضيع الأخرى تصادمه ويصادمها، وتعدّله ويعدّلها، وتغير فيه ويغير فيها. فكأنه نزل من برج التقاليد الى حضيض العادات العرفية. وبهذا التحول تخرج الجماعة من مهد سكونها وجمودها الى ميدان حركاتها العمرانية

وهو واضح وضوح الشمس في رائعة النهار ان البلاد الراقية لم ترتق الاَّ حين افلتت قوة البحث من عقالها، وانطلقت في حقل المناقشة الحرَّة، وصح أن تسمى ديموقراطية

والبلاد التي ما زال ملكها أو اميرها يقول: « انا القانون، وانا الدستور، وانا القول الفصل، وانا القضاء، وانا الحق » الى غير ذلك من عبارات انحصار السلطة فيه، بقيت في خمولها الى أن جاءت الامم النشيطة تصادمها فتنازعها حياتها. فاما أن تقتلها وتلتهمها، أو ان توقظها فتنشطها لمقاتلتها

لحرية المناقشة مزية عظمى على الاستبداد في الرأي، مهما كان صائبًا ومبنيًا على اختبارات قديمة، لانها تصقل الحقائق فتظهر اكثر فاكثر ويقل الشك فيها. نعم انها لا تضمن فوز الصواب على الخطاء دائمًا، وانما يغلب ان يؤخذ جانب الصواب اكثر مما يُشتَطُّ في جانب الخطاء

### ٤ — التساهل

في مملكة الاستبداد يتسيد التعصب ، وفي دائرة الديموقراطية يعم التساهل

ففي البلاد المتأخرة تحت نير الاستبداد يستفحل التعصب لكل تقليد ، وعقيدة قديمة ، وعادة قومية متأصلة . فكل قول جديد يعد كفراً ، وكل عمل غير مألوف يعد بدعة أو اثماً ، وكل رأي مخالف للمألوف يعد انتهاكاً لحرية التقاليد المقدسة . والقائل أو الفاعل او المرتئي يتعرّض للاضطهاد ، ليس من قبل السلطة المستبدة فقط ، بل من قبل الجمهور. وربما كان اعظم ما يقاسيه الانسان ما يقاسيه بسبب رأيه الجديد

أن عامة الشعب يجفلون من كل فكر أو رأي أو عمل جديد ، لانه يزعزع اسلوب حياتهم الذي الفوه وكيّفوا انفسهم وحركتهم بحسبه ، ويخافون ان الجديد يتعبهم و يكلفهم جهاداً في الحركة . ناهيك عن ان المطبوع في الاذهان لا يمحى بسهولة حتى يطبع مكانه شيء جديد . والقديم مختبر معروف ، اما الجديد فلم يزل مجهول العاقبة

آفة التعصب حرية المناقشة

الجماعة التي تتحمل المطاولة في المناقشة بصبر ورصانة تقتل التعصب رويداً وتنعش التساهل ، وبالتالي تنشط المناقشة

لاحظ جيداً أن العصور التي تقدمت فيها الهيئة الاجتماعية وارتقت ، هي التي كان لها قسط من حرية المناقشة اكثر من العصور السابقة لها ، لان حرية المناقشة لاشت التعصب وأيّدت التساهل

نهوض الدولة الرومانية الى عظمتها بني على اساس حرية الكلام والمناقشة. النهضة الاوربية في الاجيال الوسطى تشكر لزمان حرية المناقشة . الثورة الفرنساوية قامت بعد افلات حرية الفكر والقول من عقالها ، وصارت كتابات الكتاب تنتشر على الجمهور . واعتقد ان الفضل الاكبر في النهضة المصرية السريعة انما هو للورد كرومر الذي اطاق للصحافة والخطابة والطباعة حرية لم تطلقها المانيا ولا النمسا لشعبيهما . في وسط هذه الحرية الفكرية ترعرعت العقول المصرية النابغة الحرة في الفلسفة التشريعية ، وفي الجدل المنطقي ، وفي السياسة الاجتماعية والدولية . وما هب الانكليز لتقييد الحرية الفكرية والكلامية والطباعية في مصر الا لما شعروا ان هذه النهضة السريعة الغريبة تعالت فوق سلطتهم الاحتلالية . ولكن لات ساعة تقييد — « Too late » حسب قولهم

التعصب يغلب ان يكون في الاقليات المباينة للاكثريات في تقاليدها، ولا سيما التقاليد الدينية. فالعنصر القليل المزجوج في جماعة كبيرة يشعر بفقد استقلاله، فيحاول ان يحفظ لنفسه ذاتيته، لئلاً يغرق في تلك الاكثرية، فيحتفظ بمزاياه التقليدية

عرب مصر، ونصيرية سوريا، وارمن تركيا، حتى دروز لبنان، انما هم شواهد على هذه الحقيقة. فانهم اشد العناصر في منطقتهم محافظة على تقاليدهم وعاداتهم، فحتى الآن يتقاضى عرب مصر لدى مجالسهم الخاصة، ويفضون مشاكلهم في هذه المحاكم التقليدية قبل ان تصل الى دائرة القضاء المصري. ودروز لبنان كانوا يفعلون كذلك. ونصيرية سوريا لا يزالون يفعلون كذلك احياناً. حتى برابرة مصر كذا يفعلون. اليهود ثبتت قوميتهم في كل العالم بهذا السبب

٥ً — اللقاح الشعبي

اللقاح الشعبي، ويراد به امتزاج العناصر التام، يُضئِل «عمود» التقاليد ويوسع «سطح» العادات العرفيــة. فالشعوب أو الجماعات التي تحتك بعضها ببعض احتكاكاً شعبيًّا بمعنى أن تضطر الى معاملة بعضها لبعض، وامتزاج احداها بالاخرى، تتولَّد من احتكاكها عاداتٌ جديدةٌ، يغلب أن تكون اكثر ملاءمةً للعمران، وأقرب سبيلاً للارتقاء. فهذا الامتزاج الاجتماعي كاللقاح البيولوجي الذي تتحد فيه الجرثومتان، فتُنْشِئان حيًّا جديداً قائمًا بذاته.

ووجه الشبه بينهما قويٌّ. فمدنية القوم انما هي حيٌّ اجتماعيٌّ، أو القوم نفسه جسمٌ حيٌّ قائم بذاته. وأفكارُهُ وتصوراتُهُ انما هي الجراثيم الحية التي يتألَّف منها الجسم. وهذه الجراثيم يمكن أن تتلقَّح فتولِّد بحسب سنة الوراثة الطبيعية أفكاراً وتصورات جديدة. وتنازع الاقوام والسلالات منذ القديم كان لقاحًا اجتماعيًا على هذا النحو. واذا كانت السلالة تعد كجسم عضوي حيّ، فهي إذاً ذات قوى للحركة والعمل. فاذا كانت السلالات أو الاقوام أو الجماعات في حالة سلم، فالمعنى ان هذه القوى فيها قد توازنت، ولم تعد تقوم بوظيفة غير وظيفــة النموّ. وانما اذا تغيرت البيئات والاحوال من حولها واضطرَّتها أن تنشط للحركة، كأن توسّع حدود البيئة تداركاً للزحام، أو ترتاد منتجعات أخرى، أو نحو ذلك، انساقت بحكم هذه

الضرورات الى الاصطدام بأحوالها أو بعضها ببعض ، وحدث اللقاح الذي نحن بصدده

هناك وسيلتان اخريان للقاح الاجتماعي ، وهما الاحتكاك التجاري والمهاجرة . وانما لا يحدثان الاَّ بين الامم المتمدنة . وأما الأمم الموغلة في الهمجية ففي حين سلمها تكون في حالة الجمود المطلق ، ولا وسيلة للقاحها الاَّ الحرب والصدام ، إذ لا تعرف أن تحتك بغير الحرب والنزاع

وفي حالة الحرب لا بد من فريقين : غازٍ ومغزوّ . فالمغزوّ يكون في موطنه مدافعًا، وسلطته الحاكمة تكون في حالتها الاعتيادية كما كانت بالامس، وقبل الأمس، أي انه لم تجدّ عليه دواعٍ تحمله على الهجوم والغزو . وناسه يكونون مشبعين بالكره للغازي طبعًا ، ويبذلون كل ما في وسعهم للمقاومة بالطرق العقليــة والمادية حسب اساليبهم المعلومة

وأما الغزاة ، وقد تركوا بلدهم أو وطنهم ، فقد تركوا أيضًا جوّهم وجميع أحوال بيئتهم ، بل تركوا وراءهم شريعتهم وتقاليدهم ، لأنهم صاروا مضطرين أن يكيّفوا أنفسهم حسب البيئة الجديدة التي جاؤوا لغزوها . فان كانوا في السهل ، وهجموا على الجبل ، اضطروا أن يعدوا العدد لتسلق الجبل . وان كانوا وراء البحر اضطروا أن يعدوا السفن . وان كانوا في منطقة حارّة وغزوا منطقة باردة اضطروا أن يعدوا المعدات لمقاومة البرد والمطر الخ . اذاً يضطرون أن يُقلِعوا عن كثيرٍ من عاداتهم وأساليبهم القديمة . وهكذا يزحف الجيش تحت نظام جديد وأحوال جديدة ، وقد ضعفت تقاليده القديمة ، وانحل هو من عقالها ، وشعر بحرية جديدة ، وآمال محبوبة، وأماني مرغوبة

ومتى حدث الصدام وانتهى بغلبة كان المغلوب أسـير الغالب ، وهذا يستعبد ذاك ويستغله ، وفي هذه الحالة يمتزج معه . هذا هو اللقاح . وتتطور عادات الفريقين بهذا الامتزاج . وما يتولد منه من الافكار والعادات الجديدة انما هو وليد هذا اللقاح

وكل من الفريقين يورث المولود الجديد من الافكار والعادات ، ليس بالنسبة للغلبة أو المغلوبية ، بل بالنسبة لتفوُّق ضرب المدنيــة الذي يُورّثه على مثله من ضروب مدنية الآخر

العرب الذين تغلبوا على الاغريق كسبوا من تمدنهم اكثر مما اكسبوهم

وهناك عوامل أخرى ذُكرت مع اضدادها في النبذة السابقة ، كالشبيبة مع الشيخوخة ، والاختلاط مع العزلة ، والتغرب مع الاستيطان الخ

## د - تعذر الاندماج بين الجماعات التقليدية

لعلّ الشرق الادنى ، ومعه شرقيّ اوروبا ايضاً (تركيا في القرن الثامن عشر) أشبه من سائر بقاع المعمور بالثوب المرقع ، او بالاحرى المخوط من فضلات الاقمشة المختلفة النسيج والالوان . فلا يمكن أن تراه ذا اصل (ارضية) واحد ، بل لا تقدر ان تقول انه من لون كذا ، وسلالة كذا ، وعقيدة كذا . فقد جمع الله فيه بقايا السلالات القديمة ، ولغاتها ، وعقائدها ، وعاداتها

- ففي هـذه البقعة المشرفة على البحر المتوسط تجد مواليد اللغات السامية والآرية ، ودماء سام وحام ويافث المشتتة ، وآثار المدنيات المصرية والبابلية والعربية والفينيقية واليونانية والرومانية حتى التيوتونيـة ايضاً . تجد كل هذه العناصر عائشة جنباً الى جنب ، ومهما احتكت فيما بينها في الاعمال فلا تندمج لما بينها من التباين الواسع في التقاليد . فبينها من الحواجز الحائلة دون تدفقها بعضها الى بعض ، واندماجها بعضها ببعض ، حواجز اللغات والاديان والعادات القومية والعصبيات الدموية . فتجاورت أجيالاً من غير ان تتزاوج ، فكيف تندمج ؟ ولعله لو انشق حجاب اللغة لتشققت الحجب الاخرى ، ولو مع تمادي الزمان ، وامكن اندماجها شيئاً فشيئاً

لذلك لم يستطع ابن عثمان ان يكوّن مملكة متينة راسخة تحت عرشه ، لانه لم يفطن الى النقطة الاجتماعية الجوهرية ، وهي دس اللغة التركية بين تلك العناصر ، حتى تصبح هذه اللغة لغة القومية الواحدة . فلما توارى صولجان ابن عثمان وزالت قشرة البيضـة التركية ، خرجت الفراخ المختلفة ، وكلٌّ منها جسم قائم بذاته

لا يمكن الادماج الزاماً وعمداً بل رويداً تحت سلطة العوامل الطبيعية

فقد حاول الاتحاديون في تركيا بعـد الانقلاب العثماني الاخير ان يتركوا العناصر العثمانية المختلفة عمداً وسريعاً ، فطاش سهمهم . وكذلك حاول بعض الساسـة الروسيين ان يمحقوا العناصر المختلفة في المملكة الروسية الواسعة بتحويلها الى عنصر سلافي واحد ، فباؤوا بالفشل .

ولا بدع في ذلك فأنه ليس أصعب على الفرد من أن تقول له : « يجب أن تتعلم لغة غير لغتك ، وتتدين بدين غير دينك ، وتبدل عادات أخرى بعاداتك » ، فأنه يزداد تعصباً لعاداته حينذاك . ولكنك اذا جعلت الوسط الذي يتحرك فيه أرقى من

وسط عنصريته وأفضل وأسهل مراساً ، وأوفر نفعاً ، والذّ تمتعاً ، خرج من نفسه من وسطه الضيق الى ذلك الوسط الواسع الرحيب

فلو جعل ابن عثمان تركيا خلفاً مجيداً للدولة العربية التي اغتصب الصولجان من يدها، او الدولة البيزنطية التي احتل محلها ، وجعل البلاد جنة العالم ، كما قدرت لها الطبيعة في اليسر والرخاء والحركة والحق والعدل وسائر عوامل المدنية ، لتتركت كل العناصر التي تحت سلطانه من تلقاء نفسها

لا نقدّر ذلك تقديراً ، او نخمنه تخميناً ، بل نعتقده قضية حقيقية راهنة . فقد جرى مثله في التاريخ — وليس العهد ببعيد — في الولايات المتحدة . فان المدنية الاميركية استغرقت جميع العناصر التي هاجرت اليها . وقد ذكر « روس » المبادىء الاساسية التي جعلت الولايات المتحدة المائع الفعال الذي انحلت فيه العناصر المتأمركة . واليكها :

وسائل التأمرك

( ١ً — التساهل) . لان الارغام يزيد الحنق ويزيد العنصر الدخيل تشبثاً بتقاليده . فاضطهاد روسيا لليهود زاد اليهود تمسكا بيهوديتهم ، وجعلهم يعكفون على كنائسهم بعد ان كادت تفرغ منهم ، وبالتالي استوقف تحولهم الى روسيين . الديناميت يمكن ان يحطم جبال الثلج التي تحول دون تقدم السفن . ولكن تساهل ريح يونيو يذيبه . فنصحنا للاجنبي ان « افعل ما تريد »

( ٢ — الشخصية ) . فان ديمقراطيتنا تقول لكل نزيل : كن رجلاً . كن سيد نفسك . فلا يلبث بعد حين ان يعصى اوامر كاهنه او ربانه التقليدية القديمة ، ويطاوع تعاليم البلاد . لا يلبث ان يُبعد ابنه عن مدرسة كاهنه الى مدرسة الحكومة . ( بل في غير اميركا ترى الناس يتهافتون على المدارس الاميركية لانها تعلم طلبتها ان يكونوا رجالاً مستقلين وأسياداً لانفسهم )

( ٣ً — عبادة الارتقاء ) . فان النزيل يجد نفسه بين قوم يسخرون من الاجيال الماضية وخرافاتها ، ولا يحترمون التقاليد القديمة . فيشعر انه اذا تمسك بالقديم كان هزأةً ، بل لا يلبث ان يحس أن تمسكه بالقديم انما هو تقهقر الى الوراء . فأسلوب الحياة الاميركية يأمره ان يتقدم الى الامام ، وينظر الى الامام ، لا ان يلتفت الى الوراء لئلا يعود الى الوراء . فنحن لا نقدر ان نسره بماضينا ، وانما نبهجه بما يرى من مستقبلنا الذي نقبل عليه

( ٤ً — منح الحقوق السياسية ) . ان تساهلنا في منح الحقوق السياسية لكل نزيل قوّى عوامل التأمرك . لان الشخص الذي يحس انه جزء من هذا الكل ، وانه صاحب حق كالكل يندمج في الكل ، ويقتبس عُرْف المجموع ، ويعمل معه

( ٥ً — التعليم والتربية ) . بهذه المسألة وحدها تتعصب الامة الاميركية . فهي تقول للنزيل : « البس كما تشاء ، وقل ما تشاء ، واللغة التي تريدها تكلم بها، واعبد ما تشاء . ولكن يجب ان تعلم اولادك ، وأن تعرف القراءة والكتابة » . فهذا الامر لا يسوء الغريب النزيل، بل بالعكس يسره . فالقالب الذي يُسْبَك فيه الاحداث في المدارس المحلية ليس انه يسلب الاولاد

من احضان تقاليد آبائهم ، بل يوحي اليهم الروح الوطنية الصادقة . ولذلك لا يشب احداث النزلاء الا وهم اميركيون قلبا وقالباً ، ويردون هذا الفعل لوالديهم ايضاً . فيشعر هؤلاء انهم يتنازلون عن تقاليدهم القديمة ، ويتخذون العادات الجديدة ويفخرون بها

## هـ - تنازع التقاليد والعادات

لا يخفى أنه في كل صدام مفضٍ الى تطوير الجماعات وتقاليدها وعاداتها لابد أن تتغلب بعض العادات والتقاليد على بعض . فبعضها يثبت ، وبعضها يتلاشى وبعضها يندمج ببعض . وبعضها يثبت هنا ، ويسقط هناك . فاليك أهم نواميس هذا التنازع :

١ً — لا يُنبذ التقليد الا اذا اعترض سبيل النجاح

فوجود الافضل لا ينفي الاقل جودة ، بل يمكن أن يعيشا معًا ، الاَّ اذا كان هذا معرقلاً . فهما كالثوبين ، القديم والجديد ، يلبسان ، ولا ينبذ العتيق الاَّ متى صار رثًا لا يليق أن يلبسه من يلبس ذلك الجديد . او أمرهما كأمر الاعضاء الأثرية في الاجسام الحية .

فالزائدة الدودية في الانسان كانت ممدة في اسلافه من الاحياء ، وبقيت أثراً لا لزوم له . فلما صارت تتعفَّن او تعرّض صاحبها لخطر الموت صار فن الجراحة يستأصلها ، وما دامت لا ضرر منها تبقى

هكذا لا يزال الناس يستعملون الحمار للركوب والنقل مع وجود المركبة ، ولكن متى كانت الاحمال ثقيلة عدلوا الى المركبة . ولا تزال المركبة تستعمل مع وجود الاوتوموبيل . ولا ينبذ الوجيه مركبته ليركب الاوتوموبيل الاَّ متى رأى ان جميع اقرانه واهل طبقته أو فئته اصحاب اوتوموبيلات . ومع شيوع الكهرباء لا يزال كثيرون من الناس يستعملون البترول للتنوير ، ويستعملونه ايضاً للطبخ مع وجود الغاز

ولكن هذه الاشياء القديمة لا تستطيع أن تثبت حيث يشتد التنازع . فالتاجر المزاحم يضطر الى استعمال التلفون ، والآلة الكاتبة ، وعداد النقود ، ونحو ذلك ، لكي يرجح نجاحه

وصاحب مصنع السكاير لا يقتني آلة لف السكاير الاَّ اذا كان استخدام الايدي للف لا يضمن تفوُّقه على مزاحمه . وما دام مزاحموه لا يستطيعونَ الفوز عليه فلا يقتني تلك الآلة ولو جئت بها اليه

والملاّح لا يلغي القلوع ويجعل سفينته بخارية الا ّ متى صارت سفن اخرى تنازعه تفوّقه وصار يخاف الخسارة . والدولة المحاربة لا تقتني الغواصة الا اذا جاءها العدو بحراً . والقبائل البادية لم تطرح البنادق الصوانية ونحوها الا ّ لما رأت ان اعداءها يحاربونها بالبنادق الحديثة . ولكن مع تيسر اللحوم في الجبل لا يزال كثير من الاهالي يصنعون « القاورما »

٢ً — العادات العمومية أثبت من العادات الشخصية

يمكنك أن تنسخ عادة خاصة بك ، ولكنك لا تستطيع أن تنسخ بسهولة عادة تشترك بها كل اسرتك . وان استطعت أن تنسخ هذه ، فلا تقدر أن تنسخ عادة يشترك بها كل قومك .

لماذا ؟ لان العادة المشتركة لا تنسخ بأن يعدل عنها الواحد بعد الآخر ، بل باجماع الجميع واتفاقهم معاً على نسخها . والاجماع او اتفاق الاكثرية صعب كما لا يخفى ، وله ظروف وأحوال لا تتيسر بسهولة . فاذا رام الفرد الواحد أن يستقلّ بنسخ العادة القومية ظهر شاذًّا ، وتعرّض لنفور الجمهور منه ، او لهزئهم بهِ على الاقل ، ولتجنبهم اياه ، وقد يستثير غضبهم عليهِ ، و يعرض نفسه لاذاهم

لاحظ ان الطريق المطروق هو الطريق السلطاني . ومهما كان هذا الطريق شيئاً فلا يقدر فرد واحد أن يطرق طريقاً آخر ، ويحمل الآخرين على أن يسيروا فيه وراءه ، الا اذا مهده لهم على حسابه . وحينئذ يكون قد دفع ثمناً لنسخ الجديد

لهذا السبب بقيت عادات وتقاليد فظيعة أمداً طويلاً حتى بعد ان صار في جماعاتها أفراد كثيرون يستفظعونها، ولكنهم لم يجسروا على الغائها ، كعادة وأد [1] الزوجات مع الازواج الموتى في الهند ، وعادة وأد البنات، وعادة طرح الاحياء في النهر ضحايا للآلهة بغية استنزال المطر مثلاً

وقد حدثت حادثة من هذا القبيل في هذا العام ( ١٩٢٤ ) في احدى مقاطعات الهند القصية اذ اعتقد الاهالي ان سبب شح المطر نقمة اله المطر على شخص . فبحثوا عن هذا الشخص حتى اذا وجدوه أحرقوه حياً . ولكن السلطة الانكليزية عاقبت من فعلوا هذا الفعل

والى الآن لا تستطيع في قرى الشرق التي خيمت فوقها عناكب الخرافات ، ان تهزأ بعقيدة فعل « العين » ، أو دخول الجنية في رأس المسرسمة او المفتونة او المجنونة

والى الآن لا تجسر ان تقول بين هؤلاء القوم ان الانسان لا يجوز ان يستسلم للمقدّر ، بل عليه أن يحاذر ويتحوط ويتنبه ويسعى ويعمل ويدع القضاء يعمل عمله . لا تقدر أن تقول هذا القول والا ّ رموك بالكفر والالحاد ، وقد يعتدون عليك اذا ناقشتهم في الامر

تقدر ان تأكل في بيتك ما تشاء ، وكيف تشاء، وتنام وتجلس كما تود ، ولكنك لا تقدر أن تلبس الثوب الافرنجي في بادية العرب ، ولا الثوب البدوي في نيويورك

(١) الوأد دفن الشخص وهو حيّ .

٣ — العادات الخاصة بالاستهلاك أثبت من العادات الخاصة بالانتاج

أولاً لأن استهلاك الحاصلات أمرٌ خاصٌ بك تفعله في سرّك ، او مستقلاً على الاقل ، فـلا يتعرض للنقد . وأما انتاجك فأمر يخصُّ العموم ، وهو عرضة للنقد . فتستطيع أن تلبس الحذاء الذي تريده مهما كان زيُّهُ . تجعل حذاءك في زيّ واحد كل حياتك . ولـكنك وانت صانع أحذية مضطرٌ أن تصنع الاحذية بحسب الازياء الرائجة في السوق

ثانيًا ليس في المستهلـكات تناظر ، فكل انسان يستهلك ما يروم . وانمـا في الانتاج تناظر حادٌ ، فالمنتج مضطرٌ أن يسبق جميع زملائه المزاحمين الى أحدث الازياء ، والاَّ قلَّت أرباحه ، او تعرَّض للخسارة

ثالثًا الاستهلاك حرٌّ لا سيطرة عليه . ولـكن الانتاج يغلب أن يكون تحت ادارة . والمنتج مضطر أن يكيف عمله حسبه رغبة المدير او المدبر او الطالب

رابعًا لبعض الناس نسق في الحياة لا يغيرونه مهما تغيرت الطواريء عليهم ، كالهندي يموت في المجاعة لانه لا يريد أن يأكل القمح بدل الرز . والايطالي يأكل المكرونه ولا يعدل عنها حتى ولو كانت مغشوشة . وكثير من الناس ، ولا سيما الشرقيين ، يكرهون المعيشة في الفنادق او النُزُل ( البنسيون ) والاَّ كل في المطاعم مهما كانت فاخرة ، لأنهم لا يستطيعون النوم الاَّ في فراشهم ، ولا يستطيبون الاَّ طعام البيت . وقد يفضل الواحد كوخًا يملكه على منزل فخم مأجور

وقد ثبت بالاستقراء ان العمال والفعلة ولا سيما الشرقيين يوفقون دخلهم بحسب خرجهم ، اي انهم يعملون على قدر ما يلزم لنفقتهم ، ولا يحسّنون درجـة نفقتهم بحسب ما يتيسر لهم من تحسين عملهم ، لانهم تعودوا نمطاً من المعيشة لا يريدون ان يغيروه

اذا أعطي هؤلاء العمال العمل «مقاولة» فلا يجتهدون ان ينجزوه سريعاً طمعاً بالـكسب . وان أسرعوا بانجازه فلـكي يرتاحوا بعده ، لا لـكي يغتنموا الوقت للعمل . وظهر ان تقليل ساعات العمل وزيادة الاجور لم يزيدا دخل العامل ، بل زادا كسله

ذلك ما يشكوه الاميركيون الآن من العمال الاسيويين من يابانيين وصينيين . فان هؤلاء متعودون درجة من المعيشة واطئة ، فلا يبذلون جهدهم في أن يرفعوا درجة معيشتهم برفع درجة جهادهم في العمل . ولذلك امكنهم ان يزاحموا العمال الوطنيين والاوربيين بهذه القناعة . والعمال الاميركيون

يخشون من عواقب هذه المنافسة . وأهم هذه العواقب انزال الاجور بينهم وبين الوطنيين ، وهي تفضي اخيراً الى كثرة مواليد اولئك وقلة مواليد هؤلاء . وهو امر يأول الى طغيان الجنس الاصفر في اميركا وتفوقه أخيراً على الجنس الابيض . والاميركيون حيارى في كيفية تلافي هذا الطغيان

٤ً — العادات المختصة بالعواطف اثبت من العادات المختصة بالعقائد والافعال

لان العادات العاطفية لا تحتمل المناقشة . فلا تقدر أن تقول لشخص : لماذا تحب هذا وتكره ذاك ؟ . وقد يمكنك أن تقنعه بخطائه فيما يحب ، وما يكره . ولكنه يقول لك أخيراً : « على اني أحب »

قد يزول السبب الذي أنشأ العاطفة ، ولكن العاطفة تبقى . فالمصريون أحبوا الاتراك لانهم كانوا ينظرون ، الى تركيا كمنقذة لهم ( مع ان السلطان عبد الحميد هو الذي سلم مصر لانكلترا مقاومةً للخديوية ) . ثم انقضت كل علاقة بين مصر والترك ، وزال السبب الذي حبَّب هؤلاء باولئك بخروج الانكليز من مصر ، ولكن بقي المصريون يحبون الترك ، الى ان ألغى هؤلاء الخلافة وطردوا الخليفة

والغريب ان الافرنسيس أعجبوا بنابليون فأحبوه حتى العبادة ، وما زالوا حتى اليوم يحبونه ويجلون قدره ، مع ان نابليون كان اكثر اذًى لفرنسا واوروبا منه نفعاً . لانه حمل الشبيبة الافرنسية ان تسفك دماء نحو عشرين سنة في مناهضة اوروبا بلا فائدة . وبالرغم من كل ذلك ما زالت أوتار أعصابهم ترن بذلك الاعجاب منذ قرون حتى اليوم

والعداء الذي بين العناصر لا يكاد يتلاشى مهما بذل العقل والمنطق الجهد في ازالته . فقد قضى الارمن والاكراد اجيالاً في أشد عداء بالرغم من أن المصلحة الحيوية كانت تقضي بوضوح ان يتفقوا ما داموا متجاورين . كذلك الامر بين الترك والمكدونيين ، وبين العرب والترك ، مع وجود رابطة الدين بين هذين العنصرين ، وبين الارلنديين والانكليز ، وبين اليهود والروسيين الخ

والتحوط في عشرة الجنسين : الرجل والمرأة ، قديم ، ولا زال في معظم الامم عادة سائدة ، لأن كل علاقة بين رجل وامرأة تعزى الى علاقة عواطف ، لا الى علاقة مصالح ، او عشرة اعتيادية ، كعشرة رجل ورجل . وما تقلقلت هذه العادة الا في بعض بلاد أوروبا وأميركا ، اذ تغلبت علاقة المصالح على علاقة العواطف

ومن الامثلة على تسيُّد العادات العاطفية عادة احترام جثث الموتى بتحريم احراقها أو تشريحها او غير ذلك . ولما نسف كتشنر قبر المهدي في الخرطوم حتى لا يكون مقام وليّ للسودانيين قامت القيامة عليه وعدَّ الناس عمله همجية ووحشية . لكن ولا يزال حتى الآن السواد الاعظم من الناس يستفظعون احراق جثث الموتى ، مع انه من الوجهة الصحية العمومية افضل من الدفن

٥ً — الانظمة الاجتماعية المسيطرة كالشريعة والحكومة والدين والطقوس

تشتمل هذه الانظمة على كثير من التقاليد المتقادمة ، بل كل واحد منها انما هو نضيد من تقاليد بعضها فوق بعض، كنضيد الطبقات الجيولوجية التي تدل كل طبقة منها على عصر من عصور الحياة على الارض .

ا — ففي الشرع تجد القوانين زبدة عادات وتقاليد مختلفة متفاوتة في القدم والحدوث ، تجـد فيها زبدة شرائع حورابي وموسى وزاروسترا والمسيح ومحمد والشرائع اليونانية والرومانية حتى قوانين فرنسا الحديثة — كل هذه تجد روحها في أي شريعة من شرائع الامم الشرقية والغربية أيضًا

واذا دقَّقت في الدرس والتحليل فيندر أن تجد شريعة تقضت شريعة أخرى سابقة لها ، بل كانت تكملة لها ، او توسعًا فيها . فكان كل مشترع يبني على شريعة سابقة ، لا على انقاضها . فالشرائع الحديثة انما هي برج الشرائع المتوالية المتتابعة

ب — كذلك الحكومة ، قـد يتغير القابض على الصولجان فيها من أمير الى ملك مستبد الى ملك دستوري الى رئيس جمهورية . ولـكن شكل السيطرة والادارة قديم من قبل عهد القضاة الاسرائليين الى اليوم . كانت الحكومات سلسلة من المجالس الشورية والادارية والتنفيذية . وأما العادات والتقاليد المرافقة لها حتى الآن فمـا هي الا مجموعة عادات الاعصر التي مرَّت عليها . في ملابس الملوك والحكام والقضاة ، وتيجانهم وصوالجتهم وسيوفهم وأعلامهم وشاراتهم وتقودهم الخ ما ينبئك عن جميع الاطوار والادوار التي مرَّت عليها السلطة السياسية من عهد مينا وميلوس وكوش الخ الى يومنا هذا . ( وهو بحث واسع لمن يريد أن يتوسع فيه )

ج — في الدين ترى مخزن التقاليد منـذ بدء التاريخ الى اليوم . بل ترى فيه أقدم التقاليد التي لا تراها في أي نظام آخر . خذ تقليد المحرقات والضحايا والذبائح فانه كان من قبل موسى أجيالاً عديدة ، ولا يزال حتى اليوم ولو في صيغة رمزية .

خذ الكهنوت تجد أن ملابس الكهنة الشرقيين والغربيين في الكنيستين الكاثوليكة والارثوذكسية منسوخة عن ملابس الكهنة اليهود والوثنيين أيضاً . بل الكنائس بما فيها من الزخارف والتماثيل انما هي توسع في اشكال الهياكل الوثنية واليهودية . خذ ايضاً صيغ الصلوات تجد بعضها يرجع الى عهد داود وسليمان وموسى

السريانية في كنائس الموارنة في لبنان، واللاتينية في كنائس الكاثوليك الغربية، واليونانية في كنائس الارثوذكس الشرقية، والعبرية في كنائس اليهود، وعربية القرآن — كل هذه تقاليد قديمة متصلبة

د — نأتي الى الحفلات الرسمية السياسية والطقوس الدينية نجدها أيضاً نضيداً من التقاليد المتقادمة العهد . فما من عيد عند المسيحيين نقض عيداً سابقاً، بل كان مضافاً الى الاعياد السابقة له .

كم مرّ من الاجيال على اعياد النيروز ، وشم النسيم ، ووفاء النيل في مصر فما تلاشت . وقد يزاد عليها اعياد وطنية فلا تلغيها ، بل تسير معها

حفلات الملوك والحكام الرسمية متوارثة منذ القدم ، ومتقادمة في قدمها ، ومهما انطوت أجيال فلا تطويها . ومهما تغير نوع الحكم تبقى هذه الحفلات الرسمية . تنتقل « التشريفات » من البلاط الى بيت الجمهورية

هـ — حتى في حفلات العوام الرسمية ، من حفلات زواج ومآتم وطهور وعماد ومواسم مختلفة ، إذا حللت العادات والتقاليد المرافقة لها كنقوط العروس ، و بذر العروس حبوب الرز ، والصاقها الخميرة على عتبة الباب عند دخولها الى منزلها الجديد ، وزفافها ، وجلائها ، والشموع في الاعراس والمآتم والجنازات ، والرقص في المواسم والاعياد ، والكعك ، الى غير ذلك مما يتعذر احصاؤه — كله إذا حللته وجدته مجموعة عادات متفاوتة في القدم . فكأنّ هذه الانظمة برج ، مهما بنيت فوقه من طبقات العادات والتقاليد يحتمل ، وقلما يتقلقل

# الفصل الرابع

## الاقتباس القويم - الرأي العام

### أ — سنن الاقتباس القويم

١ً — كيفية الاقتباس القويم ٢ً — الاستنباط ومصدره ٣ً — روح الاستنباط وقياس ارتقائه ٤ً — انتشار العلوم والفنون به ٥ً — الاقتباس القويم اروج في العلوم والفنون منه في الازياء والاخلاق والفنون الجميلة ٦ً — قلته في الفلسفات

### ب — اصطدام المقتبسات

١ — **النزاع الصامت** : ١ً — بين وهمين متنازعين ٢ً — بين وهم وحقيقة مستحقة التفوّق ٣ً — بين مستحقين

٢ — **العوامل التي تميت النزاع الصامت** : ١ً — السلطة التي فوق المتنازعين ٢ً — الاضطهاد ٣ً — الاختبار الشخصي

٣ — **النزاع الصائت** : ١ً — الصائت يقصر اجل الصامت ٢ً — الحق لا يهاب مناقشة ٣ً — المناقشة تستلزم الاحتكاك ٤ً — الواسطة لا الغاية ٥ً — الغاية تحرك الساكن ٦ً — العاطفيات تهيج البحر الاجتماعي

٤ — **حالات النزاع الصائت** : الاولى — جانب عقيدة وجانب آخر رأي جديد الثانية — تقاوم الجانبين بشدة ، الثالثة — الجديد يناهض القديم ولا عكس

### ج — فض النزاع

١ً — انتهاء النزاع ٢ً — انفضاض النزاع ٣ً — التسوية لفضه

## د – الرأي الاجتماعي

١َ — تنازع الآراء للعقل الواحد ٢َ —نشوء الحزب والزعيم ٣َ— تطوُّر الرأي ٤َ — الرأي رأي الخبيرين ٥َ — الاقتراع ٦َ — رشد الرأي العام ٧َ— مصير الرأي العام

## هـ – الزعامة

١َ —صفات الزعيم ٢َ — الرأي بين الزعيم والشعب ٣َ — الشعب تجاه الزعيم — التحزب ٤َ — تفاعل الزعيم والشعب

---

تدرَّجنا في الفصول السابقة في درجات الاقتباس المتفاوتة — الاقتباس الفوري : التحمس والتهوس . والاقتباس المكاني بين المتعاصرين في مكان واحد : العادات العرفية والاصطلاحية . والاقتباس الزماني في سلسلة تاريخية : العادات التقليدية — كل ذلك كان توطئة وتمهيداً الى الاقتباس القويم السديد الذي يستخرج منه الرأي العام . الرأي العام هو نواة بحثنا في هذا الباب ، هو القوة التعليلية العليا في عقلية المجتمع البشري . ذلك الاقتباس القويم السديد هو حاصل الاقتباسات السابقة بعد احتكاكها بعضها ببعض

# ١ – سنن الاقتباس القويم

### ١َ — كيفية الاقتباس القويم

اذا تواترت الرواية ان عدة اشخاص رأوا عند شاطىء البحر جثة مرأة لها رأس كرأس المرأة الحسناء ، ذات عينين وانف وفم وخدين وذقن وجبهة وشعر كشعر المرأة ويدان ورجلان ، ثم انتفضت هذه الجثة لما تجمع الناس حولها واندفعت الى البحر وغاصت — اجمع الناس كلهم على انها هي احدى جنيات البحر التي كان يعبدها بعض الناس في القديم . وكان لها هيكل في ماسي لولانس احدى الجزر اليونانية في المياه اليونانية . كلما سمعت هذه الحكاية من اشخاص يدَّعون انهم رأوا جنية البحر هذه باعينهم ازداد الميل فيك الى تصديق الرواية . ولعلك اذا تحريت الرواية وجدت ان معظم رواتها يقولون انهم رأوا الجنية رأي العين . ثم تتذكر الاخبار التاريخية التي

رويت عن جنيات البحر وعمّن شاهدها من الرواة . ثم تراجع ما حفظه التاريخ عن عبادة هـذه الجنيات من قديم الزمان . كل هذه المقولات تحتك في بالك، وانت في مخدعك تفكر بهذا الامر الخارق للعادة ، فتخطر لك الاسئلة التالية :

— هل كان في قديم الزمان عبادة جنيات حقيقة ؟ أو ان تاريخ هذه العبادة اسطورة من الاساطير

— هل كان لهـذه العبادة هيكل حقيقة ؟ ام هو ظن متأخر حدث في مخيلة الذين كانوا يتناقلون خرافة جنيات البحر التي توارثوها من اجدادهم ، وعلى تقادم العهد صارت هذه الجنيات المفروضة آلهة تُعبد ؟

— هل يوجد هذا الهيكل ؟ الى الآن لم يجد الاثريون آثاره

— هل ما رآه هؤلاء الرواة هو بدن مرأة حقيقة ، فانتفضت وعادت الى البحر الذي صعدت منه ؟

وبعد ان تفكر طويلاً في مقابلة هذه المقولات المستهجنة المختلفة لـكي تستخرج منها حقيقة راهنة غير معارضة للنواميس الطبيعية ، تعلل مسألة جنيات البحر هكذا :

ان معظم الذين رووا حادثة هذه الجنيّة ادّعوا انهم شاهدوها مشاهدة العين ، وهم مئات فلا يعقل انهم كانوا حينئذٍ هناك ، ولا بد ان يكون اكثرهم كاذبين لم يروها رأي العين . بل سمعوها من غيرهم وصدقوها ، فينقلوها . ولـكي يعزّزوا روايتها لغيرهم ادعوا انهم رأوها رأي العين ، وفي هذه الدعوى شيء من الفخر يمتاز به من رأى على من لم يرَ . اذاً لم يرَ هذه الجنية الاّ نفرٌ قليل منهم قد لا يتجاوزون العشرة ، وربما كانوا خمسة او ٣ او ٢ أو واحد فقط

أما مارآه هذا الواحد او الانفار القليلون فليس بدن امرأة حقيقة، بل هو بدن حيوان بحري له وجه يقارب وجه الانسان كوجه السعدان مثـلاً . فان في الحيوانات البحرية ما يقارب اشكال الحيوانات البرية، كفرس البحر وكلب البحر وبقرة البحر . فلا يبعـد ان يكون في البحر سعدان البحر أيضاً . وانما المبالغة في الرواية جعلت شكل ذلك الحيوان البحري الغريب انسـانا في نظر الرائي ، وفي يقين الرواة الناقلين روايته . ثم تقول : واذا صح هذا التعليل فلا بد ان ماكان يراه الاقدمون ويسمونه جنية البحر هو حيوان بحري له وجه يشابه وجه المرأة ، كهذا الحيوان الذي رآه هؤلاء الناس . ولما كان القدماء أجهل جداً من اهل هذا الزمان بالعلوم الطبيعية ، وكانوا بالتالي اكثر اغراقاً في الخرافات والاوهام ، ولم يقدروا ان يعللوا وجود هذا الحيوان المشابه للانسان ، والذي يصعد احيانا الى البر كما يصعد اليـه بقر البحر والتمساح الخ — قالوا ان هـذا هو الجن البحري الذي يكسر السفن . فعبدوه اتقاء لشره

اذاً تستخرج من كل ما تقدم ان ما يسمونه جنيـة البحر وكانوا يؤلّهونه كإله شر، ويعبدونه اتقاءً لشره، ليس الاّ حيواناً بحرياً له وجه يقارب وجه الانسان . ولا بد أن هذا الحيوان كان يكثر في شرقي البحر المتوسط في قديم الزمان فـكانوا

يرونه كثيراً. ثم جعل ينقرض تدريجاً كما انقرض كثيرٌ غيره من الحيوانات، ولعلك اذا دقّقت في التحقيق أمكنك أن تخمّن من أي عيلة من الحيوانات البحرية هو

هذه هي الحقيقة أو الرأي الذي تستخرجه من تلك المعلومات السابقة . فهو رأي مستنبط غير مقتبس بل مستخرج من مقتبسات . فاذا شرحته لآخرين من أهل الفكر والتبصرة قبلوه أو قبله بعضهم ، ولا يبعد أن يؤكّد صحته بعضٌ منهم اكثر منك . كما ان كثيرين من المعجبين بنظريات داروين حسبوها حقائق علمية ، ووثقوا أو جاهروا بصحتها اكثر منه

بالطبع يبقى هذا الرأي راجحاً حتى يبدو رأي أقنع منه للعقل

فاقتباس هذا الرأي عنك يعد اقتباساً قويماً أو سديداً أو معقولاً ، لانهُ حدث عند تجرُّد العقول المقتبسة من الاوهام والخرافات والتحيز ، وفي حين كانت القوى العقلية تمحّص المقولات ، وتقايس المعلومات ، لاستخراج الحقائق منها . فهو أعلى درجة من درجات الاقتباس ، بل هو القوة العليا في عقلية المجتمع

ففيما الناس يخوضون بحر عجاج اللجج ، متلاطم الامواج ، من المهوسات والمحسسات والعادات العرفية والاصطلاحية والتقليدية ، يجدون ، إذا غاصوا قليلاً ، بحراً هادئاً من الآراء التي رسبت من تلك اللجج والامواج

٢ — الاستنباط مصدر الاقتباس القويم

الاقتباس القويم كالمحاكاة وكالاقتباسين العرفي والتقليدي ، لا بد فيه من منبه أو مُقبس ، هو المستنبط او المخترع أو المكتشف أو المبتدع أو المستخرج[١] ، ومن محاكين أو مقتبسين . ولا يخفى ان الاستنباط ( ومرادفاته ) هو حاصل جهاد القوى العقلية العليا في عملها . ولهذا كان المستنبطون قليلين ، وسائر الناس من حولهم مقتبسين عنهم . وأما في سائر الاقتباسات الاخرى فيكثر المنبهون أو المقتبسون . ولهذا تكون هذه الاقتباسات في سطح البحر الملتج بالامواج ، والاقتباس القويم في طبقة تحتها أهدإ منها

---

(١) نستعمل لفظ استنباط بالنيابة عن جميع مرادفاتها المذكورة آنفاً

ومع قلة المستنبطين والمخترعين والمكتشفين تجد كثيرين يتفقون في استنباطهم من غير تواطوء، أو علم سابق، حتى ولا لاحق أحيانًا. كثيراً ما يستنبط الواحد استنباطاً سبقه اليه غيره، وهو لا يدري، أو قد يدري بعدئذٍ. وتوارد الاستنباط يؤيد حجته على الغالب

وكثيرون ممن مُنحوا موهبة الاستنباط تذهب موهبتهم عبثًا لأنهم وُجدوا في بيئة ضيقة المجال تخنقها. ولو وجدوا في بيئة رحيبة عاليـة لأورثوا جيلهم مستنبطات عظيمة النفع

في الاقتباسات القويمة لا ينظر المقتبسون الى شأن الاشخاص الذين يقتبسون عنهم، ولا الى مقدار الثقة فيهم، ولا الى الزمان والمكان اللذين نشأ فيهما الشيء المستنبط المقتبس، بل ينظرون الى صلاحيـة هذا الشيء. فلا يتأثرون من عظمة الرجال اصحاب الرأي الاول أو الاستنباط، ولا يجارون الجمهور او العامة، ولا يستسلمون لقدمية هذا الاستنباط أو جدته، ولا يتأثرون من الطبقة التي جاء منها سواء أكانت من فوقهم أو من تحتهم، بل يعتمدون على قوتهم التعليلية في تحقيق صلاحية الاستنباط

٣ — رواج الاستنباطات قياس ارتقاء الجماعة

ارتقاء الجماعة يقاس بمقدار الاقتباسات القويمة أو رواج الاستنباطات فيها وتوالي الجديد منها. مجموعة الاستنباطات النافعة تمثـل الارتقاء المادي العملي، ومجموع الاستنباطات الحقائقية يمثل الارتقاء العقلي. وأما الارتقـاء الادبي والارتقاء الفني فنتيجة الارتقائين الاولين

مثال ذلك: ما تحمس اهل الشمال في اميركا لتحرير عبيد افريقيا ومقاومة النخاسة الا بعد أن تقدمت الالات الزراعية التي تغني عن جانب كبير من العمال، ولا يحسن العبيد السود استعمالها

وما جرت العادة في حقن دماء الاسرى الا لما تيسر نظام تشغيلهم والانتفاع بعملهم. وما بطلت عادة تعذيب المتهمين بغية حملهم على الاقرار الا لأن المباحث العقلية أثبتت ان هذه الوسيلة لا تؤدي إلى الغرض المقصود، ولا تحمل المتهم على

قول الحقيقة . فقد ينسب الجرم لنفسه لينجو من التعذيب . وكذلك ماخفت فظائع العقوبات، حتى الغي الحكم بالموت في بعض الشرائع ، الاَّ لأن المباحث العقلية رجحت ان هذا الحكم غير عادل مهما كانت الجريمة فظيعة

ذلك في الامور الادبية . وأما في الامور الفنية فلا حاجة الى ايراد الشواهد . وهو معلوم ان الفنون الجميلة كانا زهور الارتقائين العقلي والمادي

٤ — العلوم والفنون العملية تنتشر بفعل الاقتباس القويم ،

على ان للاشخاص الموثوق بهم تأثيراً في ترويج الاقتباس . فبالرغم من ان المقتبس لا يتأثر الاَّ بتحكيم عقله في صلاحية الشيء الذي يقتبسه ، يعتمد كثيراً على شهرة الاشخاص الذين يقتبس عنهم ، ولأن هذه الشهرة كانت نتيجة نجاحهم في الماضي ، ولولا صلاحية عملهم أو علمهم ما نجحوا فيه

فالدكتور علي بك ابراهيم الجراح ، والدكتور حسن بك شاهين الاختصاصي بامراض الاذن والانف والحنجرة ، والدكتور نجيب بك محفوظ المولد وطبيب النساء والدكتور سليمان بك عزمي الاختصاصي بالامراض الباطنية، لم ينالوا شهرتهم الا لانه ندر فشلهم في عملياتهم فصاروا ثقة في فنهم، والمحامي فلان لم يصر ثقة في القضاء الا لانه كسب جميع قضاياه ،والشيخ ابراهيم اليازجي صار ثقة باللغة لانه ندر خطاؤه في الفاظها وأصولها فصار حجة حتى في خطائه

٥ — الاقتباس القويم اروج في العلوم والفنون العملية منه في الازياء والاخلاق والفنون الجميلة

اولاً لأن المزاحمة في الفنون العملية والعلوم المساعدة لها انما هي مزاحمة حيوية للاسترزاق ، فيتغلب فيها الاكثر صلاحية بأسرع مما يتغلب الزيّ ( الموضة ) ونوع اللهو أو نحوهما بسبب كونه اكثر صلاحية . فيمكن أن تتغير الازياء كثيراً ، ولكن لا يتغلب فيها زيٌّ لصلاحيته الاَّ نادراً . وأما الفنون فيتغلب فيها الصالح عاجلاً .

مثال ذلك شاع « التبنيج » في العمليات الجراحية عاجلاً لان الجراح الذي بنّج كان انجح، فاضطرَّ زملاؤه ان يجاروه سريعاً والا حبطوا وما أصابوا نجاحا . والزارع الذي زرع بزرة قطن السكلاريدس كان اوفر ربحاً، فاسرع زملاؤه الزراع واقتدوا به ، والفتى الذي مارس الخط المختزل والكتابة بالآلة الكاتبة كان أنجح من غيره في الوظائف الكتابية فأسرع اقرانه لدرس الفنين لانهما نافعان ، لا لانهما ( موضة ) . وما من سيدة تصر على احتذاء الحذاء الواطىء العقب لانه أصلح صحياً للقدم بل تماشي« موضة » الاحذية مهما كان العقب عاليا والرأس مستدقا يضر القدم

ثانياً في الصنائع والفنون نستطيع أن نعلم الأصلح بسهولة ، لأن لنا قياساً في المقابلة يرشدنا الى الافضل ، كالمنفعة في فن الاختزال . وأما في الفنون الجميلة أو الملاهي أو نحو ذلك فلا قياس عندنا للتفضيل

فلا تقدر ان تقول للاوروبي ان الموسيقى الشرقية اجمل ، ولا للشرقي ان الموسيقى الغربية اجمل . ولا تقدر ان تقول لزيد ان لعب الشطرنج افضل من لعب البوكر — «وما على الذوق جدال»

٦ — في الفلسفات والعلوم النظرية كاللاهوت والسياسة والاداب ايضاً يقل فعل الاقتباس القويم عنه في العلوم التحقيقية

اولاً لأنه لا محك لصحة النظريات ما دامت النظريات مبنية على معلومات محدودة ، والنظرية أوسع استنتاجاً من هذه المعلومات . فقد تبدو حقائق جديدة تفضح فساد تلك النظريات . مثال ذلك كان الاولون يعتقدون ان الشمس تدور حول الارض لان المعلومات الظاهرة كانت تؤيد هذا الاعتقاد ، ولكن ظهور حقائق عديدة جديدة بيّن فساده . لهذا السبب ترى الآراء والنظريات متضاربة جداً في العقائد اللاهوتية والادبية والسياسية لأنها كلها مبنية على معلومات ناقصة ومتغيرة

أما العلوم الراهنة فمؤيدة بحقائق واقعية لا تقبل النقض ، كقياس سرعة الصوت ، ومقدار ثقل الهواء ، وتركب الماء من الاوكسجين والهيدروجين الخ لأن الفنون العملية تؤيد العلم . فهذه الحقائق شائعة في كل العالم الآن . تختلف الأمم في فلسفاتها ولا تختلف في الحقائق العلمية . للفلسفة والعقيدة وطن ، ولكن ليس للعلم وطن خاص

ثانياً ان الحقائق العلمية ليست تقاليد مقدّسة أو محترمة ، بل هي معلومات خاضعة للتحقيق العملي ، فتظل الحقيقة مقبولة حتى يبدو ما يُظهِر خطاءها . مثال ذلك كان يُعتقد أن الجوهر الفرد أصغر جزء في المادة ، الى أن أثبت علم الاشعاع Radio-Activity ان هذا الجوهر مؤلّف من الكترونات كهربائية ، اي كهارب

أما النظريات فتُعدّ تقليدية لا تخضع للتمحيص . فجميع النظريات اللاهوتية على تعددها مبنية على سلسلة نظريات ، مهما تقصيتها يتعذر عليك أن تجد لها أساساً في الحقائق الراهنة الثابتة كثبوت النواميس الطبيعية التي هي أساس العلوم العملية

ولهذا تتعدّد النظريات المتناقضة ، ويُعدُّ بعضها جحوداً للبعض الآخر . وأما الحقيقة العلمية فواحدة لا تختلف في مكان أو زمان ، وانما يمكن أن تنتقض بظهور حقيقة أصح منها أو مصحّحة لها

كذا اختلفت نظريات نيتش عن نظريات تولستوي ، ونظريات يسوع عن نظريات موسى ، ونظريات مالوك ( عدو الاشتراكية ) عن نظريات كارل ماركس ( ابي الاشتراكية ) الخ . ولكن حقائق باستور في التطعيم والتلقيح عمت العالم كله بلا تعديل . وكذلك اختراع الاخوان ريط للطيارة ملأ الارض ، ومنطاد زبلن الالماني يقتبسه الانكليز لاسطول هوائي تجاري . وتلغراف ماركوني غلّف الكرة الارضية

# ب – اصطدام المقتبسات

جميع ضروب التقاليد والعادات والاصطلاحات تنشأ من مراكز مختلفة وتنتشر انتشار الامواج الى كل الجهات ، فتلاقي بعضها بعضاً ، فمنها ما تتفق فتأتلف ، ومنها ما تتباين فتتصادم ، وهو الغالب . وينشأ عن تصادمها إما أن يلاشي الواحد الآخر ، أو أن يرده الى وجهة اخرى ، أو أن يغير حالتهُ

انتشر « القفطان » حتى عمَّ الشرق الادنى وطغى الى ما حوله ، فما لبث ان اصطدم « بالبنطلون والسترة » . وانتشر الطربوش التركي في جميع البلاد العثمانية فاصطدم « بالعبدة » العراقية والعجمية و« بالآووق » الالباني والطربوش المغربي ، ثم ما لبث ان اصطدم «بالبرنيطة» . والقفطان انهزم امام البنطلون والسترة اكثر من الطربوش امام البرنيطة ، لحسبان الطربوش شعار الوطنيــة ، ولأن البزّة التركية الرسمية للحكام والجيش ورجال الدين تكيفت حتى طاوعت الزي الاوروبي . اللغة التترية اصطدمت باللغتين الفارسية والعربية فتلقحت بهما وتولدت التركية . وكانت وثنية روما واثينا تنتشر مع فتوحات الدولة الرومانية العظمى في ابّان عزّها ومجدها، فاذابها تصطدم فجأة بنصرانية بولس الرسول المتوقدة فانهزمت أمامها بل انسحقت تحت قدميها . ومازالت أمواج النصرانية تنتشر بفعل حماسة المبشرين المختلفة حتى جعلت تصادم البوذية في امنع معاقلها

ثم انتشرت الديانة الاسلامية فهزمت امامها نصرانية مرقس، وقضت على عبادة اللّات والعزى الصنمية في جزيرة العرب ، واجتاحت تعاليم زورواسترا الفارسية

وانتشرت السيكارات التركية والمصرية حتى اصطدمت بالسيكار الهافاني ، ولا يزال الصدام بينهما سجالاً . وكذا كان الصدام بين النارجيلة العجمية والسيكارة ، فكانت هذه الراجحة الى الآن . ونهضت« البيبة » ( الغليون الانكليزي) وحاولت الجهاد فلم تنجح ، كما ان الغليون اللبناني او الشبق التركي لم ينجحا قبلها

النزاع بين التقاليد والعادات ضربان : صامت وصائت . الصامت ما حدث بين الانظمة نفسها من غير تدخُّل الارادات البشرية . والصائت ما حدث بادارة هذه الارادات تحت فعل المناقشة

## ١ — النزاع الصامت

النزاع الصامت يحدث في ثلاثة احوال : ١ً — بين وهمين متنازعين ٢ً — بين وهم وحقيقة مستحقة التفوُّق ٣ً — بين مستحقين

١ً — بين وهمين

الغالب في هذه الحالة أن يقع النزاع بين قديمين ، فيتغلب أحد المتنازعين ليس لأنه أفضل ، أو أصلح ، أو لأي مزية أخرى ، سوى انه أعظم هيبـــة في نفوس الجمهور وأشد تأثيراً .

مع ان العنصر الانجـلو سكسوني اصبح في مقدمة الامم الديموقراطية لا يزال يتعبد فخفخة النبل ( الاريستوقراطية ) ولا يزال يوقرها ، حتى أن الاميركان الذين خرجوا على انكلترا بسبب غطرسة نبلائها ، لا يزالون يتأثرون بهيبة الاريستوقراطية ويتوقون الى الحصول عليها

وبهذا الوهم أو بسلطان هذه الهيبة تستطيع القوة الحاكمة أحياناً أن تضبط الصولجان في يدها ، وأن تستأثر بالسيطرة ببذل قليل النفقة على القوة العسكرية .

ينسب تفوُّق اللغة الافرنسية على سائر اللغات الاوربية في الشرق في العصر الاخير للوهم السائد ان اللغة الافرنسية وحدها مخزن العلوم والاداب

يُقبل المتفرنجون على لبس البرنيطة لاعتقادهم أن البرنيطة أدل على المدنية ، وكذلك الاقبال على الاوتوموبيل ، للظن انه اكثر ابهة من العربة

٢ً — بين الوهم والاستحقاق

كثيراً ما يحدث أن يكون النزاع بين عادتين أو تقليدين ، احدهما يستحق التفوق ، ولكن للآخر هيبة ليست للاول

ويغلب ان يحدث هذا النزاع حين يصطدم الحديث بالقديم ، والراجح ان الحديث اصلح واكثر استحقاقاً من القديم

مثال ذلك : يتفوق السحر والتنجيم على الحقائق العلمية والفلكية عند العامة والجهلة لأن لها هيبة في نفوسهم ليست لهذه . وللمنجمين والسحرة قيمة في أعين هؤلاء الاغنياء ليست لأهل العلم . كذلك للزار والمنـدل والرقى والتعاويذ حرمة عندهم ليست للادوية والعلاجات المختلفة ولا للقواعد الصحية . وللقَدَر عندهم حرمةٌ لا تُبقي مكاناً للحَذَر

لما شاع استعمال الملعقة والسكين والشوكة بقي البدوي يقول « شوكة ربنا » (يعني اصابعه) أفضل . والدخيل في عادة الشوكة والسكين ينبذها حين يأكل وحده على مائدته وليس معه غرباء

بالطبع الاصلح يكون اكثر استحقاقاً ، والغالب انه يفوز ، ويتلاشى امامه الاقل صلاحية الذي كان متسيّداً بقوة الوهم والهيبة ، على ان تلاشيه لا يعد موتاً بسبب انتهاء العمر ، بل يعد انقلاباً امام الغالب . فالتقاليد والعادات وجميع الانظمة ليست كالافراد ذات اعمار محدودة ، بل هي كالانواع لا عمر معين لها ، وانما تنقرض اذا ظهر في سبيلها انواع أقوى منها تخنقها .

فما ماتت اللغات الهيروغليفة والاشورية والسريانية واللاتينية الخ الا لان اللغات الحديثة استغرقت الشعوب التي كانت تتكلم تلك . وبهذه السنّة يتلاشى الحكم الاريستوقراطي امام الحكم الديموقراطي ، ويضمحل التنجيم امام علم الفلك ، والسحر امام الكيمياء والطبيعيات ، والشعوذة أمام التنويم المغنطيسي الخ

هكذا ستلغى المقاييس والمكاييل والاوزان الكسرية امام اخواتها العشرية ، وسيسود المتر واللتر والجرام ، وتتلاشى الاقة والاوقية والرطل

٣ — بين الاستحقاقين

يغلب أن يقع هذا النزاع بين عادتين حديثتين ، فلا سلطة للوهم أو الهيبـة الموهومة فيهما ، لانهما جديدان ولم يكتسب أحدهما سلطة وهمية بعد . فالفيْصَلُ بينهما هو الاستحقاقُ . واكثرهما استحقاقاً أنجحهما على الغالب

على هذا النحو يتنازع السلكي واللاسلكي ، والطيارة والغواصـة ، في الحرب

توطئةً لتنازع نوعي الحرب البرية والبحرية، وتنازع الادارة المركزية واللامركزية والاشتراكية والنظام الافرادي الخ

## ٢ — العوامل التي تبت النزاع الصامت

اً — السلطة التي فوق المتنازعين رسمية أو غير رسمية

روي أن اعضاء بلدية في أحدى قرى جبل لبنان اختلفوا في مسألة بلدية اختلافاً شديداً افضى الى الخصام، واتفق أن احد مواطنيهم عاد من مهجره وهو ذو منزلة سامية عندهم. فطلب اليه احدهم ان يتداخل في الأمر كحكم، ووعده انهم يحترمون حكمه. فلبى الدعوة. ولما كان يفهم طبائع البشر، ويعلم أن المناقشة، ولا سيما في الشرق، لا تفضي الى نتيجة صالحة، لم ينتظر حتى يسمع مناقشة الجانبين، بل اعدّ قراراً في القضية، ودخل الى مجلسهم، وطلب الى اكثرهم عناداً أن يوقع على القرار، فما تردد الرجل أن وقع عليه. ثم انتدبهم واحداً، واحداً فوقعوا كلهم بلا استثناء. وهكذا انبتّ الخلاف. ولو سمع مناقشتهم لخرج وهو عدوٌّ كل واحد منهم

هكذا كانت كنيسة رومية تبت في القضايا الكنسية المختلفة بلا مناقشة، بل بسلطة البابا، فيما كانت مجامع الكنيسة الشرقية تتطاحن والغزاة على ابواب القسطنطينية. وبهذه السيطرة بقيت الكنيسة الكاثوليكية متوحدة، في حين أن الكنيسة البروتستانتية تفرّعت الى عدة كنائس لعدم وجود السلطة التي تبت في النزاعات

وبهذه السلطة استطاعت الدولة العثمانية أن تحكم عناصر عديدة متفرقة متباينة ٦٠٠ سنة، في حين أن عرب البادية كانوا ولا يزالون قبائل متفرقة متعادية، لعدم وجود سلطة عليا تبت النزاع بينهم بالقوة

تكون هيمنة السلطة العليا نافعة أو ضارّة، مرقية أو مؤخّرة، بحسب نسبة ارتقائها العقلي والادبي الى ارتقاء العناصر المتنازعة. فاذا كانت أرقى منها رفعت العناصر في سلم الارتقاء، كالسلطة الشبيهة بالمطلقة في المانيا بالرغم من وجود الشورى فيها، فقد رفعت الشعب الالماني درجات في سلم الارتقاء. ولكن اذا كانت احط ردّت الشعب الى الوراء في سبيل تقدمه، كما كان الامر في الدولة العثمانية التي كانت تهيمن على عناصر أرقى من حكومتها

ثم ان الهيمنة الفردية المطلقة، مهما كانت راقية وحكيمة، لا تصادف نجاحاً كبيراً بل كثيراً ما تفشل، لانها ترتكز على الاقناع، بل على الاستبداد، وهو ما تنفر منه النفوس

ولو كان حقاً . الناس في حالة تعقلهم وترويهم ينصاعون الى البرهان والحجة والتعليل والدليل اكثر مما ينصاعون الى امر المستبد حتى ولو كان صالحاً

لذلك فشل الامبراطور جوزف الثاني ملك النمسا حين جعل يقلب النظامات في بلاده رأساً على عقب بغيـة الاصلاح الحقيقي ، من غير أن يعتمد على رأي مجلس أو قرار هيئة ، بل استبد بالامر استبداداً مطلقاً ، فصادف مقاومات ومعاكسات ومناهضـات ممن آذتهم اصلاحاته من الاعيان والنبلاء واصحاب المصالح الخصوصية ، هدمت بنيان اصلاحه الى الحضيض اخيراً

والانكليز المحتلون في مصر لم يحسب لهم فضل اتوه من اصلاحات الري والمالية وغيرها ، وفشلوا اخيراً في استعمار البلاد ، لانهم استقلوا بالأمر واستبدوا فيه، في حين أن في البلاد عقولاً رجيحة كانت تراقب كل صغيرة في عملهم . فلربما نجحوا لو جعلوا الحـكم شورى

فالقوة المهيمنة ، اذا ارادت خيراً في الشعب ، لا ينبغي ان ترغم الشعب على قبول الاصلاح ، بل تمده بالتعليم والتهذيب وهو يصلح نفسه بنفسه

٢ — الاضطهاد ينجح احيانا بالبت ويفشل احيانا

الاضطهاد يبت احياناً في المسائل التي تحت النزاع . فديوان التفتيش في القرون الوسطى كان فصل الخطاب في النزاع بين الـكثلكة وسائر الاديان ، وجعل البباوية في رومية سيدة اوربا

والاضطهاد خوَّل لويس الرابـع عشر أن يقول ، « انا القانون » ، والسلطان عبد الحميد « انا ظل الله على الارض »

ولـكن لا ينجح الاضطهاد دائماً ، بل كثيراً ما يفضي أخيراً إلى عكس المقصود ، لانه يحول في الوقت نفسه دون العوامل الاخرى التي تعمل من جهات مختلفة حسب رغبة القوة المهيمنة . فاضطهاد السلطان عبد الحميد للحرية والتعليم والفنون أضعف القوى العاملة في انتاج الثروة ، فقلت واردات الدولة التي هي مصدر قوتها .

ثم أن الاضطهاد يحول دون الاقناع . فمن تسومه وتعاسفه لا تنال ثقته ، بل بالعكس يسوء ظناً بك . زد على ذلك أن الاضطهاد يجمع شمل المضطهدين فيأتلفون للمقاومة .

اتحاد الاقباط مع المسلمين في مصر وسوريا شاهد حيٌّ على هذه الحقيقة . لما رام الاتحاديون ان يترّكوا سائر العناصر العثمانية ( أي يجعلوهم اتراكاً باللغة) بالقوة والعنف فشلوا . ولـكن لو حاول السلاطين هذا التتريك بالتوءدة وبلا عنف لنجحوا مع الزمان ، كما استعرب السوريون احفاد الفينيقيين من قبل

كثيراً ما يقضي الاضطهاد الى عكس النتيجة . فلما كانت الكثلكة تضطهد البروتستانتية كانت النتيجة انتشار هذه في جميع البلاد المتمدنة

الاضطهاد يفضي الى عناد المضطهد . وهذا هو سر تهور الشهداء الى حد تضحية أنفسهم في سبيل عقيدتهم .

ليس الاستشهاد دائماً برهاناً على الحق او صحة العقيدة . وانما هو رد فعل الجمهور على الافراد . فالذين يكونون في رأس الموجة في التهوُّس والتحمس الغوغائي هم الذين يصطدمون بصخور الشاطيء ، ويرتدون متكسرين كتكسُّر الامواج على الصخور

٣ — الاختبار الشخصي يبت في مسائل الخلاف المحسوسة .

حُبس غاليلو لانه قال أن الارض تدور ، لا الشمس . ولكن المرصد الفلكي اثبت بالارصاد الدقيقة ، وبصدق نبوآته عن الكسوف والخسوف ، واقتران الاجرام ، دوران الارض وغيرها من الاجرام ، ومدات دوراتها بالضبط . واستعمال النور الكهربائي كان فصل الخطاب في تفوقه على نور البترول والغاز . وتقدُّم الحكومات الديموقراطية ، وتفوُّقها على الحكومات الاستبدادية قطعت جهيزته قول كل خطيب

تحول النزاع الصامت الى صائت

اذا احتكت سلطتان فتنازعتا تلجآن الى المناقشة والمحاجة كسلطتي الدين والسياسة . والقوة المهيمنة المضطهدة قد تلجأ أحياناً الى البرهان لتأييد قوتها .

لهذا كان السلطان عبد الحميد يحاول اخيراً أن يشتري اقلام الصحف في خارج بلاده لكي تؤيده ، حتى انه حاول ان يستأجر قلم محرر نيويورك هرلد . وقيل انه حاول حينئذ ان يرشي المقطم ، ولكن سبق السيف العذل ، وهبت الثورة قبل أن ينجح

حتى في مقابلة أمرين تحت الاختبار يُلجأ أحياناً الى خبيرين ليحكموا في أيهما أصلح أو أصح

## ٢ — النزاع الصائت — المناقشة

النزاع الصائت هو الذي لا يقتصر فيه النزاع على ما بين الانظمة التقليدية او

العرفية بحيث يبت فيه التفاضلُ او السلطة القهرية ، بل يمتد الى الاشخاص او الفئات المتحيزة الى تلك الانظمة ، فتتناقش وتتجادل ويغلب أن يتوقف البتُّ فيها على اناس ثقة في الرأي والحكم ، يذعن لهم الفريقان المتنازعان

اذا اختلف الطلبة في مسألة استأنفوا القضية الى استاذهم الاختصاصي . واذا اختلف الكهربائيون في مسألة استفتوا اديسون ، واللاسلكيون يستفتون ماركوني . كذا كان يستفتى البابا في العقائد الدينية المسيحية

١ً — كثيراً ما يطول أمد النزاع الصامت ولا يقصر اجله الاّ النزاع الصائت

بقي النزاع بين الحرية الشخصية والاسترقاق قروناً ، وتلك لا تستطيع قهر هذا قهراً تاماً ، حتى قام في القرن الماضي اناس يصخبون ويصرخون بظلم الاسترقاق وفظاعته . فانفتح باب المناقشة . و بالمناقشة انبتّ الخلاف ، ونال العتقُ الحقّ في القضية

كذلك انقضت قرون والنزاع بين المرأة والرجل على الحقوق الفردية صامتاً ، والبت فيه متروكاً لحكم الطبيعة ، والطبيعة بطيئة الحكم . وفي الجيل الماضي انفتح باب البحث في هذا الموضوع ، ولا تزال المناقشة فيه حادّة منتشرة حتى عمت المعمور كله تقريباً . وقد نالت المرأة كثيراً من الاحكام الموافقة لمصلحتها في هذا النزاع

كذلك بقيت السلطة المطلقة المستمدة من الله ، والسلطة الشعبية الدستورية موضوع التنازع الصامت أجيالاً طويلة . وانما في القرون الاخيرة كانت صواعق الظلم تحرك النفوس الحرّة ، فتصيح في الدفاع عن السلطة الشعبية ، فيحدث نزاع صائت ينتهي بفوز السلطة الشعبية قليلاً . وما زال هذا النزاع يخمد حيناً ، ويستعر آخر ، الى أن فازت السلطة الشعبية فوزاً مطلقاً بسقوط « ابن السماء » الصيني ، « ونائب الله » الرومي ، و « وظل الله » العثماني

٢ً — الحق لا يهاب مناقشة

يُفزَع من النزاع الصائت الى النزاع الصامت ، لأن هذا طويل الامد ، والاول سريع البت في نقطة الخلاف . فالصمت عن المناقشة في القضية امهالٌ

للبُطل أن يعيش . ولذلك ترى صاحب البُطل يبذل جهده في خنق أصوات المناقشة والجدل لئلا تهب رياحها وعواصفها ، وتهدم جدران قضيته المبنية على رمل البطل

قضت البابوية مدة في القرون الوسطى تمنع عامة الشعب الكاثوليكي عن مطالعة التوراة والانجيل لان فيهما ما ينافي نظام « الغفران » ونحوه . بل حرمت نشر الكتب العلمية التي تعلم بدوران الارض ونحو ذلك . وقد اضطهدت غاليلو العالم الايطالي وروجر بايكون الفيلسوف الانكليزي ، لان كتاباتهما كانت تناقض بعض التعاليم البابوية . ومثل ذلك كان يحدث في روسيا

وكان السلطان عبد الحميد مضرب مثل في خنق حرية القول والخطابة والصحافة والطباعة ، لانه كان يخشى على حكمه الاستبدادي من الروح التي يثيرها صوت الحرية دفاعا عن الحكم الدستوري

وكذلك كان الامر في آخر الحكم الملكي في فرنسا . ولطالما حاولت ملوك المانيا ان تصد فيضان الديموقراطية بسد قانون الاجتماعات والجمعيات

وكذا حاولت السلطة الانكليزية ان تفعل في مصر في العهد الاخير ، حين لم يعد ينفع التضييق على الحرية بعد اطلاق السراح لها مدة طويلة ، ولا سيما لعهد اللورد كرومر

جانب الحق بالعكس ، لا يخاف المناقشة ، بل يرغب فيها ، لأنه ينال تأييداً بها . ولذلك يمكنك أن تقول — ويغلب أن يكون قولك صائباً — أن من يرغب في عرض قضية على الرأي العام ينال أرجحية الحكم . ومن يحاول ستر القضية يقع تحت الشبهة

واذا كان الضلال والخطاء والبطل ونحو هذه المساويء لا تثبت أمام المناقشة الحرّة حقّ انا أن نجعل حرية الكلام وحرية الاجتماع وحرية الصحافة والطباعة الوسائل الامينة للاقناع بالحق وللدلالة عليه . وكل قوة تخنق هذه الحرية تُعدّ مجرمة ، ويحق للشعب الذي تُخنق حريته أن يخرج على هذه القوة ، ويتمرد عليها ويقهرها

فالقوة الحاكمة لا تُعَدُّ عادلة الاحكام الاّ اذا كانت تقدّس هذه الحرية التي هي أساس الرأي العام . وبتقديسها الرأي العام وحرية الشعب يحق لها أن تعاقب وتجرّم ، والاّ فأحكامها جائرة ظالمة . ويحق للشعب أن يقلبها ويعاقب القائمين بأمرها .

اذاً ، أساس شرعية كل سلطة اطلاقها الحرية للجمهور الخاضع لها . وحيث انتفت هذه الحرية أصبحت السلطة غير شرعية

٣ — المناقشة تستلزم الاحتكاك العقلي ، والا فلا فائدة منها ولا شأن لها

فكل ما يحول دون هذا الاحتكاك يعد معتدياً على حرية المناقشة . وكل ما يسهل هذا الاحتكاك يعد خادماً لهذه الحرية . لذلك يُعَدُّ هـذا العصر أخدَمَ العصور للحرية لكثرة وسائل الاحتكاك العقلي بواسطة الصحافة والتلغراف والتلفون وسهولة الانتقال والنقل ورخصهما، وتقدم الطباعة الذي اكثر الكتب والمكاتب الخ. فمن يحاول أن يمنع احتكاك الافكار الآن يتحمل مشقة عظمى وهيهات أن ينجح

كثرة هذه الوسائل وسهولتها نقلتا المناقشة من دوائر المسائل الخصوصية والعيلية الى ما هو أوسع منها الى دوائر المسائل القومية والدولية . ولم تعد المناقشات تقتصر على المبادىء الرئيسية من سياسية ونحوها ، بل تناولت جميع المسائل الاجتماعية حتى أبسطها. فترى أنه ما من أمر يخص الحياة البشرية ، مهما كان قليل الشأن ، الاَّ وقع في دائرة المناقشة والمنازعة تحقيقاً للوجه الافضل فيه .

ولهـذا السبب ترى أن نزاعات الانظمة الاجتماعية والمناقشات فيها اكثر ازهاراً واثماراً من قبل . ولهذا السبب عينه ترى أيضاً أن عصرنا عصر ثوري دون سائر العصور السابقة ، مملوء من حرائق النزاعات الكثيرة الدخان ، ولكنها ممحصة للحقائق ، يخرج ذهب الاصلاح من تبرها نقياً خالصاً . فالعصر عصر تعقُّل ، عصر رأي عام ، ولم يبق عصر الانصياع للتقاليد القديمة

« القال والقيل » أي كثرة الكلام في المجالس الخصوصية والمجتمعات العمومية انما هو ضرب من المناقشة في جانبي الحق والبطل . فاذا كان كثيرٌ منه يذهب سدى ، فبعضه عظيم النفع للمجتمع ، لأنه يمحص القضايا التي يختلف عليها الناس ويقربهم الى جانب الحق .

والدليل على ذلك أن كل فرد يعرف جيداً أنه كلما تقدم سناً غيَّر فكرهُ او رأيهُ في بعض الامور ، وقد يغير فكره في الامر الواحد مرات . ومعنى ذلك أنه كان غلطاناً ، فأحس بغلطه ، فعدَّل رأيه . والغالب أن يكون التعديل لجهة الصواب . ولهـذا يعد الشيوخ اكثر حكمة من الشبان ، ولو لم يتيسر لهم « القال والقيل » لبقوا في ضلالهم يعمهون ، ولبقوا عبيد التقاليد

٤ً — تكون المناقشة مثمرة متى كان موضوعها الواسطة لا الغاية

قلما تنتهي المناقشة بنتيجة اذا كانت في دائرة العواطف والغرائز . فيهات أن يبتّ حكم في أي الموسيقيين أفضل الشرقية اوم الغربية ؟ أي الاديان أصح ؟ أي اللغات أفضل لان تكون لغة دولية ؟ أي الازياء أجمل ؟ الخ

تكون المناقشة مثمرة اذا كان موضوع الخلاف الوسائل لا الغايات التي تؤدي اليها تلك الوسائل . فمتى اتفق الناس على الغاية أمكن اتفاقهم على الوسائل المؤدّية لها ، لان الغايات مبنية على العواطف غالباً ، فيهات أن يتساهلوا بها ، فلا يقبلون مناقشة فيها . وأما الوسائل فلا تهمهم كثيراً . أيُّ الوسائل التي تؤدي الى الغاية تُقبل . فلذلك يتناقشون في الوسائل طمعاً بالاتفاق ، و يندر أن يتناقشوا بالغايات لانهم مصرون عليها

تحرير مصر من الاحتلال الانكليزي كان أمنية كل مصري . وما من مصري يقبل مناقشة فيه ، ولو قلت له ان هؤلاء الانكليز خدمة النبي ( صلعم ) لاصرّ على القول : « لا أريدهم » . في هذه الغاية لا يقبل مناقشة . ولكن يناقشك في كيفية اخراج الانكليز من مصر ، ويمكن أن يغير رأيه ويطاوع رأيك اذا ظهر له صائباً . لذلك كان موضوع مناقشة الكتاب والجرائد والساسة في مصر في سني الاحتلال الاربعين « كيف يمكن ان تخرج الانكليز من مصر » لا « هل الافضل أن يخرجوا أو أن يبقوا »

لا تقدر أن تناقش الشرقي في « أن بنتك ليست لك بل لمن يتزوجها ، فيجب أن تربيها كزوجة » لانه لا يقدر أن يحسّ أن بنته ليست له ، تزوجت او لم تتزوج . وانما تقدر أن تناقشه « في أن التعليم اكثر اسعاداً لبنتك من الجهل » لان سعادة بنته هي الغاية التي لا يقبل مناقشة فيها ، وانما يقبل المناقشة في وسائل سعادتها .

يمكنك أن تناقش شخصاً في كيفية عبادته ، ولكن حاذر أن تناقشه في عقيدته . لا تناقش أباً في ذكاء ابنه ، ولا بأس أن تناقشه في كيفية تربيته

٥ً — المناقشة في الغاية قد تحرك عديم الاكتراث للمناقشة في الواسطة

قد يكون بعض الناس على الحياد في بعض القضايا التي هي موضوع خلاف

عند آخرين فلا يهمهم الامر ما دام خارجاً عن دائرة عواطفهم . فاذا كان أحد الفريقين المتناقشين يطرق موضوع الغاية في مناقشته بموضوع الواسطة — أي يضرب على وتر العواطف — يوقظ المحايدين ويخرجهم من دائرة حيادهم . فاذا قلت للاب « يجب أن تعلم بنتك حتى تصلح مربية للاولاد » فقد لا يهتم ولا تتحرك عواطفه لمناقشتك . ولكن اذا قلت له : « هل تريد أن تتزوج بنتك بربريًا » يتحرك غضبه قائلاً : « لا . كلاً . خسئ . لا أزوجها الاّ لوجيه نبيل » . فتقول له حينئذ : « اذاً ، علمها حتى يرضى بها النبيل الوجيه زوجة » . ففي السؤال الأول ضربت على عاطفة شرفه وسعادة بنته ، فاستدرجته الى البحث معك في واسطة الحرص على هذا الشرف

هكذا تستثير من لا يهتم بالبحث في الواسطة الناجعة لتحرير وطنه اذا قلت له : لا نستحق الاستقلال ما دمنا منشقين او كسالى او متأخرين . فيهب لمناقشتك ، وحينئذٍ تستدرجه للبحث في كيفية الحصول على الاستقلال

٦ — المواضيع العاطفية تهيج البحر الاجتماعي

انزال المواضيع العاطفية الى ميدان النزاع والمناقشة يهيج لجج البحر الاجتماعي اكثر جداً من المناقشة في المواضيع الاخرى . يهيج أمواجه حتى تلطم الخلجان والاجوان الهادئة ، يتحرك حينئذ من لم يتحرك قط لأمر ، ويهب من لم يستيقظ لحادث

هذا هو سر تأثير رفع العلم الاسلامي للجهاد العام . وهذا هو سر نجاح ملك اليونان في تعبئة جيشه حين طاف بمركبته وأيقونة المصلوب على صدره . وهذا هو سر نجاح الاكتتاب لسكة حديد الحجاز حين استصرخ السلطان عبد الحميد العالم الاسلامي لانشاء هذه السكة تسهيلاً للحج

لذلك اذا شاء الحكام او القادة صرف أذهان الجمهور عن قضيةٍ البحث فيها خطرٌ على مصلحتهم ، اختلقوا له قضية عاطفية يلتهي بالمناقشة فيها عن تلك

اذا كان جانبا موضوع المناقشة عاطفيين يحتدم الجدال والنزاع الى حد القتال ، وهيهات أن يتوصّل الفريقان الى نتيجة مرضية لكليهما ، لان أساس النزاع غير مشترك بين الطرفين ، بل كلٌّ منهما مستقلٌّ عن الآخر في إحساسه ، فلا يمكن أن يتفق إحساسهما لنقص البرهان والحجة في الاحساس والذوق

اذا كان المحرك في المناقشة عند أحد الجانبين المتنازعين عاطفياً (أي أن أساس قضيته يمس عواطفه)، وكان المحرك عند الجانب الآخر خلاف ذلك، كان الاول يعتمد في جداله على السباب والقدح، والآخر على البرهان والحجة. ويغلب أن يكون الثاني أملك لخلقه من الآخر، وأقل تطرفاً منه.

متى رأيت أحد المتناقشين نزقاً يقدح ويقـذف فرجح أنه يجعل موضوع المناقشة غائياً عاطفياً، لا وسيلياً برهانياً

### ٤ — حالات النزاع الصائت

يمكن حصر النزاع الصائت في ٣ حالات:

﴿ الحالة الاولى ﴾ حين يكون أحد الجانبين عقيدة او مذهباً او مبدءاً مقرراً، والآخر رأياً جديداً. وذاك يقاوم هذا، ولكن هذا لا يقاوم ذاك

لما نشر داروين نظرياته في تنوع الاحياء والانتخاب الطبيعي الخ لم يصرّ على صحتها، وحاول ان يثبت انها لا تخالف قول اللاهوت في خلق الله للعالم. وغاليلو حاول ان يوفق تليسكوبه مع الكتاب المقدس. والمتزلفون للسلطان عبد الحميد كانوا يعزون الفساد في الدولة الى من حوله ويبرئونه منه، فكانوا يطلبون اصلاحاً مع بقاء حكمه المطلق

لما أدخل بولس المسيحية الى دائرة قومه الوثنيين قال لهم: « هذا هو الاله المجهول الذي تعبدونه » ولم يقل لهم ان الههم ذاك باطل، وان هذا الاله حق

هكذا كل نظام جديد يدخل مسالماً، ولا يبتغي محق النظام السابق، بل اثبات قدمه أولاً، وبعد ذلك ينتهز الفرصة لمناهضة النظام السابق اذا تسنت له

ولهذا السبب يبذل النظام القديم جهده في المقاومة. ولطالما قاوم اللاهوت العلم مخافة أن يناهضه

﴿ الحالة الثانية ﴾ يكون كلٌّ من الجانبين مقاوماً للآخر بشدة. وذلك حين يكون الجديد واثقاً أنه يستطيع أن يغلب القديم، وانه لا يطيق أن يعيش معه، ولا يمكن أن يتفق معه

على ذلك قام هكسلي بعد داروين يريد ان يخضع اللاهوت لنظرية تنوع الاحياء والعدول عن نظرية خلق كل نوع وحده ، وللنظريات الاخرى أيضاً . وقام لابلاس وفلامريون وغيرهما يبتغون ان يطبقوا سفر التكوين على العلم ، لا العلم على سفر التكوين

والعلم قائم على قدم وساق لمناهضة جميع الخرافات والنظريات القديمة بلا مداراة ولا تخوف

﴿ الحالة الثالثة ﴾ ان القديم لا يناهض الجديد ، ولكن الجديد يناهضه

لقد أصبح العلم راسخ القدم في هذا العصر ، لأنه مبنيٌّ على الحقائق المحسوسة الملموسة ، فلا يقدر اللاهوتي ، ولا الخرافي أن يجحد أرصاد فلامريون ، ولا ميكروبات باستور ، ولا كريات متشنيكوف البيضاء التي تلتهم الميكروبات المرضية ، ولا كهرباء اديسون .

لذلك صار اللاهوتي يحاول أن يطبق نصوص الوحي على النواميس الطبيعية التي هي صنعة صاحب الوحي نفسه . فهذه النواميس هي كتاب الله غير المزّيف ، فيجب أن تطبّق الكتب المنزلة بحسبهِ

ترى مما تقدم أن النزاع متطوّر في هذه الحالات الثلاث ، وكل حالة تمهيد للتي بعدها ، وهو يتمشى على هذه السنّة في جميع القضايا الاجتماعية العمومية ، كما هو متمشٍّ على القضية الرئيسية التي بين اللاهوت والعلم . وقد أثمر هذا النزاع حتى الآن تقرير المبادىء الرئيسية في العلم والشريعة واللاهوت

يؤخذ من كل ما تقدم أن نواميس الاقتباس القويم وحالاته تخالف نواميس الاقتباس السابقين وحالاتهما في كثير من الامور ، وأحياناً تناقضها على خط مستقيم

## ج – فض النزاع

**١ — استمرار النزاع**

قد تطول مدة النزاع كثيراً ، بل قد يتراءى لك انها قد لا تنتهي ، لسببين :

اولاً ، لأن الناس المتنازعين مختلفو الطباع كثيراً ، فيصعب اتفاقهم على نظام ، كاختلاف البدو والحضر في بلاد العرب وجوارها . فالبدو قضوا قروناً لا يعدلون عن التبدّي والغزو، والحضر لا يستطيعون أن يعيشوا الاّ متحضرين يسترزقون من العمل

الخلاف بين الشيعيين والسنيين في بعض المذاهب الاسلامية قديم العهد وسيطول عهده ، لانه ليس في ظواهر الحال ما يدل على امكان اتفاق الفريقين على مذاهب مشتركة بينهما

الخلاف بين الطوائف الدينية الرئيسية الثلاث في شرائع الزواج والمصاهرة قديم ، ولا ينتظر أن تجعل له سنّة واحدة ، وأن يباح به تبادل المصاهرة بين الطوائف الثلاث

وثانياً ، اذا كان الخلاف بين الوهم والحقيقة الخفية التي لا يُعتَرف بها الاّ بتعلمها. الحقيقة الخفية كقولك الارض مستديرة تدور ، وأنت تراها مسطحة ثابتة، وهو الوهم. فكل جيل جديد يناقش الجيل القديم في هذه الحقيقة حتى يتفهمها ويقتنع فيها بالبراهين الدامغة . فالمناقشة في مثل هذا الموضوع حيّة الى الابد

كذلك الوهم ان الماء الصافي صحي ، والحقيقة انه لا يعد صحياً الاّ إذا غُلي وتلفت فيه الميكروبات القتالة، أو اذا رشح بمرشح باستور أو مرشح آخر مثله . فكل جيل جديد يناقش في هذه القضية لان الفرد لا يصدق الاّ حواسه اولاً . ولا يقدر أن يكذبها الاّ ببراهين قاطعة . فليس الغرض من التعليم البت في الحقائق بل برهنتها

٢ — انفضاض النزاع

أما النزاعات التي يمكن فضها فتنفض في واحدة من ثلاث حالات :

﴿ الحالة الاولى، الافحام أو الاقتناع ﴾ أي أن يُفحم أحد الجانبين الآخر، او أن يقتنع الآخر . ففي هذه الحال يقضي النظام الواحد على النظام الآخر قضاء مبرماً

مثال ذلك حلول البيت محل الخيمة في السكن ، وحلول البنطلون والسترة محل القفطان ، وقيام الساعة مقام المزولة ، والقطار الحديدي مقام القافلة ، والمائدة الغربية مقام المنسف العربي عند امراء الشرق الخ ، وحلول « اعدْ في مكان يعاد » لاستحسان الخطبة أو الغناء ، وحلول « مارسي » محل « اشكرك » في مصر ، ثم عودة هذه مكان تلك الآن في عهد النهضة الوطنية

﴿ الحالة الثانيــة ، وجود وسط يقف فيه الجانبان معاً ﴾ فهو شبيه باندماج

الجماعتين المتحاربتين . مثال ذلك اتفاق الطب الصحيح والتدجيل على شفاء الهستيريا وبعض الامراض العصبية بالايهام ، كالزار والرقية والتعويذة ونحوها ، علاجاً لمن أصيب بكم وهمي أو شلل وهمي أو نحو ذلك . التناظر بين العلوم التعليمية والكلامية و بين الفنون أفضى الى نشوء العلم التحقيقي .

الحبرة المصرية الآن هي وسط بين الحجاب القديم والفسطان الاوربي الحديث . فهي فسطان بشكل حبرة ، أو حبرة بزي فستان

﴿ الحالة الثالثة ، المشاطرة ﴾ أي ان كلاً من الفريقين يختص نفسه ببيئة يبقى فيها

نظام الملاحة البخاري والشراعي متنازعان ، ولكنهما يتحايدان الصدام ما امكن. فالبواخر تمخر البحار العظيمة ، والسفن الشراعية تمخر عند الشواطيء وفي الانهر . كذلك الأمنيبوس لايزال في باريس، كما هو في مصر، يمشي الى جنب الترام الكهربائي في الشوارع التي ليس فيها ترام ولا يزال الحمار يناظر العربة، فحيث الطريق وعر فالحمار والبغل والجواد تفاخر العربة والاوتوموبيل والسكة الحديدية . كذلك البترول لا يزال يناظر الكهرباء في المطبخ وغيره . ولا يزال قلم الرصاص ينازع القلم السيال . والتصوير الزيتي ينازع الفوتوغرافيا

والسياسة والدين بعد أن تصادما طويلاً تراضيا على أن يشتغل الدين بالروح والسياسة بالجسد .

٣ً — التسوية لفض النزاع

هناك ضروبٌ من النزاع لا تنتهي بقضـاء أحد الفريقين على الآخر ، ولا باندماج الجانبين ، ولا باستقلال كل من الجانبين ببيئة خاصـة . اذاً لا تبقى ثمت وسيلة لفض النزاع الاّ التسوية بين الفريقين . والتسوية تستلزم أن يتنازل كل منهما عن شيء من مطالبه للآخر . وهي أقرب الوسائل . على ان التسوية على هذا النحو لا تتم الاّ تحت سلطة آمرة ، والاّ افترق الفريقان كلٌّ منهما الى بيئة خاصة ، فكان ثمت انشقاق في المجتمع وهو غير المراد

فالتسوية لا تكون بين البخار والشراع لانّ لكلٍّ منهما بيئة خاصة بطبيعة الحال ولا ضرر من انفصالهما . ولا تكون بين الفستان والحبرة ، أو بين البنطلون والقفطان ، ولا بين البيت والخيمة ، اذ لا سلطة آمرة في ذلك

ومن امثلة السلطة الآمرة الحكومة أو الكنيسة أو الخلافة الاسلامية ، والشركة القانونية ، والرهبنة والماسونية ، وغير ذلك من الهيئات النظامية التي تتقلد سلطة بقدر مالها من القوة لتنفيذ هذه الاوامر ، وبقدر ما عند جماعتها من الطاعة لها

في هذه الجماعات المرتبطة بسلطانها ارتباطاً وثيقاً يحتدم النزاع ، لان الاقلية ملزمة أن تخضع للحكم الذي لا يوافقها ، بل يوافق الاكثرية فقط ، فتبذل جهدها في المنازعة حتى تنال من مطالبها ما استطاعت . هذا هو سر استعار اللهيب في المناقشات السياسية ، مناقشات للحياة أو الموت أحياناً

فبعد النزاع بين الثوب الافرنجي والثوب العربي للرجال بقي من الثوب العربي الطربوش . وفي قضية حقوق السيدات بالانتخاب سويت المسألة بمنح النساء حق التصويت، لا حق الترشيح، في بعض البلاد . وفي بلاد اخرى منحت السيدات حق الانتخاب في مجالس التربية والتعليم فقط

فاذا كان النزاع لا يحتدم في القضايا التي ليست تحت سلطة أمرية فلأن الاقلية التي تخشى ثقل وطأة الاكثرية تنفصل عنها وتستقل بنفسها

لهذا يعد نظام اللامركزية توسعاً في التسوية ، لأن كلّ مركز او ولاية يستقل في شؤون قد تختلف فيها مع الولايات الاخرى

لا يخفى ان التسوية ليس معناها الانصاف والعدل بل الوفاق ، وانما هي أضمن الوسائل للتقرب من العدل والانصاف . ولهذا تعد في مقدمة ضروب فض النزاع ، وخير ما توصل اليه الارتقاء الاجتماعي . والامم الارقى تمدناً واخلاقاً واجتماعيةً تكون اكثر التجاء الى التسوية في فض النزاعات الاجتماعية . والجماعات المنحطة يكون مدى المناقشة للتسوية فيها قصيراً . فاذا وقع خلاف بين عناصرها فلا تلبث أن تعمد الى القتال ، الاّ اذا كان ثمت نزاعٌ أوسع دائرةً يشملها مع جماعة أو جماعات اخرى فيضطرها الى الالتآم ريثما ينفض النزاع الاشمل والاوسع فتعود الى نزاعها الاخص

النظام الديموقراطي والمجالس النيابية انما هي مصنع التسويات الاجتماعية . وقد لا تكون النزاعات منصفة ، بل قد تكون جائرة لاحد الفريقين ، واذا لم تكن مبنية على القصد العادل ، أو لا تكون منطبقة على المعقول الممكن ، كانت سبب حقد وغل واثّار . فلذلك مهما كانت التسوية فلا تكون نهاية للنزاع ، بل تعد هدنة وفترة للاستعداد لاستئناف النزاع حالما يقدح الاحتكاك شرراً جديداً

في اثناء التسوية يكون النزاع بين المصلح والمحرض محتدماً . ذاك يقول : « التساهل التساهل » وهذا يقول : « الحق الحق » ، المحرّض زعيم ينادي بالمبادىء ، والمصلح أو بالاحرى المصالح ، سياسيّ ينادي بالاعتدال . المحرّض يطلب تغيير الآراء والنظريات والعقائد ، والمصلح قاضٍ يبذل جهده في أن يحكم بمبدإ سياسي عملي لا يستحيل تنفيذه

المصلح يبذل جهده في أن يؤيد ارادة المجتمع ( أي متوسط اراداته ، أو زبدة اراداته ) لا ارادة حزب خاص . فهو مضطر أن يراعي جميع وجوه القضية وظروفها وأحوالها ، فيتساهل في امور و يضحي بامور لاجل امور اخرى ، و يتنازل عن مطالب حرصاً على مطالب اخرى أحق منها بغية أن يقرِّب الاقلية الى الاكثرية ، وهذه الى تلك حرصاً على سلامة المجموع

أما المحرّض صاحب المبادىء الذي أضرم نار النزاع ، والذي يظل يضرم النار الى أن تمحص القضية ، و يستمر على الجهاد حتى النصر ، فيمقت المصلح ، لانه يشذّب المبادىء و يثلِّم الحقوق ، و يتهمه بأنه هوائي متحيز متشيّع متقلقل الرأي

لذلك يضطر السياسي المصلح ، او المصالح ، ان يهيء التسوية بشكل أنيق مقبول للعقل ، تأنس له النفوس والاذواق والمصالح . وفي هذه الحالة يتّهم المحرّض صاحب المبادىء بأنه متطرِّف متعصب خيالي .

ولكن لولا هذا المحرّض « المتطرّف المتعصب الخيالي » ما وُجِد ذلك السياسي المصالح ، ولا استطاع أن يوفّق بين الفريقين . فالمحرض كالمنخاس الذي ينشط العقل الاجتماعي للحركة والمناقشة توصلاً الى التسوية .

لا تقدر ان نعين مقدار ما تنطبقه تسوية المسألة المصرية مع الانكليز على هذه القاعدة . ولا نقدر أن نعين المحرض ذا المبادىء ولا المصالح المُسوّي . فالغالب ان الوفد المصري المحرّض ، والوزارة المصالح . وقد جمع دولة سعد باشا زغلول في نفسه الشخصين معاً في الآخر . وكان في اكثر أحيانه المحرض

البلاد الراقية تتيسر فيها التسوية اكثر من غيرها لتغليب العقل على العواطف . ولهذا تبقى غالباً ساحة مناقشات ، اذ لا تسوية من غير مناقشات حادّة تكفل دنو التسوية من الصواب ، والاّ فلا يطول عهد التسوية

في كل تسوية يكون جانب الاقوى أرجح بقدر قوته . فلذلك كيفما سُوّيت المسألة المصرية بين المصريين والانكليز ، كان هؤلاء غابنين واولئك مغبونين

## د - الرأي العام

الرأي الاجتماعي العام هو الثمرة الناضجة لأعلى درجة من درجات المحاكاة : أي الاقتباس القويم . وعلى نضوجه تتوقف التسوية الفضلى في النزاع المستعصي الذي لا ينفضّ بغيرها . والتسوية أرقى درجة الى العدل الاجتماعي

ليس المراد من الرأي العام أن يكون الرأي الذي أجمعت عليه الجماعة كلها ، بل الرأي الذي اتفق عليه جانب الاكثرية من الجماعة أو اشترك فيه كثيرون . ولهذا يُفضَّل ان يسمى الرأي الاجتماعي . أما الرأي العام المطلق فغير موجود ، بل هو نظرية مرغوبة ، حتى الاكثرية لا يكون رأيها واحداً ، بل فيها فئات مختلفة الآراء اتفقت على رأي متوسط بواسطة التسوية . فاذا أطلق الرأي العام على الاكثرية كان توسعاً في التسمية ، واذا اطلق على الجماعة كان تساهلاً

قد تقول ان الناس كلهم متفقون في القضايا الرياضية ونحوها كقولك ٢ + ٢ = ٤ ونحو ذلك . فنقول : ليست هذه الحقيقة الرياضية وامثالها رأياً ، بل هي بدائة أو نتائج بدائه . فلا رأي للانسان فيها وانما يقبلها لانها اجزاء من عقليته

وأما معنى « الرأي » فيستلزم معنى اختلاف الناس فيه . ولهذا لا يكون مطلقاً وإلا فلا يكون رأياً ، ولا يحدث فيه خلاف ، بل يكون قراراً

### ١ - تنازع الاراء للعقل الواحد

واذا كان الرأي العام ثمرة الاقتباس القويم الأعلى ، وزبدة كل احتكاك ونزاع ومناقشة ، وجب أن تسبقه توطئآت له ، فلا ينشأ طفرةً . يجب أن يكون الرأي قد نضج في يقين الافراد . واذا كان وجها القضية لم يزالا يتنازعان عقل الفرد ، فجنين الرأي العام لم يتكوّن بعد . ومتى أسقط الفرد وجهاً ، وأثبت الوجه الآخر في عقله

انتقل التنازع من عقله الى ما بينه و بين فرد آخر . فاما أن يستميل احدهما الآخر فيحمله على التسليم برأيه ، أو أن يتنافرا في الرأي فيفترقان كل في جهة أخرى

على هذا النحو يحتك الافراد بعضهم ببعض في القضية ، فيتجاذب المتفقون ، و يتدافع المختلفون . وهكذا يتغربل الافراد في غربال القضية ، فينفصل ذوو الوجه الواحد عن ذوي الوجه الآخر ، و يتعين الحزبان ، او الاحزاب اذا تعددت الآراء

٢ً — نشوء الحزب والزعيم

قد يكون كثيرون من الافراد محايدين ، او ان اذهانهم خالية من القضية التي تحت النظر او المعروضة للمناقشة . فكل ذي رأي فيها يحاول أن يستثير ذهن المحايد لكي يستميله الى رأيه . وقد تكون الجماعة كلها غافلة عن القضية وانما يظهر فيها محرّض أو محرّضون يستثيرون الجماعة لها . فالمحرض أو صاحب الدعوة يتحول الى زعيم متى تكوّن الحزب

نشوء الحزب معناه ان الرأي تكوّن في يقين أفراده — ذلك هو رأيهم العام أو بالاحرى الرأي الاجتماعي . من ثم تكون مهمة كل حزب ، او مهمة عمال الحزب من زعيمه وأعوانه ، أن يستثيروا المحايدين ، وأن يدمروا الشك في ذهن كل من لا يزال يتردد بين الرأيين ، وأن ينشئوا الشك في ذهن أفراد الحزب الآخر

فالرأي الاجتماعي معناه نقل النزاع من بين الافراد الى ما بين الفئات أو الاحزاب — معناه جعل عقلية واحدة لجماعة . هذا ضرب من العقل الاجتماعي ايضاً

٣ً — تطوُّر الرأي

على ان هذا الرأي الاجتماعي لا يتكون قبل أن يكون قد قاسى من التطورات ما يبعده عن أصله . لماذا ؟ لانه وهو يصادم اذهان الافراد يرتد فعل الصدمة اليه فيغير شيئًا في شكله . لماذا ؟ لأن الافراد متباينون في كيفية تأثُّرهم من الرأي . لماذا ؟ لأن لكل فرد تربية واحوالاً خاصة به تردُّ فعلاً خاصًا للرأي

هب ان القضية التي هي موضوع النزاع : « أي اللغات احق بأن تكون لغة الجامعة الاسلامية »[١] فالعربي ككل ذي لغة يقول : من مصلحتي أن تكون لغتي ، ولا سيما لأن القرآن الشريف عربي اللغة . والتركي يقول: يجب ان تكون لغة الخليفة التركي وهو رأس الجامعة الاسلامية. والعجمي يقول الفارسية جميلة وغنية ، وهكذا يقوم في ذهن كل فرد برهان مقنع له بصحة رأيه . ولعلهم اذا تمادوا في المناقشة اتفقوا اخيراً على لغة مختارة من جميع اللغات الشرقية كما اختيرت لغة الاسبيرنتو من لغات اوروبا

فالتحيز سجية أو غريزة في خُلُق كل شخص ، وهو لا يشعر به بل يظنه حقًا . ولهذا يحاول أن يعدّل الرأي بحيث يوافق مصلحته أو ذوقه ما امكن .

فلذلك يصدر الرأي من يقين المحرّض أو الزعيم في صورة ، وينتهي في يقين الجماعة في صورة اخرى ولا سيما اذا كان يقبل التكيف . فكأنَّ الرأي الاجتماعي يُعدُّ الطريق « للتسوية الاجتماعية »

الطلبات التي كان يطلبها الوفد المصري الاول قبل الاعتقال الاول في مالطة كانت محصورة في استقلال داخلي تحت سيطرة انكليزية . ولكنها بعد تنافس الاحزاب المصرية في المطالبة انتهت اخيراً بطلب الاستقلال التام

٤ً — الرأي رأي الخبيرين

يستفاد مما تقدم ان كل فرد بين الرأيين أو الآراء المتنازعة مفعول وفاعل ، أو مصدوم وصادم . فمتى يكون صادمًا أكثر من أن يكون مصدومًا ؟ و بالعكس ؟

الخبير أو الاختصاصي أو الدارس والمحقق في القضية يكون صادمًا أكثر جداً من أن يكون مصدوماً . يكون مكيفًا للرأي أكثر جداً من غيره . وعديم الخبرة بتاتًا يكون مستسلمًا كخشبة في التيار . ولكن كم هم الخبيرون والاختصاصيون الخ ؟ واليك مثلاً :

في القاهرة نحو ٨ آلاف مشترك في التلفون ، وما من احد منهم راضٍ عن هذه المصلحة ، ولكل واحد منهم رأي في اصلاح هذه المصلحة المختلة ، ولعلك اذا درست آراءهم لا تجدها تخرج عن بضعة آراء يشترك معظمهم في بعضها . ولكن بين هؤلاء الثمانية آلاف قد لا يوجد أكثر من عشرة أشخاص خبيرين يعرفون الداء والدواء وحقيقة الفساد وكيفية الاصلاح النافع . فاذا أعلنوا

---

(١) وهي القضية التي كانت احدى الصحف التركية منذ مدة تحض العالم الاسلامي على البت فيها

رأيهم وجدته مخالفاً لآراء الجمهور . واذا برهنوه علناً غيروا آراء الجمهور كله حالاً . حينئذ قد تجد لادارة التلفون بعض الاعذار . وتجد ان أوجه الخلل غير ماكان الجمهور يظن .

كذا الامر في كثير من القضايا لا يدرك حقيقتها الاّ أفراد معدودون . وهؤلاء هم الذين يكيفون الرأي . فالرأي العام أو الاجتماعي انما هو وليد العقول الاختصاصية فيه . هو في يد أفراد معدودين

لما هبّ الشعب المصري متظاهراً لتأييد الوفد المصري لم يكن واحد في المئة منه يعلم رأي الوفد ، ولا فهمه الشعب كله الا بعد حين . وانما كان الشعب يؤيد رأي الوفد بمظاهراته لاعتقاده ان الوفد امين لا يضلله ولا يخدعه

٥ً — الاقتراع

الرأي الاجتماعي العام لا يثبت ، بل هو عرضة للتقلقل أو التزعزع ، الاّ إذا كان ناضجًا . ولا يكون ناضجًا الا إذا اجتاز سعير المناقشة المحتدمة . اذاً الاقتراع على قضية قبل المناقشة فيها خطر على الصواب . لأنه يكون محفوفًا بالتحيز والتشيع والعواطف ، فضلاً عن الجهل أو السهو ، وكلاهما ينقشعان بالمناقشة

ولو اقتصر الاقتراع على بضعة معدودين من الافراد الممتازين بعلمهم واخلاقهم لكان أضمن جداً لصواب الحكم في القضية من اقتراع الجماعة برمتها قبل ان تحدث المناقشة العلنية فيها وتمحص تمحيصًا تامًا

ولهذا السبب يعد اقتراع كبراء القوم وعظمائه وعلمائه أصح من اقتراع العامة لأن اولئك اكثر علمًا وخبرة . هذا على افتراض ان الاقتراع أأمن لجريمة التحيز للاغراض الشخصية وسليم من الخيانات . وهو افتراض قليل حدوثه . لأنه ندر ان كان زمام الامر في ايدي فئة خاصة ككبراء القوم والعظماء ولم يتلوث بادران الاغراض الشخصية ولو عن غير سوء نية ، بل عن نزعات نفسانية لا يفطن لها ذووها ، أو لا يعدونها تحيزاً وانحرافًا عن محجة الصواب والحق .

٦ً — مرشد الرأي العام

الرأي الاجتماعي ينجلي للجمهور في المنابر والمجالس العمومية والخصوصية أيضًا .

وانما يتضح جلياً في الصحف السيارة . فهذه الوسائل انما هي كالمرايا تعكس للجمهور أشعة آرائه المندمجة بعضها ببعض . فهي زبدة هذه الآراء معززة بالبراهين على صوابها وصحتها

ولكن المنابر والصحف لا تعكس دائماً الرأي الاجتماعي بل رأي حزب أو أفراد معدودين ، أو رأي فرد واحد ذي نفوذ ، وتدافع عن هذا الرأي وتبذل الجهد في أن تعززه . ولا يضمن سلامة الرأي من الخطل، أو من التحيز والتشيع ، الا وجود منابر وصحف اخرى لحزب، أو أفراد آخرين يناهضون تلك ، ويفندون أقوالها .

فمناهضة المنابر والصحف بعضها بعضاً انما هو مناقشة في الموضوع « بالجملة » . ولهذه المناقشة تأثير عظيم في تكييف الرأي الاجتماعي او العام

٧ — مصير الرأي العام

متى تقرر الرأي بالمناقشـة متغلباً على غيره من الآراء ، أو متى تقرر بالانتخاب القانوني او بالاقتراع انصرفت عنه الافكار واتجهت الى غيره ، وصار في صف العادات والتقاليد المتوارثة ، يتناقله جيل عن جيل ، أو عصر عن عصر ، أو زمن عن زمن ، الى أن يصطدم برأي آخر جديد ، فيحدث بينهما من النزاع ما يعـدل كلاً منهما ، أو يغلب احدهما على الآخر ، ويعدُّ الرأي المعدَّل رأياً جديداً

# هـ — الزعامة والزعيم

اذا كان الرأي الاجتماعي رأي فريق من الجماعة اشتركوا كلهم فيه واتفقوا عليه فهذا الفريق يسمى حزباً . فالنزاع في الدرجة العليا يكون بين الاحزاب لا بين الافراد . وان كان الرأي عاماً شاملاً لم يبق أحزاب ولا نزاع . فالقول ، أن الامة حزب واحد ، مناقضٌ نفسه

لكي يتكون رأي ويلتف حوله حزب يجب أن يوجد شخص فذٌ يرسم الرأي ويدعو الجمهور اليه ، والجمهور كله او بعضه يلبي الدعوة . فهذا الشخص الفذ يدعى زعيماً

١ — صفات الزعيم العامة

الزعيم يجب أن يكون فذًّا أي متفوِّقًا على سائر أفراد الجمهور، في صفات لازمة للزعامة، تفوُّقًا لا قياس له ولا حد، بحيث يتراءى كأنه نصف اله، ذو قوة لا تنضب وذو خواص لا تضارع. والاَّ فاذا أمكن أن تضاهى قوته وخواصُّه بقوة وخواص أي واحد من الجمهور، استحال أن يكون رجل الجمهور وبطله وقائدَهُ.
واليك أهم الصفات اللازمة للزعامة التي تضمن التفوُّق:

اولاً: يجب ان يكون الزعيم قابضًا على عنق القضية، مسيطراً على الحركة الفكرية. لا يرتبك اذا عصفت رياح الانتقادات، ولا يتقلقل اذا ثارث زوابع المقاومات والمناهضات، ولا ينصرع اذا أصابتهُ ضربات الخيبة والفشل، بل يظل «واقفًا على حيلهِ» يناضل ويدافع ويدعو ويحث. والاَّ فأقل تردُّد او ترنُّح أمام المقاومات يسقطه عن كرسي الزعامة، فيفشل ويخيب فعلاً

ثانيًا: يجب أن يكون شديد الثقة بنفسهِ وبصحة قضيتهِ، ولهذا يجب أن يكون ضليعًا في دخائل وأسرار القضية التي يدعو اليها، لا يعتقد ان في الوجود ما يزعزع ايمانه فيها، ولا يقوم برهان او احتجاج ضده الاَّ كان عنده من الحجج والبينات ما يدك ذلك البرهان والاحتجاج الى الحضيض. والاَّ فأقل شك يخطر في باله يزعزع كرسي زعامتهِ

ان إيمان الزعيم وثقته كحبال الجاذبية التي تجذب اليه الجمهور وتربطهم فيه. فأي تردُّد او تشكيك من قبله يفلت تلك الحبال، او يقطعها، فينفضُّ الجمهور من حوله، ويتلفتون الى هنا وهناك عسى أن يجدوا جاذبًا في زعيم آخر أقوى يجذبهم الى ما حول مركزهِ

ثالثًا: يجب أن يكون قليل التأثُّر، ولكنه شديد التأثير: لا يهاب ولا يرهب، ولكنه يُهيب ويُرهب بمظهره وكلامه. رزين، لا تضحكه المضحكات ولا تحزنه المحزنات. يستبكي ولا يبكي. لا تستفزه المستهجنات. ولكنه يستطيع أن يستفز الجمهور ويستنفره. يُغضِب ولا يغضَب.

رابعًا : يجب أن يكون مثابراً مواظبًا مهما صادف من العقبات والصعوبات ، لا يثني عزمه فشل ولا خيبة ، ولا يخامر نفسه يأس ولا قنوط . يضع امامه أمرين : النجاح أو الموت . ولا يحسب حسابًا للنجاة اذا رجح الانكسار . واردأ خلال الزعيم أن يعمل على سبيل التجربة او الامتحان. يجب أن يعمل كأنَّ النجاح مضمون

خامسًا : يجب أن يكون عنيداً مستبدًّا مصرًّا على رأيه ، لان أقل انصياع من قِبَله لغيرهِ ينقل الزعامة منه الى ذلك الغير ، او يفضُّ شملَ الجماعــة عنه ، ويتمزق الحزب شذر مذر . فلذلك يستحيل أن ينال الزعامة من يبيع مبدأه او كلمته .

كان بسمرك خير مثال للزعيم المستبد . وبعكسه كان الدكتور ويلسون صاحب المباديء الاربعة عشر التي لم يستطع أن ينفذها لعدم صلابته

سادسًا : هذه الصفات تستلزم أن يكون الزعيم حصيفًا ، يحسن تكوين الرأي الذي يحتمل كل نقد ، ويثبت لدي كل تفنيد ، والاَّ فاذا كانت أي ريح من رياح التمحيص تلفح رأيه وتسقمه سقط مع رأيهِ

سابعًا : وهذه الصفات تستلزم أيضًا أن يكون مهوّسًا عاشقًا لرأيهِ يستسهل كل صعب في سبيل تحقيقه ، او يستلذ كل عذاب لأجله ، ويضحي بأعز عزيز لديه في سبيل تحقيقه . والاَّ فلا يمكن أن ينال الزعامة .

لم يكن قاسم بك امين زعيم حركة السفور ، لانه لم يجسر ان يرفع النقاب عن وجوه حريته كما اقترح المعترضون عليه ، بل قال : « اذا كان سائر الناس يفعلون كذلك فعلت » . ولو فعل لكان زعيم الحركة ، ولالتفَّ حوله حزبٌ بلا مشاحة

زغلول باشا استطاع ان يكون زعيماً لانه كان ، وهو يعتــبر وجود الانكليز في مصر غير شرعي ، يعصى سلطتهم ولا يخضع لها الا قهراً . وهذا تحمّل النفي هو وسائر صحبه رجال الوفد

أن الزعماء مخلوقون مسخرين لخدمة الجمهور، وقد خصهم الله باستطابة التضحية

ربما كان سعد باشا زغلول جامعاً كل هذه الصفات او معظمها

وكذلك غندي الهندي يتصف بمعظمها . كان نابليون يجمع هذه الصفات معظّمة . وانما فقد بعضها قبل نفيه الى جزيرة ألبا ، فانحل عنه الشعب . ولما عاد من ألبا استرد هذه الصفات مجسّمة ، فنجح في استرداد صولجان الزعامة

٢ — صفات الزعيم الخاصة

من الصفات التي يتصف بها بعض الزعماء كثيراً او قليلاً : اولاً : الغموض في الشخصية ، بحيث لاتفهم غير النزر القليل من سجايا الزعيم ونفسيته الاّ بعد درس طويل . لان هذا الغموض يحرك أفكار الجمهور لتفهّم المكنون واستطلاع السر الخفي . والغالب في هــذه الحال أن يتخيل الفكر الاسرار والخفايا عظيمة هائلة . ومتى كانت بواطن الزعيم واضحة وظاهرة وضمائره جلية ظهر للقوم صغيراً

يغلب أن يكون هذا الغموض في الاشخاص السكوتين الذين يفعلون اكثر مما يقولون ، فان الجمهور يخمن أن في مقدورهم أن يفعلوا اكثر جداً مما فعلوا . يعظّم هذه النظرية في ذهن القوم ما يرونه من قلة فعل الثرثارين « وبضدها تتعاظم الاشياء »

فقد كان القواد جوفر وفوش وكتشنر من هــذا الصنف من الناس ، قليلي العمل كثيري الفعل ، ولهذا كان لهم تأثير عظيم في نفوس مرؤوسيهم

ثانيًا : للهيئة الجسمانية أحيانًا تأثير عظيم . فضخام الاجسام وهيوبو السحنة وذوو الابهة الظاهرية يلقون على الجمهور سحراً من التاثير كثيراً او قليلاً

يروى ان أحد أعيان لبنان من الاسرات القديمــة كان يتقبل في أحد الاعياد زوّاره من المزارعين « المرابعين » في أملاكه . واتفق ان كان عنــده شيخ احدى القرى وهو ضخم الجثة حسن البزة مهوب الطلعــة . فكان اذا دخل فوج من المعايدين يتقدمون الى هذا الشيخ اولاً فيعايدونه لظنهم انه هو « البيك » وليّ نعمتهم — فلما تكرر الامر استدعاه احد حاشية البيك وقال له بصراحة : « لا تاتِ الى دار البيك بهذه البذلة بعد الآن »

٣ — الرأي بين الزعيم والشعب

للرأي أيضًا صفات خاصة كما يلي :

اولا : قلما يكون الرأي من بنات أفكار الزعيم ، بل يغلب أن يكون من أفكار أسلافه ، وقد تداولته أفكار الجمهور وغربلته . وانما الزعيم يصوغ الرأي من زبدة أفكار الجمهور ، ويــدعو الجمهور اليه . فوظيفة الزعيم اذاً بازاء الرأي والجمهور الصياغة والدعوة

زغلول باشا ورفاقه صاغوا الرأي في القضية المصرية بعد ان لاكه الشعب مدة طويلة بارشاد مصطفى باشا كامل ومحمد بك فريد وأعوانهما من رجال الحزب الوطني العاملين . روسو علم الشعب الفرنساوي الثورة .ثم جاء روبسبير بعده فقاد الامة لها . كارل ماركس وضع مبادىء الاشتراكية، ولينين نفذها — ولكن برعونة لسوء الحظ

ثانيًا : يجب أن يكون الرأي منطقيًا معقولا حتى يمكن الزعيم أن يدافع عنه ، وحتى يستطيع أن يجذب الأفراد اليه ، و يستطيع تحميسهم للعمل به . والاَّ فاذا كان سداً لشهوة الجمهور فقط من غير أساس عقلي منطقي فشل لا محالة . قد يروج برهة قصيرة ولكنه بمقدار رواجه يكون فشله وخيبة زعيمه

ثالثًا : يجب أن يوافق الرأي مشرب السواد الاعظم من الشعب ، وأمانيه ورغائبه التي يتوخَّاها ، والاَّ فلا يصادف رواجًا ، حتى ولو كان صالحـًا .

فلو قام أيٌّ « زغلول » في بدء عهد الاحتلال يدعو الجمهور لثورة ضد الانكليز لفشل لا محالة ، لان الشعب لم تكن قد تولدت فيه بعـد أمنية جلاء الانكليز ، بل كان جانب كبير من الشعب يستطيب بقاءهم ، لانه وجد فيهم علاجاً لبعض عيوب الحـكم السابق

٤ — الشعب تجاه الزعيم

كذلك الشعب يجب أن يكون في أحوال صالحة لالتفافه حول مركز الزعامة . واليك أهم هذه الاحوال

أولاً : اجتماعية الجماعة . فلا يمكن أن ينشأ الزعيم اذا لم تستوف جميع شروط الاجتماعية في الجماعة ، كما علمت في الفصول الاولى من هـذا الباب . فكلما قلَّت روابط الجماعة قلَّ امكان نشوء الزعيم فيها

لا زعيم لناس في قهوة ، ولكنَّ لهم زعيماً في مأتم كالجنـّاز، او في حفلة سرور كالمطرب . زعيم البدو الرُحَّل أقل سؤدداً ، وأقل مسؤولية ، من الحاكم الحضري

ثانيًا : يكون الشعب منبتًا صالحـًا للزعامة بقدر ما تشتد فيه قوة المحاكاة والاقتباس ، لان هذه القوة تجذب الافراد حول مركز الزعامة ، وهم متوافقون في الفكر والقول والعمل

ثالثاً : يكون الشعب في منتهى صلاحيته لابراز الزعامة متى كان في درجة من الرقي بحيث يحسن المناقشة والتسوية في النزاع — اي حين يفضّ المشاكل بالاقتراع — حينئذٍ يحترم رأي الاكثرية ، وحينئذٍ يود الخضوع للنظام . ولكن اذا كانت الجماعة منحطة ، لا تفهم محمدة الخضوع للاكثرية ، فلا تنجح فيها الاّ زعامة القائد الذي يمنّي الافراد بالغنم العاجل ، وحالما تُقتَسم الغنيمة تنتهي زعامة القائد ، وتتفرّق الجماعة عن مركز زعامته

لم يكن أنور باشا يستطيع ان يقود جنوداً في طرابلس الغرب الا حين كان يدفع لهم اجرة ويُطمعهم بالغنائم . فالنظام العسكري لم يكن ذا سلطة ولا هيبة له عليهم

٥ً — تفاعل الزعيم والشعب

يتفاعل الزعيم والشعب تفاعلاً متبادلاً كما يأتي :

اولاً : الجماعة تبتدع الزعيم قبل ان يبتدع الزعيم الحزب او الجماعة . لانها له كالتربة للنبات . فحيث لاتربة صالحة فلا ينبت نبات . في كل جماعة وكل قوم أفراد يتميزون على قومهم تميزاً بيناً في صفاتهم . ولكنهم لا يقدرون أن يقودوا أقوامهم اذا كانت غير مستعدة للتلبية

ثانياً : الزعيم يجسم العقيدة للجماعة ويظهر القضية مجسَّدة ، ويجعلها مركز الدائرة الذي تشع منه أشعة التهوس والتحمس . والزعيم هو الذي ينشيء أمواج المحاكاة والاقتباس التي تصوغ أفكار الجمهور ونزعاته ، في صياغة واحدة ، في قالب الرأي الذي يصوغه الزعيم اولاً ، طبق رغائب روح الشعب

ثالثاً : الجماعة تمدّ الزعيم بالنفوذ والقوة والسلطان . وهو يمدها بالحماسة والتهوّس

# خاتمة الباب الثاني

## التوازن العام والاضطراب الاجتماعي

١ — احتكاك المدنية الواحدة بالمدنية الاخرى ٢ — تغير العوامل الاجتماعية المختلفة
٣ — تدفق العبقرية بالاكتشافات والاختراعات

---

اذا كان الاقتراع على الرأي الاجتماعي بعد المناقشة خير الوسائل لفض النزاعات الثابتة بين الانظمة الاجتماعية ، كان منتظراً أن تقلّ هذه النزاعات رويداً رويداً ، وتنفضّ بأسرع وأسهل مما كانت تنفضّ من قبل ، ومن غير أن يحدث بسببها شجار وخصام وقتال في بعض الاحيان – وبذلك يقوم التوازن الاجتماعي العام

أجل هذا هو المنتظر ما دامت الهيئة الاجتماعية ترقى من الوجهة العقلية كما ترقى من سائر الوجهات . فهل هذا هو الحادث فعلاً ؟ نعم أنك ترى الآن ، وفي الاعصر الاخيرة ، أن الانظمة الاجتماعية على وفرتها ، وغزارتها ، ونشوء الجديد منها كل يوم ، تستتب بمناقشات واقتراعات سلمية .

ولكن ما دام العقل الاجتماعي ، كما علمتـه ، مشتملاً على متناقضات تتصادم فتتصاعد الى سطح المجتمع تصاعد الفقاقيع في المياه المتحركة ، فهذا التوازن الذي تنتظره في السطح يكون عرضة للاضطراب دائمـاً . فاذا تسهل فضّ النزاعات من جهة بدت نزاعات جديدة عديدة من جهة أخري . للاسباب التالية :

### ١ — احتكاك المدنية الواحدة بالمدنية الاخرى

يحدث هـذا الاحتكاك بسبب فتح حربي ، او بالعلائق التجارية ، او بالمهاجرة ، او بالسياحة ، او بسبب تحسن وسائل الانتقال والنقل .

السوريون الذين هاجروا الى الجهات المختلفة تطورت عاداتهم وأخلاقهم تطورا واضحاً بحسب تأثير المهاجر فيهم

سكان المدن في القطر المصري تأثرت عاداتهم كثيراً من الافرنج الذين نزلوا بينهم ، حتى ان هذا التأثير تطرق الى لغتهم، فصرت تسمع في كلام الوطنيين« كان Comment ? »ومارسي وطماطم والمانيفستو » الى غير ذلك مما لايحصى . وأغرب من هذا أن تسمع من افواه الوطنيين الفاظاً عربية تحرّفت على السنة الاجانب لصعوبة نطقهم بها ، مثل « المازة » تحريف مخزن ، وشارع البيزة تحريف البعثة . والترسانة دار الصنعة. وأغرب من هذا ايضاً أن تسمع الوطنيين وتقرأ في كتاباتهم « واحد جنيه ، ثمانية متر ، ١٦ ركاب » الى غير ذلك مما أفسده الافرنج في اللغة الوطنية في بلادها وبين اهلها

بفعل الاحتكاك كان الفينيقيون ينشرون مدنية الشرق في الغرب ، حيثما طافوا للتجارة وانشأوا مستعمراتهم التجارية ( لا السياسية ) . وبالفتح الاسلامي انتشر التمدن الاسلامي في القارات الثلاث حول البحر المتوسط .

النهضة التمدنية في القرون السالفة في أوروبا كانت نتيجة احتكاك التمدنين الروماني والاغريقي . التمدن الغربي ينتشر الآن بسرعة غريبة في كل العالم بسبب سهولة المواصلات . والمنتظر أن يصبح العالم كله ذا مدنية واحدة في المستقبل القريب ، لشدة الاحتكاك وسرعة الاقتباس، وحينئذ يدنو التوازن العام .اللهم، الاَّ إذا تيسر لأهل الارض أن يحتكوا بأهل المريخ ، فيحدث احتكاك جديد بين عالمين متباينين وتمدنين متخالفين ، فيضطرب التوازن اضطراباً جديداً عظيماً

الصين ثبت تمدنها على وتيرة واحدة مدة طويلة لان قوانينهـا المحليَّة كانت تمنع دخول الاجانب اليها . فلما جعل أهلها يهاجرون الى اميركا وغيرها ويعودون ، انشق الحجاب الذي كان بينها وبين العالم

٢ — تغيُّر العوامل الاجتماعية المختلفة

ان نموّ عـدد السكان ، وتفاقم الثروات ، واندماج الجماعات بالتزاوج الاجتماعي ، ونحوه ، كما سترى في باب العوامل الاجتماعية — كل ذلك يقلقل عادات أي جسم اجتماعي وتقاليده ، ويزعزع التوازن .

لاحظ أن الجسم الاجتماعي واقع بين متنازعات مختلفة : مثل الحياة الريفية او الحياة المدنية . توزع السكان او تجمعهم . ازدحام السكان في دائرة العمران ، او

اتساع العمران على مزدحم السكان ، او تناقص السكان على دائرة العمران . تغلب الحركة الصناعية الاقتصادية ، او تغلب الحركة الجهادية الحربية . تفوق المركزية او اللامركزية . تجمع الثروات او توزعها . تعدد الاديان او توحدها . تقاتل العلم والدين او تصالحهما — كل هذه أمور تثير النزاع في المجتمع حينًا بعد حين بسبب العوامل الاجتماعية لها . فهي ردُّ فعل الجسم الاجتماعي على العقل الاجتماعي

٣ — تدفق العبقرية بالاختراعات والاكتشافات

لا يخفى أن التقدم والارتقاء او النجاح بواسطة الاقتباس محدود . ولكن الهيئة الاجتماعية مطّردة النجاح بما يبرزه نوابغها من الاختراعات والاكتشافات

الاعصر التي حدث فيها جمود في بعض الممالك كانت فقيرة بالنوابغ والعبقريين الذين يستنبطون ويبتدعون ويكتشفون ويخترعون، إما لأن الحروب قرضت السلالات النابغة فيها ، او لأن الاحكام الاستبدادية خنقت النبوغ .

تفوّق الغرب على الشرق بغناه بالاختراعات ، وقد ضمن اطراد رقيه بها ، ولا يخشى من جموده بعد أن أصبحت نظاماته السياسية تنشط النبوغ ، وتوجب الانفاق على أعماله من معاهد ومعتملات للامتحان والتجربة الخ . ناهيك عن تسهيل المباحثات، واستخدام وسائل النقل لنشرها من صحافة وطباعة . فاذا قال متشنيكوف بوجود كريات دم بيضاء تقاتل الميكروبات المرضية انتشر قوله هذا في كل العالم بسرعة البرق وجعل زملاؤه يختبرون ويتحققون بأنفسهم صحة قوله

فلهذه الاسباب الرئيسية لا ننتظر أن تزول النزاعات بين الأنظمة الإجتماعية ، بل ليس من مصلحة التقدم الاجتماعي أن تزول ، لئلاً يتوقف هذا التقدم ، ويحدث الجمود في الحياة الاجتماعية ، ويأسن ماء التمدن ويفسد . فتجدُّد النزاع بين الأنظمة انما هو تجديد لحياة المجتمع . وحسبنا أن يحدث هذا النزاع من غير شجار جسماني دموي او شبه دموي . فلاضطراب التوازن اذاً محامد نجملها فيما يلي :

١ — استمرار الارتقاء الاجتماعي باستمرار التيار التطوري المجدد لحياة المجتمع

٢ — أن النزاع يفضي الى تنويع اجزاء المدنية بحيث يبعدها من دائرة البساطة الى فسحة الاناقة والعذوبة

٣ — أن النزاع الذي يقضي بدوام التطوُّر يوجد فُرَصًا دائمة للاشخاص يجربون فيها مواهبهم وكفاآتهم ونشاطهم



# الباب الثالث

## مقدمة – المادة والقوة والحركة

القسم الأول : — القوى العاملة في الاجتماع

الفصل الاول – القوى الحيوية ، الحريصة على الحياة

الفصل الثاني – {القوى العيلية ، النسلية ، السلاليـة ، الحريصة على النوع

الفصل الثالث – القوى الاجتماعية ، المرقية للمجتمع

الفصل الرابع – القوى البيئية ، الطبيعية الخارجية

القسم الثاني : — عمل القوات العاملة

الفصل الخامس – اعتراك القوات

الفصل السادس – توازن القوات



عوّلنا في بعض مباحث هذا الباب على بعض نظريات ديلي وورد

Pure Sociology — Dealy & Ward.

# مقدمة

## المادة والقوة والحركة

١ — الائتلاف حركة ٢ — المجتمع مادة متحركة ٣ — مآل المواد المتحركة ٤ — غرض الطبيعة تحويل البسائط الى مركبات ٥ — القوى المحركة

### ١ — الائتلاف حركة

تجمع الاجزاء والافراد وحده لا يكفي لعقد الاجتماع وتكوين المجتمع البشري ، والا لكان المجتمع عُرضة للانحلال والانفراط حالاً ، لأقل قوة صادمة ، أو لارتخاء الضغط عن حول حدوده ، أو لأي سبب آخر يوجب حلّه . نعم . التجمع وحده لا يكفي ، بل لا بد معه من الائتلاف الذي يلأم الاجزاء المتجمعة أو يلغمها[1] أو يدمجها بعضها ببعض كما تندمج الجواهر الفردة بعضها ببعض بالالفة الكيمية

اما الائتلاف الاجتماعي المطلوب فهو نتيجة حركة الاجسام الحية بل الائتلاف عموماً نتيجة حركة المواد أو العناصر . والحركة حاصل قوات متصادمة — هذه القوات تظهر في المواد متجاذبة متدافعة حتى يتوافق منها ما يتوافق فتأتلف ، ويتنافر ما يتنافر فتفترق . بل الكون كله عبارة عن ميدان تتصادم فيه عناصر الطبيعة متدافعة متجاذبة ، مؤتلفة فمفترقة ، الى ماشاء الله

### ٢ — المجتمع مادة متحركة

المجتمع الانساني صنف من اصناف المادة المتحركة في الكون ، وله ظواهر كظواهر طوائف الطبيعة . ولذلك تعمل فيه النواميس الطبيعية كما تعمل في سائر اصناف المادة واشكالها

فهو جسم حيّ ، له خواص الاجسام الحية العليا ، ويتمشى على نواميس كنواميسها كما سترى . وهو يتركب تركّباً يشابه كل المشابهة المركبات الكيماوية ، ويتمشى على نواميس الكيمياء ايضاً . وهذا هو السرّ في أن ترى للجماعة خواصّ لا تراها في الافراد ، كما ترى في أي مركب كيماوي خواصّ لا تراها في العناصر البسيطة التي تألّف منها

اذاً المجتمع الانساني مادة تلازمها قوة توجب تحركها . ولما كانت هذه المادة حيّة عاقلة ايضاً ، وكثيرة التركب ، كانت حركاتها نتيجة قوى مختلفة المصادر ، من مادية وحيوية وعقلية أو روحية

---

(١) مَلْغَمَ يمَلْغِمُ فعلٌ نشتقّه من لفظة اوربية اميركية شائعة ، Amalgam ومعناها امتزاج بعض المعادن بالزئبق امتزاجاً يشابه امتزاج السوائل

فلهذا السبب وجب أن نخص باباً للبحث في قوى المجتمع واعمالها ومفاعيلها . والا كنا ننظر الى المجتمع كأنه صخر وُجِد مرة ولم يزل موجوداً كما هو بلا تغير ولا تطور ، على ان الاجتماع البشري ليس كذلك ، بل بالعكس هو آخر درجة من درجات الموجودات التي مرّت عليها تقلبات وتطورات عديدة ، ولا تزال تتطور . وهو اكثر اصناف المادة تركباً . واكثر المركّبات تعقداً ، واعظمها واسرعها تطوراً

٣ — مآل المواد المتحركة هو التجمع

ما هو غرض الطبيعة من حركاتها ، او ما هو مآل تصادم قوات الطبيعة وتفاعل موادّها ؟

يقول العلم أن النظام الشمسي أي الشمس والسيارات التي حولها ، اشتقت من السديم الذي اشتقت منه جميع الاجرام السماوية — السديم الذي كان في الاصل غازاً يكاد يملأ الفضاء ، ثم جعل يتقلص في اجزاء يتفرق بعضها عن بعض ،هي تلك الاجرام ، ويقول العلم ايضاً ان القمر اشتق من الارض واصبح ابرد منها وانتفت أو ضعفت الحركة على سطحه ، وهكذا سيكون مصير الارض وغيرها من السيارات الخ

ولكن اذا فحصت مادة القمر الان فحصاً كيماوياً وجدتها مركبات عديدة مختلفة لم تكن يوم كان القمر مع الارض كتلة غازية أو مادة مائعة . والكيماوي يقول لك انه لما كانت كتلة الارض مائعة في حرارة الف أو الفي درجة بمقياس سنتغراد لم يكن فيها شيء من المركبات الالية ولا المركبات المعدنية التي فيها الان . بل كانت خليطاً من العناصر البسيطة المعدودة التي نعرفها . ولعلها قبل الميوعة ، أي في عهد غازيتها ، لم تكن فيها كل تلك العناصر بل كانت خليطاً من بضعة عناصر ابسط ، وربما كانت في الاصل اثيراً شارعاً في التكاثف

اذاً يستفاد من ذلك أن غرض الطبيعة من تحرُّك موادها هو تنوُّع عناصرها ، وتركُّب هذه العناصر في مركبات متنوعة أيضًا — فمآل الحركة اذاً التجمُّع بتركُّب ، لا التجمع البسيط . ففي الارض من المتركبات ما ليس مثله في الشمس بتاتًا . ولا يصير مثله في الشمس الاَّ متى بردت كالارض .

٤ — غرض الطبيعة تحويل البسائط الى مركبات

لتحقيق هذه النظرية نقتصر على تحرّي حركة المادة في الارض التي نعيش فيها ، فنرى ان غرض الطبيعة فيها دائماً هو أن تحوّل البسائط الى مركبات . فهي دائماً تعمل في تحويل المواد غير العضوية الى موادعضوية . فتحول الماء والحامض الكربوني وبعض الاملاح الى نبات ، ثم تحول هذا النبات الى حيوان . والحيوان اكثر تركباً من النبات . والنبات اكثر تركباً من المواد الطبيعية المعدنية واشباه المعدنية . وهذه اكثر تركُّباً من العناصر البسيطة التي يقال أن كلاً منها مركب من الكترونات وايونات الخ

على هذا النحو تعمل الطبيعة في تحويل الطبقة العليا من الحيوان ( الانسان ) الى أجسام اجتماعية — جماعات

٥ً — القوى المحركة

فمهمتنا في هذا الفصل أن نبحث في القوى العاملة في هذا التحويل — القوى القاضية بالاجتماع او المكوّنة الجماعات ، والمنوعة هـذه الجماعات ، لتكوين جماعات أرقى فأرقى . اذاً الغرض الاقصى من قوى الاجتماع الحرص على بقاء الاجتماع ، والاستمرار في ترقية الاجتماع

وأما مصدر هذه القوى في الجماعة فهو نفس مصدر القوى الموجودة في جسم الفرد ( الانسان ) . وهـذه القوى الموجودة في جسم الفرد مصدرها نفس مصدر القوى الموجودة في الحويصلات ، او الخليات التي يؤلف منها جسم الانسان .

وانما الفرق في القوى الحويصلية والانسانية والاجتماعية هو في كيفية عملها . فلكل واحدة نسق خاص أو أساليب خاصة في العمل، على انها ترجع كلها الى قوتي الجذب والدفع

فهي في الحويصلة القوة الحيوية (البروتوبلاسمية) التي هي ضرب من ضروب العمل الكيماوي، اذ تنحل بعض المركبات لتتألف بفعل الالفة الكيماوية في مركبات اخرى جديدة هي الحويصلات

وفي الجسم الحيواني هي القوة العصبية العضلية الناشئة من اتحاد تلك الحويصلات في عمل واحد

وفي الدماغ الانساني هي القوى العقلية الناشئة من اتحاد حويصلات الدماغ في ابراز تلك القوى العقلية

وفي الجماعة هي القوة العقلية الاجتماعية الناشئة من اشتراك العقول الانسانية في العمل الاجتماعي لذلك ندخل الى هذا الموضوع من أبواب كيفية عمل هذه القوى كما رأيت في فهرس الباب

# الفصل الاول

## القوى الحيوية، للحرص على الحياة الاجتماعية



## ا — الكدح لاجل الرزق

القوة الجسدية في الحيوان تُبذَل لاجل تحصيل الغذاء وإشباع شهوة البطن، أى الجوع. كذلك هي في الانسان الاول، بل في الانسان الراقي. فكأنّ الجوع هو المحرك الأول او الاصلي لهذه القوة . ولكن لما صار الانسان اجتماعياً ، صار مضطراً أن يبذل قسماً آخر من هذه القوة في بناء الاجتماع وتكوين الجماعة

لماذا يضطر الى ذلك ؟

٩ — تنازع الافراد منشا الجماعة

لما كان الانسان وحده في بيئتهِ لا ينازعه آخرون لم يكن مضطراً الى النزاع . ولكن لما تكاثر الآدميون من حوله ينازعونه ثمرات الطبيعة وجد نفسه أمام صنفين من المنازعات : أولاً أولئك الادميون الآخرون ، وثانياً شح الطبيعة وصعوباتها التي دفعه اليها منازعوه

اذاً أصبح مضطراً أن يبذل قوةً للدفاع ، فضلاً عن القوة التي يبذلها في تحصيل الرزق . ثمَّ اشتد التنازع والتدافع ، فاكتشف المتنازعون فائدة التضافر والتآزر في هذا التنازع الحاد . فتألبوا فرقاً ينازعُ بعضها بعضاً ، وكل فرقــة تتقاسم الغنيمة . هنا نشأت الجماعة . وعلى هذا النحو كوَّن الافراد الجماعة ، وهم يبذلون متضافرين قوة في الدفاع ، فضلاً عن القوة التي يبذلونها لتحصيل الرزق . ونجاحهم في الدفاع نبههم الى فائدة تعاونهم في العمل لتحصيل الرزق ، ولمقاومة شح الطبيعة او عقباتها وصعابها ، فتعاونوا في تمهيد الطريق في الوعر ، وفي بناء الجسر ( الـكبري ) فوق النهر ، وفي الزرع والحصاد ، وفي الصيد وفي الحرب الخ

ذلك التنازع بين فرد وفرد انتفى ، وقام مقامه تعاون الافراد في جماعة . لا ، لم ينتف . بل تحوَّل الى تنازع بين جماعة وجماعة . انتقل من بين الافراد الى ما بين الجماعات — انتقل في الحال حين تكونت الجماعات الاولى

لما انتقل النزاع من بين الافراد الى ما بين الجماعات أصبح في هذه أشد جداً مما كان بين أولئك — أصبح حرباً . وكلما تعاظم أمر الجماعات احتدمت الحروب . فأشد الحروب هولاً تشب بين أعظم الجماعات صولة حتى الآن . هل رأيت كيف اختلفت قوة الجماعة عن قوة الفرد ؟

كلما تألب الافراد في جماعات تيسر ازدياد نموهم وتوالدهم وتكاثرهم . وبذلك تضيق فسحات الطبيعة أمامهم ، ويقتربون الى عقباتها وصعوباتهم ، فيضطرون الى بذل قوى اكثر لمقاومة الطبيعة ، وللحروب

في هــذه الحالة ، حين لا يعود صيد الحيوان كافياً للرزق ، يضاف الى هذا الصيد صيد الانسان نفسهِ — اذا لم يشبع الانسان من لحم الحيوان ينهش لحم

الانسان . ذلك هو منشأ عادة أكل الناس لحوم البشر . ولم يزل حتى الآن في طبقات الهمج والمتوحشين جماعات تأكل لحوم البشر . ولبعض طوائف الحيوانات عادة أكل الاحياء من جنسها فالأسماك يأكل كبيرها صغيرها حتى من الفصيلة الواحدة . بعض الحيوانات المفترسة تاكل الجراء اذا جاعت . الدجاجة تاكل بيوضها أحياناً

٣ً — نشوء الزعامة وطبقة الاعيان

للقوى التي تبذل في التنازع بين الجماعات ، و بينها و بين الطبيعة ، التأثير الحيوي في الجسم الذي يبذلها نفسه – كتقوية الجسم نفسهِ ، وتقوية العضو الذي يُستعمَل أكثر من سواه . اذاً التنازع انشأ ( علاوة على تكوين الجماعة ) نمواً في الدماغ ، أي في القوى العقلية ، ونمواً في العضل ، وابتـدع الحيلة في مناهضة الخصم ، ومطاوعة الطبيعة ، حيث لا تمكن مناهضتها . ومطاوعة الطبيعة على هذا النحو ، وتكييف الحياة حسب مقتضاها ، أفضيا الى تنويع الاحياء حسب طبيعة البيئات او الاماكن التي تعيش فيها – هـذا هو سبب اختلاف السلالات في كثير من طباعها وأمزجتها الخ ، كما هو سبب اختلاف العجماوات او تنوعها

ولما كان الاستقواء في العقل والعضل لا يعم الافراد على السواء بل يتفاضلون فيه، لم يكن بدٌّ من نشوء أفراد يتفوّقون في جماعاتهم فيأول اليهم زمام الجماعات . هم الزعماء والقواد والحكام . هـذا التوسع العقلي الذي قضى باستنباط الحيلة نبَّه الى الوسائل الاقتصادية ، أي جعل الانسان يحسب حسابه ، ويختار الاسلوب الاوفر ربحاً له ، والاقل استنفاداً لقوته . رأى أنه اذا استخدم أسيرهُ الضعيف للعمل لاجله كما يستخدم ثوره وحماره ، كان الربح أوفر له من أكل لحمِهِ . فجعل يستبقي حياته طمعاً بحاصل عمله . وهكذا صار الاسترقاق يحل محل أكل لحم البشر .

على هذا النحو استعبد الرجل المرأة الضعيفة ، كما استعبد العامل الضعيف والمقاتل القليل الحيلة ، الى أن أصبح الظافر يتكل في تحصيل رزقه ، وفي الدفاع عن ذماره ، على عبيده وأرقائه ، وصار يعيش عالة عليهم – وهكذا نشأت طبقة الاعيان المتقاعدين المترفهين على حساب فئة العاملين

ترى أن تنازع الجماعات أو تقاتلها لا بدّ أن يفضي الى تغلّب الواحدة على الاخرى واستعبادها . ومن أهم نتائج الاستعباد الاجتماعية اندماج الجماعتين في جماعة واحدة في أحوال كثيرة .

٣ عادة الاستعباد والعبودية

وبحسب سنن العقلية الاجتماعية التي تقدم شرحها يصير الاستعباد والعبودية تقليداً متوارثاً . فطبقة الاسياد لا تعود تستطيع أن تعيش الاّ عالة على عبيدها . وكذلك طبقة العبيد لا تستطيع أن تعيش الا بالعبودية لأسيادها . ذلك لأن للاسياد قوة الارادة او السيطرة والآمرية على الأقل ، وللعبيد قوة العمل تحت تلك السيطرة . يحدث أحيانًا أن سيداً يعتق عبداً ، فيبكي العبد ويتوسل إلى سيده أن يبقيه عنده ، لئلاّ يموت جوعًا

ترى ذلك في أنظمة الاقطاع والمرابعة والمزارعة ونحوها حيث يشتغل الفلاحون في مزارع المُلاّك فيضطرون أن يخضعوا لاسيادهم ويتحملوا ظلمهم حتى لا يطردوهم من مزارعهم . فكانوا يشعرون أن عبوديتهم نعمة لهم . وربما جهلوا أن أسيادهم أحوج اليهم منهم هم الى أسيادهم . لان انقطاعهم عن زرع الارض يفضي أيضاً الى فاقة الاسياد وجوعهم .
وقد حدث في تاريخ الرومان أن طائفة من الزراع الذين كانوا كالعبيد ملّوا ظلم اسيادهم ، فهجروا المزارع وذهبوا الى جهات اخرى يسترزقون فيها . فما كان من اسيادهم الاّ أن أسرعوا اليهم يسترضونهم

على أن هذا الحساب لا يصح دائمًا ، لان ما يدّخره الاسياد من ثمرات أعمال عبيدهم يُقدِرهم على الصبر والاحتمال أكثر من عبيدهم . فانصياع العبيد قبل الاسياد في الخلاف والنزاع أرجح . هذا ناهيك عن أن الحالة الاجتماعية تكسب الاسياد حيلة ودهاء وهيبة ، وتكسب العبيد سذاجة وجبنًا وطاعة . ومن كل ما تقدم تفهم سرّ تملك عادة العبودية والاسترقاق

ترى مثل هذا في بعض الحيوانات كالنمل « فان طائفةً منه تستعبد نوعا من البعوض يسمى بقر النمل . فهذا البعوض يُفرز مادة يستلذها النمل ويتغذى بها . وقد تعوّد هذا البعوض أن يفرز هذه المادة حين يدغدغ النمل بطنه بخرطومه ، حتى صار لا يستطيع أن يفرز مادته هذه الاّ اذا دغدغته النملة . وقد حاول داروين أن يستدر عصير واحدة منها اذ جعل يدغدغها بشدة وهو

ينظر اليها تحت النظارة المكبرة فلم تدرّ . ولكن لما وضعها مع النملات درّت حين دغدغتها احداها. فلذلك ترى هذا البعوض مضطراً أن يعيش مع النمل، والنمل اعتاد أن يربيه كما يربي الفلاح البقرة. واذا هاجرت طائفة النمل ساقت بقراتها هذه معها أو حملتها » . ( انتهى ملخصاً عن اصل الانواع لدروين، الفصل السابع)

فترى مما تقدم أن القوى العقلية المبذولة في سبيل تحصيل الرزق حرصاً على الحياة تعمل عملين اجتماعيين : أولاً تكوين الجماعة ، وثانياً الاندماج الاجتماعي

٤ — نشوء نظام العمل

في أزمنة الاجتماع الاولى كان الاسترقاق نظاماً اجتماعياً سياسياً واقتصادياً ، حتى صارت له قوانين وسنن . وقد طال دوره جداً حتى أنه رافق عهد الحضارة الى الجيل الحاضر . وما نشأت عاطفة استقباح الاسترقاق الاّ في القرنين الآخيرين . وما قررت الدول المتمدنة إلغاءه باعتبار أنه نظام جائر الاّ في القرن التاسع عشر .

على أن بقاء الاسترقاق حتى بعد تحضُّر الامم يُعد من الانظمة الأثرية التي لا حاجة للاجتماع بها ، ولا هي لازمة لحياة المجتمع ، كالاعضاء الأثرية في الاجسام الحيوانية ، ولا سيا الانسان — كالزائدة الدودية والثديين في الرجل . أجل لم يبق الاسترقاق نظاماً لازماً للهيئة الاجتماعية ، لأن نظاماً آخر نشأ منه وحلّ محله ، وهو نظام العمل بأجر .

في أوائل عهود الاجتماع كان الناس لا يعملون الاّ بقدر مايحتاجون الى العمل لاجل معاشهم فقط . ولكن لما صار القوي يتسنّى له أن يعيش على تعب الضعيف ، صار يستعبده لكي يرغمه على العمل زيادة على ما يقتضيه معاشه ، أي أن يعمل لأجل معاشه ومعاش سيده . اذاً كان الغرض من الاسترقاق حمل الناس الارقاء على العمل المضاعف ، ومن ثم نشأ الميل عند الاسياد الى جميع ثمرات العاملين ، وصاروا يحاولون أن يستخرجوا من قوى العبيد أقصى ما يمكن استخراجه من ثمرة عملهم . وحيث لا يستطيعون اكراه العبيد على العمل خشية ثوراتهم أو فرارهم أو نحو ذلك ، صاروا يغرُّونهم بالأجرة على قدر العمل . هذا من جانب الاسياد ، وأما العبيد فلما صاروا يرون أنهم لا يستطيعون الحصول على العيش الاّ بالعمل بالاجرة ،

صاروا يشتغلون مختارين طائعين ليسترزقوا . على هذا النحو نشأ نظام العمل من نظام الاسترقاق على صور مختلفة .

فنها نظام الجنـدية عند سيد القوم . ومنها نظام فرض الدول الغالبة الجزيات على الامم المغلوبة . ومنها نظام اقطاع الملوك أو الامراء الاراضي للاعيان والقواد في مقابل اتاوات يقدمها هؤلاء لاولئك من مال او غلال وجنود . ومنها نظام المرابعة ، وهو أن يزرع الفلاّحون أراضي الاعيان في مقابل قسم من غلة الارض . ومنها نظام العمل عند صاحب المعمل او المصنع باجر معين

وهكذا ما زال نظام العمل يتسع و يتطوّر حتى بلغ الى هذا الشكل الحاضر ، وتغير عن أصله كل التغير . فبعد أن كان الغرض من النظام إلزام العامل على العمل ، أصبح غرضه إيجاد العمل للعامل حتى يستطيع أن يعيش

٥ — العمل ضرب من الاسترقاق

فترى مما تقدّم أن الانسان لم يتطوع للعمل والكدح لاكثر من مقتضى حاجته من تلقاء نفسه ، بل كان مكرهًا على الكدح . ولم يكن ليعمل لكي يتمتع بثمرة عمله ، بل لكي يتقي سوط سيده أو تعذيبه أو سيفه أخيراً

على أن توسع نظام العمل ، وتطوره المتتابع ، لم يغير الباعث الذي يوجبه . فقد كان الحامل له الخوف من العقاب ، او اتقاء العقاب ، او درء الأذى . ولا تزال هذه المذكورات أسبابًا موجبة للعمل . فالعامل الذي لا يعمل عملاً مضاعفًا يكفي معاشه ، و يكفي مطمع صاحب المعمل ، أو صاحب الارض من ثمرة عمله أيضًا ، لا ينال حاجته من الرزق .

اذاً لا يزال نظام العمل حتى الآن ضربًا من ضروب الاسترقاق ، لأن العامل مُلزَمٌ أن يعمل لأجل معاشه ، ولاجل بذخ صاحب العمل أيضًا ، والاَّ فيموت

ليس بحثنا في هذا الموضوع من الوجهة الادبية . فلا نتعرض الى نظرية الحق والبطل ، او العدل والظلم فيه ، وانما بحثنا فيه من الوجهة الاجتماعية . ولذلك نقول اننا بلغنا فيه الى أمام نظرية لابد منها . وهي أنه لولا « نظام الاسترقاق » الذي تقمص أخيراً في « نظام العمل » لما بلغ النظام الاقتصادي في العالم الى ما بلغ اليه

الآن من الارتقاء ، ولا تطورت الصناعات والفنون والمعاملات هذا التطور الحالي الذي رفع الهيئة الاجتماعية البشرية الى قمة الدرج ، تاركة المملكة الحيوانية في الحضيض

فاذا كان هـذا النظام الاجتماعي مجحفاً ، فعلى العوامل الادبية الناشئة مع العوامل الاجتماعية جنباً الى جنب ، أن تصلح هذا الاجحاف . والعوامل الاجتماعية موجبة التطور أي التعديل والتغيير ، وهذان يستلزمان التدمير والتخريب تارة ، والتعمير أخرى ، وينتجان الالم حيناً واللذة أخرى. فلا مناص من الاذى والاجحاف حيناً بعد حين . على أن العوامل الادبية تستطيع أن تتدارك الاذى وان تلطف الالم

# ب — الاثراء بالاندفاع في الكدح

لا يُعد الحيوان صاحب ملك لان الحيوانات التي يختص أفرادها أو جماعاتها بشيء من الاشياء يفيدها اقتصادياً نادرة جداً . يعد عش الطير ملكاً للانثى التي ابتنتـه ، او لها وللذكر الذي يساعدها في الحضانة ، كالحمام . ووكر النمل الذي يخزن فيه السرب طعامه ملكاً لذلك السرب. كذلك بيت النحل الذي يخزن فيـه شهده يُعَدُّ ملكا له . والفراش الذي يفترشه الغورلا من أغصان الشجر فوق أغصان الشجر نفسها يعد ملكاً لهُ — طالما استطاع ان يستأثر بهِ

١ً — نشوء الملكية

أما الانسان الاول الذي جعل يستعين بالعدد ، على تحصيل رزقهِ ، أو الدفاع عن نفسه ، فيعد مالـكاً لتلك العدد كالهراوة ، او الزناد الذي يقتدح به النار ، أو المعول الذي يحتفر به الارض ، او الرمث الذي يعوم به على الماء للصيد ، او الحمار الذي يركبه ، او البقرة التي يستدرُّ لبنها الخ

ولـكن ما كاد الانسان يختص نفسه بشيء ذي قيمة له ، ويحرزه الى حين حاجته اليه ، حتى أصبحت الملكية أمراً اجتماعياً ، أي أن ملك الجماعة استغرق ملك الفرد .

لما نشأت الجماعات وصارت تتقاتل صارت الجماعة الغالبة تمتلك أفراد الجماعة المغلوبة عبيداً ، وتمتلك ماشيتهم ، وعددهم وأدواتهم ، وارضهم . ولمـا صار للقادة

والزعماء السلطة صاروا يقتسمون هذه الغنائم فيما بينهم . فالارض يقسمونها ويقيمون الحدود لكل حصة ، ويستخدمون أولئك الاسرى العبيد للعمل فيها . ولا يخفى ما في ذلك من العلائق الاجتماعية بين السيد والعبيد ، ومن الاحتكاك بين الجار والجار . وهذا الأمر الاجتماعي اقتضى أن ينشأ نظام خاص لحفظ الحقوق في الملكية ، بحيث يكون كل شخص آمناً على أملاكه ، والاَّ فلا يُعَدّ الشيء ملكاً اذا كان لا يقدر صاحبه أن ينتفع به ، الاَّ اذا استمر يدافع عنه . فنشوء الملكية على هذا النحو اقتضى أن تنشأ القوانين لحفظ الحقوق لذويها ، واقتضى أن تكون وظيفة السيطرة او السلطة في الجماعة أن تضمن تنفيذ تلك القوانين

٢ — ادّخار الثروة

لما رأى الانسان المالك أن ما يفضل عنده من ملكه بعد استعمال ما استعمله منه يستطيع أن ينتفع به في المستقبل اذا احتاج اليه ، صار يستبقي هذا الفاضل عنده الى حين الحاجة . ومن ثمَّ نشأ فيه الميل الى الادّخار . ثم قوي هذا الميل حتى صار يستفضل من غلاته او ريعه مما يمكنه أن يتمتع به في الحال . فنشأت فيه النزعة الى الشح والبخل

ثم لما أصبح المالك آمناً على ملكه أو ماله صار اذا احتاج الى ما ليس عنده يقايض فيه بما عنده . ومن ثم نشأت عادة المقايضة التي تتطورت الى جميع أطوار البيع والشراء والمرابحة ، وصار الانسان يستفضل المال لكي يستعين به على ربح المال ، بغية جمع الثروة الوافرة طمعاً بمزيد التمتع

ثم أن الطمع بالمزيد من التمتع أفضى الى اهتمام الانسان بوسائل التمتع فصار يضطرُّ أن يستنبط وسائل الترف المختلفة . وكلما زادت ثروة البشر ازدادت تلقاءها وسائل الترف استهلاكا لهـا . وهكذا اتسعت طرائق المعيشة اتساعًا عظيماً ، وازدادت معها شهوة الانسان الى جمع الثروة

وما زالت هذه النزعة تقوى في الانسان حتى صارت غريزة ، وأصبح كثيرون

يجمعون الثروة ولا لذة لهم الاَّ في جمعها وادخارها فقط . فبعد أن كان التمتع غرضاً نهائياً من جمع الثروة، صار ادخار الثروة غرضاً نهائياً .

ولا ريب أن هـذه الغريزة التي نشأت في الجنس البشري ، بحيث تظهر شديدة في فريق دون فريق ، انما هي مرضٌ اجتماعيٌّ يشابه الاحتقان او التضخُّم في بعض أعضاء الجسم ، او يشابه الالتصاقات التي تلحق بعض الاعضاء ، فتؤلم الاعضاء الاخرى . ولعلَّ داء السرطان أشبه سائر الادواء بهذا الداء الاجتماعي

٣ — مقاومة استفحال الثروة

ثم أن نشوء ضروب المقايضة والمرابحة ، وفنون البيع والشراء في سبيل الانهماك بجمع الثروة ، أفضى الى نشوء النقـد لتسهيل المقايضة ، وسائر أصناف المعاملات التجارية . وهذا التسهيل نشط العالم لجمع الثروة حتى عظم أمر المال وأصبح المعبود الارضي .

وكان من أهم نتائج نظام الملـكية الذي تطور على هـذا النحو ، الاستقطاب المالي ، وهو تحول الثروة الى جانب الاسياد المتمولين ، والفقر المدقع الى جانب العبيد ( العمال ). وهو أمر ، في نظر الفلسفة الادبية ، شرٌّ للهيئة الاجتماعية ، ولـكنه ، في نظر علم الاجتماع ، قوة اجتماعية أدَّت الى ارتفاع درجة التمتع . فاذا كان أفراد الهيئة الاجتماعية ليسوا جميعاً عند مستوى هذه الدرجة فعلى الفلسفة الأدبية أن تعدّل النظام على قاعدة الحق والعدل — على القوى الاجتماعية أن تطور المجتمع وتدفعه الى الامام . وعلى العوامل الادبية أن تقي المجتمع من آلام الاجحاف والغبن

فحركة الاشتراكيين المقاومة لاستفحال التمول والادخار تبررها القوة الادبية ، وان كانت تعد في نظر علم الاجتماع مقاومة للرقي الاقتصادي في الجهة التي اتخذها منذ القديم الى الآن . على انها تعد في نظر هذا العلم ايضاً تطويراً للرقي الاقتصادي ، اذ تحول وجهته الى وجهة اخرى . فهي هدم بناء وتجديد بناء بقصد هذا التحويل . فنجاح الاشتراكية ليس معناه رد التقدم الاقتصادي الى الوراء ، بل تحويل خطته في جهة أخرى بحيث يستمر راقياً من غير أن يؤلم الأنام

ومن أهم نتائج قوة الـكدح تنويع الجماعة الى طبقات من حيث القوة المالية ، اهمها طبقات المتمولين ومديري الاعمال والعمال ، ولتصادم هذه الطبقات تأثير عظيم في تنويع افراد الجماعة ، وتهيئة فئاتها لعملية الأئتلاف والأندماج ، كما سترى في القسم الثاني من هذا الباب

## ج - المثل الاعلى الغاية القصوى من الـكدح

ان تمادي البحث في هذا الموضوع من اختصاص « علم الاقتصاد السياسي » ولهذا لا نقرب الآ الى ما يهم علم الاجتماع منه ايضاحاً للقوى العاملة في الاجتماع . ولذلك يهمنا ان نعلم ما هو العامل الاجتماعي في تضخم الثروة التي هي نتيجة نظام العمل

١ً — تفوّق الصناعي على الطبيعي

لو اقتصرت شهوة الانسان على بسيط العيش لاقتصرت ثروة البشر على ما يستخرجه العامل من غلة الارض . أما الآن ، وقد عظمت ثروة العـالم ، فقد أصبحت غلة الارض عُشر معشار هذه الثروة ، والاعشار الكثيرة انما هي نتيجة الاعمال الصناعية . ذلك لان الجانب الاعظم من أسباب تمتع الانسان أصبح في الوسائل الصناعيـة . فالانتقال في السكة الحديدية ، او في الاوتوموبيل ، والسكنى في القصر ذي الرياش الفاخر، والنوم في السرير الانيق على فراش ناعم، والاكل على مائدة جميلة، وضروب الملاهي والالعاب الى غير ذلك مما يسهل العيشة ويلذ للنفس — كل ذلك ليس نتيجة عمل الفلاّح في الارض بل عمل العمال في المعامل

فترى من ذلك ان العمل الاجتماعي الذي عملته قوة الحرص على الحياة انما هو تحويل الحياة البشرية من الاتكال على الطبيعة ، كما كان الأمر لعهدالهمجية ، الى الاعتماد على الصناعة، وخروج الانسان نفسه من تحت استبداد الطبيعة الى رحمة العقل الاجتماعي . بهذه القوة – قوة الحرص على الحياة ، صار الانسان يستطيع ان يغالب الطبيعة . فيعيش في اسوج ضمن منزل دافيء بالوقيد في ابان الزمهرير ، كما يعيش في خط الاستواء وهو يشرب ماء الثلج الصناعي

والغاية القصوى من هذا العمل زيادة اسباب الترف والتمتع بزيادة الثروة العمومية . ولهذا ترى ان الهيئة الاجتماعية تستنبط كل يوم وسيلة جديدة للسرور والراحة والهناء كما تهتم بانماء الثروة العمومية لاجل الحصول على هذه الوسائل الرفاهية

٢ً — اناقة العصب الانساني

وكان من تأثير هذه القوة (الحرص على الحياة) ان الجسم الانساني تطوّر تطوّراً عظيماً جداً بحيث يستطيع التمتع بالملذات التي استنبطها . وا كثر اجهزته ارتقاء الجهاز العصبي. فقد ارتقى ارتقاء عظيماً واضحاً جداً حتى يمكنك ان تميز درجات فيه ، ليس بين الانسان والحيوان فقط ، بل بين الانسان المتمدن والانسان الهمجي ايضاً

الانسان المتمدن أشدّ تاثراً عصبيًّا من الهمجي . يبتهج بالمناظر الجميلة ، وينقبض كل الانقباض من المناظر القبيحة . يتألم لأقل المؤلمات ، ويستلذ اموراً لا يستلذها الهمجي

روى كثيرون من أطباء الجيش المصري الذين أوغلوا في السودان انهم كانوا يعملون عمليات جراحية للزنوج من غير أن يخدّروهم بالكلوروفورم ، فلا يتألم هؤلاء كثيراً . على انهم لو عملوا تلك العمليات لاي متمدّن بلا كلوروفورم لمات تحت العملية من شدة الالم .

لاحظ الفرق بين موسيقى الزنوج وموسيقى الامم المتمدنة ، تعلم الفرق بين الجنسين في حاسة السمع . ولا ريب ان المتمدن اشد تأثراً بالروائح من الهمجي ، وقد لا يميز الزنجي بين رائحة القرنفل ورائحة الثوم

والفرق بين الانسان والحيوان في كل ذلك اعظم جداً. ثم ان الهمجي والمتمدن يختلفان اختلافاً بيناً في مسألة ذوق الطعام . ولهذا نرى الهمجي يلتهم الاكل التهاماً من غير تلذذ بطعمه ، في حين أن المتمدن يتمهل في مضغه تلذذاً به . ويقال انه لهذا الغرض يسير الطعام في القناة الهضمية عند المتمدنين بابطإ منه عند الهمج ، حتى قيل ان مدة وصول الطعام من الفم الى المعدة انما هي قياس للمدنية

واما الفرق بين دماغي الاثنين في المراكز العقلية فاكيد في يقين المشرحين ولا سيما الفرينولوجيين منهم ، أي الذين يبحثون في مراكز العقل الدماغية . هـذا ناهيك عن الاناقة العمومية في جسمان المتمدن وآدابه وذوقه العام ، مما لا وجود له عند الهمجي

٣ — التمتع بالجمال هو المثل الاعلى

في أوائل عهود الاجتماع كان الرزق أو الحصول على حاجيات الحياة الغرض الرئيسي في الـكدح وادِّخار الثروة . واما الترف أو البذخ فكان امراً ثانو يًا ، ولهذا لم يتوصل اليه الاّ الاعيان الذين كانوا يعيشون عالة على كدح الارقاء والعبيد . اما الآن فاصبح البذخ والترف الغرض الرئيسي من الـكدح وجمع الثروة . واما الحصول على الضروري من الرزق فاصبح امراً ثانو يًا جداً : اولاً ، لانه حاصل على كل حال ولا سيما في البلاد الراقية في المدنية . ولا يكلف مشقة كبيرة . وثانيًا ، لان ثمنه لا يعد شيئًا مذكوراً في جانب ثمن الترف والبذخ . فقد ينفق شخص عشرة جنيهات في شهره و يعيش عيشة صحية لا يعيش افضل منها من ينفق الف جنيه في شهره ، فذاك انفق الجنيهات العشرة في ضرور يات الحياة وذلك انفق الالف في ملذاته وترفه

فترى مما تقدم ان قوة الـكدح صارت ترمي الى غرض التمتع — أي بالجمال اولاً . فالجمال اذاً هو المثل الاعلى الذي ترمي اليه القوى الاجتماعية ، ايْ بلوغ المجتمع الى اعلى درجة من الجمال

# الفصل الثاني

## القوة النسلية الكافلة استمرار الحياة الاجتماعية

### مقدمة - الذكورة والانوثة

١ — نشوء الذكورة والانوثة ٢ً— سيادة الاناث ٣ً— استقواء الذكور

## ا - الحب النسلي

### ١ — الحب الطبيعي — فسيولوجي

ا ً — اجتماعية هذه القوة ٢ً — الزواج ٣ً — التصوُّف

### ٢ — الحب الروحي — عاطفي

١ً — الهوى العذري ٢ً — الاختيار الجنسي المتبادل
٣ً — مفاعيل الحب الروحي الاجتماعية

### ٣ — الحب الزوجي — عقلي

١ً — الحب الزوجي عقلي ٢ً — وحدانية الزوجة والزوج مثل أعلى
٣ً — نظام الزواج وشرعيته ٤ً — الزواج قوة اجتماعية

## ب - الحب العيلي

١ — حب الام ٢ً— حب الاب ٣ً— حب البنين ٤ً— حب الاخوة

## ج - الحب القرابي

# مقدمة - الذكورة والانوثة

## ١ً — نشوء الذكورة والانوثة

الحياة في الاصل فردية الجنس التناسلي ، أي لا ذكر ولا أنثى ، وانما هي جرثومة تتوالد بالتقسُّم، أي أن الجرثومة متى نضجت انقسمت الى اثنتين. وفي بعض الانواع متى نضجت انشق غلافها عن عدة بزيرات كل بذرة تنمو جرثومة قائمة بذاتها،

لا يزال عالم الميكروبات يمشي على هذه القاعدة ، وحويصلات الاجسام الحية تتكاثر بهذا الاسلوب . وفي النباتات التي لا تزهر كالقصب مثلاً ، كل عقدة يمكن أن تغرس وتنبت شجرة قائمة بذاتها . وبعض النباتات التي من فصيلة البطاطس أو القلقاس من هذا القبيل ايضاً ، كل كرة من جذورها تنبت نباتة قائمة بذاتها

فالذكورة والانوثة نشأت متأخرة في تاريخ الحياة . وهناك رأيان في نشوء أحداهما من الأصل . فالرأي الذي ساد عند علماء الحياة السابقين هو أن الانثى اشتقت من الأصل الذي صار بعد اشتقاقها ذكراً . وقول موسى أن الله صنع حواء من ضلع آدم مصداق لهذا القول

والرأي الثاني عكس ذلك ، أي أن الذكر اشتقَّ من الاصل الذي صار بعد اشتقاقه منه يسمى أنثى . وهو رأي أقرب الى الصواب من الوجهة البيولوجية ، لان المولود يتكون في الانثى ويتألف من مادتها وينفصل كجزء منها . وما الذكر الاَّ السبب الثانوي لهذا التكوُّن . فلذلك تُعدُّ الانثى أصلاً ، والذكر فرعاً . وهو رأي غريب مستهجن عند الجمهور

## ٢ً — سيادة الاناث

وفي حياة الحيوانات ما يدل دلالات واضحة على ان للانثى السيادة أو الشأن الاول في التوليد والتربية لحفظ النوع . فهي دون الذكر ذات الحق في اختيار القرين أو رفضه . ولهذا ترى ذكور بعض الحشرات الفراشية جميلة الاجنحة ، وبعضها تضيء، كالحُباحب ، وكذلك ذكور معظم الطيور جميلة الريش . وما الغرض من هذا الجمال الا اجتذاب الانثى ، التي لها حق اختيار الاجمل ، الى الذكر . ومعنى ذلك ان حق الخيار للانثى لا للذكر

وهو معلوم انه لا وظيفة لهذه الذكور الا التلقيح ، وأما الاناث فوظيفتها التوليد والتربية لحفظ النوع . ولذلك ترى ان فئة العمال من النحل تقتل الذكور بعد أن يتم لقاح الانثى (الملكة) اذ لا يبقى لهذه الذكور لزوم بين جماعة النحل ، وهو أمر يؤيد نظرية ثانوية الذكور

وما اقتصرت سيادة الانثى على الحيوانات ، بل استمرت حتى بعد ظهور الانسان ، وبقيت المرأة صاحبة الشأن الأول في العيلة ولها ينتمي البنون . وقد ذكرنا في الفصل الاول من الباب الاول بعض القبائل المتوحشة التي لا تزال السيادة فيها للامومة حتى جيلنا الحاضر

٣ً — استقواء الذكور

ولما كان الذكور من حيوانات وبشر يتنافسون في إرضاء الاناث المنتخِبات لهم صار تنافسهم يفضي الى تخاصمهم واقتتالهم . والاقتتال أفضى على تمادي الزمان الى تقوية أعضاء الدفاع عند الذكور ، كالقرون عند ذكور الثيران والغزلان فضلاً عن القوى العضلية العمومية . وبمثل هذا السبب استقوى ذكور البشر أيضاً حتى تفوَّق الذكور على الاناث في القوة

ولما تنبه العقل البشري الى علاقة اللقاح بالولادة صار الرجل يشعر أنه ذو حق في البنين ، وأنه شريك المرأة في العيلة . فانضم اليها في حياة زوجية . وبما صار له من التفوُّق عليها في القوة البدنية تسيطر على العيلة . ومن ثمت جعل الرجل يستعبد المرأة ، وهو لا يزال يسبقها في الارتقاء العقلي والاستقواء الجسدي ، حتى صارت أخيراً متاعاً بين يديه . وبعد أن كانت المرأة تختار الرجل ، صار هو يختارها . ولهذا جعلت المرأة بحكم الانتخاب الجنسي تتطوَّر حتى صارت بشراً رقيقاً جميلاً وديعاً ، كما أرادها الرجل

وبقيت المرأة عبدةً كلَّ القرون الماضية ، منذ تحضر الانسان الى العصر السابق ، اذ جعلت ترتقي الى مستوى الرجل ، وشرعت تباريه في العمل ، وتستقل عنه في الحياة ، محررة نفسها من عبوديته . والله يعلم انها لسوف تنازعه السيادة وتستردها ، فيصبح ثانوياً في المجتمع ، كما كان لعهد توحشه

هذا مجمل تطوُّر الحياة التناسلية التي هي مصدر قوة حيوية أخرى عاملة في المجتمع البشري ، وقد لعبت ، ولا تزال تلعب ، أدواراً عظيمة الشأن في تكوين المجتمع وتطويره . فعلينا أن نبحث الآن في صنوف هذه القوّة [1]

علمنا في الفصل الاول ، فصل قوة الحرص على الحياة ، أن الجوع هو المحرك الأول لهذه القوة . وفي هذا الفصل — فصل استمرار الحياة — الحب هو المحرك الأول لهذه القوة ، بل هو مصدرها ، وله أدوار عظيمة الشأن في الحياة الاجتماعية، يظهر في كل منها في شكل أو أسلوب . وأهم أساليب الحب :

ا — الحب النسلي
- ١ — الحب الطبيعي . فسيولوجي
- ٢ — الحب الروحي . عاطفي
- ٣ — الحب الزوجي . عقلي

ب — الحب العقلي

ج — الحب القرابي

# ا — الحب النسلي

نشأت الذكورة والانوثة ، والعلاقة بينهما شديدة ، كعلاقة الفرعين في الاصل، كما تقدم بيانه . ولما صارت هذه العلاقة بينهما ضرورية للتناسل واستمرار النوع أصبحت أشدّ توثقًا من قبل . فتوثق هذه العلاقة هو الحب . واذا تعمقنا في تحليل هذا الحب لا نجده الاَّ ضربًا من الجاذبية ، وأقرب ضروبها الى الالفة الكيمية التي توجب اتحاد اثنين ( او اكثر ) لنشوء ثالث يختلف عن الاثنين . كذا الجنين هو ثالث ناتج من لقاح الجرثومة بالبويضة

---

(١) في العدد التاسع من السنة الرابعة من مجلة السيدات والرجال فصل مسهب بهذا الموضوع

## ١ — الحب الطبيعي . فسيولوجي

اذاً الحب النسلي أمر طبيعيٌّ لا مناص منه ، ولولاه لما استمر النوع ، ولا كان مجتمعٌ بشريٌّ أيضاً . وهو أصل أنواع الحب الاخرى . وما تلك الانواع الأ تطورات متفرعة منه . ومهما ارتقت هذه الفروع ، وعظمت أهميتها يبقى الحب النسلي الطبيعي عظيم الاهمية ، وشديد النعرة في الانسان . ذلك لأن تلك الفروع وحدها لا قِبَلَ لها على إدامة النوع — لا قوة لها على التناسل .

١ — اجتماعية هذه القوة

تختلف هذه القوة — قوة ادامة النوع — عن قوة الحرص على الحياة بأمر يهمٌّ بحثنا عظيم الاهتمام وهو : أن هذه القوة — قوة الحب — تحت سلطة الانسان ، قد يمكنه قهرها واخضاعها ومنعها من غير أن يموت بسبب هذا المنع . وأما قوة الجوع فلا يستطيع قهرها لأنه يموت بلا طعام .

ولكن قهر قوة الحب يفضي الى موت السلالة او النوع ( لا نسل للرهبان والخصيان ) . اذاً اشباع شهوة الجوع كافلٌ للحياة الفردية . وأشباع شهوة الحب كافل لحياة النوع او السلالة . فمن ذلك ترى أن مآل القوة النسلية اجتماعي محض ، ويعد من الضروريات الاجتماعية . ولهذا جعلتها الطبيعة شديدة عنيفة عنيدة لا يسهل قهرها

واذا استقصيت جرثومة الاجتماع الأولى وجدتها في الزوجية ، أي أن أول شكل من أشكال الاجتماع انما هو اجتماع الزوجين وتعاونهما . فأساس الاجتماع اذاً الحب النسلي . ولهذا السبب ترانا مضطرين في هذا البحث الاجتماعي أن نتطرّف قليلاً الى البحث البيولوجي ( علم الحياة ) ، لأن القوة النسلية انما هي عامل عظيم من عوامل الاجتماع لا يمكن إغفاله او الحط من شأنه

٢ — الزواج

واذا كانت هذه القوة في البشر قد تطورت حتى فاقت أهميتها الإجتماعية على أهميتها البيولوجية ، لم يبقَ بدٌّ من دخولها ضمن دائرة الأنظمة الاجتماعية. وما عادات الزواج المختلفة الاَّ تنوعات لنظام هذه القوة العظمى .

واذا كان الانسان الاجتماعي قد تسيطر على قوات الطبيعة أفلا يتسيطر على قوة الحب ؟ ولكن لا يخفى أن السيطرة على القوة أمرٌ ، وقهر القوة ورد حركتها الى السكون أمرٌ آخر . فالانسان يستطيع رد هذه القوة الهائلة الى حالة السكون . فانْ رَدَّها من جهةٍ طلبت منفذاً او مجرى لها من جهة أخرى . وجلُّ ما في الأمر أنه يمكن الانسان أن يدرِّبها في مجرى صالح للاجتماع — هذا هو الغرض من أنظمة الزواج

٣ — التصوُّف

واستطاعة الفرد أن يقاوم نعرة الحب في نفسه من غير أن يموت حملت فريقاً من الناس على الاعتقاد أنه يمكن قهر هذه النعرة بلا ضرر ، ومن جرَّاء هذا الظن نشأت المذاهب الصوفية . ولكن الابحاث البيولوجية أثبتت أن التصوُّف انما هو شذوذ عن نواميس الطبيعة لمرض دماغيّ في المراكز العصبية النسلية . ولهذا ترى أن التصوُّف لم ينتشر مهما مارس ذووه مقاومة الشهوة الطبيعية ، ولا أمكن الاهتداء الى وسيلة تصدُّ هذا التيار الحيوي الاجتماعي المتدفق في الهيئة الاجتماعية

أما أمر طهارة هذه القوة فهو من مباحث الفلسة الأدبية ، وعلى هذه الفلسفة أن تصحح الاعتقاد الفاسد السائد بأن القوة النسلية فساد أدبي او أمرٌ يناقض الحشمة

## ٢ — الحب الروحي . عاطفي

اذا كان الانسان يستطيع ان يقاوم هذه القوة الى حد فهي اذاً تحت سلطة الجهاز العصبي اكثر مما هي تحت سلطة القوة الحيوية في الجسد . وللعقل اذاً سيطرةٌ

عليها . ولهذا تُعَدُّ من العواطف بل هي اقوى العواطف . وهذا هو سر أن للجمال تأثيراً عظيماً في هذه العاطفة . وتأثير الجمال فيها بحيث يثيرها ، وعدمه يخمدها ، هو سبب الاختيار الجنسي ، أي اختيار كل من الذكر والانثى الآخر ، وتفضيله على سواه لجمال فيه ليس في ذاك

١ — الهوى العذري

وهذا التخثُّر انما هو تطوُّرٌ في الحب النسلي الطبيعي ، وتوسعٌ فيه الى حد أن أحد الجنسين لا يتوق الى ذاتية الآخر فقط ، بل يتوق الى جماله أيضًا . أي أن الذكر مثلاً لا يطلب أي انثي لمجرد كونها انثي ، بل يطلب انثي جميلة ، لانها جميلة . وكذا الانثي لا تتطلب أي ذكر ، بل تبتغي ذكراً جميلاً

ومعنى هذا ان الحب خرج عن كونه عملاً فسيولوجيًا فقط ، وتوسع جداً حتى صار عاطفة روحية ايضًا تشتهي الجمال . ولهذا سميناه « الحب الروحي » وهو في لغة الشعر عشق أو غرام

وقد ارتقى الحب الروحي ارتقاء عظيماً جداً ، حتى صار اعظم من الحب الطبيعي واقوى ، مع انه ليس ضروريًا مثله لاستمرار النوع وتأسيس الاجتماع . قد ارتقى الحب الروحي حتى صار الجمال غايته القصوى لا الاتحاد الجنسي ، وقد تمادى هــذا الحب في توسعه وارتقائه حتى نشأ منهُ « الحب العذري » الذي تجرَّد عن الغاية المادية ، واقتصر على ارضاء الشهوة الروحية فقط — الصبابة . وفي شعر ابن الفارض ومن نحا منحاه فلسفة الهوى العذري

« عديني بوصلٍ وامطلي بنجازه فعندي اذا صحَّ الهوى حسن المطلُ »

٢ — الاختيار الجنسي المتبادل

هذا الحب الروحي انما هو وليد المدنية أو الحضارة الراقية . لانه لما تغلَّب الرجل على المرأة واستعبدها في عهود همجيته ، قلَّما كان يختار الزوجة لجمال فيها ، لان المرأة لذلك العهد لم تكن قــد تجملَّت ، بل كان يشتريها شراء من اهلها كأنها سلعة ،

أو يخطفها خطفاً ، أو يسبيها سبياً في حرب . فكانت كمتاع يُقنى بلا اختيار لحب روحي

ولكن مهما كانت المرأة في عهد فقدانها سيادتها ، ووقوعها في وهدة العبودية عديمة الجمال ، فلا بدَّ من تفاوت بين النساء في القبح والجمال . وهذا التفاوت ينبه العاطفة الروحية في الرجل ، فيفضل الجميلة ، أو قليلة القبح ، على غيرها . ولما صار يفضل هذ التفضيل ، أو يختار الجميلة، تكفل «ناموسا الوراثة» و «الاختيار الجنسي» بتحسين المرأة وتجميلها . فصارت على التمادي تتجمل وتتحسن الى أن اصبح جمالها امنيَّة الرجل ، لانه مع ارتقاء جمالها ارتقى حبه الطبيعي حتى صار روحيًا غايته الجمال

ولما بلغ حب الرجل قمة « الهوى العذري » صار يعبد ذلك الجمال وصاحبه ، ومن ثم جعل الرجل يُعنى بالمرأة ويهتم في مسراتها وتفريحها ، وينفق على تزيينها ، ويبذل العالي والرخيص في استزادة جمالها

الى ذلك الحين ما زالت المرأة سلعة تباع وتشرى ، فلا تشاوَر في زواجها ، بل يزوجها اهلوها لمن يدفع لهم ثمنًا اوفر ، أو من يرضيهم اكثر . ولكن لما صار الرجل يعبد الجمال جعلت المرأة تمادي في الدلال ، وشرعت تبغي الاستقلال ، وتزج رأيها بين رأي ابويها في امر زواجها .

منذ نحو عشرة قرون يمكنك ان تقول أن المرأة صارت ذات رأي في أمر زواجها . صارت تختار كما يختار الرجل . صار الاختيار حقًّا للاثنين على السواء ، أو شرع يصير هكذا . وحينئذ وجب على الرجل ان يتجمَّل كما تتجمل المرأة ، لكي يكتسب رضاءها ، كما هي تكتسب رضاءه ، أو لكي يغرها بهِ ، كما تغرُّه بها . وكانت النتيجة أن الاختيار الجنسي اصبح متبادلاً . ومنذ ذلك الحين نشأ دور الفروسية ، والبطولة والانفة والشهامة وكرم الاخلاق والنخوة ، الى غير ذلك من خواص الرجولية ارضاء للمرأة ، وإغراء لها

وكان من نتائج هذا التطور في الحب : اولاً، تمادي الجنسين في ابتغاء الجمال، حتى صار الجمال المثل الاعلى ، وهو منتهى تفنن الطبيعة في تنفيذ مأربها ، أي استمرار النوع ، بواسطة التناسل. صار الحب النسلي في نظر الانسان ثانويًا ، والحب الروحي

اوليًا. فهو لا يقصد ادامة النوع ولا تهمه ادامته ، وانما تهمه مسرة نفسه وتمتيع عواطفه بملذاته . ولكن الطبيعة رقت الحب الروحي ، حتى تجعله خادمًا امينًا للحب الطبيعي الذي يكفل ادامة النوع

ثانيًا ، ان هـذا التطور افضى الى أن المرأة مهدت السبيل لاسترداد حريتها ، ومطالبتها الرجل بحق مساواتها به . وقد لا يبعد ان تعود فتسترد سؤددها السابق ، وتظفر بزمام السيطرة ، وتعود السلالة امومية ، كما كانت ، وتنتفي السلالة الأبوية

٣ — مفاعيل الحب الروحي الاجتماعي

اما النتائج الاجتماعية البحتة من جراء تطور هذا الحب فهي : اولاً ، ان الطبيعة ضمنت عمل هذه القوة ، فاصبحت عاملاً محتومًا لاستمرار النوع ، وبقاء الجنس البشري ، بحيث لا يستطيع اي عامل آخر أن يقاوم هذا العامل ، ويقلبه ، ويجعل بقاء النوع تحت خطر

ثانيًا : أن الاختيار الجنسي المتبادل سهّل عملية الاندماج ، أي اندماج الاسرات والعشائر والقبائل والاقوام ، بعضها ببعض اذ اتسعت دائرة التزاوج . زد على ذلك أن اتساع دائرة التزاوج ، بحيث يتيسر تزاوج اثنين من قومين متباعدين ، يفضي الى تحسين النوع كما هو مقرَّرٌ من الوجهة البيولوجية . وهذا هو سرُّ اندفاع الانسان في سلم التفوُّق على الحيوان — اذاً ، الحب الروحي يأول الى توازن بيولوجي في الهيئة الاجتماعية . وهذا هو سر أن سلالات أوروبا وأميركا تكاد تكون متساوية في خواصها الطبيعية والاجتماعية

ثالثًا : أن تعاظم الحب الروحي هـذا أخرج القوة الحيوية الحريصة على بقاء الحياة من دائرة عملها ، وجعلها تعمل لأجل هذا الحب ، كما شرحنا ذلك في النبذة الأخيرة من الفصل السابق . أي أن الانسان صار يبذل تسع أعشار قواه الحيوية العضلية والعقلية لأجل إرضاء هذه العاطفة — الحب الروحي ، الجمال — والعُشر الباقي فقط لأجل الحرص على الحياة الجسدية .

صار الرجل يكافح الطبيعة ، ويخضع البيئة لأمره في سبيل تحصيل الثروة والجاه والنفوذ السياسي والابهة والمجد ، لا لكي يعيش عيشة حيوانية ، بل لكي يغرَّ المرأة ويستميلها اليهِ — لكي يعيش عيشة روحية عاطفية . وهي من جهتها أيضاً صارت مضطرة أن تباريه في هذا المضمار ، أي انها تبذل من قواها للحصول في نفسها على ما يعجبه اغراء له ولاستمالته

ولا يخفى ما في هــذا التمادي ببذل القوى الحيوية من الاندفاع في الارتقاء الاقتصادي ، حتى ظفر الانسان بأزمَّة البيئة ، وأخضعها لسلطانهِ ، إلى أن جعل الكرة الارضية كلها الآن كأنها في منزله ، يتصل بأطراف المعمور في الحال ، وهو في مخدعه أو مكتبه . هل من فوز على الطبيعة أعظم من هذا ؟

رابعاً : لما كانت الفضائل الادبية من صنوف الجمال ، كان الاختيار الجنسي من بواعث ترقية الفضائل او اكتشافها ، واعتناق البشرية لها . فلما كان الرجل يختار المرأة الجميلة والعفيفة والامينة في الحب ، كانت المرأة تختار الرجل القويّ الذي يستطيع أن يحميها ، والرجل العادل الذي ينصفها ، والرجل الكريم الذي يكفيها حاجاتها ، والرجل الانوف الذي يصون عرضها . فهذا الاختيار المتبادل للفضائل دفع القوى الادبية الى الامام دفعة عظمى ، وعليه بنيت النظامات الاجتماعية من سياسية وغيرها على أساس وطيد .

فترى مما تقدم أن عامل الحب ، ولا سيما الحب الروحي ، مؤسّسٌ كل نظام اجتماعي ، او ان جرثومة كل نظام اجتماعي نشأت من هذا الحب الروحي . فما أعظم هذا العامل بين العوامل الاجتماعية الفعّالة !

## ٣ — الحب الزوجي . عقلي

١ — الحب الزوجي عقلي

الحب الزوجي هو منتهى الحبين ، الطبيعي والروحي ، ويأتي بعدهما . ويمتاز عليهما بخواص ليست فيهما . الطبيعي يعتمد على الطبيعة ، والروحي يعتمد على العواطف

واما الحب الزوجي فيعتمد على العقل ايضاً، فضلاً عن الطبيعة والعواطف. فهو أرقى وادوم. الحب بين الزوجين مبني على مبادىء فلسفية عالية والا فلا يكون - ولا يكون حباً زوجياً - ولا بدَّ فيه من اخلاق خاصَّة، والا فهو طبيعي أو روحي فقط، ولا يدوم. لا بدَّ فيه من توافق العقل والقلب وتجاذبهما، حتى يبقى بين الزوجين، بعد مرور العاصفة العاطفية، سرور النفس بالعشرة المتبادلة، والشركة في الحياة، والتعاون في تربية الاولاد - هنا تبتديء الوحـدة الاجتماعية، جرثومة الجماعة، ونواة الهيئة الاجتماعية

فهذا الحب لا يكون الا في حالة اختصاص كل من الزوجين بالآخر وحده. واما في حالة تعدد الزوجات، او حالة تعدد الازواج، فالحب لا يتجاوز الحب الروحي، وفي ادوار الهمجية لا يتجاوز الحب الطبيعي. اذاً وحدانية الزوجة أو الزوج لا يمكن ان تكون اقدم من الحب الروحي الاَّ لسبب اقتصادي

اما تعدد الزوجات فما هو الا احتكار الرجل القوي عدداً من النساء كما يحتكر عدداً من الجياد. وحالما يستقوي الى جنبه رجال آخرون ينازعونه النساء، وتتوزع النسوة على الرجال بقدر توزع القوة والصولة فيما بينهم، الى حد ان يكون لكل رجل مرأة، اذا اقتسموا الحقوق بينهم بالتساوي، أو بموجب شريعة تقضي بالمساواة

٢ً - وحدانية الزوجة والزوج مثلٌ اعلى

وما دامت المرأة متاعاً أو ملكاً للرجل فليس ثمت تعاسـة زوجية، لان بينهما تفاوتاً أجتماعياً عظيماً يمنع احتكاكهما. فهو الآمر وهي الخاضعة الصاغرة. فلا يحدث بينهما من النزاع اكثر مما يحدث بين الفارس وجواده. ولـكن متى زالت ملكية الرجل للمرأة، وصارت تعد مساوية له، أو مقاربة في الحقوق، صار حدوث الخصام بينهما محتملاً، وصارت الحياة الزوجية عرضة للتعاسة. ولهذا قلنا ان الحياة الزوجية تحتاج الى قواعد فلسفية تمشي عليها، وتحتاج الى اخلاق تتدارك ذلك الخصام. اما القواعد الفلسفية فتقضي أن يكون بين الزوجين تساوٍ في القيمة العقلية والادبية

قبل تساويهما في الحقوق ، والا فلا مناص من حلول التعاسة بينهما . واما الاخلاق فيجب أن تكون دمثة جداً ، حتى تقضي بالتساهل بين الطرفين بحيث يلتقيان عند نقطة الوفاق . ومع ذلك يظل الحب الزوجي مثلاً اعلى ، و يكاد يعز نيله

٣ — نظام الزواج وشرعيته

ولهذا السبب صار الزواج نظاماً اجتماعياً ذا قيود ادبية شرعية . وهذه القيود تختلف باختلاف الحالة الاجتماعية . ففي نظر اهل الادوار الهمجية كانت وحدانية الزوجة تعد ظلماً للرجل ، وفي عهود المدنية السابقة كانت تعد امراً محموداً ، وفي العهود الاخيرة تعد فضيلة ، وتعدد الزوجات يعد امراً يُشْمَأَزُّ منه ، وفي اوروبا واميركا محرَّم بتاتاً . فترى أن الهيئة الاجتماعية متقدمة في توطيد وحدانية الزوجة والزوج ، لانها المثل الاعلى ، ولانها مكفولة الاعتماد على الحب الروحي الذي عرفناه آنفاً اقوى عامل اجتماعي بين القوى النسلية . ولما كانت سعادة الزوجين عرضة للتزعزع لما تقدم بيانه ، كانت شرائع الزواج على الغالب تحبِّذ الطلاق بشروط مختلفة اقصاها انتفاء الحب المتبادل بين الزوجين . وهو شرط لم تدمجه في شرائع الزواج والطلاق الاَّ الامم القليلة

٤ — الزواج قوة اجتماعية

اما مفاعيل قوة الحب الزوجي في الاجتماع فهي : اولاً ، كون هذا الحب جرثومة الوحدة الاجتماعية كما تقدم . وثانياً ، انه ينشيء في الرجل روح التضحية لاجل العيلة ، فيعمل لا ليعيش ، بل ليعول زوجتهُ واولاده ، ويهنئهم ، و يسعد حياتهم . الق نظرة على التاريخ الحديث ، وانظر ما فعل الرجل في القرون الاخيرة من الافعال العمرانية ، قبل ان تنبري المرأة الى مضمار العمل معه اخيراً . كل ذلك عمله الرجل لانه زوجٌ وابٌ

## ب — الحب العيلي

الحب العيلي يشمل حب الأبوين للبنين ، وحب البنين للأبوين ، وحب الاخوة .

١ — حب الام

حب الام أعظم وأقوى حب ، لسبب ما عرفته في طالع هذا الفصل من أهمية الانوثة وأولويتها وأوليتها . فهو حب مغروس في طبيعة المرأة ، بفعل ناموسيّ « الوراثة » و « بقاء الانسب » . فالام الاقل حباً انقرض نسلها ، والام الاكثر حباً انتشر نسلها . فلذلك كان حب الام شرطاً او سنّةً من سنن حفظ النوع البشري

حب الام طبيعي لأنها ترى صريحاً أن مولودها انبثق منها . فهو جزء منها وهي تحب جزأها . ثم أن في ثدييها من الاعصاب ما يعظم لها لذة الارضاع ، فهي تحب طفلها لأنها تستلذ ارضاعه . فانظر ماذا اعدت الطبيعة في الانثى لأجل حفظ النوع – حباً عظيماً لا يقل عن حبها لنفسها . وفي أدوار المدنية العليا تفوّق على حبها لنفسها ، كما فاق الحب الروحي على الحب الطبيعي

٢ — حب الاب

يكاد يكون فرعياً كما أن الذكورة فرعية . فهو لما صار يعلم العلاقة بين اللقاح والتناسل ، صار يشعر أنه شريك الام في ملكية الاولاد ، ولذلك عليه مسأولية حمايتهم وعيالتهم ، كالام ، الى أن صار معواناً لها . بعد ذلك صارت العشرة العيلية تنمي الحب الابوي ، حتى كاد يضارع حب الام

٣ — حب البنين

حب البنين للوالدين ما هو الا ردُّ فعل أي تصادم عاطفي لا بد منه . لا يمكن أن يقع حب الابوين على نفس البنين الا يرتد اليهما ، فهو طبيعي . طبيعيٌ أن تحب من يحبك ، وتكرم من يكرمك ، وتعطف على من يعطف عليك

٤ — حب الاخوة

انما هو نتيجة تفاعل العشرة العيلية ، وضرب من التقليد الاجتماعي أي المحاكاة ، كما رايت في أن حب الوالدين الذي يقع على نفوس البنين ينعكس الى ما بين الاخوة أيضاً .

# ج - الحب القرابي

الحب القرابي هو الحب الذي يربط بين أبناء الاعمام والعمات والاخوال والخالات . فهو أمواج من الحب العيلي تنتشر في العشيرة او القبيلة او القوم ، وكلما ابتعدت عن العيلة ضعفت . فهو من جهة موروث من الاعمام والاخوال والجدود ، ومن جهة مقوّىً بفعل التقليد ( المحاكاة ) . هذا الحب عامل عظيم في حفظ ذاتية القومية الدموية . ولا تضعف القومية الدموية الاّ متى تضعضعت هذه القرابة ، بين ما يندمج فيها من عناصر قومية ، أو قوميات أخرى ، أو تتلاشى في القوميات الأُخرى

فهو اذاً حافظ لذاتية الجماعة السلالية . ومهما بعدت القرابة او تلاشت في السلالة يبقى بين أفراد السلالة من الحب المتبادل ما يكفل حفظ ذاتيتها .

ليس الحب القرابي هذا وحده يكفل حفظ ذاتية الاسرة او القوم او السلالة ، بل هناك قوة أخرى نقيض الحب ، وهي البغض — بغض الاسرات الاخرى والاقوام الاخرى والسلالات الاخرى التي يقضي الحب القرابي بابعادها او الابتعاد عنها .

و بقدر ما يضعف الحب القرابي في انتشاره يقوى البغض . حتى متى بلغ الى حدود القوم أو السلالة القصوى صار بغضاً تاماً ، كثيراً ما يفضي الى الحرب

فهذا العامل اذاً هو المحدد ذاتية الاقوام والسلالات ، والمقيم حواجز بينها

# الفصل الثالث

## القوى الاجتماعية

### أ — القوى الادبية

١ً — اداب الجماعة او السلالة ٢ً — الشريعة ضد العواطف
٣ً — آداب الفرد ٤ً — الغيرية ٥ً — الانانية ٦ً — حب الوطن
٧ً — الانسانية

### ب — القوات الذوقية

١ً — تدرُّج القوة الذوقية ٢ً — التقليد للاعجم ، والابداع للانسان
٣ً — الارتقاء متّجه الى الابداع ٤ً — المثل الاعلى
٥ً — القوة الذوقية عامل اغرائي

### ج — القوات العقلية

١ً — تطور المعرفة في الفرد ٢ً — تطور المعرفة في المجتمع
٣ً — العلم ثمرة تسيُّد الاعيان ٤ً — الديموقراطية ثمرة نهوض الصناعة
٥ً — مفاعيل القوى العقلية

---

القوى الاجتماعية مشتقة من حاصلّ القوى الطبيعية ( الحيوية والنسلية ) ، بعد ان عملت هذه القوى قسطها من العمل في تكوين المجتمع وتطويره . ولهذا تجد ان القوى الاجتماعية احدث جداً من تلك ، ولا تكاد تجدها في الجماعات الموغلة في الهمجية ، ولا تجد جراثيمها الا في الجماعات التي صارت ذات انظمة ثابتة . فما هي الاّ نتائج الحركات أو الحوادث الاجتماعية المتوالية التي بلغت الى حد التوازن ، او هي نبضات الجنس البشري التمدنية

هذه القوى متعددة ومتشعبة كثيراً ، لانها هي نفسها شعاب وفروع لاصول طبيعية الممنا بها آنفًا . وانما يمكن ردها الى ثلاثة فروع اولية ، وهي : ١ - قوى ادبية ٢ — قوى ذوقية ٣ — قوى عقلية

## ا - القوى الادبية

كل قارىء يلاحظ فرقًا بيِّنًا بين آداب الفرد وآداب الجماعة . خذ مثلاً حب الوطن ، فقد يحملك على أن تضحي بنفسك لأجل وطنك . ولـكنك مهما تناهيت بحب ابن الوطن فليس عليك أن تضحي بنفسك لأجله

الشريعة الاجتماعية تقضي بعقاب من يعتدي عليك ، ولكنها لا تسوِّغ لك أن تنتقم منه . فللجماعة حق غير حقك . لحكومة الأمة أن تعاقب المعتدي ، ولك أن تشكوه اليها فقط . من ذلك ترى أن القوى الادبية نوعان : آداب الامة او السلالة او الجماعة ، وآداب الفرد

القوى الأدبية في الجماعــة ترمي إلى غرض صون الجماعة وسلامتها . والقوى الأدبية في الفرد ترمي الى تكييف الفرد لكي يندمج في الجماعة و يتثبت فيها .

١ً — اداب الجماعة او السلالة

جميع الانظمة الاجتماعية من دينية واقتصادية وسياسية انمــا هي مفاعيل هذه القوى الأدبية التي في الجماعة . وليس أحد يتردد في التسليم بأن القوانين والشرائع في الامة انما هي زبدة العادات والتقاليد السابقة فيها ، كما علمت في الباب السابق

فلذلك ترى أن آداب الجماعة تؤيد عمل الوظيفة الاجتماعية وتقاوم مشتهيات العواطف ، خلافًا للآداب الفردية التي ترمي الى إرضاء العواطف . اذاً لا بد من التصادم بين الآداب الفردية وآداب الجماعة . والى الآن لم يتيسر للطبيعة أن تصالح بين هذه وتلك . ولا يمكن أن يتصالح الفريقان ويتفقان الاَّ حين ينتهي التطور الاجتماعي . حينئذٍ تقف الحركة — سكون . موت .

انما الطبيعة ابتدعت العواطف – مصادر اللذة والالم – اغراء بالوظيفة . فالفرد يعمل العمل طمعاً بلذتهِ منه ، لا ابتغاء لنتيجته الاجتماعية . وكذلك يمتنع عن العمل ليس تحايداً لنتيجته الاجتماعية ، بل خوفاً من شر ألمه

ولكن القوى الأدبية التي للجماعة تضحي بعواطف الافراد لأجل سلامة الجماعة . لذلك لا ترى شريعة صادرة من فرد واحد تكفل العدالة او سلامة الجماعة . لا يكون القانون او النظام حافظين لسلامة الامة ، الاَّ اذا سنَّهما الجمهور او اكثرية الجمهور . متى اشترك الجمهور في سن القانون والنظام لا يعود الفرد يستطيع أن يجعل القانون طبق مصلحته وحده

٣ — الشريعة ضد العواطف

اذاً اداب الجماعة تقيم الموانع في سبيل كل قوة أدبية عدائية او ضارة او خطرة لسلامة الجماعة . كذا مرماها الأصلي . ولكن كثيراً منها شذَّ مع التمادي عن هذا المرمى ، او أن الغرض نفسه حاد عن مرماها ، كما ترى أحياناً في القوانين والنظامات مما لم يعد موافقاً للجماعة ، إما لأن النظام نفسه فسد ، او اختل مع التمادي ، او لأن الجماعة تطوَّرت ، فلم تعد توافقها تلك النظامات والقوانين

ترى في النظامات الدينية كثيراً من مناقضات مصلحة الاجتماع ، اما لان أهل الاديان أفسدوا المبادىء الدينية ، أو لان المجتمع تطور فلم تعد النظامات الدينية توافقه

اذاً الشريعة ليست الا تقييداً لحرية الفرد ، ومقاومة لشهواته . ولا يمكن ان تتمكن الاجتماعية في امة ، او ان تترقى مدنيتها ، الاَّ بقدر ما ينشأ فيها من النظامات والشرائع. وكلما ترقت شرائع الجماعة ونظاماتها ضاقت حرية الفرد ونوقضت شهواتهِ.

على أن الفرد الاجتماعي يمتاز على الحيوان غير الاجتماعي بمرونة طبعه . فلا يتعذر عليه ان يكيف نفسه وعواطفه حسب مقتضى الاجتماع وسننه . واذا اقفلت الشريعة منفذاً لعواطفه، فتحت لها منفذاً جديداً ، حتى تبقى اللذات والآلام محرّضة له على اتمام الوظائف التي تعمل الطبيعة بواسطتها في الحرص على حياة المجتمع .

اذاً هذه العوامل الاجتماعية ترمي دائماً الى تهيئة الفرد لـكي يندمج في الجماعة ويصبح جزءاً منها لا ينفك عنها .

٣ — اداب الفرد — الانانية

الانانية اصل في الحياة . والحي لا يستطيع أن يعيش اذا لم يكن انانياً ، أي انه يحب نفسه قبل كل شيء . يجب ان يكون كذلك ما دام فرداً مستقلا . ولـكنه متى اضطرَّ ان يأتلف مع غيره صار جزءاً من كلّ ، معتمداً على ذلك الـكلّ . فلابدَّ له حينئذٍ من ان يحب ذلك الكل ، ويعمل لاجل سلامة ذلك الكل ، والحرص على حياة ذلك الـكل ، والاّ هلك وباد مع ذلك الـكل .

فحب ذلك الـكل ، أو بالاحرى حب الافراد الآخرين الذين يؤلفون معه ذلك الكل – أي حب الغير ، أو حب القريب ، كما يسميه الانسانيون — يسميه فلاسفة الاداب « الغيرية » . وهي مشتقة من الانانية كما رأيت . على ان الجمهور يتوهمون أن الغيرية نقيض « الانانية » . والحقيقة انها لا تناقضها ، ولا تنفيها ، بل تعمل معها . واما التضحية بالنفس لاجل الـكل فهو تناهٍ في الغيرية .

هذه الغيرية هي اساس كل آداب الفرد ومصدرها

٤ — الغيرية

لا يخفى أن اشتقاق «الغيرية» من « الانانية » لا يمكن ان يكون عملاً طبيعياً منحطاً ، بل لا بد أن يكون عملاً عقلياً راقياً مكتنفاً بالعواطف . لاننا لا يمكن ان نتصور حياً يعقل ان مصلحته تقضي عليه بالعمل لاجل غيره ، كما يعمل غيره لاجل حفظ سلامتهما معاً – لا نقدر أن نتصوره ، وهو هكذا خالياً من العواطف . فمهما كان التعقل ضعيفاً ترافقه عواطف ولو ضعيفة . اذاً اشتقاق الغيرية من الانانية لا يكون عمل العقل وحده ، بل لا بد فيه من عمل العواطف ايضاً . فالاهتمام بامر الغير يستلزم « العطف » على الغير ، وهذا « العطف » يستوجب تصور حالة الغير . لا تعطف على متألم مالم تتصور ألمه حتى تكاد تشعر به . ولا تشفق على المسكين مالم

تمثل في ذهنك مسكنته، وتلوح لك قيمتها فيما لو كنت انت متألماً مثله . فهذا العطف اذاً هو القوة المحرّضة على الغيرية ، أي العمل لاجل مصلحة الغير — هذه هي القوة الادبية في الفرد ، العاملة لاجل المجتمع

وهنا تقوم أمامنا مسألة دقيقة وهي منشأ « العطف » . هل المصلحة الذاتية التي قضت بالغيرية انشأته ، أو إنه هو نبَّه الفرد الى هذه المصلحة ؟ وبعبارة أبسط : هل أن معرفتي أن مصلحتي تقضي عليَّ بأن أعاون هذا المسكين هي التي أثارت عطفي ؟ ام أن تأثري من حالة هذا المسكين حتى عطفت عليه ، أرشدني الى أن لي مصلحة في إسعافهِ ؟

والظاهر أن الأمر الثاني هو الاسبق ، وهو السبب ، أي أن العطف سبق الانتباه الى المصلحة الذاتية المضمونة في الغيرية ، بدليل أن العطف نشأ أولاً في الام . الام عطفت على ولدها قبل أن أدركت أن لها مصلحة في سلامته ، فأورثته سجية العطف . ترى الغيرية في الام في منتهاها ، حتى في العجماوات تراها الى أن يترعرع الولد . بعد ذلك يفترق عن أمه ولا تعود تعرفه ، فيصبح غريباً عنها

٥ً — الانانية

قلنا أن الغيرية ، التي هي أساس كل آداب الفرد ، قوة اجتماعية . ولكنَّ كونها كذلك لا ينفي أن الانانية قوة ايضاً ، بل هي القوة الاولى التي اشتقت منها قوة « الغيرية » . وما جاءت « القوة الغيرية » الاَّ لكي تكبح تلك وتحفظ توازنها . فالقوة الانانية اذا انتفت تماماً تلاشت قوة الفرد بتاتاً ، وهلك كأنَّه بلا قيمة . وكذلك اذا أطلقت العنان للانانية ، اندفعت في تمزيق الاجتماعية .

تصور الرجل انانيًّا يستبد بالمرأة وانظر ماذا تكون العيلة في الهيئة الاجتماعية ، أو تصور الزعيم يستبد بالجماعة ، فماذا يكون مصير الجماعة ؟ — دمار العيلة والجماعة معاً

٦ً — حب الوطن

اذا كانت محبة الام تتضمن الغيرية فالمحبة القرابية المشتقة من محبة الابوين تتضمن الغيرية أيضاً ولو بقدر أقل . فالغيرية تنتشر مع المحبة القرابية حتى تبلغ الى

أطراف العشيرة او القبيلة او السلالة ، حتى اذا تلاشت القرابة بقيت الغيرية . تلك محبة تنبض مع الدم ، وهذه عطف ينبض مع العواطف الروحية . تلك تنتشر انتشاراً أفقياً يضعف كلما اتسعت دائرته ، يضعف حتى يتلاشى عند أطراف القبيلة . وهذه تنموا نمواً عمودياً مع التاريخ المتطور ، وتقوى كلما ارتفعت حتى تتجاوز حب القريب والجار والاسرة الى أن تبلغ الى « حب الوطن » ، حيث تشمل كل من كان ضمن الوطن من قوم ، وحيث تستغرق الشعبية كل سلالة مندمجة فيها

٧ — الانسانية

الغيرية خاصة من خواص التمدن ، كما أن المحبة القرابية خاصة من خواص العصبية القومية . وكلما ارتقت الامة في المدنية قويت غيريتها ، وتلاشت المحبة القرابية فيها ، بتضعضع العصبية في بحر الشعب المزجي[1].

تقوى الغيرية وتتسع دائرتها حتى تثمر المشروعات الخيرية المختلفة ، كمساعدة المساكين والضعفاء ، بقطع النظر عن عصبيتهم او مللهم او نحلهم . وما دامت المدنية ترتقي وتنتشر فالغيرية لا تقف ضمن حدود الامة او الوطن ، بل تتجاوزها الى سائر الامم والاوطان ، فيشمل المعروف او الاحسان او المساعدة المجانية جميع البشر ، بقطع النظر عن جنسياتهم وأوطانهم — وهنا تسمى الغيرية « انسانية » اذ يعتبر جميع الناس اخوة لاب واحد ، هو آدم

لجمعية الصليب الاحمر وجمعية الهلال الاحمر مثلاً تعدان « غيرية انسانية ». وتعد من هذا القبيل الجمعيات التي تنفق على نشر العقائد الدينية وغير الدينية في العالم ، لغير غرض شخصي ، اللهم الا بث ما يعتقده اعضاؤها من المبادىء النافعة للبشر ، وكذلك الجمعيات التي تهتم بنشر العلوم والعرفان في الاوطان الاخرى

اذاً ترى أن الغيرية عامل اجتماعي عظيم يعمل في ادماج الافراد في الجماعة وتوثيق رباط الجماعة . ثم يعمل ( حين يكون في درجة « الانسانية » ) في مؤاخاة الامم بعضها لبعض . فهو اذاً العامل الاقصى لتوحيد الامم

ولا تزال الغيرية ترتقي حتى تتناول مفاعيلها الحيوان الأعجم ، لأنها ، وهي عطف

---

( ١ ) انظر معنى الشعب المزجي ، صفحة ٢٩ ، والجماعات الامية صفحة ٥٧

على الضعيف ورغبة في دفع الألم عنـه ، تتناول كل حي ذي شعور يحس بالألم . فجمعيات الرفق بالحيوان تجمع الأفراد الذين ارتقى عطفهم حتى بلغ الى الشفقة على الحيوانات

فترى ممـا تقدم أن الغيرية نشأت كفرع من الانانية . والانانية خاصة من خواص الحياة المتمايزة عن الجماد بخواص النمو والتناسل والموت . والحرص على الحياة يستلزم الانانية التي تبعث الى الاستئثار

الانانية خاصة في الاحياء جميعًا اناسًا وحيوانات . وأما الغيرية فخاصة بالانسان الاجتماعي . ولهـذا تعدُّ قوة اجتماعية ، أي انها نشأت من مفاعيل العوامل الحيوية والنسلية التي صيّرت الانسان اجتماعيًّا

## ب - القوات الذوقية

نعني بالقوات الذوقية العواطف التي تتجه الى الجمال ، او هي انعطاف الانسان الى الجميل ، حتى يتذوَّقه تذوُّقًا عقليًا ويستلذه . وهي التي دفعت الانسان الى العناية بالجمال ، والى استنباط الجميل

واذا تعمقنا في استقصاء حب الجمال وجدنا أن القوة الذوقية نشأت مع نشوء الانتخاب الجنسي في الحيوان ، منذ كان الذكر يتجمل اغراء للانثى . وبهـذه القوة التي في الانثى — قوة استحلاء الجميل واستملاحه وتفضيله وايثاره في تلبية اوامر القوة النسلية — صارت الذكور تتكيف على التمـادي بحسب ناموسي الانتخاب الجنسي والوراثة الطبيعية ، وتتطوَّر في الجمال ، وتزداد بداعة وجمالاً ، وتعكس فعل هذه القوة في الاناث ، فتثير حبهن للجمال

١ — تدرج القوة الذوقية

تتدرج هذه القوة في ثلاث درجات

﴿ ١ — الدرجة التأثرية ﴾ وبها تنفعل النفس انفعالاً جديداً لفاعل غير فاعل الشبع للجوع — تنفعل لفاعل الجمـال الذي يشبع شهوة جديدة في النفس ، شهوة النفس الى التنوع بعد الملل والسآمة من الوتيرة الواحدة

﴿ ٢ — الدرجة التصورية ﴾ وهي امتلاك النفس هذا الجمال وحفظه في المخيلة تلذُّذاً به. وهذا التصور ، اي تصور الجميل والحكم على كونه جميلاً ، هو الذوق العقلي

﴿ ٣ — الدرجة الابداعية ﴾ وهي رد النفس لفعل هذا الفاعل — رد هذه الصورة التي انطبعت في المخيله واظهارها لنفوس اخرى — في هـذه الدرجة توعز المخيلة الى سائر القوى العقلية ان تمثل ذلك الجمال في الخارج ، وان تركب من مختلفات الصور الجميلة التي انطبعت في المخيلة جمالاً جديداً بديعاً — هنا منشأ الفن الجميل

على ان الدرجة التصورية تستخدم في رد الفعل هذا ( أي الانتقال من الدرجة التصورية الى الدرجة الابداعية ) قوتين عقليتين اخريين الى جنبيها : الاولى قوة التقليد ( المحاكاة ) فتفعل قبلها . والثانية قوة التخيل ، وتفعل بعدها

التقليد يُقدِر المصور على أن ينسخ الصورة نسخا طبق الاصل . والتخيل يتكفَّل بابداع صور جديدة غير موجودة في الطبيعة جملة ، ولكنها مركَّبة من اجزاء موجودة بالحقيقة متفرقة. وهذا هو المجاز . فالمصور يستطيع ان يصور صورة جميلة ليس مثلها في الطبيعة ، ولكنها مركبة من اجزاء جميلة متفرقة في الطبيعة . مثال ذلك انه يصور الملاك طفلاً مجنحا . كذلك الشاعر يستطيع أن يصور لك برقاً يصدر من بين شفتي حسناء متبسمة ، ومطراً ينهمر من عيني عاشق متيم، كقول ابن نباتة :

وأرانا وقد تبسم برقاً فارينـاه ديمة هتَّانة

كذلك كانت سارا برنار تمثل نزع مرغريت غوتيه ذات الورود ( مخلوقة شاعرية ديماس الصغير ) أدق نزع لم تنازعه عاشقة تعسة — كل هذا شغل المخيلة

٢ — التقليد للاعجم، والابداع للانسان

التقليد ( او التشبه ) والتخيل قوتان من قوى العقل، لاولهما جرثومة في الاحياء الدنيا ، بل هو واضح في أشباه الانسان، بل في جميع أعضاء هذه السلالة حتى القرود . واذا تزانا حتى ذوات

الابتداء فقد نجد لهذه القوة اثراً جليّاً، والاّ لما أمكن تعليم الفيلة والخيل والحمير والكلاب ونحوها أن تعمل بعض أعمال البشر . بل اذا نزلنا الى جنس الطيور وجدنا بعضها تقلّد ، واظهر تقليد في الطيور تقليد الببغاء . وربما وجدنا أثراً ضعيفاً لهذه القوة في الحشرات

ولكن العجماوات لا تستطيع أن تتجاوز قوة التقليد الى قوة التخيل والابداع . فأرقى العجماوات يستطيع أن يبدي ما يرى كالقرد ، أو ان ينطق ما يسمع كالببغاء ، ولكنه لا يستطيع ان يبدع فعلاً او صوتاً جديداً مؤلفا من مجموعة تصوراته ، فما هو الاّ مثل مرآة او فونوغراف

قوة التخيل المبدعة خاصة في الانسان،وبها يمتاز على سائر الاحياء.ولهذا لا يمكن تقصّي الفنون الجميلة الى ما دون الانسان ، وان امكن تقصي ادراك الجمال الى كثير من العجماوات . لذلك لا تعد هذه القوة اجتماعية الاّ منذ صارت ابداعية ، أي منشأ للفن الجميل . واما قبل ذلك فتدعى قوة بيولوجية — حيوية — نسلية

٣ً — الارتقاء متجه الى الابداع

بالطبع ترقت هذه القوة مع ترقي المدنية وتطوّرت كتطور الاجتماع .

اذا القينا نظرة عمومية على تطورات الفنون الجميلة انجلت لنا حقيقة ناصعة مسايرة لتاريخ هذه الفنون . وهي : انه كلما ارتقى الفن قلّت فيه القوة التقليدية وكثرت القوة الابداعية . لاحظ الرسوم والنقوش والتماثيل ونحوها عند البابليين والاشوريين والمصريين القدماء ، تجد انها تقليد للطبيعة غير متقن ، كانّ الفنيين كانوا يحاولون تقليد الطبيعة فلم يستطيعوا

قابل بها الرسوم والنقوش والتماثيل الحديثة تجد فرقاً جسيما في الاتقان ، تجد ان هذه تمتاز عن تلك بكونها تبدي الصورة كانها مجسمة ذات حياة ، وأما تلك فتريك الاشكال كانها في سطح واحد ولا حياة فيها . تقول عن رسوم اليوم وتماثيله « تكاد تنطق » وأما تلك فلا تقدر أن تقول عنها كذلك . هذا ناهيك عن الابداع في تصوير الجميل ، حتى تفوّق الجمال المصنوع على الجمال الطبيعي

٤ً — المثل الاعلى

نعم ما زالت الفنون الجميلة ترقى مع المدنية وتتطوّر مع تطوّر المجتمع الانساني حتى صارت تناهياً في الابداع ، واصبح تقليد الطبيعة وحده يعد ابتذالاً ولا تأثير له في النفس

فالشاعر اذا قال : « احبك أعظم حب » عُدّ كلامه ابتذالاً لا مسحة فيه من الشعر . ولكنه قد يؤثر في النفس اذا قال : « جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي »

كذلك الروائي اذا روى حقائق فلا يجد من يقرأ . يجب أن يروي غرائب مستهجنة . وعثيل عمل بطلي، أو ظاهرة عاطفية، لا يؤثر في النفس، ما لم يكن ذلك العمل محفوفاً باعمال غريبة مرشحة له .

اذا صوّر المصور بحراً فقط، او البحر كما هو، فلا تؤثر صورته في النفس شيئاً. يجب ان يصور البحر وفيه سفين ومراكب، وفوقه سماء ذات غيوم، وان لم يكن في البحر سفن، ولا في السماء غيوم. لا تؤثر صورة ارض خضراء ما لم يصوّر في وسط العشب بقرة وان لم تكن هناك بقرة

الاصوات التي تمثل اصوات الطبيعة ، أو زقزقة العصافير ، لا تؤثر شيئا مما تؤثره الالحان الموسيقية الموضوعة . الصوت الجميل وحده لا يطرب ، لابد ان يتلقن المغنّي الالحان الجميلة من ملحنها ويمارسها

اذاً الفن الجميل مندفع في تجاوز الطبيعي الى محجة المثل الاعلى الذي لا وجود له في الطبيعة ، وانما يتخيله الانسان موجوداً في مصدر الروح أو النفس العليا

٥ً — *القوة الذوقية عامل اغرائي*

هنا تلوح امام القارىء المسألة الاجتماعية التي يدور حولها بحثنا، وما كان ما تقدم من البحث الاّ توطئة لها، وهي : ما هو عمل هذه القوى في المجتمع البشري ؟ انّ القوة الحيوية للحرص على الحياة ، والقوة النسلية للحرص على النوع أو استمرار الحياة ، ولكن لماذا القوة الذوقية ؟ اي قوة ادراك الجمال ، والتفنن في ابراز الجميل ؟

لقد رأيت فيما تقدم ان الطبيعة قد جعلت الحي ينفعل من الجمال اغراءً له على القيام بوظيفة حفظ النوع واستمرار الحياة – ليس الحياة في بساطتها ، بل في رقيها وتطورها المركب

نعم أن الجمال ليس من ضروريات الحياة الجسدية ، ولكن لما اضافت الطبيعة الى الجسد عقلا روحياً يعينها على التطور والرقي صار عليها ان تعدّ غذاءً لهذه الذاتية الثانية في الحياة ، اي الروح — فالجمال غذاء روحي وعامل اغرائي ايضاً

فاذا كان الجمال يعد للحياة الجسدية حاجة كمالية ، أي ترفاً أو بذخاً – فانما هو للحياة الروحية حاجة ضرورية جداً . لذلك ترى ان الفنون الجميلة لم تعد امراً كمالياً من الوجهة الاقتصادية ، بل صارت امراً ضرورياً جداً . وتسعة اعشار عمل الانسان يبذل في ابداع الجمال

لهذا لا ترى مركبة السكة الحديدية والاتومبيل صندوقاً بسيطاً من الخشب أو الحديد، ولا ترى السرير الذي تنام عليه الواحاً خشبية على «جحشين» من خشب وفوقها كيس محشو من القطن. بل ترى مركبة السكة الحديدية مزخرفة أنيقة. وترى السرير جميلا. ولهذا ايضاً ترى ملعقتك وشوكتك مزخرفة، ومقعدك جميلا، وسجادتك أنيقة النقش الخ — ترى كل متاع من أمتعة الحياة قد رافقته الفنون الجميلة وسيطرت عليه، لا لان جماله ضروري للجسد، بل لانه هو غذا النفس الروحي.

فاذا علمت أن الفنون الجميلة تستنفد الجانب الاعظم من قوى الانسان الحيوية تعلم قيمة الحياة الروحية وسموها على الحياة الجسدية، وتدرك أن العمل الاجتماعي العظيم انما هو عمل عقلي اكثر مما يتراءى لك أنه مادي.

فالعمل الحيوي الاقتصادي أصبح تحت سيطرة النظام الروحي، وما هو الا الهيكل العظمي الذي يكسوه بدن الجمال الروحي. لولا ارتقاء الذوق العقلي — في ادراك الجميل وابداع الجمال — لما كنت ترى في الهيئة الاجتماعية ارتقاء

# ج - القوات العقلية

لا يهمنا البحث في القوى العقلية الا من الوجهة الاجتماعية باعتبار أن هذه القوى تعمل في تكوين المجتمع او انمائه وتطوره. فالعقل او مجموعة القوى العقلية تعمل في الاجتماع من ثلاث طرق: ١ — ازكان المعارف ٢ — استخراج الحقائق منها ٣ — بث هذه المعارف والحقائق. ترى هذه الطرق الثلاثة متدرجة في كل فرد بتدرج عمره. وتدرجها فيه على هذا النحو رمز او دليل على تدرجها في المجتمع البشري

## أ — تطور المعرفة في الفرد

لا يتنبه الطفل لوجوده حتى يشرع في التسآل عن كل ما يحيط به. وفي كل مدة حداثته يكون جائعاً الى المعرفة يلتهمها أينما وجدها وكيفما وجدها. وفي خلال ذلك يشرع يميز ويستدل ويحاول أن يربط المعارف بعضها ببعض، ويستخرج منها كليات، ويكشف الحقائق والاسرار الكامنة وراء تلك المعلومات الظاهرة،

وكلما تقدم الانسان في السن قويت فيه قوة التعليل والبرهان ، حتى يصبح لا يعد المعرفة البسيطة شيئًا ، اذا لم تكن توطئـة لتعليل الواقع واستخراج سره العميق . ومتى وفرت معارف الانسان وتوفق الى تعليل كثير من المعلومات واكتشاف الاسرار تاق الى اطلاع غيره على ما يعلمه ، تارة بالمحادثة ، وأخرى بالتعليم ، وأخرى بالكتابة

٢ — تطور المعرفة في المجتمع

معارف الهمج والمتوحشين ضئيلة جدًّا ، لا تكاد تتجاوز ما يحيط بمعيشتهم الخشنة القشفة ، وقلما يفهمون من أسرار الطبيعة الا سطحياتها التي لا حظوها بتكرار الاختبار . وقواهم العقلية ضعيفـة جدًّا حتى انهم لا يكادون يستهجنون المستهجن . واذا علمتهم فلا تستطيع ان تطبع في اذهانهم من الحقائق الا القليل جداً من ابسطها . واذا فحصت خليات ادمغتهم وجدتها بلا شك مختلفة عن خليات ادمغة الامم المتمدنة ، ولو في الاناقة ودقة التركيب ، وان تشابه الفريقان تركباً

فلذلك كان الارتقاء العقلي في أوائل الحياة العقلية بطيئًا جداً ، ولا بـد أنه استغرق وقتًا طويلاً جداً . فاذا كان عمر المدنية الحاضرة ستة الى عشرة الآف سنة ، فعمر الهمجية يتجاوز المئة ألف سنة على الارجح

٣ — العلم ثمرة سؤدد الاعيان

ما شرع العقل يرتقي الاَّ لمـا صار الانسان اجتماعيًا تامًّا ، وصار ذا أنظمة اجتماعية ولو بسيطة . عند ذلك صار المجتمع طبقات متفاوتة في القوة ، بعضها مسيطِرٌ وبعضها مسيطَرٌ عليه . فلما صار في الجماعة فئة أعيان من حكام وقواد الخ يعيشون على حساب فئة عامة ، صارت تنشأ فيها فئة حكماء من كهنة ومنجمين وأطباء وقضاة الخ. هؤلاء ينشأون من طبقة الاعيان الذين لا يعملون عملاً لتحصيل رزقهم ، وانما ينفقون قواهم في الأعمال الرياضية من بدنية وعقلية . هؤلاء يشرعون يفكرون في أسباب الأمور وتعليلها . فيبحثون عن سبب الظل في بركة الماء ، وتحرك الشجر في الهواء ، ويسائلون بعضهم بعضًا : كيف تغرب الشمس في الغرب ، وبعد ليلة تشرق من الشرق ، وما هي الشمس . ثم يسائلون أنفسهم كيف وجدوا ، وكيف يموتون ،

وماذا يجرى لهم بعد الموت — ثم يسائلون : كيف وجد العالم ؟ من أوجد العالم ؟ من هو الخالق ؟

هكذا نبت العلم واللاهوت القديم معاً في تربة الخرافات والاوهام. وبقي العالم بضعة الوف من السنين يدّخر المعارف ويمحصها ويطهرها من الخرافات والسخافات ، وهي محصورة في طبقات الاعيان . بل كانت المعارف في بعض العصور أسراراً محصورة في فئة الكهنة كما كانت في مصر القديمة ، وكان ذلك الحصر سبب تسيُّد الاعيان في العالم كل تلك المدة وسبب الحكم الاريستوقراطي

٤ً — الديموقراطية ثمرة نهضة الصناعة

ولكن العامة ليسوا جماداً ، بل هم بشر كالاعيان وقواهم العقلية مهما انحصرت في العمل لاستخراج الارزاق ، فلا بد أن تترقى ولو ببطء . ولذلك كانت تترقى من الوجهة الاقتصادية والصناعية ، حتى بسقت فنون العامة الى جنب علوم الكهنة ، ولم يبق الاَّ تمزيق الحجاب الذي بينهما . فمنذ زوال دول الشرق القديمة التي كانت قابضة على أزمة التمدن ، وقيام دول الغرب اليونانية والرومانية ، جعل ذلك الحجاب يتمزق ، وصار العلم والفن يحتكان ، والعلم واللاهوت يفترقان

وما تقدم التاريخ المسيحي حتى طفقت طبقات العامة ترتفع ، وطبقات الاعيان تنحط الى مستوى واحد . وفي العصر الحالي كاد يتسطح هذا المستوى تماماً في الانظمة العلمية والانظمة السياسية والدينية ، ماعدا الانظمة الاقتصادية ، فهي الباقية تحت التمهيد لتسطيح المستوى

٥ً — مفاعيل القوى العقلية

فكان من مفاعيل القوى العقلية المرتقية والمتوسعة مع تمادي الزمان :

اولاً : ارتقاء العلوم والمعارف ، واتساع دائرة المعلومات ودائرة الاسرار المستخرجة منها

اتسعت المعارف اي اتساع حتى قبض الانسان على اعنة الكهرباء والنور والحرارة ، بل غاص في بحر الاثير ، واستخدم هذه القوات لهنائه ولذاته . وتعمق في الاستقصاء حتى طاف عالم الاحياء الدنيا ( الميكروبات ) ، وتحرّى طبائعها وعلاقتها به . وسبح في الفضاء حتى طاف الافلاك وأدرك تأثيرها على حياته الارضية . فالانسان عرف كثيراً . ولولا اكتشافه انه لا يزال يجهل اكثر مما علم لظن نفسه الاهاً

وما تسنّى للعلوم والمعارف أن تنتشر الاّ حين أطلقت من عقال رقها وصارت حرّة سائغة لكل انسان . فهي دفعت الصناعة الى الامام دفعةً عظيمةً جداً . والصناعة في مقابل ذلك دفعت المعارف في سبيل انتشارها بواسطة الطباعة والصحافة، ووسائل المواصلات : التلغراف والتلفون والملاحة والقطار . فترى مما تقدم أن العلم قوة عظمى في تطوير المجتمع البشري .

ثانيًا : ارتداد الديموقراطية ( الحكم الذاتي – حكم الشعب نفسه ) التي خنقتها المطامع لأول عهد الاجتماعية البشرية ، وجعلت هذه الديموقراطية تقلص ظل الاريستوقراطية ( حكم الاعيان ) ، حتى كادت هذه تتلاشى في طالع هذا القرن ، ولا بد أن تتلاشى بتاتًا فيه

ثالثًا : أن اللاهوت والعلم افترقا على عداء منذ انشق حجاب أسرارها. فالعلم رام الحرية الديموقراطية ، واللاهوت بقي متشبثًا باريستوقراطيته . فقضيا نحو الفي عام يتخاصمان . ولكنهما أخذا في القرنين الاخيرين يتصالحان . على أن صلحهما لا يكون بعودة العلم الى مجاهل الترهات القديمة والاريستوقراطية السالفة ، بل بخروج اللاهوت من تلك المجاهل، وتنظيفه من الترهات ، واتحاده مع العلم الصحيح في الالتفاف حول الحقيقة والحق اللذين هما ضالتهما المنشودة معًا

واللاهوت والعلم في كل حياتهما لعبا أدواراً عظيمة في تطور الاجتماع البشري ستنجلي لك في الفصول التالية

---

# الفصل الرابع

## القوى البيئية

### أ – عمران البيئة

#### ١ً – البيئة الطبيعية

(١) — خيرات الارض للانسان (٢) — عوادي الطبيعة للانسان
(٣) — جواذب البيئة

#### ٢ً – البيئة الاجتماعية

(١) — وسائل الاسترزاق الاجتماعية (٢) — الملذات الاجتماعية
(٣) — الاستقطاب المدني

### ب – تزاحم السكان في دائرة العمران

١ً — تزايد السكان والارزاق ٢ً — حد تزايد الارزاق
٣ً — تجاوز الحد معناه المهاجرة ٤ً حد الرزق النهائي
٥ً — مرونة دائرة الرزق ٦ً — الانسان بين ضغط الزحام وضغط الدائرة
٧ً — الانسان والطبيعة ٨ً — مصادر الارزاق

### ج – التوازن بين ازدحام السكان ودوائر العمران

١ً — التعاون الحتمي ٢ً — تعليل مرونة الدائرة
٣ً — مصادر الرزق الطبيعية والصناعية ٤ً — مط الدائرة بالاضافة
٥ً — التحام الدوائر ٦ً — القوتان المتضادتان
٧ً — اسباب المهاجرة أقوى ٨ً — التوازن بين ضغط الدائرة والازدحام
٩ً — العوامل لصد قوة الميل لتكثير النسل
١٠ً — الحرب ليست سببا طبيعيا لصد الزحام

بحثنا في الفصول السابقة في قوى الاجتماع الصادرة من الانسان نفسه، واغضينا النظر عن القوى الخارجة عنه ، وهي قوى الطبيعة التي تناهض الانسان وينامضها . وهي ذات شأن عظيم في تكوين المجتمع وتطويره . ونعني بقوى الطبيعة الاحوال الطبيعية التي في المكان الذي يقيم فيه الانسان او الجماعة ، وهو ما اصطُلِح على تسميته بالبيئة

# ا - عمران البيئة

## ١ً — البيئة الطبيعية

الانسان نشأ في الاصل من تراب الارض ، ولا يزال تراب الارض مصدر رزقه . فهل الارض كريمة بالرزق للانسان ، ام بخيلة به له ؟ والجواب انها ليست بخيلة اذا كان يجتهد في تحصيل رزقه منها، ولا هي كريمة بحيث تدر له الرزق بلا عمل ولا كدح . وارتقاؤه يترتب على جهاده مع قواها الكامنة فيها ، حتى يسيطر على هذه القوى . ولما كانت بقاع الارض تختلف اختلافاً عظيماً في امور كثيرة كان مقدار جهاد الانسان فيها يختلف ايضاً . ولما كان الانسان متحركاً في الارض كانت مقاومات الطبيعة في جهاده تدفعه الى البقاع الاقل مقاومة ، أو التي تستلزم جهاداً أقل

لذلك نرى الانسان ينزح عن الجبال الصخرية الى الاودية والسهول الغضة الشجر الطيبة الثمر . ويهجر الصحراء والبطاح الجرداء الى ضفَّات الانهر والبرك المخضلة الخمائل والخصبة بالخضرة والبقول . ويتجافى الادغال الكثيرة الوحوش الضواري الى الشواطىء التي يتسنَّى فيها صيد الاسماك، والى الربوع التي يتسنى فيها صيد الطيور والغزلان . ويفرُّ من الاقليم البارد او الحار الى الاقليم المعتدل

واذا كان كل فرد يطاوع هذا الناموس - ناموس الاندفاع من أمام القوات الضاغطة ، او المقاومة ، الى الجهات التي يقل فيها ضغط هذه القوات — كان بحكم الطبع يلتقي الافراد في الاودية فالسهول والمروج وضفَّات الانهر وشواطيء الابحر . وحيثما التقوا كان الملتقى بيئةً لهم يتنازعون الرزق فيها مقتتلين ، ولكنهم لا يلبثون أن يجدوا أن نزاع الطبيعة لهم أشد خطراً ، فيتعودون التألب للتعاون في الجهاد ضد مقاومة الطبيعة — فالبيئة اذاً أول عامل من عوامل الاجتماع

(١) — خيرات الارض للانسان

الارض تجود على الانسان : ١ً — بمقام يقيم فيه من كهف طبيعي او غابة يستظل بها، او بقعة يضرب فيها خيمة ، او يبني فيها كوخاً او منزلا او صرحاً

٢ً — تجود عليه بالماء الذي يعيش به ويتحرك بواسطته . ولما كان الانسان حلقة من سلسلة الحياة،والحياة وجدت في الاصل في الماء ، لان الحركة في السوائل اسهل منها في الجوامد ، بقي الانسان لا يستغني عن الماء لحياته . فالماء يدور في جسده وبه تُنْقَل جميع عناصره الحيوية من كريات دموية ، واغذية محولة بالماء الذي يدور في عروقه . وفي الانهر والبحار ينتقل الانسان من مكان الى آخر . لهذا ترى ان اعظم مجتمعات الناس قرب المياه

٣ً — تجود الارض للانسان بالخصب النباتي تغذية له ولماشيته التي يتغذّى من البانها ولحومها ويستخدمها في اعماله

٤ً — تجود الارض على الانسان بالمعادن التي يحتاج بعضها لغذائه كالاملاح ، وغذاء زراعته كالسماد الكيماوي ، وبعضها للالات والادوات والمواد الكيماوية الخ

٥ً — تجود عليه بالوقيد من فحم حجري او بترول او اخشاب

٦ً — تجود الارض على الانسان بالقوى الطبيعية التي صار في عهد تمدنه الاخير مسيطراً عليها يستخدمها لاجل نفعه . وهي اولاً جاذبية الثقل ، يستخدمها بواسطة المياه المنحدرة كاستخدام شلال نياجرا لتوليد الكهرباء . ثانياً الجاذبية العامة،يستخدمها بواسطة المد والجزر كما يحاول الان الفرنساويون ان يستخدموها في خليج سنت مالو عند نهر رانس [١] والانكليز في خليج سيفرن عندمصب نهر واي . ثالثاً قوة الحرارة يستخدمها في توليد القوة البخارية . رابعاً القوةالكهربائية. أما قوة الهواء المستخدمة في ادارة المطاحن ونحوها فهي حاصل قوتي الحرارة وجاذبية الثقل . كذلك القوة الكهربائية مستخدمة الى الان بواسطة قوة الحرارة (البخار) وقوة ثقل المياه المنحدرة . ونضيف الى ما تقدم القوة الكيماوية التي يستخدمها الانسان في امور كثيرة

٧ً — تجود عليه بالقوة الحيوية التي في عضله . وفي عضل الحيوانات التي ينتفع منها، والتي في دماغه ايضاً

٨ً — بالهواء وحرارة الشمس ونورها مما هو ضروري للحياة

(٢) — عوادي الطبيعة للانسان

بهذه الامور تجود الارض للانسان بسخاء ، ولكن في الطبيعة مقابل هذه الخيرات قوات مقاومة للانسان تستلزم جهادهُ، أهمها :

١ً — طقس الاقليم من حيث الحرارة والبرودة . فهما يدفعانه الى الاعتدال ، او يحرجانه الى السيطرة عليهما باتقائهما بأي الوسائل الممكنة . في المناطق الباردة يتقي البرد بوسائل الاستدفاء المختلفة العديدة ، وفي المناطق الحارة يتقي الحر كذلك

---

(١) مجلة السيدات والرجال سنة ٣ صفحة ٢٦٩

٢ — الجدب والقحل والقحط . وهي تدفع الانسان الى الارض الخصبة أو تحرجه الى معالجة الارض التي هو فيها

٣ — الجبال العالية الصخور والوعرة ، وهي تدفعه الى الاودية والسهول ، او تحرجه الى تمهيد الوعر وشق الطرق فيه

٤ — البحار والانهر التي تقف حواجز في سبيل سعيه ، فتضطره الى بناء السفن والجسور لعبورها

٥ — الوحوش الضواري ، وهي تدفعه من الادغال الى المروج المكشوفة ، او تضطره الى مقاتلة تلك الوحوش وتطهير الغابات منها

٦ — الجراثيم المرضية وهي تحرجه الى اتقائها ومقاتلتها

فالانسان بين تلك النعم الارضية ، والعوادي الطبيعية ، يجب أن يجاهد في تحصيل النعم ، وتحويل القوى الضارة له لنفعه . يجب أن يحول القوة المهلكة له الى قوات منقذة له حتى يبقى ويرتقي . وهـذا ما فعله الانسان في الوف القرون التي مضت ، ولا يزال يفعله بحذق وذكاء غريبين

(٣) — جواذب البيئة

وحيثما وفرت نعم الطبيعة وقلت مقاوماتها تكوّن المجتمع .

لذلك ترى اولاً ان معظم المدن الزراعية قائمة في الاودية والسهول حول ضفاف الانهر ، وفي سفوح الجبال حيث تجري المياه ويكون خصب . ويندر ان ترى عمرانا في قمم الجبال الا حيث اريد النزهة أو الاصطياف ، وهناك يذلل الانسان صعاب الطبيعة باعماله الصناعية

ثانياً . ترى معظم المدن التجارية على شواطىء الابحر حيث تكثر موانىء الملاحة لنقل المتاجر

ثالثاً . ترى معظم المدن الصناعية حيث تكثر المعادن او الاخشاب او الفحم اوكل مايلزم للصناعة

واذا استقصيت اطوار المدنية والعمران تجد ان البلاد الاكثر اعتدالا والاخصب ارضا والاقل جبالا ، كانت اسبق البلاد عمرانا وابلغها تمدنا ، وقد تعاقبت عليها امم اكثر من سواها

راجع تاريخ المنطقة المعتدلة الشمالية تجد انها كانت اكثر البلاد عمرانا في تاريخ البشرية لانها اجود سائر المناطق بالنعم الطبيعية للبشر . والارجح ان دلتاي النيل والعراق كانتا أغنى بقاع الارض بالسكان في تاريخ حياة المعمور كله . وان انتقال الانسان من دور الحيوانية الى دور الهمجية كان فيهما

ترى مما تقدم أن البيئة الطبيعية عامل خطير الشأن في تكوين المجتمع وفي انمائه وارتقائه . واختلاف البيئات هو سبب أن البشر توزّعوا على سطح الكرة الارضية توزّعاً غير متعادل في العدد ، وغير متماثل في الرقي

فالبلاد الاخصب ارضاً واوفر خيرات واقل عوادي هي الاغنى بالسكان . والغالب ان تكون اعلى رقياً . وهذا هو سرّ تكون المدن والحواضر والقرى الخ .

## ٢ً — البيئة الاجتماعية

قصرنا النظر على عامل البيئة الطبيعي، على افتراض ان الانسان حيوان مجاهد ضد الطبيعة في تحصيل رزقه والحرص على بقائه . ولكن الانسان لم يبق حيواناً بل صار انساناً اجتماعياً . وللعوامل الاجتماعية شأن عظيم في تعديل بيئته

لما كان الانسان حيواناً أو همجياً متوحشاً كان يجاهد لاجل ضروريات الحياة الحيوانية فقط من اكل وشرب ودفاع ضد الضواري والمنازعين. فكان مصدر كل رزقه في الارض ، في الطبيعة . وحيثما ضنت الطبيعة برزقه كان يهجرها . ولكنه لما ارتقى وشمخ تمدنه ، لم تعد حاجته تقتصر على الاكل والشرب و بسيط الدفاع ، حتى ولا على اللبس والمأوى ، بل ان حاجاته الاخرى التي تسمى بالنسبة للحاجات الحيوية الضرورية (في عهد الهمجية) كمالية صارت أضعاف حاجاته الضرورية، بل لم تعد هذه شيئاً مذكوراً امام تلك ، لانه صار يستطيع الحصول عليها ولو كان بعيداً . فصارت حاجاته الكمالية العديدة سبباً لاجتماعيته اكثر من تلك

فالمدينة الكبرى او العاصمة كمصر او باريس او لندن او نيويورك لم تضخم هذه الضخامة لوفرة خيرات الطبيعة حولها، بل لعوامل اجتماعية اخرى . ولو اقتصر عامل التجمع فيها على الخيرات الطبيعية لما ضخمت عُشر هذه الضخامة . بل لو اتكلت ايُّ مدينةٍ كلندن مثلا على ما تجود به الطبيعة حولها من الطعام لمات اهلها في عهد قصير .

اذاً العوامل الاجتماعية تعدل البيئة تعديلاً اجتماعياً يُقدر البيئة على ان تنمي المجتمع وتكثره ، وحينئذٍ تسميها « البيئة الاجتماعية» تميزاً لها عن « البيئة الطبيعية »

البيئة الاجتماعية هي التي وجدت فيها وسائل لتحصيل الرزق غير الوسائل الطبيعية ، ووسائل للتمتع غير الملذات الطبيعية

(١) — وسائل الاسترزاق الاجتماعية

كان من نتائج الارتقاء الاجتماعي توزُّع الاعمال على الناس ومقايضة بعضهم

بعضاً اعمالهم . فالذي ينسج الثوب في المدينة يقايض به قمح المزارع في المزرعة ، والتاجر واسطة المقايضة بينهما . فلذلك لم يبق من اللازم أن يتفرّق الناس في المزارع لتحصيل الرزق من الارض . يكفي أن يتفرّق فيها الزراع وهم جانب من الجماعة . واما البقية فيتجمعون في المدن لاسباب اخرى تقضي بتجمعهم

وكما ان توزع الاعمال كان من جملة نتائج الارتقاء الاجتماعي كان التعاون في الاعمال ايضاً من جملة تلك النتائج . ان توزع الاعمال نفسه قضى بتعاون الافراد فيها ايضاً . وكذلك التعاون نفسه قضى بتوزّع الاعمال

فلما استقلّ الزارع بزراعته والحدّاد بحدادته والنسّاج بنسجه ، صار كل واحد منهم يقسم عمله بين ذويه . فبين أعوانه من العمال . صار النساج يعين بعضا من اعوانه للغزل ، وبعضهم للصباغة ، وبعضهم للنسج الخ . وما زال العمل تتسع دائرته وتضخم حتى انفصل مصنع الغزل عن مصنع النسج ، ومصنع الصباغة عنهما ، وتوسّعت دائرة كل مصنع ، واشتملت على عمال كثيرين توزع العمل بينهم ايضا . فترى ان الانظمة الاقتصادية تنمو وتتوالد بالنقسم ، كالجراثيم الميكروبية ايضا

ولكن بالرغم من توزُّع الاعمال على هذا النمط بقيت المصلحة تقضي ببقاء مصانع الغزل والنسج والصباغة متجاورة . وهذه مجاورة ايضا لمصانع الحدادة والنجارة التي تمدها بالادوات . ووجود عمال عديدين في هذه المصانع قضى بوجود المطاعم والمساكن وحوانيت اللبس والبدالة والجزارة الخ قريبة منهم . وهذه المطاعم والحوانيت تشتمل على عمال ايضا لهم حاجات كحاجات اولئك العمال . وكل هؤلاء العمال يحتاجون الى ملاهٍ تكون قريبة منهم . وهكذا تصوّر ما شئت من سلسلة المستلزمات هذه التي لا تكاد تعرف لها اولا من آخر . وكلها يتحصل فيها الرزق ليس من غلة الارض بل من العمل وحده . وبثمرة هذا العمل يقايض العامل صاحب المزرعة غلة ارضه

فترى مما تقدّم أن جانباً عظيماً من الاعمال يعملها الانسان حيث تطيب له الاقامة . فما هو مقيّد ببقعة معينة من الارض . بل أن العاملين مقيدون بمجاورة بعضهم لبعض بمقتضى ذلك التعاون الذي بسطناه ، واشتباك مصالح الافراد بعضهم ببعض . اذاً الارتقاء الاجتماعي من الوجهة الاقتصادية أوجد سبباً للتجمع في مكان معيّن ، غير السبب الذي اقتضته البيئة .

( ٢ ) — الملذات الاجتماعية

وهو معلوم أن الانسان يعمل ويكدح ليتمتع . ومعظم أسباب التمتع مشتركة بين الافراد ، أو أن معظمها يتعذر الحصول عليه على انفراد ، وبعضها يستحيل

ففي المدينة لا في المزرعة يتيسر وجود الملعب والسنما والسباق والمرقص والجوقة الموسيقية والجريدة والمكتبة والترام والاوتوموبيل والمتنزّه والالعاب المختلفة والنادي الذي يجمع الاقران والعشراء والخلان والندماء . بل في المدينة يطوف كيوبد اله الحب اكثر مما يطوف بين المزارع. فلذلك لا تعجب اذا كان الناس يتهافتون الى المدن ، ولا سيما الكبرى لاستيفائها جميع هذه الملذات الجذّابة ، بل لا تعجب اذا كان كثيرون من الناس يعرضون عن ذهب كلنديك . وثروات الارياف الطائلة ، قانعين بقليل الرزق في المدن طمعا بملذاتها . فالانسان قلما يهجر المدينة الى الريف طمعا بيسر الريف وبحبوحة الرزق فيه ، بل يهجرها هربا من الفقر المدقع او العدم

ثم للانسان مطامع أخرى غير الرزق للجسد واللذة للعصب . له مطمع اسمي أيضاً وهي إشباع شهوات النفس المختلفة .

فنهم من يؤثر المدينة على المزرعة رغبة في تهذيب النفس وتدميثها . وكثيرون يتركون الريف ويأتون الى المدن لكي يتسنى لهم تعليم اولادهم في المدارس . وبعضهم يأتون الى المدن طمعاً باكتساب الآداب العالية من جراء العشرة ، لان الاحتكاك فيها يجعل الحياة المدنية أرقى ذوقاً وألطف عشرةً . وبعضهم يأتون اليها تقرُّباً من ذوي النفوذ واكتساباً للنفوذ ، وبعضهم لكي يظهروا في ابهتهم التي انالتهم اياها ثروتهم الريفية .

(٣) — الاستقطاب المدني

ولا يخفى عليك أنه حيث يكثر الرزق وتتنوَّع أسبابه وتكثر الملاذُّ تشتد المطامع ويحتدم النزاع . وحيث يحتدم النزاع يشتد الاستقطاب ، أي التحول الى القطبين او الطرفين . ففي المــدن تجد البون الواسع بين الغنى والفقر ، والسعادة والشقاء ، والنبل والخسة الى غير ذلك من أمثال هذه المتناقضات ، بل تجد في المدن أغنى الاغنياء وأفقر الفقراء. وكلما كبرت المدينة كان هذا التباين أعظم ، والعكس كلما صغرت

وبالاستقراء ثبت أنه حيث يشتد الزحام و يحتدم النزاع ويعظم الجهاد لاجل الرزق تقلُّ المواليد وتكثر الوفيات . فمواليد المدن أقل من مواليد الارياف . ووفيات هذه أقل من وفيات تلك . ومع ذلك تجد أن المدن تزدحم دائمًا ، لأن الارياف تموّن المدن بالناس ، كما تموّنها بالاغذية والمواد الاولية اللازمة للصناعة . ولا يخفى عليك ما في ذلك من الدلالة على ميل الانسان الى هجر الطبيعة البسيطة ، والاقبال على الصناعة المركبة ، وعلى نزوع الانسان الى الحياة الاجتماعية

فترى مما تقدم ان اجتماعية البشر نفسها أثرت على البيئة تأثيراً عظيما ، حتى كادت تخرجها عن موقعها الطبيعي بتاتاً الى مركزها الاجتماعي . فمدينة باريس لم تصر باريساً لانها في أخصب بقعة من فرنسا ، بل لانها مقرّ السلطة العليا ، فكانت السلطة فيها نواة للتجمع الذي تضخم للاسباب السالفة الذكر . وتضخم المجتمع فيها جعلها أثمن بقعة في فرنسا . وهكذا يقال عن سائر المدن في العالم . وهكذا يعلل غلاء الارض في المدن ، وفي أهم نقط فيها . فالثمن الغالي لشارع وول في نيويورك ( أغلى أرض في العالم ) ليس ثمن الارض نفسها بل ثمن مركزها الاجتماعي . اذا نقلت عاصمة الترك من الاستانة الى انقره سقطت قيمة الاراضي في الاستانة وارتفعت في انقره ، مع ان القيمة الطبيعية لاراضي الاستانة أعلى من قيمة أراضي انقره الطبيعية

## ب - تزاحم السكان في دائرة العمران

بعد أن تبسطنا في العوامل البيئية الطبيعية والاجتماعية التي تجذب السكان للمكان ، أو تجمع أفراد الجماعة في المجتمع ، نجد أنفسنا أمام مسألة خطيرة الشأن ، وهي : الى أي حد تحتمل البيئة من العمران والسكان ؟

### ١ — تزايد السكان

اذا كانت سنّة التناسل تقضي بازدياد المواليد ، واذا كان تقدُّم الانسان في المعرفة يوسع دائرة العمران ، وجب بحكم الطبع ان يزداد سكان المعمور عاماً بعد عام وجيلاً بعد جيل . ولكن هل تطَّرد هذه الزيادة ؟ واذا اطردت فالى أي حد يبلغ عدد السكان ؟ وما الذي يضع ذلك الحد ؟

قاعدة ملثوس — وقبل التبسط في هذا الموضوع نأتي على مجمل قاعدة مالثوس التي أخذت شهرةً واهمية عند علماء الاقتصاد السياسي وهي : يتضاعف عدد السكان مرةً كل خمس وعشرين سنة (أي أنهُ يزداد على نسبة هندسية) في حين ان الارزاق التي يمكن الحصول عليها ، اذا كانت الاحوال خادمة لسعي الجنس البشري في تحصيل الرزق، تزداد على نسبة حسابية . أي أنهُ يضاف اليها كل خمس وعشرين سنة مقدار واحد من الرزق يعادل الرزق الذي حصل في الخمس والعشرين سنة الاولى .

وقد استخرج ملثوس هذه القاعدة مما لاحظهُ من نموّ المستعمرات في اميركا الشمالية ومثل عليها في الفصل الاول من كتابه عن « تعدُّد السكان » (Essay on population) بقوله : «هب ان سكان هذه الجزيرة ١١ مليون نسمة، وان الرزق الذي يحصلونه يقوم بمعيشتهم تماماً . فبعد

٢٥ سنة يبلغ عددهم ٢٢ مليونا ، وكذلك يتضاعف الرزق الذي يحصلونه ، وبعد ٢٥ سنة اخرى يبلغ عددهم ٤٤ مليون نسمة ، ولكن الرزق الذي يحصلونه لا يكفي اكثر من ٣٣ مليون نسمة ( ليعيشوا كما كان آباؤهم يعيشون قبلهم ) . وبعد ٢٥ سنة ثالثة يبلغ عددهم ٨٨ مليوناً والرزق لا يزيد على ما يكفي ٤٤ مليوناً . وفي نهاية القرن يبلغ عدد السكان ١٧٦ مليونا والرزق لا يزيد على ما يكفي ٥٥ مليوناً . واما المئة والواحد والعشرين مليوناً فيبقون بلا رزق .

ولا يخفى انه يستحيل ان يزيد عدد السكان على الحاصل من الرزق اذا كان هذا الحاصل منه لا يكفيهم كلهم . ولهذا يستنتج ملثوس ان تضاعف السكان غير المتناهي لا بد أن يقف عند الحد الممكن باحد امرين : اما بامتناع الناس عن ولادة الاولاد ، أو بالاسباب التي تزيد عدد الوفيات . ويرد هذه الاسباب الى سببين : التعاسة والفساد الناجمين من قلة الرزق

ولا مشاحةَّ في احتمال تزايد السكان تزايداً مضاعفاً ، أو اكثر من مضاعف ، لان الزوجين يلدان ٤ اولاد أو اكثر عادةً ، اذا توفرت لهما اسباب المعيشة الصحية . ولا تقل المواليد الاَّ متى ساءت المعيشة بسبب الفقر والفساد الادبي . ولهذا يحتمل تضاعف السكان في كل دور من ادوار الابوَّة ما دامت وسائل المعيشة موفرة

١ً — حد تزايد الارزاق

اما الرزق فمهما تزايد فلا بد ان يبلغ الى حد يقف عنده ، متى فرغت الطبيعة من الامداد به ، ولم يعد عمل الانسان يستطيع ان يستزيد الطبيعة رزقًا . ولبيان ذلك نأخذ فداناً من الارض ونفرض ان رجلاً وزوجته يعملان فيه عملاً كافيًا لتحصيل قوتهما وكسائهما منه . فاذا رزقا ولداً أو ولدين أضطرَّا أن يعملا فيه اكثر من قبل ليحصلا على المزيد من الرزق للمزيد من العائلة . فاذا كانت الغلة لا تكفيهم جميعاً اضطرَّا ان يستزيدا غلة الفدان بوسائل اخرى ، كأن يسمّدا الارض ويرويا بالوسائل الصناعية ما لم يكن يروى منها بالوسيلة الطبيعية . فقد تزداد الغلة حتى تكفي الاربعة . وهب ان الولدين تزوجا ورزق كل منهما ولدين أو اكثر ، فهل في وسع هذه العائلة التي تضاعفت مرة أو مرتين أن تستزيد غلة الفدان ايضاً بوسائل اخرى ؟ فاذا فرضنا انها وجدت وسائل اخرى ، كأن تنوّع الزرع أو تنهك الارض أو تكثر

الضرع فالبنون الذين يأتون بعدها يعجزون عن استزادة غلتها طبعاً ، لان لمصدرها الطبيعي حداً

وهنا لا بد من احد امرين : اما ان يهاجر بعض البنين الى فدان آخر اذا كان في وسعهم ان يمتلكوه ويشتغلوا فيه ليعيشوا منه ، ويبقى الباقون في الفدان الاول ، أو ان يقنعوا بما قسم لهم جميعاً من رزق ذلك الفدان ، فيصيب الواحد منهم اقل مما كان يصيب اباه وجده ، ويعيشون عيشة ضنك ، فيقل نسلهم ثم يقل عددهم

ولا يجوز هنا أن نغفل عن امر جوهري وهو ان استزادة غلة الفدان بالطرق الصناعية تكلف مشقة اكثر من مشقة استغلال الغلة التي تمنّ بها الارض بالطرق الطبيعية . ففي الطريقة الطبيعية كان استخراج الغلة مقصوراً على الحرث والبذر والحصاد . واما الطريقة الصناعية فتستلزم مع ذلك رفع المياه واقتناء السماد

فترى مما تقدّم ان ازدياد المسترزقين من الفدان الواحد يكلف مشقة اكثر وينيل الفرد الواحد رزقاً أقل ، وكلا الامرين يورثان التعاسة . فلا بدع ان تورث التعاسة الفساد والشرور ، اذ تثير الطمع في قلب البعض ليسطو على البعض الآخر

واذا كانت طبيعة الارض قد جاءت بكل ما عندها جزاء عمل السكان فيها ، ولم يعد في وسعها ان تجود بالمزيد ، فلا ينفد الرزق عند حد الطبيعة ، ما دامت للانسان قوة للعمل في غير الطبيعة . فالذي لا يتسنى له أن يحصل رزقه من الزراعة فامامهُ الصناعة . ولهذا ترى الآن ان الوفاً من الغلمان والنساء صاروا يشتغلون مع الرجال ، بعد ان كان معظم الرجال فضلاً عن الغلمان يقتلون اوقاتهم في المجتمعات لقص الاقاصيص التي لا طائل تحتها . فترى مما تقدم انه كلما زاد عدد السكان اتسعت دائرة الاعمال المتنوعة لتحصيل الرزق

٢ — تجاوز الحد معناهُ المهاجرة

فهل يمكن أن تستمر دائرة الاعمال في الاتساع مادام السكان يزيدون ؟ بالطبع لا . لان المسترزقات الصناعية متوقفة على المسترزقات الطبيعية ( كما سيرد بيانه ) وهذه محدودة . فلا بد اذاً من ان يحدث كما حدث في استعمار الفدان . فالذين

لا يطيقون شظف العيش، والذين يجدون في انفسهم طمعاً بمعيشة افضل ، يهاجرون الى اقرب وايسر مهجر لهم

وهب ان المهجر بعد زمن من الازمان ازدحم بالسكان ايضاً فلا بدَّ أن يضطر جانب من سكانه ان يهاجروا الى مهاجر اخرى

على هذا النحو كان مستعمرو الكاب كلما تكاثروا وازدحموا يزحفون مرحلة الى داخل افريقيا . وعلى هذا النحو استعمروا نتال والاورانج والترانسفال . وعلى هذا النحو هاجر جانب من أهل أوروبا الى اميركا واستعمروها تخلصاً من شح الرزق في بلادهم . وهكذا استُعمِر وسيُستعمَر كل صقع مهجور

٤ً — حد الرزق النهائي

فاذا كان الناس كلما ازدحموا في صقع اضطروا ان يهاجروا الى صقع غير معمور ، فبالطبع يتبادر الى الذهن ان حدَّ الرزق النهائي هو نهاية البسيطة ، أي انه متى بلغ السكان الى حد ان يستنفدوا كل غلة الاراضي في الدنيا كلها توقفت زيادة السكان، لان المزيد منهم لا يجد رزقاً الاَّ اذا قاسم الموجودين منهم رزقهم . وفي هذه الحالة تسوء المعيشة طبعاً ، وسوء المعيشة يقلل السكان مباشرة . وهكذا يتوازن السكان والارزاق معاً

هذا ما يتبادر الى الذهن طبعاً ، وهو الحقيقة ، اذا قطعنا النظر عن احوال اخرى ذات اهمية عظمى في مصادر الارزاق وفي علة تكاثر السكان . فهل حقيقي انه اذا انتشر السكان في البسيطة على التساوي وجعلوا يستغلون كل شبر فيها تنتهي مصادر الارزاق و يتوقف تزايد السكان عند ذلك الحد ؟ والا فما هو الحد النهائي للارزاق الذي يضع الحد النهائي لزيادة السكان ؟ الجواب في ما يلي :

٥ً — مرونة دائرة الرزق

دائرة الرزق مرنة جداً . كلما احتشد السكان فيها اتسعت . وكلما اتسعت توترت واشتدّ ضغطها على السكان . ومتى لم يعد اتساعها ممكناً كانت الحد النهائي لازدياد

السكان ، الا اذا كانت ثمت دائرة اخرى وراءها ، فيتجاوزها جانب منهم الى تلك الدائرة

فلو لم تحشد اوربا بالسكان حشداً وسع دائرة الرزق فيها الى النهاية لربما لم يجد كولومبوس سبيلاً لاكتشاف أميركا . ولو ان تلك الدائرة لم تتسع ايضاً نهاية الاتساع بعد اكتشاف أميركا لبقيت أميركا قفراً ( حتى بعد اكتشافها ) الى ان تبلغ دائرة الرزق الاوربية نهايتها من الاتساع، فيتدفق السكان الى اميركا . وذلك لان الناس لا يتجشمون مشاق المهاجرة ، ولا يركبون متون المخاطرة الا حينما لا يعودون يطيقون ضغط تلك الدائرة .

٦ — الانسان بين ضغط الزحام وضغط الدائرة

متى كان الناس المزدحمون في دائرة الرزق يدفعون بعضهم بعضاً الى محيط الدائرة نرى اقواهم آمناً في مركز الدائرة ، واضعفهم يحتمل ضغط الزحام من ورائه ، وضغط محيط الدائرة من امامه ، فان لم يجد مهرباً من الدائرة هلك فيها

اذا عجز الفرد عن ان يكون سيداً اضطر ان يكون مسوداً . وان قصر عن ان يكون مالكاً كان عاملاً . وان لم يتسن له ان يكون زارعاً كان اجيراً لزارع . وان لم يستطع تحصيل الجنيه اضطر ان يكتفي بالريال او بالقرش . وان ضاقت في وجهه سبل الرزق ولم يستطع ان يحتال أو يسرق تسول، والا هلك أو نزح ان استطاع

فالانسان القوي يدفع من امامه الانسان الضعيف . وهذا يدفع من امامه الحيوان . والحيوان يدفع من امامه الطبيعة . وبالتالي يبقى الانسان والطبيعة فقط . فالطبيعة بما فيها هي الحد الاخير للانسان . فما دام في الطبيعة رزق فالانسان يتعدد الى ان يتحول كل ما يمكن من رزق الطبيعة الى ناس

٧ — الانسان والطبيعة

الانسان ابن الطبيعة ، أي هو جزء منها ، فهو مؤلف من مادتها وقوتها . تكوّن منها ويعود اليها . واذا كانت المادة والقوة لا تقبلان الفناء بل تتحولان من صورة الى صورة ، فاذا جاء الانسان الى الطبيعة فلا يكون قد اتى اليها بشيء ليس فيها ، واذا ذهب منها فلا يكون قد انقصها شيئاً مما فيها

الانسان يعيش على الحيوان والنبات . والحيوان يعيش على النبات ، وبعضه على بعض . والنبات يعيش على الكربون والهيدروجين والاكسجين والنيتروجين وبعض الاملاح المعدنية . فالانسان مركب من هذه العناصر . فاذا تحول الجانب الاعظم من هذه العناصر (أو الجانب الذي يمكن تحوُّله) الى ناس بلغ عدد الناس الحد النهائي واستحالت الزيادة طبعاً

فاذاً لا ينتهي عدد السكان حينما يستتم الناس زرع الارض واستغلالها كلها ، ما دام في الطبيعة قوة تحت سيطرة الانسان ، ومادة كربوهيدراتية يمكنه تحويلها بفعل تلك القوة الى اجسام انسانية

وقد اخترع الانسان القطار البخاري والاتومو بيل فاستغنى بهما عن بعض دواب النقل وسيستغني عنها جملة . وهذه الحيوانات تعيش من غلة الارض مع الانسان . فاذا تلاشت (او قلَّ توالدها) بقيت الحبوب والبقول التي تأكلها طعاماً لهُ او طعاما للماشية التي يأكل لبنها ولحمها . فهذه وسيلة طبيعية لزيادة عدد السكان

وقد استخرج الانسان الفحم الحجري من الارض ، واحرقهُ لتوليد قوة يستخدمها في اعماله . ولما احترق تحوَّل الى الحامض الكربونيك ، فكان غذاء للنبات ، والنبات غذاء للانسان والماشية ، غذاء للانسان ايضاً . وهذه وسيلة اخرى لزيادة عدد السكان

والوحوش الضارية كانت تأكل الحيوانات آكلة النبات ، وكانت الطبيعة ملأى من حيوانات يسطو بعضها على بعض وينازع بعضها بعضاً الرزق ، فلما جاء الانسان جعل ينازعها كلها أرزاقها حتى امَّحقت الحيوانات الضارية من البلاد العامرة . وبالطبع تحوَّلت مواد الطبيعة عن طريق البقول والحبوب والخرفان والبقر والفراخ الخ الى ناس

٨ — مصادر الارزاق

واذا تمادينا في استقصاء هذا التحوُّل وجدنا ان المعمور يتحول بفعل الانسان الى ناس وغذاء للناس ، أي لا يبقى اخيراً الا الانسان والطبيعة تحت سلطة الانسان ، ووجدنا ايضاً ان غلة الارض كما تبرزها الطبيعة مستقلة عن عمل الانسان ليست المصدر الوحيد للارزاق ، بل هناك مصادر اخرى نجملها في ما يأتي :—

اولاً انقراض جانب كبير من الاحياء التي كان الانسان ينازعها الرزق وهي : ١ — الحيوانات التي لا فائدة منها للانسان وكانت قبل الانسان ، تملأُ المعمور ، ولا تزال في مجاهل افريقيا تربو على ناسها : ٢ — النباتات التي لا يغتذي منها الانسان ، ولا تفيدهُ لمأواهُ او لكسائه ، او الا لزوم لها لوقيده ، فقد اقتلعها وزرع بدلها نباتات تفيدهُ

ثانياً استخراج الانسان موادّ من الارض كالفحم الحجري والبترول والفصفات والنترات ( سماد للتربة ) تتحول الى غذاء

ثالثاً استخراج مواد اخرى معدنية وغير معدنية كالحديد والنحاس والقار والزفت — كل هذه يستخدمها الانسان لراحته . وراحتهُ توفر مادته التي لولا الراحة والهناء لكانت تذهب عاجلاً في التعب والعمل الشاق ، وتوفر قوته التي لولا المأوى والكساء لنفدت عاجلاً بالبرد

واذا كان الانسان الى الآن لم يستفد الفائدة التامة من هذه المصادر الطبيعية ، فالذنب ذنبه ، لانه لم يستقر على النظام الاجتماعي القويم الذي يقدره على الاستفادة من هذه المنافع

رابعاً استيلاء الانسان على القوات الطبيعية ، كالبخار والكهرباء ، وانحدار المياه وحركة الرياح ، الى غير ذلك من القوات التي اغنته عن الحيوانات المستعملة للنقل والجر التي كانت تنازعه الرزق

الخلاصة — ترى في كل ما تقدم ان دائرة الارزاق واسعة جداً ، ومرنة جداً ، تحتمل الاتساع كثيراً . والانسان لم يملأها حتى الآن ، ومتى ملأها يستطيع ان يوسعها كثيراً . واذا كان اتساعها يشدد ضغطها عليه فهو قادر ان يقاوم هذا الضغط بقوة الطبيعة نفسها التي يستخدمها لاغراض كثيرة . فاذا كانت اوربا قد ازدحمت بالسكان ولم تعد تحتمل مزيداً ، فاميركا لم تزل واسعة وتحتمل عشرة اضعاف سكانها . واسيا كذلك . وافريقيا لم تزل خالية تقريباً . فالناس لا يزالون قليلين على دنياهم

وهنا لا بد ان تلوح للخاطر هذه الاسئلة : —

١ — لقد مرَّ على نشوء الانسان الوف من القرون فلو كانت قاعدة مالثوس صحيحة لوجب ان تمتلىء الارض سكاناً منذ الوف من القرون . فلماذا لم يزل جانب كبير من البسيطة خلواً من السكان او يحتمل اضعاف سكانه ؟

٢ — اذا كانت الارض لم تزل رحيبة لاهلها فما الذي يضطر الناس الى الازدحام ضمن دوائرهم الضيقة واحتمال ضغطها ؟ ولماذا لا يشقونها الى دوائر اوسع منها وارحب ؟

٣ — اذا كانت دائرة الارزاق واسعة ، فما السر في ان السواد الاعظم من الناس يعانون الشقاء والفقر ؟

٤ — اذا كانت دائرة الارزاق اوسع جداً من ان يملأها الناس ، فما الذي اوقف عدد السكان عند الحد الحالي ؟

هذه الاسئلة جديرة بالنظر ، وفي النبذة التالية البحث الكافي

## ج - التوازن بين ازدحام السكان ودوائر العمران

١ً — التعاون الحتمي

الانسان اجتماعي بمقتضى الحاجة الاقتصادية . والناس آثروا الاجتماع لما فيه من مزايا التعاون الاقتصادية ، وتبادل المنفعة ، والتألب على الطوارىء ، والتوافق على المصالح . ولما صار الناس اجتماعيين صار مستحيلاً عليهم ان يفككوا اوصال مجتمعهم ، لان تنوع موارد الارزاق ، وتعدد الحاجات مع تمادي الزمان ، قضيا حتماً بتوزع الاعمال على افراد المجموع حسب سنّة التعاون

ولما كانت الاعمال مرتبة بعضها على بعض ، لم يكن بد من ارتباط الناس ايضاً بعضهم ببعض . فلو رام فرد ان يعتزل المجموع ويعيش مستقلاً الاستقلال المطلق عن معاملة المجموع ، لهلك لا محالة لعـدم تيسّر حاجاتهِ المتعددة له ، ولأنه بعد أن نشأ في وسط اجتماعي لا يقدر أن يعيش عيشة جده القديم

فالناس في نظامهم مترابطون ترابطاً حتمياً ، ومتعاونون بالرغم من اختيارهم ، أي سواء رضوا او لم يرضوا ، فهم مضطرون الى التعاون ، لانهُ أرث الجسم الاجتماعي المتسلسل . والمراد بالتعاون هنا اختصاص كل فرد او جماعة من الجماعات بعمل من الاعمال المتنوعة المشتركة ، وتبادل الافراد ثمرات الاعمال بطريقة المعاملة التجارية

فاذا تكاثر عدد السكان بحكم سنّة التناسل الطبيعية القاسرة ، ازدحموا في دائرة أرزاقهم بحكم سنّة الترابط المشار اليها آنفاً ، وان وجدت دوائر للرزق غير دائرتهم أقل ازدحاماً منها

وقبل أن نبين سر هذا الازدحام في دوائر الارزاق الواحدة ، مع وجود دوائر اخرى غير مزدحمة ، لا نرى بداً من الاسهاب في بيان مرونة الدائرة التي أشرنا اليها في النبذة السالفة

٢ً — تعليل مرونة الدائرة

لقوة الارض على الانتاج حـد نهائي ، فمتى بلغ استغلالها هذا الحد فزيادة العاملين فيها لا تزيد غلتها شيئاً ، وكل عمل يعمل فيها علاوة على ما يكفي لاخراج ذلك القدر يذهب عبثاً . فاذا ازداد العمال على حاجة الارض كان نصيب كل منهم من الغلة أقل . فاذا كان نصيب غيرهم من ثمرة العمل في النسج مثلاً اوفر ترك بعضهم الزراعة وانضم الى الناسجين بحيث تتوازن المكافأة بين هؤلاء واولئك بنسبة الاهلية الشخصية . واذا ازداد الناسجون الى حد أن تزداد منسوجاتهم على حاجة المجتمع ، وقلّ نصيبهم من المكافأة عن نصيب الحدادين مثلاً ، جنح بعضهم الى صناعة الحدادة بحيث تتوازن المكافأة بين الطائفتين . وهكذا يتوزع العمال على الاعمال اللازمة للمجتمع كله توزعاً متكافئاً متوازناً تقريباً ، وكلما ازداد أفراد المجتمع توزعوا على هذا النحو أيضاً

٣ً — مصادر الرزق الطبيعية والصناعية

ولا يخفى أن أساس الارزاق مصادرها التي في الطبيعة ، كزراعة الارض وتربية المواشي واستخراج الفحم الحجري والبترول وسائر المعادن وصيد الاسماك والطيور الخ . وأما الاعمال الاخرى كالحدادة والحياكة والنجارة والبناء الى غير ذلك من أنواع الاعمال التي لا تحصى ، فانما هي مصادر للرزق تكميلية يراد منها تسهيل استخراج الارزاق الطبيعية وتهيئتها لحاجات الانسان الضرورية والكمالية . وعليه فالاعمال الصناعية والتجارية ونحوها مترتبة على مصادر الارزاق الطبيعية ومتوقفة عليها . فاذا فقد القطن والصوف والكتان لم يبق للناسج ما ينسجهُ ، وبالتالي لم يبق لتاجر المنسوجات ما يتاجر بـهِ وللخياط ما يخيطهُ . واذا استوفى السكان الذين يستهلكون كل ما في دائرة رزقهم من الغذاء والكساء حاجتهم من المنازل والاثاث ، لم تبق حاجة لبناء البنّاء ولا لنجارة النجار ولا لصناعة الخزّاف الخ

﴿ الحـد النهائي لمصادر الارزاق الصناعية ﴾ — فكما أن لمصادر الارزاق الطبيعية حـداً نهائياً ، كذلك للاعمال المتوقفة عليها حدٌّ نهائي أيضاً . فكلما ازداد

أفراد المجتمع وتوزعوا على الاعمال تناقص نصيب كل فرد منهم ، وكلما اتسعت دائرة الاعمال قلت مرونة دائرة الارزاق ، واستلزم توسيعها جهاداً أشد . أي أن نسبة الجهاد في تحصيل الرزق الى الحاصل منهُ تزداد بزيادة ازدحام الناس في هذه الدائرة

٤ً — مط الدائرة بالاضافة

على أنهُ قد تنفد مصادر الارزاق الطبيعية ، او يبلغ استخراجها الحد النهائي في مملكة ما ، ومع ذلك تبقى دائرة الرزق مرنة تحتمل المط والاتساع بواسطة المعاملات التجارية مع البلاد الاجنبية ، فيستورد السكان جانباً من حاصلات البلاد الاخرى الطبيعية ، ويصدرون بدلها مصنوعاتهم

كما يفعل الانكليز مثلاً في استيرادهم القطن ونسجه واستبدال جانب من مصنوعاتهم ومنسوجاتهم بالحنطة والثمار واللحوم المقددة . ولو اقتصر الانكليز على الاتكال على مصادر الرزق الطبيعية عندهم لما احتملت بلادهم عددهم الوافر . ولا يخفى ان هذا الازدحام الهائل في منطقة يستلزم النقص في السكان في منطقة اخرى . فلو كان قطن مصر ينسج فيها مثلاً لاقتضى ان ينقص سكان انكلترا ويزداد سكان مصر

﴿ تقاص الدائرة بغير الازدحام ﴾ — وكما يحتمل أن دائرة الرزق تتّسع بضم جانب من مصادر دائرة أخرى اليها على نحو ما تقدم ، يحتمل أيضاً أن دائرة رزق أخرى تتوتر من غير أن تنفد مصادر الرزق الطبيعية فيها ، اذ تحدث أسباب اجتماعية توترها قسراً ، بالرغم من عدم استيفائها ما تحتمله من الازدحام .

وأهم هذه الاسباب فساد الحكومة واستبداد الحكام ، كما في بعض الممالك الشرقية مثلاً ، فان كلاً منها تحتمل من السكان ضعفي سكانها بل ازيد ، لو كان فيها عدل وتدبير للشؤون الاقتصادية . ومن تلك الاسباب الجهل الذي يفضي الى ظلم الحكام أيضاً ، والى الفوضى في الاحكام ، ويقف في سبيل تقدم الحالة الاقتصادية واستعمال الطرق الحديثة لاستخراج خيرات الارض ، كما في بلاد العرب مثلاً

٥ً — التحام الدوائر

ثم ان دوائر الارزاق المتجاورة جغرافياً والمتقاربة في التمدن والعمران قد تلتحم بعضها ببعض من بعض الجهات ، بحيث يتيسر التدفق من الدائرة المزدحمة الى الدائرة الاقل ازدحاماً بعض التيسر . نقول بعض التيسر ، لان هناك عقبات اجتماعية

واقتصادية ، كاللغة والتعصب للجنسية ونحوهما ، تقف في سبيل ذلك التدفق ، فيقل او يكثر حسب تلك العقبات . وبهذا الاعتبار تعد تلك الدوائر المتلاحمة دائرة كبيرة مركبة . فقد يعد كل من اوربا واميركا الشمالية واسيا وجنوبي افريقيا دائرة كبيرة مركبة . واخيراً لك ان تعد الممالك المتمدنة كلها في العالم دائرة مركبة ، مقابل دائرة الممالك المتمدنة بعض التمدن ، لان علائق تلك بعضها ببعض اكثر من علائقها مع الممالك الاخرى

٦ — القوتان المتضادتان

ترى من كل ما تقدم ان في كل مجتمع من المجتمعات البشرية قوتين متضادتين تفعلان معاً : الاولى قوة الميل الطبيعي الى التناسل المفضي الى ازدحام السكان . والثانية ضغط دائرة الرزق المتوترة على السكان . وكلما اشتد الزحام من جهة والضغط من جهة اخرى ، قل هناء السكان أو ازدادت تعاستهم

﴿ اسباب القعود عن المهاجرة ﴾ — بقي ان نورد الاسباب التي تحمل افراد المجتمع على تحمل مشقة ذلك الجهاد ، واحتمالهم هذه التعاسة ، وتفضيلها على اختراقهم دائرة رزقهم ، وخروجهم الى دائره اخرى ارحب

اولاً — ان السبب الاساسي الذي يُحرج الفرد الى المهاجرة هو نفسه عقبة كؤود في سبيل مهاجرته ، ونعني به ضيق ذات اليد . فاذا كان الفرد عاجزاً عن تحصيل رزقة فكيف يقدر على تجشم مشاق المهاجرة والقيام بنفقاتها — نفقة السفر ونفقة الاقامة في بدء الامر ونفقة الشروع في عمل جديد . لذلك ترى ان الفقر المدقع يقعد جانباً من المضغوط عليهم عن المهاجرة ، ولسان حالهم يقول « عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة » . واما الموسر او المكتفي فلا يضطر الى المهاجرة

ثانياً — ان الفرد مرتبط ببيئته باربطة مختلفة — علاقة الاهل ، والفة الاصدقاء ، ومعاضدتهم واحساساتهم نحوهُ . وهذه الاربطة تقعد كثيرين عن المهاجرة ، لشعورهم بضعفهم وهم بعيدون عن الاهل والاصحاب

ثالثاً — جهل الفرد لغة البلاد التي يُحرَج الى المهاجرة اليها يفقده جانباً كبيراً من اهليته . ولا ريب ان الفرد في مهجره اضعف منه في بلاده ، الا اذا كان اهل المهجر احط منه في اعتبارات كثيرة

رابعاً — كثيراً ما تكون المسؤولية نحو العائلة عقبة في سبيل المهاجرة . فرب العائلة اعجز من العازب عن المهاجرة ، والعازب اقل اضطراراً اليها

خامساً — اختلاف البيئة يكون احياناً عقبةً ، فالذي نشأ في منطقة باردة مثلاً يستصعب جدًّا المعيشة في منطقة حارّة ، والعكس بالعكس . والذي تعوّد سكن المدينة يستصعب المعيشة في الريف الخ

﴿ضعف هذه الاسباب﴾ — على ان هذه الاسباب ونحوها مما على شاكلتها ليست اسبابًا قوية للقعود عن المهاجرة اذا توترت دائرة الرزق وشددت الضغط على المزدحمين فيها . وانما هي كافية لاستمساك السكان بوطنهم ما دامت دائرة رزقهم تحتمل المط والاتساع عليهم ، وان وجدت دائرة اخرى اوسع وارحب لهم . هذا هو سر الازدحام في مناطق من المعمور اكثر منه في مناطق اخرى

واما تزاحم الناس في المناطق العامرة مع وجود مناطق اخرى خالية من العمران او قليلة السكان فليس سراً خفياً عن الاذهان . وغني عن البيان ان استعمار البلاد غير العامرة كمجاهل افريقيا يستلزم مشقات لا يستطيعها الافراد ، ولا يمكن ان يقوم بها الا جماعات مستعمرة متضامنة

## ٧ — اسباب المهاجرة اقوى

وكما انه توجد اسباب كافية للقعود عن المهاجرة توجـد اسباب اقوى للاقدام عليها وهي :

اولاً — توتّر دائرة الرزق حتى لا تعود تحتمل مطًّا ولا اتساعاً ، فعند ذلك يفضّل المتضايقون من شدّة الازدحام اخطار المهاجرة على الهلاك تحت ذلك الضغط، لان في المهاجرة املاً ، وفي البقاء تحت الضغط يأساً

ثانيا — ان البلاد المستجدّة في العمران ترحب بالمهاجرين وتسهّل المهاجرة لهم ، لانها تحتاج الى عمال يعملون فيها كالبلاد الاميركية في القرن الماضي

ثالثا — انه متى شرع البعض يهاجرون يمهدون السبيل لغيرهم اذ توجد صلة بين الفريقين، والذين هاجروا يؤسسون بلغاتهم وعاداتهم وطنا جديداً لاخوانهم وبني جنسهم ، ويزيلون اكثر العقبات التي مرَّ ذكرها بل كلها . ومهاجرة السوريين الى اميركا وغيرها مَثَلٌ ظاهرٌ على كل أنواع المهاجرة

رابعا — متى شعرت الامة برمتها ( او حكومتها ) بشدة الازدحام وتوترت دائرة ارزاقها اهتمت بالاستعمار في خارج بلادها ، وبتسهيل المهاجرة الى المستعمرة الجديدة ، كما فعلت امم اوربا المستعمرة

خامسا — العلائق التجارية بين الممالك المختلفة تسهل سبيل المهاجرة كما لا يخفى ، وهذه العلائق نفسها كثيراً ما تكون سبباً كبيراً لزيادة مرونة دائرة الرزق كما ذكرنا آنفاً

٨ً — التوازن بين ضغط الدائرة والازدحام

فاذا كانت دوائر الارزاق من الجهة الواحدة تتوتر اخيراً حتى تضغط على السكان ، مهما كانت مرنة وقابلة المط والاتساع ، واذا كانت قوة الميل الطبيعي الى التناسل من الجهة الاخرى تفضي الى ازدحام السكان وتزاحمهم ، واذا كانت نتيجة الضغط من هذين الجانبين تأول الى إشقاء السكان بانقاص نصيب الفرد منهم من الرزق — فلا بد من وجود توازن بين ضغط قوة التناسل ، وضغط الدائرة ، وشقاء السكان . فاذا كثر التناسل واشتد الزحام وجب على السكان ان يمطوا الدائرة ما استطاعوا . فان عجزوا عن مطها عند حد وجب ان يرضوا بالنقص من هنائهم ، وبالمزيد من شقائهم ، أو ان يرحلوا . فان لم يستطيعوا الرحيل ، ولا احتمال المزيد من الشقاء ، اضطروا الى مقاومة قوة الميل الى التناسل . فترى أن كلاً من هذه الحالات الثلاث مرن وقابل للتقلص والتمدد . والسكان يتموّجون تحت هذه القوات الضاغطة حسب تغلب الضغط من جهة على الجهتين الاخريين

فامام السكان اذاً ثلاث مهمات : اولاً توسيع دائرة الرزق ، أو الخروج الى دائرة اخرى . وثانياً احتمال المزيد من الشقاء . وثالثاً تقليل النسل . والامم تختلف لقاء هذه المهمات . فالانكليز مثلاً يهتمون بالاكثر في توسيع دائرة الرزق . والارلنديون والطليان يرضون بنقص الرزق و بالشقاء . والافرنسيس يقاومون الميل الى التناسل . ولعلي مخطيء بهذا التمثيل ، ولكن اختلاف الامم في هذه الاحوال امر لا مشاحّة فيه . على أن كل امة من الامم المزدحمة في دائرتها لا بد ان تقوم بكل من هذه المهمات الثلاث كثيراً أو قليلاً . ولما كانت قوة الميل الى التناسل اشد هذه القوات ، والسكان يتكاثرون على نسبة هندسية ، بحيث انهم يتضاعفون اضعافاً لا يحصى عديدها في قرون قليلة ، فلا ريب من وجود عوامل قوية مقاومة لتكاثر النسل ، والا لكانت البسيطة امتلأت منذ قرون ، لو كانت الطبيعة تسمح بذلك ، فما هي هذه العوامل؟

٩ — العوامل لصد قوة الميل الى تكثير النسل

قسم ملثوس العوامل المقاومة لازدياد السكان الى قسمين : عوامل منعية ، وعوامل حتمية . اما العوامل المنعية فهي امتناع الناس باختيارهم عن ولادة الاولاد . واما العوامل الحتمية فهي العوامل التي تزيد الوفيات كالاوبئة والامراض والحروب والموبقات

العوامل المنعية — أما العوامل المنعية فهي : اولا الامتناع عن الزواج بتاتاً . وثانيا الابطاء بالزواج الى السن التي يغلب فيها العقم وتقل المواليد . وثالثاً العقم الصناعي ، اي استعمال الوسائل لمنع الحمل ، او للاجهاض قبل الوضع . وربما عُدَّت فرنسا في طليعة الامم التي تلجأ الى هذه العوامل الاختيارية لمنع تكاثر النسل وتحامي المزيد من الازدحام

وغنيٌ عن البيان ان الذي يعجز عن كسب رزقه وهو فرد لا يجرأ على أن يكفل رزق اثنين او ثلاثة او اربعة . والزوجان اللذان يقعان بعد الزواج في شقاء لم يذوقاه قبله يبذلان وسعهما في منع ولادة الاولاد. فاذا شحت موارد الرزق على مزدحم السكان اضُطرَّ الى هذه الوسائل ، وكثيراً ما تتحاشى النساء الحمل لا لضيق ذات اليد، بل لانهنَّ يتجنبنَ كل ما يشغلهنَّ عن لهوهنَّ وترفهنَّ ، وهذه الوسائل فعالة جدًّا في منع تكاثر النسل . ومع كل ذلك فالناس يعجزون عن مقاومة الميل الطبيعي للتناسل ومنعه بتاتا

﴿ حدة قوة التناسل ﴾ — وما دام هنــاك متسع من الرزق مهما كان قليلاً ، وما دام في طوق الناس احتمال الضيم ولهم رجاء بتحسن الحال ، وما دام بين السكان موسرون.او مقدمون لا يخافون من اعبــاء العائلة ، فالميل الى ولادة الاولاد يبقى فاعلاً فعله . وكلما اشتد الزحام ، واشتد الميل الى ولادة الاولاد ، مع ضيق الدائرة ، وضغط الشقاء ، جاء دور العوامل الفعلية لانقاص عدد السكان باكثار عدد الوفيات

العوامل الحتمية — واهمها : اولاً الفقر . فمتى قلَّت انصبة الافراد من الرزق تنحط درجة المعيشة فتسوء الحالة الصحية ، وتكثر الامراض ، وبالتالي تقل طاقة الافراد على تحصيل الرزق ، فتزداد حالة المعيشة سوءاً . فالفقر يجلب السقم والسقم يجلب الفقر . فيقوم التقهقر الصحي مقام النجاح الاقتصادي ، وعاقبــة هذا التقهقر كثرة الوفيات طبعاً . وسقم الغذاء ورقة الكساء عن مقاومة البرد ، واكتظاظ المساكن الحقيرة بالسكان ، والمعامل بالعمال ، حتى تتعذر النظافة والوقاية من الامراض ، تهيىء الاسباب لانتشار الاوبئة ، فاذا حل في الناس وباء جرف منهم جانبا كبيراً

ثانيا ، البطر . فان الموسرين من السكان يتمادون في اللهو والبطالة ، والفجور وادمان المسكر ونحوها من الموبقات التي تعرضهم للفقر من جهة ، وللامراض من جهة اخرى ، كالامراض الزهرية والصــدرية وغيرها ، مما يتوارثه الخلف عن السلف . ونتيجته : اولا الموت العاجل قبل

دور الزواج أو على أثره ، الامر الذي يقلل المواليد طبعا . وثانياً ،ضعف السلالة من جراء توارث السقم . والنتيجة النهائية انقراض جانب من السلالة ،وانحطاط الجانب الآخر الى طبقة الفقراء ،هذا اذا لم تنقرض برمتها

ثالثا ، انهاك القوة من الجهاد في الاعمال . فقد علمت مما سبق ان ازدحام الناس في دائرة العمل يفضي الى بذل كثير من القوى لاستخراج قليل من الرزق . والانهاك كثيراً ما يورث الوفاة في مقتبل العمر قبل امكان التناسل ، فضلاً عن انه يورث ضعف قوة التناسل

١٠ً — الحروب ليست سببا طبيعيًا لصد الازدحام

أما الحروب فلا أعدها من العوامل الطبيعية لتقليل السكان ، لانها ليست لازمة من لوازم الازدحام ، وانما هي نتيجة جنون اجتماعي ، ولهذا قد تقلل السكان في حين لا يلزم تقليلهم . ولذلك لا تبررها نتيجتها في تقليل السكان ، وان كان هذا التقليل من مقتضيات العمران ، إلا انهُ ليس من وظائف الحرب

﴿ الحاصل ﴾ — ومُحصَّل ما تقدم أن في طبيعة الاجتماع البشري عوامل طبيعية تقضي بمقاومة الميل الى التناسل ، وزيادة الوفيات ، قبل أن يمتلىء المعمور والمهجور بالسكان . أي أن مجرد الازدحام ليس السبب الوحيد لصد تلك القوة كما يفهم من نظرية ملثوس . وهذا هو السر في أن البسيطة لم تمتلىء سكاناً حتى الآن ، وقد لا تمتلىء بعد قرون ، مع أنهُ لو صحت نظرية ملثوس لاقتضى أن تكون البسيطة قد امتلأت ، مراراً قبل طوفان نوح ، ومراراً بعدهُ

القسم الثاني — عمل العوامل الاجتماعية

# الفصل الخامس

## اعتراك القوات

## ا – مقدمة . التصادم

### ١ً — التفاعل الاجتماعي

(١) — لماذا التدمير والتعمير ؟ (٢) — التصادم سبب تفوق المتمدنين على المتوحشين (٣) — الا اطمئنان في المجتمع البشري؟

### ٢ً — فلسفة التصادم

(١) — التصادم الجرمي في الطبيعة (٢) — التفاعل الكيماوي
(٣) — التصادم في العالم العضوي

### ٣ً — نواميس التصادم

السنّة ١ — درجتا الاصطدام . السنّة ٢ — التباين والتماثل .
السنّة ٣ — التدمير والتعمير . السنّة ٤ — الفعل ورد الفعل — المحاكاة

## ب – اختلاف عامل البيئة

### ١ً — في العالم الحيواني

(١) — تأثير البيئة على الاحياء (٢) — تأثير الاحياء على البيئة

### ٢ً — في العالم الاجتماعي

(١) تفرّع الجماعة وتنوعها (٢) — طبائع اختلافها

## ج – اختلاف العامل النسلي

### ١ً — التزاوج في العالم الجمادي

(١) — نشوء ثالث من اثنين مغاير لهما (٢) — التوالد في العالم الميكروبي
(٣) — غرض اللقاح التنويع

### ٢ً — التزاوج فى العالم البشرى

(١) — تزاوج الابعدين (٢) — اشتراك البيئة مع العامل النسلي

## د — اختلاف العامل النسلي

### ١ً — تصادم الجماعات

— فائدة الصدام الاجتماعي وتحوّله

### ٢ً — اللقاح الاجتماعى

(١) — الخصب الاجتماعي (٢) — النغولة الاجتماعية العقيمة
(٣) — الخطر على الجنس الراقي (٤) — تصادم الجماعات لازم للرقي
(٥) — نقل الصدام (٦) — مصيرنا نحن

## هـ — رد فعل القوات المعتركة

### ١ً — فعل القوات الاجتماعية فى البيئة

— تحكم الانسان في الطبيعة

### ٢ً — تأثير الانسان فى البيئة الاجتماعية

— الثروة الاجتماعيـــة

### ٣ً — لا ارادة الانسان فى الرقى التمدنى

### ٤ً — الجمود الاجتماعى فى التفاعل الروحى

## و — هيمنة القوى العقلية والادبية

١ً — القوى العقلية المهيمنة ٢ً — هيمنة العقل عجلت الارتقاء
٣ً — هيمنة القوة الادبية

# ١ – مقدمة . التصادم

## أ – التفاعل الاجتماعي

أما الآن وقد فرغنا من بيان القوات العاملة في المجتمع البشري فعلينا أن نشرح كيفية عملها في تطور المجتمع وتوسُّعهِ وتقدمهِ

علمت أن قوات الاجتماع مشتقة من القوات الموجودة في الطبيعة وتتمشى على نواميسها . والقوات الطبيعية التي نرى مفاعيلها في الآلات ( الميكانيكيات ) ونحوها تبدو في حالتين : السكون ، والحركة . أما السكون فهو حاصل قوات متوازنة ، أي متفاعلة بتوازن . فالسكون ليس معناه أن لا قوات هناك ، بل معناه أن القوات متوازنة الفاعلية . وأما الحركة فحاصل تصادم قوات متفاوتة . كذلك القوات الاجتماعية بعضها متوازنة ، وحاصل فعلها النظام الاجتماعي ، و بعضها متفاوتة ، وحاصل فعلها التغيُّر والتنوُّع . هذه تدمّر وتلك تعمّر

ولما كانت قوى الاجتماع متعدّدة ومختلفة كما رأيت ، فلا بد أن تكون في كثير من الاحوال متفاوتة ، لان الناس والجماعات مختلفو المصالح والاغراض والمآرب ، فهم يعملون متناهضين متعارضين ، و بعبارة رياضية ميكانيكية ، يتحركون متقاطعين ، وفي هذه الحالة يتصادمون ، وتصادمهم ينتهي بتدمير بعض أنظمتهم . اذاً القوات غير المتوازنة او المتفاوتة انما هي كسائر قوات الطبيعة التي لا تتوازن جاذبيتها ودافعيتها ، فتندفع عن المركز ، أي تتشتَّت . فاذا لم يكن ثمت من وسيلة لكبح جماح القوة الاجتماعية المتفوّقة ، او الزائدة ، حتى تتوازن مع غيرها ، كانت النتيجة دماراً للاجتماع . اذاً يجب أن يكون في روح الاجتماع ما يسيطر على تلك القوى الاجتماعية المعتركة ، ويدربها في سبيل التوازن حتى تستقر في نظام — هو العقل الاجتماعي

لذلك تقضي علينا طبيعة هذا البحث بقسمتهِ الى قسمين : « اعتراك القوات » و « توازن القوات » . فاعتراك القوات يكون في تصادم أنظمة اجتماعية مختلفة . ثم في نزاع هذه الانظمة الى أن يؤثر بعضها على بعض تأثيراً يضطر كل نظام أن يتغير بعض التغير ، بحيث يقارب شكل الآخر ، او أن يشق كل منهما الآخر ، بحيث يتشابه شطر من الواحد مع شطر من الآخر . فتكون وظيفة اعتراك القوات الاجتماعية تغيير الانظمة وتنويعها

وأما توازن القوات فيكون بجعل بعض الانظمة مماثلة لبعض بحيث يتيسر ائتلافها ثم اندماجها في أنظمة جديدة . فالنظام انما هو توازن القوات

اعتراك القوات يدمّر الانظمة المتصادمة . وتوازن القوات يعيد تنظيمها بصور جديدة .

(١) لماذا التدمير والتعمير ؟

ولكن ما الغرض من هذين التدمير والتعمير ؟

لماذا يُهدَم المبني لكي يتجدد البناء ؟

الهيئة الاجتماعية جسمٌ حيٌّ يُولَد وينمو ويلد ويشيخ ويموت . والغرض من تكرار عملية الحياة تحسين النسل . وبهذا التكرار كان المتأخرون أرقى من المتقدمين من ناس وعجماوات . كذلك الهيئة الاجتماعية تهدّم انظمتها القديمة وتمزّق جماعاتها بغية تكوُّن جماعات جديدة أرقى ، وتجديد أنظمة أفضل . اذاً من غير هدم وتجديد لا يكون تقدم . هذه سنة الارتقاء

ومن الامثلة على هذه السنّة ان الجسم البشري نفسه ينمو بالهدم والتجديد . ففي السابعة من العمر تسقط أسنان الطفل ، وتنبت اسنان اخرى أفضل لحياة الشبيبة . في سن البلوغ تهدم كريات الدم البيضاء أبنية بعض العظام ، وتبني عظاما اخرى غيرها اكبر وافضل للرجولية . وهذا هو سر تغير الجسم الفجائي في عهد البلوغ . بل ان الخليات التي تتألف منها اعضاء الجسم الحي يندثر بعضها لتحل مكانها خليات اخرى جديدة . والا فليس ثمة من نمو

فالارتقاء في التمدن يستلزم هذا التغيير في الانظمة وتنقيحها او ابدالها بأنظمة

أكثر موافقة للحالة التمدنية الجديدة التي يتجه اليها المجتمع في نموّه . اذاً اعتراك القوات مفيدٌ للاجتماع البشري ولازم له

(٢) — التصادم سبب تفوُّق المتمدنين على المتوحشين

فلذلك ترى أن الجماعات التي تحركت قواتها الاجتماعية ، فتصادمت واعتركت انظمتها ، خطت في سبيل المدنية وارتقت في سلمها . والجماعات التي قضت حياتها على وتيرة واحدة ، ولم يطرأ ما يحرك قواتها الاجتماعية ، و يصدمها بعضها ببعض ، حتى يغير أنظمتها ، بقيت منحطة . هذا هو سبب تفوُّق الأمم المتمدنة على الأمم المتوحشة

العوامل التي تحرك القوات وتجعلها متفاعلة كانت في أوائل عهود الانسانية عوامل طارئة اقتضتها تغيرات البيئة . فالجماعة التي قضى لها القضاء والقدر أن تبقى في بيئتها مستقلة ، من غير أن يزعجها مزعج ، او تنازعها جماعة أخرى ، بقيت في خمولها وحطتها .

زنوج افريقيا الذين مضت عليهم قرون عديدة من غير أن يترقوا ، توازنت العوامل فيهم فبقوا على حالة واحدة . كانت القوة النسلية فيهم التي تكثر المواليد توازن غوائل البيئة التي تهلك المواليد ، كالوحوش المفترسة ونحوها . فقلما ازدحمت بيئة بالسكان الا حدث التصادم بين الجماعات . هذا تمثيل بسيط لتوازن القوات . والتحقيق العميق في سبب تأخر تلك القبائل الهمجية يظهر امثلة اخرى لتوازن العوامل

وأما الجماعات التي طرأت عليها طوارىء مختلفة من بيئيّة واجتماعية فقد اجتازت عدة تطورات حتى تقدَّمت في مدنيتها . وارتقاؤها في المدنية رقى عقلها حتى صارت تبتغي الاستمرار في الارتقاء ابتغاء ، ولا تتركه لمقتضى القدر — وهذا هو سبب نشوء فكرة « الاصلاح » ، التي تتعمد بها بعض الامم أن تنقح أنظمتها تعمداً ، من غير أن تنتظر الطوارىء لتحريك القوات الاجتماعية وتفاعلها ، بغية أحداث التغيير في الانظمة تبعاً لمقتضيات الزمان . وهذا من جملة أسرار أن التمدن أصبح يسير بأسرع من سيره الماضي جداً

فالامم التي تتشبث بأنظمتها القديمة كأنها تصر على بقائها في درجة مدنيتها التي هي فيها ، تصر على رفضها الارتقاء في درج التمدن . وفي الوقت نفسه تعرض نفسها

للوقوع تحت أقدام الأمم الأخرى المتزاحمة في سلم الارتقاء . وهو الإفضاء الى شيخوختها ، والى تقهقرها وانحطاطها ، وأخيراً الى انقراضها .

يقال ان قبائل الاسكيمو ، وقبائل فيداس وقبائل الفوجيين، وقبائل اخرى ايضا، كانت أرقى مما هي فتقهقرت وانحطت لهذا السبب .

(٣) — ألا اطمئنان في المجتمع البشري ؟

اذاً الا يمكن أن يطمئن المجتمع البشري على حال ؟ كلاَّ . كما أنه ليس في السكون سكون مطلق ، هكذا ليس في الاجتماع اطمئنان دائم على حال واحد . التوازن ليس معناه السكون المطلق ، بل معناه « تعادل » القوات . وأما السكون المطلق فمعناه انتفاء القوات . معناه التلاشي ، الفناء . فالجماعات ما دامت هيئة اجتماعية يجب أن تستمر في تجديد توازناتها تدرجاً في سلم الارتقاء التمدني ، او أن تنحدر متقهقرة ، ومخلية المكان في ذلك السلم لأمة ناهضة غيرها . وهكذا دواليك .

ولهذا ترى أن أحد الأنظمة نشأ بالامس ، وما لبث اليوم أن سقط ليقوم مقامه نظام آخر ، كما تسقط الخلية المندثرة في الجسم الحي لتحل محلها خلية أخرى اليق منها، وكما تسقط اسنان اللبن لتحل محلها أسنان البلوغ . وكذلك ترى جماعة الآن تنحل وتتلاشى لتحل محلها جماعة أفضل نظاماً منها .

فلهذا السبب لاغنى عن تخصيص فصل لاعتراك القوات الاجتماعية المفضي الى التنويع . ولابد من البحث في كيفية هذا الاعتراك بحسب السنن الطبيعية وفي نتائجه

## ٢ — فلسفة التصادم

(١) — التصادم الجرمي في الطبيعة المادية

من نواميس الجاذبية ان الاجرام أو المواد يجذب بعضها بعضاً ، كلٌّ على قدر جرمه ، وبالعكس كمربع بعده عن غيره . فالجرم الصغير يجذب الكبير كما يجذب هذا ذاك ، كلٌّ على قدر جرمه

القنبلة التي يقذفها المدفع الى العلى متى عادت تسقط كانت الارض جاذبة لها، وبالوقت نفسه تكون هي جاذبة للارض . ولو كان يمكننا ان نقيس مفعول هذه الجاذبية لوجدنا أن الارض قد انحرفت انحرافا زهيداً جداً عن خط مسيرها في فلكها بقدر نسبة القنبلة اليها

ثم متى سقطت القنبلة على الارض غاصت فيها ، ولو أجزاء ، واصبحت كجزء منها ، أو ان الارض ابتلعتها ، أو أدمجتها فيها ، والحركة الناجمة من اصطدامهما تتوزّع في كل الارض وتحدث تغيراً ، ولو بسيطا جداً في بعض عناصرها

النيازك والرجُم التي ليست من الارض ، بل هي شراذم مواد كونية سابحة في الفضاء ، متى اقتربت من الارض تجاذبت معها وتصادمت بها . وفي هذه الحالة يحمى النيزك في اثناء مروره في طبقة الهواء حتى يلتهب ، وينحل الى عناصر كيماوية مختلفة تصطدم في الارض ، وتتداخل فيها وتتركب مع عناصرها — تندمج فيها او تأتلف معها

(٢) — التفاعل الكيماوي

على هذا النحو يحدث الائتلاف الكيماوي

يلتقي الكلس الحي ( الجير ) الذي يستعمل للبناء ( وهو أكسيد الكلسيوم ) بالماء الاعتيادي ( وهو اوكسيد الهيدروجين ) فتتجاذب المادتان ، ويحدث بين عناصرهما تصادم عنيف يولّد حرارة . فجواهر الجير تأخذ اوكسيجن الماء مع نصف هيدروجينه ، وتطلق النصف الآخر للهواء ، وتتألف بعد ذلك مادة جديدة ، لا هي الماء ، ولا هي الكلس الحي ( اوكسيد الكلسيوم ) ، بل هي هيدروكسيد الكلسيوم .

وهيدروكسيد الكلسيوم هذا متى امتزج مع الرمل ( الذي هو الحامض السليسيك ) حدث بينهما تجاذب وتدافع بطيء ، ينجليان عن تركّب مادة ثالثة هي سلكات الكلسيوم الشديدة الالتحام او الائتلاف . وبفضل شدة التحامها او ائتلافها يتمكن « مدماك » البناء في العمارة

(٣) — التصادم في العالم العضوي (١)

ننتقل من التصادم الجرمي والتصادم الكيماوي الى التصادم العضوي أو الحيوي في الاجسام الحية . تلتقي القطة بالفارة فتفترس تلك هذه وتلتهمها . فهما قوتان تصادمتا فالتهمت الكبرى الصغرى واندغمت هذه في تلك . وبفعل القوات الداخلية الهاضمة يتحوّل بعض جسم الفارة الى جسم القطة، وبعضه يفترق عنه . اي ان القناة الهضمية في القطة تنبذ ( تبرز ) بعضه مما لا يتفق مع جسمها

فالحياة الحيوانية انما هي سلسلة اصطدامات على هذا النحو . يصطدم الحي بالحي فيندمج ضعيفهما بقويهما، وتتحول عناصر هذا الى جسم ذاك . هذا ما يسمونه تنازع البقاء ، او الجهاد لاجل الحياة . سنّة لا مناص منها

الحياة النباتية تسير على هذه القاعدة ايضا . جذور النبات تمتص الماء حاملاً بعض الاملاح، وورقه يمتص اوكسيد الكربون ، او الحامض الكربوني . وبعمليات التجاذب والتدافع الكيماويين يتحوّل الماء والحامض الكربوني والاملاح الى ماتراه من جذع الشجرة وغصونها وورقها وزهورها وثمارها الخ

---

(١) العالم العضوي هو النبات والحيوان والانسان . سمي كذلك لانه مركب من أعضاء ذات وظائف حيوية

فماذا نلاحظ في الامثلة المتقدمة ؟ نلاحظ أن التصادم الذي يحدث قبل كل ائتلاف يتدرَّج في درجتين متميزتين : يحدث تدمير شيء ، ثم تركيب شيء آخر جديد . وهذا ما يفضي بنا الى البحث في اكتشاف نواميس التصادم التي يبنى عليها البحث في فصلي تفاعل عوامل الاجتماع

## ٣ — نواميس التصادم

السنَّة الاولى : درجات الاصطدام

في الدرجة الاولى تكون نتيجة الاصطدام ظفراً . لا بد أن يكون الاصطدام عنيفاً حتى يصد حركة القوة الضعيفة ويتلف تركيبها او يحل ائتلافها او يفصل عنها جزءاً من أجزائها المؤلَّفة . ونسميه « الاصطدام الأولي » . في الدرجة الثانية يكون الاصطدام تنازعاً بطيئاً بين أجزاء المواد المتصادمة ، تكيّف فيه هذه الاجزاء حركاتها وأحوالها بحيث تتوافق وتتآلف . ونسميه « الاصطدام الثانوي »

في الدرجة الاولى يحدث الاجتماع . وفي الثانية يحدث الائتلاف . الدرجة الثانية نتيجة الاولى . والائتلاف يقضي بتوزيع الجسم المندمج على سائر أجزاء الجسم المدموج فيه حسب اللزوم والاقتضاء . وهذا العمل يسمى « التنويع » وسيأتيك ذكره في محله

في الدرجة الاولى يصطدم النيزك او القنبلة بالارض فتبتلعها . وفي الدرجة الثانية يندمجان في الارض، وتتلاشى قوتها فيها ، وهو الائتلاف . في الدرجة الاولى يلتقي الماء والكلس الحي فيمتص هذا ذاك . وفي الدرجة الثانية يأخذ الكلس هيدروكسيد الماء ويطلق نصف هيدروجينه

في الدرجة الاولى تفترس القطة الفأرة ، وتتلف حياتها . وفي الدرجة الثانية يتمثل بعض اجزاء الفارة في جسم القطة . على هذا النحو يتصادم الافراد ، فكل منهم يؤثر على الآخر بقدر قوته، فأقواهم اكثرهم تأثيراً على أضعفهم، واكثرهم تكييفاً له، حتى يحمله على مطاوعته والتمثل به ومجاراته . وعلى هذا النحو تتصادم الجماعات فتقتتل، والمتغلبة تلتهم الاخرى، فتندمج هذه في تلك .

السنة الثانية : التباين والتماثل

« الاصطدام الأولي » يكون بين الاجسام المتباينة في القوة أو الشكل . « والاصطدام الثانوي » بالعكس ، يكون بين العناصر المتماثلة والمتقاربة

الكيماويون يفهمون هذه السنّة جيداً . بين ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) وحجر جهنم ( نترات الفضة ) تباين عظيم . فاذا التقيا تصادما بعنف وتنازعا وتقايضا . فالفضة تأخذ الكلور ، والصوديوم يأخذ النترات . لان بين الكلور والفضة الفة أشد من الالفة بين النترات والفضة . وكذا الحـال بين الصوديوم والنترات . الاصطدام بين كرتي البلياردو المتوازنتين المتساويتين بالمادة والحجم لا يفضي الى اندماجهما كما يفضي اصطدام النيزك بالارض . كذلك بين الاجسام الحية يحدث التصادم بين حيين غـير متماثلين في القوة او في الشكل او النوع . لان التفاوت في القوة يكون في الغالب مناسباً للتباين في الشكل . فالقطة لا تلتهم القطـة ، ولا الفأرة تلتهم الفأرة

كذلك الجماعات المتعادلة في القوة قلما تتصادم . وان تصادمت ترتد احداها عن الاخرى كارتداد كرتي البلياردو . وانما يكثر التصادم بين الجماعات المتفاوتة في القوة . واذا أمكن ان تتغلب الواحدة على الاخرى اهتضمتها وتمثلت هذه فيها

السنّة الثالثة — التدمير والتعمير

في التصادم الاوليّ موت — تدمير والم . وفي التصادم الثانوي حياة نامية — تعمير ولذة .

الالم نتيجة التفكك العنيف ، أو التحطم ، في التصادم الاولي . واللذة نتيجة التفكك البطيء ، وتجدد التركيب

وهي سنّة واضحة لا تحتاج الى تمثيل غير ما تقدم تمثيله . وانما حدوث الالم واللذة في التصادم الاجتماعي دليـل على وجود العقلية . فالاجتماع الذي يتطور بحسب التصادمين الاولي والثانوي ، أي التجمع والائتلاف ، يشتمل على عقلية . واشتماله على العقلية يُثبت أن الاجتماع تطور عقلي اكثر مما هو مادي ، كما علمت في باب العقل الاجتماعي

السّنة الرابعة — الفعل ورد الفعل : المحاكاة

كل تصادُم اولي أو ثانوي لا بد فيه من عاملين : فاعل ، ورادّ للفعل . كل مُصادِم يُصادَم ايضاً .

لاحظ أنه اذا صدمت كرة بلياردو كرة أخرى ردت الثابتة الصدمة الى الاولى . اذا ضرب ولدٌ ولداً فـلا يتردد هذا أن يرد له الضربة بمثلها في الحال ، الا اذا منعه الخوف او شخص آخر . اذا قلت لندّ لك « تكذب » قال لك على الفور « بل أنت تكذب » . واذا تضارب

اثنان ضرب الآخر الاول بمثل ما هذا ضربه . وان غيَّر نوع الضرب فلسبب في نفسه . في الحرب الاخيرة لجأ الالمان الى حرب الخنادق، فالجأ اليها أعداؤهم في الحال

اذاً ترى أن القوتين المتصادمتين في الاحياء تقلد احـداهما الاخرى . ومن ذلك تفهم ان التقليد أو المحاكاة انما هو عمل من اعمال التصادم الاجتماعي . فتماثلَ الاعمال الاجتماعية ، الناجم عن تفاعل القوات الطبيعية أو المادية أو العقلية ، انما هو الاساس الطبيعي للمحاكاة والتقليد ، وهو قسم جوهري من التصادم الاجتماعي

ومع ان المحاكاةضرب من ضروب الحركات الاجتماعية فما هي عمل اجتماعي صرففي كل تصادم اوليّ وثانويّ، بل هي من جملة لوازم التصادم في الاحياء الدنيا ايضاً ، بل هي من لوازم كل تصادم اولي ، حتى في الجماد ، كما رأيت في تصادم كرتي البليياردو

تلاحظ ايضاً أن المحاكاة أو التقليد في العالم الاجتماعي عمل عقلي . ولما كانت عاملاً ذا شأن في عملية التصادم الاجتماعي ، التي لا بد منها توطئة للائتلاف ، كان الائتلاف اذاً عملاً اجتماعياً عقلياً ايضاً ، لا مادياً فقط . فالائتلاف الذي هو الدرجة الثانية في عملية التجمع ، والذي يملغم الاجتماع ، يصبغ الاجتماعية البشرية بالصبغة العقلية . و به ترى أن الاجتماع البشري انما هو حركة عقلية اكثر مما هو حركة مادية

واذا استمرّ التماثل في العمل والحركة زمناً طويلاً جعل الاجسام المتحركة ايضاً تماثل ، وتتوافق في كل شيء ، حتى في بنيتها أخيراً . وعلماء الحياة والفسيولوجيا يقولون أن الاعضاء تتكيف بحسب مقتضى حركتها وعملها . ومتى تماثلت الاجسام في البنية طاوعت بعضها بعضاً في العمل والحركة ، وتوافقت بسهولة ، فيتلطف تصادمها

و بسلسلة تماثلات في العمل وتماثلات في البنية يتم التوافق بين المتصادمين ، فيتحول تصادمهما الى تساوق أو تطاوع فائتلاف . وسترى فيما يلي كيف يمهد التقليد أو المحـاكاة ( الذي هو رد فعل التصادم ) السبيل الى قوة التشبه والتمثيل ، توطئة للائتلاف

تنبيه

في هذا الفصل ينحصر بحثنا ضمن السنّتين الاوليتين، أي في عمليتي الاصطدام والتغيير اللتين تتوسط بينهما عملية التنازع ( الاصطدام البطيء ) . أي أن الاصطدام الاولي يعقبه التنازع البطيء المفضي أخيراً الى التغيير،أي ايجاد أنواع جديدة توطئة لتأليف أشياء أخرى جديدة بحسب السنّتين الاخريين اللتين نتخطى اليهما في مباحث الفصل التالي « توازن القوات »

وسنرى عمليات التصادم ، والتنازع ، والتغيير بين : ١ً — العوامل البيئة المختلفة ٢ً — العوامل النسلية المزدوجة ٣ً — العوامل الاجتماعية المختلفة

ان أول القوى العاملة في تطور الاحياء : القوى الحيوية . والقوى البيئية . والقوى النسلية . فلنرَ ماذا يكون تأثير تفاعل هذه القوى في التطور الحيوي في الاحياء الدنيا . ثم ننظر ماذا كان تأثيره في أول درجة من درجات التطور الاجتماعي

# ب - اختلاف عامل البيئة

## ١ً — في العالم الحيواني

تصوّر نوعاً من السمك طغا عليه جيش من الحيتان المفترسة له فاضطرّ ان يندفع من المياه العميقة الى المياه الرقيقة هرباً من خطر الحيتان . اضطرّ ان يترك البحر المالح ويصعد في الانهر الى البرك والمستنقعات ، أي اضطر ان يغير بيئته . ولما وُجد في بيئة جديدة لم يجد أمامه الاّ أمرين فقط ليختار أحدهما :

(١) تأثير البيئة على الاحياء

اما ان يغير بعض خواصه التي لا توافق البيئة الجديدة ، ويستبدلها بخواص توافقها ( أي يجب أن يكيف نفسه بمقتضى البيئة لكي يستطيع ان يعيش فيها ) ، او ان يفنى . البيئة متغيرة ، اي ان الوفاق الذي كان بين الحي والبيئة زال . فالبيئة تطلب ان يخلع ذلك الحي بعض خواصه التي لا تلائمها . فان اصرّ على الاحتفاظ بخواصه خلعته البيئة برمته ، مع خواصه

فالاسماك التي استطاعت ان تعيش في الوحول ، حين تجف المستنقعات بعض الجفاف ، ريثما ينزل المطر فيجدد مياهها ،استطاعت ان تستمر في سلسلة توالدها ، وتقدم أنواعاً جديدة تعيش في المستنقعات . والتي لم تستطع ذلك فنيت

ثم طرأ على المستنقعات جفاف أشد ، فصارت تلك الانواع الجديدة تضطر ان تخرج الى البر لكي تقتات الحشرات الاخرى . فالتي استطاعت ان تحوّل خياشيمها الى مثل رئات تستنشق الهواء رأساً عاشت وتحولت الى زحّافات . والتي لم تستطع ان تحوّل خياشيمها انقرضت . البيئة

البرية اصرّت على تغيير الخياشيم ، أي ابدال الرئات بالخياشيم . فالتي لم تستطع مطاوعة البيئة خلعتها البيئة من الوجود ، او ردتها الى بيئتها الاولى التي كانت تستطيع ان تعيش فيها ، لتجد وسيلة أخرى لاتقاء الحيتان . لعلها تحوّلت الى سمك طيار ، أي تنوعت تنوعاً آخر

(٢) — تأثير الاحياء على البيئة

على ان البيئة قد تتغير تغيراً غير جغرافي فتقوم بوظيفة التنويع ، أي ان المنطقة التي يعيش فيها نوع من الاحياء تتغير برد فعل تلك الاحياء لها ، فلا تعود صالحة لشكل الحياة الذي اتخذته تلك الاحياء ، فتؤثر تأثيراً جديداً على الاحياء . مثال ذلك جراثيم الخمير التي تخمر سكر العنب ، فهي تعيش على هذا السكر ، ثم تفرزه كحُلاً ( سبيرتو ) وغاز حامض كربوني يطير في الهواء ، أي تحوله اليهما . تظل هذه الجراثيم تنمو في عصير العنب حتى يبلغ الكحُل فيه الى درجة يستحيل عنده عليها ان تنمو فيه او تتوالد . بل ان ما نشأ من الكحل يقتل هذه الجراثيم نفسها .

مثالٌ آخر ، تجد في بعض الاراضي نوعاً من النبات قد نما وانتشر حتى ملأ تلك الارض ، ولكن لا تراه كله في درجة واحدة من النمو . اولاً لان بعضه مزدحمٌ يتقاسم غذاء الطبيعة له بشح ، وبعضه نبت في بقعة صخرية او اقل خصوبة ، وبعضه نبت بعيداً عن مجرى الماء ، وبعضه في ظل كهف ، فقلّ نور الشمس له . ولهذا ترى بعض الاشجار أقل نمواً واخس ثمراً . فاذا توالى التناسل على هذا النحو تنوعت الاشجار بعض التنوُّع ، ولو من حيث جودة الاثمار

أي نوع من الحيوانات التي تعيش في بقعة واحدة من الارض متى زوحمت تنوّعت بعض التنويع وهي ضمن البيئة الواحدة . ومتى طغت على حواشي البيئة ازداد تنوُّعها بتنوع تلك الحواشي البيئية

في المجتمع نفسه يحدث دائماً مثل هذا التنوع الذاتي بالتفاعل بين الجماعة و بيئتها الاجتماعية . وهو أشد وأعظم من تنوع الاحياء الدنيا الذاتي في البيئة الواحدة . ففعل الجماعة في البيئة ، أي الوطن الذي تستوطنه ، يرتد للجماعة نفسها – ردّ افعال متسلسلة

خصب الوطن وسعته رحّبا بالجماعة ،واغريا القوة النسلية ، فكثرت المواليد حتى ازدحم الوطن ، واشتد تنازع الافراد للرزق ، فتفاوتوا في قواهم الجسدية والعقلية . فقويهم زاد استقواء ، وضعيفهم زاد ضعفاً ، فاصبحت الجماعة طبقات تتباعد الى طرفين من النجاح والخيبة . طبقة اذكياء وطبقة ضعفاء العقول . طبقة دهاة وطبقة سُذّج . طبقة اغنياء وطبقة فقراء . طبقة متنعمين وطبقة اشقياء . طبقة اصحاء العقول والاجساد ، وطبقة اعلاّء الخ . ولما كان التزاوج يتحدّد بين هذه الطبقات ، فيندر أن يجاوز الواحدة الى الاخرى ، كان بحكم سنّة الوراثة ان هذا التنوع الذاتي ينفرج ايضاً .

وفي الوقت نفسه يعمل ناموس الانتخاب الطبيعي و بقاء الاليق عمله، فيقذف بالضعفاء أو غير اللائقين لرقي المجتمع الى هاوية الانقراض ، والى بيئة اخرى يجربون فيها بختهم ، و يستبقي الاقوياء اللائقين للارتقاء

## ٢ — عامل البيئة في العالم الاجتماعي

نتقدم الآن الى استقصاء هذا التفاعل في اوائل ادوار التطور الاجتماعي ، ونرى كيف تتنوع الجماعة

(١) — تفرُّع الجماعة وتنوعها

فلنتصور جماعة ، أو بالاحرى شرذمة ، أو أول شرذمة من البشر ، نشأت في جنة عدن او في عدن ، تحت فعل عاملين : أولهما العامل الجغرافي ، أي خصب الارض وصلاحيتها . وثانيهما العامل الحيوي ، أي الحرص على الرزق الذي قضى باستنباط الوسائل لتحصيل الرزق ومقاتلة الوحوش الضارية . ثم جعلت هذه الشرذمة ، أو الجماعة ، تنمو وتكثر بفعل العامل الثالث النسلي (كما قال الرب لآدم) حتى ازدحمت عدن ، ولم يعد الرزق الحاصل منها يكفي أهلها . فأول حادث يحدث هو تنازعٌ للرزق بين أفراد الجماعة ، او عشائرها المتفرعة منها . ويشتد هذا التنازع باشتداد الزحام . وبحكم الطبيعة ترسب عناصر الجماعة القوية في المركز ، وتطفو العناصر الضعيفة في المحيط ، وأخيراً تجعل هذه الدائرة البيئية تتدفق . فالذين في الاطراف يهاجرون

وافرض ان بعضهم هاجروا جنوباً بحراً الى جهات الحبشة ، وبعضهم هاجروا غرباً براً الى جهات سوريا ، وبعضهم هاجروا شرقاً الى جهات العراق . فالذين هاجروا الى افريقيا على أرماث من الخشب ، أو على جذوع الشجر ، وبلغوا ارض أفريقيا ، صادفوا ادغالاً وغابات ملأى من الوحوش فعانوا كثيراً . وما زالوا يوغلون ، بعضهم الى الحبشة ، وبعضهم الى الكونغو ، وبعضهم أوغلوا غرباً فشمالاً حتى بلغوا النيل . وكانت المعاناة بحكم نواميس الانتخاب الطبيعي ، والوراثة الطبيعية ، وبقاء الانسب ، قد قوَّت فيهم قوى الاستنباط لمقاومة عوادي الطبيعة ولموافقة البيئة ، واستطاع هؤلاء أن يعيشوا حول النيل . وما زالوا يتقدمون في جهتين : بعضهم الى أعلاه ، وبعضهم الى أسفله . وبعد قرون وصل فريق منهم الى وادي النيل الخصيب

أما الذين هاجروا الى الغرب فصادفوا أمامهم بقاعاً من الاراضي قاحلة ، فعانوا كثيراً في المعيشة فيها ، والتنقل بينها ، فتنبهوا الى استخدام الحيوانات كالخيل والجمال لانتقالهم بواسطتها والتغذي بألبانها . وما زال بعضهم يوغلون حتى بلغوا سوريا ، فالى البحر ، فطابت لهم فاكهتها

وكذلك الذين هاجروا الى ما بين دجلة والفرات وجدوا أرضاً خصبة جداً كثيرة الثمر والحبوب والوحوش الضارية ، فقاتلوا الوحوش واستطاعوا استغلال الثمر والحبوب

فترى مما تقدم ان السلالة التي نشأت من عدن تفرعت بفعل العامل الحيوي ، والعامل الجغرافي ، والعامل النسلي ، وامتدت فروعها الى السودان ، فوادي النيل ، والى صحراء العرب ، فسوريا ، والى العراق ، ومنها الى الاناضول ايضا الخ

ولما كانت كل بقعة من هذه البقاع بيئةً قائمةً بذاتها تختلف عن غيرها في تربتها ، وجوها وحيواناتها ونباتاتها ومياهها الخ ، كانت هذه الجماعات المفرعة من جماعة عدن مختلفة بعضها عن بعض اختلافات بينة ، تبعاً لاختلافات تلك العوامل البيئية والحيوية والنسلية والعقلية الخ، بل قد ترى الجماعات المتجاورة مختلفة بعض الاختلاف ، كجماعات السودان ، وجماعات وادي النيل مثلاً ، أو كجماعات صحراء العرب ، وجماعات سوريا . وبالطبع كلما بعُد الجوار عظم الاختلاف

(٢) — طبائع الاختلافات

ما هي طبائع هذه الاختلافات ؟ اختلاف تشريحي فسيولوجي واضح في الظاهر ، زهيد في الباطن — لون البشرة وشكل الرأس والملامح والشعر وكثافته والعضلات وقوتها الخ . واختلاف في وسيلة التفاهم — اللغة . واختلاف في الاخلاق والعادات والعقائد والنظامات مهما كانت بسيطة . واختلاف في وسائل العمل وعدده وآلاته الخ . واختلاف في اسلحة الدفاع والقتال

تصوّر ان كل جماعة من هذه الجماعات انحلت الى جماعات أخرى ، كما انحلت أمها الاصلية ، وتوجهت كل جماعة الى جهة أيضاً . وتصور أيضاً ان هذا التفرع أوالحل أو الاشتقاق الاجتماعي المتسلسل استغرق قروناً عديدة

فترى مما تقدم ان تفاعل العوامل الثلاثة في جماعة عدن افضى الى شطر هذه الجماعة مراراً، حتى تفرعت منها عدة جماعات مختلفة في كل شيء ، في طبائعها الفسيولوجية ، وفي أنظمتها الاجتماعية . وما كانت طبيعة العوامل ملازمة لها تمام التلازم في جميع درجات تنوعها هذه الا تعذر تنوعها ، بل كان فيها عامل البيئة يتغير في كل طور . وتغييره يقضي بتجدد تغيير طبائع الجماعات وأنظمتها . فالبيئة في السودان غيرها في عدن ، وفي فلسطين ، وفي وادي النيل . اذاً لا بد من تخالف مصادر القوى حتى يحدث التغيير والتنويع

# ج — اختلاف العامل النسلي

رأينا فيما تقدم ان اختلاف العامل البيئي يقضي باشتقاق الجماعة الى جماعات على نمط التوالد بالانقسام . وهو توالد طبيعي في اوائل ادوار النشوء الاجتماعي كما

هو طبيعي في اوائل ادوار النشوء البيولوجي . هذا كما تراه في الاحياء ذات الخلية الواحدة كالميكروبات . والآن نبحث في توالد الجماعات بفعل اختلاف العامل النسلي

## ١ً — التزاوج في العالم الجمادي

(١) — نشوء ثالث من اثنين مغاير لهما

اتحاد جوهر اوكسيجن مع جوهر اوكسيجن لا ينتج الا دقيقة اوكسيجن . اذاً يبقى الاوكسيجن اوكسيجناً . كذلك اتحاد ذرة فضة مع ذرة فضة لا ينتج الا فضة . أي انه لا يحدث تغييراً . ولكن اتحاد جوهر اوكسيجن مع جوهرين هيدروجن ينتج ماء ، والماء هو غير الاوكسيجن والهيدروجن . كذلك اتحاد الفضة مع حامض النتريك ( ماء النار ) ينتج نترات الفضة التي يسمونها حجر جهنم ، وهي غير الفضة ، وغير ماء النار

كذلك اتحاد نقطة ماء مع نقطة ماء لا ينتج غير الماء . ولكن اتحاد الماء مع غاز الحامض الكربوني ، تحت فعل اشعة الشمس ، ينتج شجرة ، وهي غير الماء ، وغير الحامض الكربوني . اذاً للحصول على شيء جديد لا بد من تفاعل اشياء مختلفة

(٢) — التوالد في العالم الميكروبي

ذلك في تفاعل القوات الطبيعية الكيماوي. نتقدم الى التفاعل الحيوي فنرى ان الاحياء التي تتوالد بالتقسّم كالجراثيم ذات الخلية الواحدة ( الميكروبات والبكتيريا ) لا تتغير فيها مواليد أي نوع من الميكروبات ، فكل جرثومة تنقسم الى اثنتين مثلها تماماً الى ما شاء الله . لا يحدث تغيُّر او تنوُّع لان مصدر القوة الحيوية واحد في ظروف ثابتة غير متغيِّرة . ولكن اذا تغيَّرت البيئة طرأ على السلالة تغيرٌ ، اي تتنوع المواليد كما علمت آنفاً . لاحظ ان ميكروب الملاريا يكون في دم الانسان غيره في جسم البعوضة ، لتغير البيئة . ولعله يعيش في دماء بعض الاحياء الاخرى في شكل آخر . فتفاعل عاملين مختلفين افضى الى تغير المعمول ، اي تنوعه

وفي رأي البكتيريولوجيين ان بين ميكروب الملاريا وميكروب الزهري قرابة شديدة ، ومركبات « سلفرسان » و « جليل » و « ٦٠٦ » تقتل الاثنين . وهو ما يدلك على انهما كليهما نوعان لجنس واحد ، وقد حدث تنوُّعهما بتنوع البيئة . وسبب هذا التنوع تفاعل القوة الحيوية والقوة البيئية

(٣) — غرض اللقاح التنويع

ثم نتقدم خطوة الى الامام ، الى الاحياء التي تتوالد باللقاح ، اي بالتزاوج بين الذكر والانثى ، نجد ان عملية اللقاح ليست الاّ اختراع الطبيعة وسيلة لتنويع السلالة .

فهو عامل جديد غير عامل البيئة لأجل هذا الغرض . نعم انه اصبح الضمانة الوحيدة لحدوث التوالد ، ولكنّه لم يكن في الاصل لهذا الغرض ، لان التوالد بطريقة التقسيم كان مضموناً وكان خصيباً كفاية . فاللقاح ليس لضمانة التوليد ولا لخصبه ، بل لتنويع المواليد

في الاحياء المتوالدة ليست الوراثة الطبيعية الاّ تكراراً بسيطاً لشكل الحي نفسه . فالمولود كالوالد تماماً ، والتوالد سريع . ولكن يظهر ان السلالة تضعف على التمادي ولا تتجدَّد حيويتها الاّ بانتقال بعض من المواليد الى بيئة جديدة ، ولو مشابهة لتلك .

وفي بعض أنواع البكتيريا المائية المتصلة الخليات ، كالطحلب الاخضر الذي تراه في المياه الآسنة ، كالبرك والمستنقعات ، يتجدد نشاط السلالة بالتقاء بعض خيوط الطحالب في بعض المواضع والتآمها واتحادها . وهو أبطأ انواع اللقاح .

فترى ان في الاحياء ، حتى الدنيا ، ميلاً الى اللقاح . وترى في المملكة النباتية تطوراً عجيباً لعملية اللقاح ، يدلك كيف ان الجنسين ، الذكر والانثى ، نشأا في فرد واحد ، ثم جعلا يفترقان حتى اصبحا في فردين مفترقين . وهو أمر يدل على ميل الطبيعة الى التملص من وحدانية الجنس ، والانتقال الى تثنيته او ازدواجه بغية ايجاد عامل آخر غير البيئة لتنويع الجنس . ولا بد ان تكون البيئة قد لعبت دوراً عظيماً في استنباط هذا العامل — عامل ازدواج قوة التوليد ( الذكر والانثي ) . وهو موضوع دقيق يمكن استقصاؤه لمن يروم ان يخوض فيه مزوَّداً بالمعلومات البيولوجية الدقيقة الواسعة . وهنا لا يهمنا من هذا الموضوع الاّ ان إحداث الذكورة والانوثة ، ليس لاجل ضمانة التسلسل واكثار المواليد ، بل لاجل التنويع . لان التنويع هو الوسيلة الاولى والخطيرة الشأن في الترقية والتقدم التمدني كما رأيت

ففي الاحياء ولا سيما العليا ترى ان التزاوج بين النوعين المختلفين ، اللهم من جنس واحد ، يُحدِث نوعاً جديداً ، ويغلب ان يكون النوع الجديد اقوى على مقاومة العوامل المناهضة للحياة ، فيفوز عليها . فالقوات النسلية تقدم للطبيعة انواعاً جديدة . والطبيعة تغربل هذه الانواع ، فتلاشي اضعفها وتستبقي اقواها — وهكذا يترقى الحي ، وهو يتفوَّق على الطبيعة ويسيطر عليها

## ٢ — التزاوج في العالم البشري

(١) — تزاوج الابعدين

ننتقل الآن الى العالم الاجتماعي ، فنرى ان المجتمع البشري اصبح مدركاً اهمية تخالف القوى المتفاعلة ، أي اهمية تزاوج الزوجين المختلفين ، ويجتهد ان يساعد الطبيعة على تنفيذ هذه السنّة . لذلك نرى ان التزاوج حسب سنة الطبيعة هذه اصبح شريعة اجتماعية منذ صار الانسان اجتماعياً . فالناس يحسبون الزواج بين الاقارب الاقرباء كالاخوة أو اولاد الاخ أو اولاد الاخت زناء محرماً ، أو مستهجناً على الاقل بين الاقرباء كابناء الاعمام والاخوال والخالات، لانه في كل قوم يعتقدون أن زواج الاقارب مفضٍ الى انحطاط السلالة ، أو الى ضعف البنين على الاقل — فهذه العقيدة نفسها تخدم مبدأ أو سنّة « تخالف القوات المعتركة » التي نحن بصددها

ولا مشاحةّ في ان مواليد الوالدين المختلفين يرثون عن أبويهم صفات مختلفة عن صفات كل من الابوين . ليست صفات فسيولوجية فقط ، بل صفات اجتماعية . يكتسب البنون اخلاق وعادات ومزايا اخرى هي مزيج عادات ابويهم ، فضلاً عن أن تفاعل اخلاق الابوين تغير اخلاق كل منهما

تصور هذا التفاعل الناجم عن تخالف الزوجين ينتشر في جماعة كبيرة مؤلفة من جماعتين مختلفتين أو اكثر . وانظر كيف يكون تأثيره في خواص الفريقين . تصور الجماعتين المختلطتين تعمل فيهما عوامل البيئة فقط . تصور أنهما تحت تفاعل عاداتهما واخلاقها وعقائدهما ، وانظر كيف يحدث التغير فيهما على التمادي. فكيف اذا اضيف الى عامل البيئة العامل النسلي المزدوج، وعامل الوراثة الطبيعية — لابدّ اذاً من تطور خواص الجماعتين ، وظهور خواص جديدة مشتركة بينهما . التزاوج لم يحدث بين الاشخاص فقط بل بين الانظمة — العادات والاخلاق والعقائد — ايضاً . ولذلك جاءت الانظمة الجديدة مختلفة عن القديمة ، كاختلاف مواليد الزنجي والبيضاء ، أو الابيض والزنجية

(٢) — اشتراك البيئة مع العامل النسلي

رأينا فيما تقــدم حدوث في التنويع بفعل التلقيح البيولوجي والاجتماعي ، وبمساعدة سنّة الوراثة الطبيعية التي تنسخ الصفات او الخواص الفسيولوجية المركبة كما تنسخ الصفات البسيطة في الاحياء . واغضينا النظر قليلاً عن عامل البيئة الذي له شأن كبير في التنويع أيضاً كما سبق بيانه . ولعله كان سبب احداث الذكورة والأنوثة اللتين أصبحتا علةً للتنويع كما رأيت . فعلينا الآن أن ننظر الى اشتراك العاملين معاً في عملية التفاعل بغية التنويع . لان اختلاف العامل النسلي وحده وان كان يكفل التنويع، بيد أنه لا يكفل التنوُّع المفضي الى الرقيّ الاجتماعي

لمــاذا ؟ لان وظيفة التلقيح ايجاد الاحياء الكثيرة ، ووظيفة الوراثة تنويع الاحياء بلا حساب ولا اتجاه الى رقيّ . وأما وظيفة البيئة فهي تشذيب فروع الاحياء أي أنواعها . فهي تقطع غير اللائق منها للرقي ، وتقذف به الى بيئة أخرى، قد يعيش ان صلح لها ، او قد ينقرض فيها ؛ وتستبقي اللائق للرقي : التلقيح والوراثة يكثران الأنواع ، والبيئة تغربلها

اذاً تغير البيئة لازم مع ازدواج القوة النسلية لاحداث التغيير المطلوب

# د – اختلاف العوامل الاجتماعية (١)

بحثنا فيما تقدم عن فعل اختلاف العامل البيئي، وفعل ازدواج العامل النسلي ، في التنويع . والآن نتقدم الى فعل تصادم الجماعات بما فيها من العوامل الاجتماعية للتنويع – أي التزاوج الاجتماعي

أ — تصادم الجماعات

نعود الى تصوُّر الجماعات التي تفرّعت من جماعة عــدن مثلاً وضربت في عرض الارض

تصوَّر ان جماعة او شرذمة من شواطىء فلسطين هاجرت ( لمثل الاسباب التي هاجر لاجلها اسلافُها من عدن ، كما سبق وصف ذلك في نبذة سبقت في هذا الفصل ) الى شواطىء النيل

(١) ورد هذا العنوان في فهرست هذا الفصل خطاء في صفحة ٢٩٠ ،اختلاف العامل النسلي، فالمرجوا من القارىء اصلاحه بقلمهِ

فالتقت بشرذمة اخرى قد هاجرت من الصعيد الاعلى . او هب عكس ذلك ، ان جماعة او شرذمة من وادي النيل هاجرت الى فلسطين وصادفت شرذمة من سكانها . فماذا يحدث بين الشرذمتين ؟

بين الامم الهمجية يحدث اصطدام . وبين الامم المتحضّرة لا يندر أن يحدث اصطدام . وبين الامم الراقية يمكن ألاّ يحدث اصطدام ، وانما يبقى بين الجماعتين انكماش وتنافر . لماذا ؟ ولماذا يغلب حدوث الصدام ؟

لان كل واحدة من الهمجيتين ترى في الاخرى صفات تخالف صفاتها . والمخالفة تنشيء النفور . والنفور يؤدّي الى الكراهة والخوف . فكل واحدة تخاف الاخرى وتكرهها . ولذلك يغلب ان يحدث بينهما قتال . هذا ناهيك عما يقوم بين الاثنتين من الطمع بالاخرى ، ومن الايجاس من الاخرى . والمنتصرة ، اذا كانت متوحشة ، تغنم المغلوبة لتأكلها ، ومتى استمرأت دمها واستطابت لحمها ، صارت تقاتل كل شرذمة غيرها طمعاً بلحمها

نتصور هذه الشرذمة في اوائل عهود همجيتها ووحشيتها ، حين كان البشر لا يزالون كالبهائم يأكلون لحوم البشر . حينذاك كان القتال بين الشراذم كأنه صيدٌ . ولما ارتقت هذه الشراذم قليلاً ، وصارت شبه جماعات ، او جماعات منحطة ، وصارت ترى من الوجهة الاقتصادية ان استخدام اسير الحرب أفيد من لحمه ، صارت الشرذمة أو الجماعة المغلوبة تقع عبدة للغالبة ، فتغنم هذه عملها فضلا عن اشيائها من ماشية وعدد وسلاح الخ ، وتنتفع بها جميعا

قد تكون جماعتا فلسطين ووادي النيل مسلسلتين من جماعة عدن كما تصورنا . وقد تكون كلٌّ منهما مسلسلة من جماعة اخرى لا صلة نسب بينها وبين جماعة عدن . او قد تكون الجماعات التي هاجرت من عدن صادفت في اثناء مهاجرتها جماعات اخرى فاصطدمت بها ، ونشأت من بعد الاصطدام جماعات جديدة (كما سترى بيان كيفيته ) ، ومنها تسلسلت جماعتا فلسطين ووادي النيل المتصادمتان . كل ذلك يحتمل . والمهمّ عندنا هو انه متى التقت جماعتان مختلفتان يحدث الاصطدام. وقد تكون الجماعتان اختين متجاورتين، كجماعة اسفل النيل وجماعة اعلاه ، او جماعة فلسطين وجماعة الحجاز مثلاً . فالاصطدام يُحدِث تجزئة وحلاًّ وتنويعاً . انما هو توطئة للتمثيل والاندماج كما سترى

فائدة الصدام الاجتماعي وتحوّله

ولكن قبل التمادي في هذا البحث ننبه القاريء لأمر ذي شأن وهو : أن الاصطدام الذي يحدث بين جماعتين او جماعات يدفع المجتمع الى الامام ، ويعظم القوى الاجتماعية فيه . القتال يعظم شأن وسائله — أي السلاح — فالجماعة الغالبة هي الافضل سلاحاً لا الاشدّ ساعداً . لأن قوى التنازع انتقلت من العضل الى العقل بانتقال الانسان من البهيمية الى البشرية . فسلاح النمر براثنه وسلاح الانسان حرابه او مقلاعه ، او قسيه وسهامه . القتال يدفع العامل العقلي الاجتماعي دفعة

شديدة الى الامام . والانتصار الاول يغري المنتصر على تنظيم الجنود وتسليحهم . وهذان يدفعان النظام الاجتماعي والفن الصناعي دفعة عظمى الى الامام . فالاصطدام اذاً بين الجماعات مفيد لتكوين الهيئة الاجتماعية وترقيتها .

ولئلاً يندفع القارىء في هـذه الفكرة ، ويبرّر الحروب نستوقفه عند الحقيقة الاجتماعية الاخرى السامية التي ستنجلي في باب آخر ، وهي أن الصدام ( او القتال او الحرب ) يجب بحكم التطور الاجتماعي ان ينتقل من بين جزء وجزء الى ما بين كلّ وكلّ ؛ ومن بين الجماعات الصغيرة الى ما بين الجماعات الـكبرى ، ومن بين هذه الى ما بين مجاميع الجماعات الـكبرى ، الى أن ينتهي أخيراً بين هذه والطبيعة فقط . وكلمـا انتقل الصدام من جزء الى كل ، او من جماعات صغرى الى جماعات كبرى حلّ السلام والوئام محله الى أن يسود السلام أخيراً بين كل الامم ، ولا يبقى الاّ صدام العالم مع الطبيعة فقط

## ٢ — اللقاح الاجتماعي

(١) — الخصب الاجتماعي

العوامل المعتركة في المملكة الاجتماعية كالعوامل المعتركة في المملـكتين الحيوانية والنباتية تفضي الى احـدى نتيجتين : اما ان تغير الجماعة عاداتها واخلاقها وعقائدها حين تمتزج بجماعة اخرى ، أو أن تنقرض هي وعاداتها واخلاقها وعقائدها وتبقى الاخرى كما كانت ، القوية تفني الضعيفة أو تطردها الى بيئة اخرى . فكل امة بقيت الى الآن هدّمت العوامل المعتركة انظمتها و بنت فيها انظمة جديدة مراراً

خذ الامة المصرية التي تسلسلت من امم الفراعنة ، وقابل انظمة الجدّة الرئيسية بانظمة الحفيدة تجد بوناً عظيماً . قد لا تجد في انظمة الحفيدة الا ظلا خفيفاً من انظمة الجدّة . حسبك ان تجد الفرق العظيم في العقائد الدينية ، وفي ازياء الملابس حتى في الخرافات . فان اصطدام السلالات المصرية بالسلالات الاخرى التي تعاقبت على مصر منذ بدء التاريخ الى اليوم ، من يهود واشوريين وبابليين وفينيقيين ويونان ورومان وعرب واتراك ، كاف لان يبعد الانظمة الحديثة عن الانظمة القديمة ، بقدر بعد ذلك الزمان عن زماننا الحاضر

كذلك قابل خواص الفينيقيين القدماء بخواص سكان فينيقيا الحاضرة ، بل قابل اليونانيين في العصر الحاضر بيوناني عهد هوميرس من حيث اللغة فقط ، وانظر كيف تطوّرت اللغة اليونانية الى اليوم

ولكن ماذا كانت نتيجة هذه التطورات في انظمة الامم ؟

كان أن الانظمة التي ولدت من لقاح انظمة مختلفة تمشت على قاعدة بقاء الانسب والاليق أو الاكثر ملاءمة . فبادت الانظمة غير الصالحة للعمران ، وبقيت الانظمة الصالحة له — الانظمة الناهضة بالمدنية الى فوق — الى عرش المثل الاعلى: النتيجة اذاً ارتقاء في سلم التمدن

(٢) — النغولة الاجتماعية العقيمة

ولكن قبل الرسوّ على هذه النتيجة نلتفت الى امر ذي شأن يعدّ الاغضاء عنه نقصاً في البحث . وهو أن لاختلاف القوات أو العوامل المعتركة حداً ، ولا سيما في مسألة اللقاح الاجتماعي ؛ أي يجب ان تكون الانظمة المتزاوجة غير شديدة التباين والاّ فلا يحدث لقاح. يجب ان يكون التزاوج مثمراً مولداً نسلاً خصباً ، لانغولةً عقيمة

يجب ان تكون الجماعات المختلطة متقاربة في نوع مدنيتها ودرجتها حتى يمكن تزاوج انظمتها ولقاحها ، وتوليد انظمة جديدة لها ، والاّ فلا يحدث التزاوج ولا اللقاح . فالجماعة الراقية في المدنية لا تمتزج مع الجماعة المنحطة بتاتاً . وهذه لا تستطيع أن تقتبس انظمة تلك . فلا بد حينئذ من احد امرين : اما ان تكون هذه عبدة لتلك حتى تنقرض في العبودية لها ، او ان تهجر هذه من وجه تلك الى منطقة اخرى. تنقرض هذه في العبودية بوسيلة الانهضام ، لا بوسيلة الاندغام أو الاندماج . تلك تمتص قوى هذه ؛ تتمتع بمحاصل تعبها ، تستهلك ثمرات قواها . وهذه تضمر وتنحل حتى تتلاشى ؛ تضمر بين عاملي التعب في العمل وسوء المعيشة

(٣) — تصادم الجماعات لازم للرقي

هنا تقف أمامنا مسألة خطيرة الشأن وهي : علمنا أن اعتراك القوات يفضي الى الارتقاء التمدني ، فهل هو لازم له ؟

نعم . اذا بطل الاعتراك وسكنت القوات المعتركة توقف التمدن عن صعوده . فاصطدام الجماعات شرطٌ لرقيّها .

جواب يوئس الآملين بسيادة السلم في العالم . ولكنه حقيقة نطقت بها الطبيعة منذ الازل . ولولاها لما ارتقى الانسان عن الحيوان . وهنا يقول الانسانيون: ويحك! ماهذا الانذار المخيف ؟ اليس من سبيل لتعديل قضاء الطبيعة الازلي ؟ أما من وسيلة لتنقيح هذه السنَّة ؟ اذاً من العبث السعي الى تقوية شأن « جمعية الامم » التي يرجى ان تحسم الحروب . من العبث دعوة الامم الى السلام والاخاء

— مهلاً! لاتعجل . أن العمليات الاجتماعية لأوسع دائرة مما يتراءى لنا . يمكن أن تنجح جمعية الامم ضمن دائرة قضاء الطبيعة وسنتها . يمكن أن يسود السلام من غير ان ينتفي الصدام

يمكن ذلك اذا فهمنا ان وظيفة جمعية الامم ( او كل نظام اجتماعي غيرها ذي دعوة للسلم العام ) ليست إلغاء الصدام الاجتماعي بتاتاً ، وايقاف القوات العاملة في الاجتماع ، بل وظيفتها أن تسيطر على هـذا الصدام لتجعله أقل إيلاماً للانسانية . وكلما نجحت بهذه السيطرة ضعف الألم الاجتماعي حتى يتحوّل الى لذة أخيراً — نسيطر على الصدام الاجتماعي المقضيّ بأمر الطبيعة منذ القديم بالاساليب التالية :

(٤) — نقل الصدام

اولاً ، ان هذا النظام السلمي ( « جمعية الامم » او أي نظام يرمي الى غرض السلم ) لا يستوقف النزاع بين الجماعات . لا يستوقف الصدام ، وانما يجعل هذا النزاع تحت أمرته القضائية ، فيدرّب الجماعات المتنازعة في سبيل الصدام الثانوي[١] الخفي ، أي التفاعل الكيماوي الاجتماعي البطيء (كالتاكسد البطيء ) ، اي انه يفعل ذلك بالتحكيم او القضاء الدولي الحتمي ، وبالقوانين الدولية العامـة التي توجب على الجماعات المتصادمة ان تتفاعل أنظمتها ببطء سلمي من غير ايلام .

---

(١) راجع سنن الصدام في مقدمة هذا الفصل

ثانياً ، أن هذا النظام يتولّى ادارة الصدام العام بنفسهِ ، فيجمع القوات الحربية تحت سلطته ويجعلها وسيلة لتنفيذ التطورات الاجتماعية البطيئة — يكون « ادارة شرطة » دولية ( بوليس دولي ) — فهو ينقل ميدان الحرب من بين امه الى ما بينه وبين الامم المتمرّدة فقط — اذاً ، جمعية الامم لا تبطل الحرب ، بل تقيدها بقيود ، وتجعلها تحت سيطرتها

ثالثاً ، ان هذا النظام لا يمكن ان يسيطر على الامم جمعاء مرة واحدة ، بل سيكون في أول الأمر نظاماً خاصاً لبعض الامم الراقية التي ستقبله فيما بينها ، لتماثل انظمتها ، وتقبله استعداداً لتوحد هذه الانظمة ، وستحصره فيها ، وتمنعه عن الامم الاخرى التي هي دونها مدنيةً ، لتباين بين انظمتها وانظمة هذه . فكأنّ هذا النظام قد نقل الصدام (أو الحروب) من بين الامم التي اشتركت فيه ، الى ما بين « اتحـاد » هذه الامم والامم الاخرى . وسيطول الصدام بين تلك وهذه الى أن يحدث التماثل بين انظمة الفريقين ، فيفضي الى اندماج الجميع في نظام اهم وافضل

بعد ذلك قد تبقى امم اخرى منحطة لا تليق للاندماج في هـذا النظام العالي العام فيبقى الصدام بين اولئك وهؤلاء . فاما أن يرتقي بعضها ويتأهب للانتظام مع تلك ، أو ان تنقرض كلها و يبقى الصدام بين العوامل الاجتماعية من جهة والعوامل البيئية من جهة اخرى فقط

(٥) — مصيرنا نحن

وقبل الانتقال الى بحث آخر نسائل انفسنا نحن الشرقيين، ولا سيما اهل العربية : في أي صفٍّ نحن من صفوف الصدام الاجتماعي هذا ؟

لا ريب اننا نحن في صف الامم الخارجة عن الاتحاد الدولي الذي شرع يتكوَّن ويتألَّف ، اذ لا يخفى على القارىء ان هذا الاتحاد الذي تكوَّنت نواته في جمعية الامم ، والذي ما زال جنيناً في أول يوم من حياته الجنينيـة ، انما هو حاصل تفاعل القوات الاجتماعية الاوربيـة ، حاصل اصطدامات عنيفة توالت في القرون الاخيرة ، تلك الاصطدامات التي دفعت الامم الاوربية دفعة عظيمة الى الامام في سبيل المدنية فتركتنا وراءها . وستتحد تلك الامم وسيبقى الصدام بيننا وبينها.

فنحن مقبلون في القرون القادمة على صدامات عنيفة مع اتحاد الامم الغربية ، توجب علينا أن نعـدّل انظمتنا من جهتنا ، وتوجب على اوربا أن تعدّل أنظمتها من جهتها ايضاً ، حتى يحدث

التماثل توطئةً لاندماجنا مع اوروبا . وان لم يحدث هذا التعديل في الانظمة تمهيداً للاندماج فلا بد من أن ينهزم أحد الفريقين ، اما الى الانقراض ، أو الى أين ؟ الى المريخ ؟ . . .

على القارىء أن يحكم منـذ الآن بمصيرنا ، وعلى الامم الشرقية ان تستعد لهذا الصدام استعداداً يقيها من الانهزام . في الفصول السابقة بحثنا بحثاً مسهباً يستطيع كل قارىء أن يستخرج منه السنن اللازمة لاستمرار الامم الشرقية بالسير في طريق التمدن الواقي من الانقراض . وأهم هذه السنن قلة التشبث بالانظمة القديمة التي لا تصلح للبيئة الاجتماعية الجديدة

عذراً ايها القارئ ! لست في موقف المعلم الواعظ ، بل في موقف المنذر المحذر

# هـ - رد فعل القوات المعتركة

بحثنا في النبذتين السابقتين عن حدوث التنوُّع بفعل العامل النسلي المزدوج ، وبمساعدة الوراثة الطبيعية ، ثم بفعل البيئة ، وبفعل جميع هذه العوامل معاً . واشرنا اشارة خفيفة مختصرة الى رد فعل التنوع لهذه العوامل ولا سيما البيئة . وفي هذه النبذة نتبسط في كيفية رد الفعل هذا

## ١ — فعل القوات الاجتماعية في البيئة

اشرنا آنفاً الى تغيير خمير عصير العنب لبيئتهِ حتى لم تعد تصلح لمعيشته . ولكنها اصبحت تصلح لمعيشة نوع آخر من الجراثيم الخميرية، وهو الخمير الخلي الذي يحوّل الـكُحُل (الذي استخرجه الخمير السابق من سكر العنب) الى الحامض الخلي . قد يمكن ان نوعاً من الاحياء الدنيا يغير البيئة ايضاً باساليب اخرى كالمرجان الذي على تمادي الزمان يحوّل بقعة من البحر الى جزيرة مرجانية . وقد يمكن ان يحوّل الجراد غيضاً من الغياض الى ارض قاحلة برهة ، ولا سيما اذا انتاب تلك البقعة عاماً بعد عام . يمكن ان تغير الاحياء الدنيا ، حتى الحيوانات العليا، البيئة بعض التغيير . ولكن الغالب ان البيئة أشد فعلا في الحيوانات ، وسائر الاحياء الدنيا منها في الانسان. والانسان اشدُّ جدّاً لرد الفعل الى البيئة من سائر الاحياء . والقاعدة العمومية لهذا التفاعل وردّ الفعل هي انه في العالم البيولوجي ، اي في الدائرة الحيوية ، البيئة تغير الحي وتُطوّره ؛ وفي العالم الاجتماعي الامر بالعكس ، الانسان يغير البيئة — الجغرافية والاجتماعية أيضاً

متى عزّت حاجةٌ على الحيوان ، وضنّت بها البيئة ، ترك بيئتهُ ليبحث عن حاجته في بيئة اخرى . ولـكن اذا بدت رغبةٌ أو حاجة للانسان تضنُّ بها طبيعة بيئته ، فأول ما يفعله هو أن يستنبط وسيلة لاكراه الطبيعة على الجود بهـا ، ولا يترك بيئته للبحث عن امنيته في بيئة اخرى الاَّ متى أصرَّت طبيعة بيئته على البخل بها

تحكّم الانسان في الطبيعة

لما رأى الانسان ان الاسماك قلت في الشاطيء جوَّف جذع شجرة وركبه زورقاً ، وقذفه بمقذاف الى حيث يعثر على الاسماك اصيدها . ولما رأى أن خوض النهر صعب في مدة الفيضان ولا غنى له عن عبوره لرعي ماشيته أو تفقد زراعته بنى الجسر ( الـكبري ) . على هـذا النحو نسج الصوف وخاط الفراء لـكي يتحمل برد المناطق الشمالية ، وبنى السفن لـكي يعبر من بر الى بر ، ونقب الانفاق في الجبال لاختراق القطرات الحديدية ، لنقله ونقل حاجياته، من حيث جادت بها الطبيعة ، الى البيئة التي ضنت بها . تأمل ان ٤٠ مليون نسمة في الجزيرة البريطانية تستورد معظم اللحوم لتغذيتها من أوستراليا ، ولا تضطر ان تهاجر الجزيرة لـكي تحصل على غذائها

فكل ما تراه الآن من معالم المدنية ، ومن ثمار العلم والعقل البشري ، من اختراعات ومشروعات ، انما هو قهر للطبيعة واستعباد لها وتسخير لقواتها — هو تغيير البيئة حسب رغبة الانسان ؛ هو ردٌّ فعل عوامل التنويع للبيئة .

لولا نظام الري الذي أنشأته الحـكومة المصرية لما كان وادي النيل كافياً لميشـة خُمس سكانه . وما نظام الري الذي حول معظم ميـاه النيل الى جميع الاراضي الصالحة للزراعة الا فعل الانسان في البيئة . منذ بضع عشرة سنة كان الشمال الشرقي من القاهرة صحراء رملية ، فأصبح الآن بلداً عامراً جميلاً ، شجري الشوارع ، جميلي الحدائق ، باسم هليوبوليس أو مصر الجديدة . هذا انموذج من تغير البيئة الصحراوية الى بيئة عمرانية

اكتشاف القوة الـكهربائية الذي نشأ منه التلغراف والتلفون السلـكيان والاثيريان ، جعل أقاصي الارض كأنها في بقعة واحدة أمام العقل الانساني ورغائب الانسان وشهواته، بحيث يستطيع أن يعلم كل فرد، وهو في مكانه، ما هو جارٍ في اي مكان على سطح الـكرة الارضية، بل يقدر أن يعامل شخصاً غيره معاملات تجارية وغيرها مهما بعد عنه .

يكفي ان يقابل القاريء أعمال البشر المتمدنين الآن باعمال الهمج والمتوحشين فيدرك عظم سيطرة الانسان على البيئة . يستطيع الانسان الراكب الطيارة ان ينتقل بين القطب الشمالي وخط الاستواء في فصل واحد ، وان يكيف أي المـكانين حسب مقتضى طبيعته الجسدية . يستطيع أن يكون في درجة حرارة واحدة في المنطقتـين المتباينتين ، يدفأ في القطب ، ويبرّد الهواء حوله في خط الاستواء

٢ — تأثير الانسان في البيئة الاجتماعية

كفى في ما تقدم بياناً لتأثير الانسان في البيئة الجغرافية . ولنلتفت الآن الى تأثيره في البيئة الاجتماعية ، وهنا نرى التأثير مركبا جداً . ومعقداً يكاد يتعذر تحليله .

ترى الانسان في ابان كفاحه الاقتصادي لحصوله على الرزق ، لا يفرّ من ميدان الكفاح، بل يحاول أولاً أن يستنبط سلاحاً للفوز، أو وسيلة للظفر بالرزق، فيخترع المروحة للتهوية من قبل أن يفطن المحرور لها . ويخترع الانبوبة ( الفم ) للسيكارة من قبل أن ينتبه المدخن لها . ويخترع اللحن الموسيقي قبل أن يشعر المتطرب بالشوق اليه . ويخترع قلم الرصاص قبل أن يشعر الكاتب بالحاجة اليه ،وهكذا ترى ان الحاجة الى الرزق قبل الحاجة الى الشيء دفعت المحتاج الى اختراع الشيء. فتنازع البقاء احرج ذا الفاقة الى استنباط الوسيلة لمنازعة غيره الرزق . فقدم لذي المال الترف المسراف انبوبة السيكارة اغراء له لكي يستلب منه ماله ، ومستنبط الازياء أغرى السيدة الغنية بالزي الذي استنبطه ، لكي ينتزع منها مالها .

على هذا النحو تتفاعل الطبقات المتنوعة في الجماعة الواحدة لكي تغير البيئة . على هذا النحو ، و بمثل هذه الاساليب ، تتحول الفيئة الغنية الى فئة بذخ وترف وانغماس في الشهوات ، فلا تلبث ان تفقد نشاطها الحيوي والعقلي، وتنحط الى درك الفساد المفضي الى فنائها . وفي الوقت نفسه ترى أن نشوء البذخ والترف جعل البيئة الاجتماعية صالحة لنهوض فئة الاذكياء والدهاة من طبقة العمال المضنوكين ، وارتفاعها الى مكان اجتماعي آخر – تتحول فئة فقيرة الى فئة غنية بانظمة جديدة تخالف نظام تلك التي سقطت . تسقط طبقة الاعيان الاقطاعيين الذين عاشوا على تعب الفلاح، وتقوم طبقة الاغنياء المعمليين الذين يعيشون على تعب العمال . تسقط طبقة السراة الحكام ، وتقوم من فئة العمال طبقة الساسة البيروقراطيين[1]. تسقط طبقة الحكام الملكيين ، وتقوم من طبقة الارقاء طبقة الديموقراطيين

وهكذا كلما سقطت طبقات وقامت طبقات تغير شكل البيئة الاجتماعي . بالامس كانت البلاد سادة وعبيداً،فأصبحت مُلاّكاً وزراعاً بالمحاصّة .بالامس كانت الحكومة حكاماً مستبدين، فصارت اليوم جمهورية . وهكذا يغير ناس الجماعة بيئتهم الاجتماعية لكي توافق حالهم ، كما انهم في الوقت نفسه يكيفون احوالهم ما امكن لكي يوافقوا بيئتهم الاجتماعية والجغرافية ايضاً ، فهم ينفعلون بالبيئة وغيرها من عوامل الاجتماع ، ويردون الفعل ايضاً

(١) افراد من العامة يستأثرون بالنفوذ

وما دام هذا التفاعل مستمراً فالانسان مستنبطٌ مخترع على الدوام ، وكل يوم يستنبط و يبتدع شيئًا جديداً لتنويع البيئة ، كما أن البيئة المتنوعة تقضي بتغيره وتنوعه ايضًا . ولما كانت اعمال الانسان منشأها العقل المفكر المبتكر الحافظ الذاكر ، كان كل ما يخترعه و يستنبطه ويبتدعه و يبتكره ، يُضاف الى ما تقدم من مبتكرات الاسلاف ومبتدعاتهم ، و يبقى الى الاخلاف محفوظًا بقوة الحافظة الذاكرة ، ما استنبطه الانسان من المعينات لها كالتعليم والطباعة

فترى ان اعتراك القوات العاملة الاجتماع منتج على الدوام ثروة اجتماعية متعاظمة الى ما لا نهاية له — هي الرقيُّ التمدني المتزايد بسرعة . فان ما يضيفهُ اهل كل جيل من الاختراعات والمشروعات العمرانية الى ما اخترعهُ اهل الاجيال السابقة انما هو قوة جديدة مضافة الى قوات الاجيال السابقة الدافعة بالتمدن الى الامام . فانظر كيف ان القوات التمدنية تزداد زيادة مطردة ؛ هي سبب ازدياد سرعة الرقيّ التمدني التي نراها ونتعجب منها

٣ً — لا ارادة الانسان في الرقي التمدني

ولكن هل الانسان يدفع التمدن الى الامام بمطلق ارادته ؟ كلاً . بل بالعكس ، ان الانسان لا يهتم قط في دفع المدنية الى الامام ، وليست المدنية غاية الفرد البشري بتاتًا . ان غاية كل فرد الحرص على بقائه الشخصي ، والظفر برغائبه الشخصية التي يتمتع بها ، ولا يهمه ارتقاء العالم في التمدن ، بل أن الانسان احيانًا يكره بعض بواعث الرقي العمراني وربما قاومها ، لانها تضيق على حريته أو تصده عن التمتع بحق غيره

مثال ذلك ترى معظم الناس يقاومون نظرية الاشتراكية الآن ، حتى العمال الذين هم اولى بعضدها ، كما كان الناس في الماضي يقاومون الروح الديموقراطية ، حتى العبيد كانوا يقاومون فكرة ابطال النخاسة ، لانهم خافوا ان يعجزوا عن الاستقلال بحياتهم اليومية . وكذلك السيدات المسلمات الآن يقاومن فكرة السفور ، ويكرهن ازالة الحجاب ، مع ان عقلاء المسلمين يعتقدون ان تحجب المرأة سبب تأخرها وتأخر الامة معها . ولكن العبيد تحرروا رغم ارادة سادتهم ورغم ارادتهم هم ايضا . والديموقراطية فازت رغم ارادة الحكام المستبدين والشعوب الخانعة للاستبداد . ولا بد ان يبطل الحجاب ويفوز السفور وتعم الاشتراكية

فالافراد لا يهتمون برقي المجتمع . وانما المجتمع يهتم بترقية نفسه . فلذلك ترى أن مجموعة اعمال الناس الاجتماعية تتجه الى غاية عمرانية راقية ، الى التقدم التمدني . وأما غاية اعمال كل فرد بشري فتتجه لذاته الشخصية . فاذا تعارضت غاية العمران وغاية الفرد فازت تلك وحبطت هذه . فالعمران سائر في طريق تقدمه بنتائج اعمال الافراد لا بارادة الافراد . كما ان السكان يزدادون عدداً بمقتضى الشهوة البشرية لا بارادة البشر

أن الافراد ينعمون أو يشقون بتفاضل اعمالهم ؛ واما صافي الحاصل من تفاعل اعمالهم ،أو اعمال فئاتهم ، هو التقدم العمراني الذي ليس لهم ارادة فيه . ولكن حكماءهم يتنبأون به و برغبون فيه ويتمنونهُ ، بيدأنهم لا يقدرون أن يفعلوه عمداً . هو عمل القوات الاجتماعية كما علمت

٤ً — الجمود الاجتماعي في التفاعل الروحي

لاحظت فيما تقدم أن تفاعل القوى أو اعتراكها يكون في ميدانين : ميدان مادي ، وميدان عقلي أو روحي . الميدان المادي الذي تكون نتائجه في تغيير المادة ، كما تُرى في معالم المدنية المادية ، والرقي العمراني المـــادي ، كتقدم الملاحة واساليب المواصلات النقلية البريدية والمخاطبات التلغرافية وتقدم الطباعة وسائر صنوف الصناعة الى غير ذلك مما يدفع التمدن المادي الى الامام . والميدان الروحي والعقلي هو الذي تكون نتائجهُ في تغيير وتطوير المعارف والانظمة الروحية والعقائد الخ . والتمدن قائم بالاعتراك في الميدانين معًا ، وفي الميدان المـــادي على الاغلب . واما الاقتصار على الميدان الروحي أو العقلي وحده ، أو ترجيحه على الميدان المادي ، فقلما يدفع التمدن الى الامام ، بل يخشى أن يرده الى الوراء

لاحظ ان جميع الامم التي انشغلت بالعقليات فقط ، واقتصرت على تطوير المبادىء العقليـة والمذاهب الفلسفية والعقائد الدينية فقط ،واغفلت التطوير المادي ، حبطت وسقطت . الامم الشرقية التي اكتفت بالعلوم الكلامية ، واغضت عن العلوم العملية ، توقف رقيها حتى سبقتها الامم الاخرى.

فيما نحن لاهون بما قاله سيبويه وكتبه ابن الاعشى القشقاندي وبما نظمه البحتري ، وفيما نحن عاكفون على علم ابن مسكوية في الاخلاق ، ومنطق فلان وفلسفة فلان ، كان الغربيون

منهمكين في لاسلكيهم وفي طياراتهم ومفرقعاتهم . فلما حدث الصدام العظيم العنيف فاذا بنا اسرى بين ايديهم ، تتهدّدنا طياراتهم من فوق والغامهم من تحت

٥ً — التفريط بالقوى الاجتماعية

بقيت كلمة اخرى في نتائج اعتراك هذه العوامل ، وهي أن كثيراً من القوات المبذولة في العراك تذهب سدى بلا فائدة ، فلا تؤدي الى توازن حتى ولا الى تنويع ؛ هي زوائد القوى المتفاضلة في تفاعلها ، تذهب سدى ، ليس من الوجهة الاقتصادية فقط ، بل من الوجهة الاجتماعية ايضاً

في جميع الحروب والمناظرات يذهب مقدار عظيم من قوى الامة دخاناً في الهواء . وفي المنافسات والمناظرات الاقتصادية يذهب كثيرٌ من القوات عبثاً ، كالاعلانات لترويج البضائع ، وكاعمال السماسرة ، وكمساعي عمال السياسة في الانتخاب ، الى غير ذلك من امثال هذه الاعمال المتناظرة — كلها ليست ذات نتائج عمرانية ، وانما هي اعمال تنازعية لخدمة ناموس فوز الاليق

هذا في العراك الاقتصادي ونحوه . ولكن هناك أيضاً قوات أخرى تذهب ضياعاً في سبيل العراك ليست اقتصادية ولكنها على أي حال عمرانية . لاحظ أنهُ في خلال الاعتراك على اختلاف أنواعهِ تفقد الامة كثيراً من الافراد الذين كان يمكن أن يكونوا من نوابغها ، او ظهر أنهم من نوابغها ، ولكنها فقدتهم قبل أن يفعلوا شيئاً . فهم ثمرة تفاعل القوات ولكنها ثمرة ضائعة .

كذلك تفقد الأمة أحياناً أنظمة حسنة جداً بتفوق أنظمة سيئة او اقل صلاحية وتضييع الفرصة السانحة .

مثال ذلك ان تفوُّق عادة الحجاب في الشرق على عادة السفور أفضى الى الحط من قيمة عقلية المرأة ، فأخسر المجتمع قوة المرأة العقلية ، وهي كما لا يخفى عليك من اعظم العوامل الاجتماعية . وكذلك تفوُّق الاعتقاد بأن ايداع الفلوس في البنوك بفائدة هو ربى محرَّم ، على الاعتقاد بانه مرابحة كسائر المرابحات التجارية ، جعل جانباً من قوة البلاد المالية يتسرب من يد بعض البنوك الى الاجانب . وتحريم الزواج بين الطوائف الدينية المختلفة جعل وليد القومية ضعيفاً — جعل الوحدة الوطنية رخوة غير متينة — ذلك تفريط بقوة الاتحاد الوطني ، وتضحية له في سبيل العقيدة الدينية

## و - هيمنة القوى العقلية والادبية

اشرنا في بدء هذا الفصل الى وجوب وجود روح اجتماعية تسيطر على القوات المتحركة لكي تحوّلها الى طريق التوازن . فوجب ان نبسط عمل القوى المهيمنة

اذا حركت عدة الاتوموبيل وجعلت الاوتوموبيل يسير لنفسهِ من غير حوذي يسيره ، يسير في خط مستقيم الى ان يصطدم بجدار او يقع في هاوية. وفي كلتا الحالتين يتحطم . ولكن اذا كان يتولى ادارته حوذيٌّ يقظٌ يُسيّره حتى في الشوارع المزدحمة بالسابلة من غير ان يصطدم بشيء . فالحوذي لا يمنح الاوتوموبيل قوة للسير ، بل يسيطر على هذه القوة ، فيطلقها حين يشاء ، ويوجه العجلات حيث شاء

كذلك القوات الاجتماعية ، اذا تركت لنفسها تحت رحمة الشهوات البشرية ، دفعت بالمجتمع الى الهاوية وحطمته . اذاً لا بد من قوة مهيمنة على تلك القوات المتحركة حتى تحدث التغيير الصالح للمماثلة ، وتحدث التوازن المفضي الى الائتلاف الاجتماعي . فالقوى العقلية ، بعضها من جملة القوى العاملة في تكوين المجتمع ، وبعضها غير عاملة ، بل مهيمنة فقط . وفي هيمنتها تأثير عظيم على المجتمع ، ولولاها لما كان مجتمع ، وان تكوّن مرةً تهدَّم أخرى

### ١ — القوى العقلية المهيمنة

أهم القوى العقلية المهيمنة على القوات الاجتماعية : اولاً قوة الادراك التي تدَّخر المعارف والمعلومات الصحيحة . ثانيًا قوة الحكم في صحة الادراك . ثالثًا قوة الحكم في صواب العمل للمصلحة . رابعًا قوة الاستنباط لاستخدام القوات الطبيعية والاجتماعية لمنفعة الجنس البشري . واستخدام القوات الطبيعية لخدمة الانسان هو الغاية النهائية من فعل هذه القوى العقلية

وقد استقوت هذه القوى على القوات الطبيعية حتى كادت تستأثر بها وتخضعها لشهوات الانسان . ولا ندري الى أي حدٍّ تستفحل القوى العقلية في الهيمنة على القوات الطبيعية . فان استفحالها في القرنين الماضيين بل في القرن الاخير بل في ربع

القرن الحالي مدهش . يكاد الانسان يتكل في كل اعماله لنيل جميع أغراضه على قوات الطبيعة وحدها ، بل يكاد يستغني عن استخدام قواه العضلية بتلك القوات ؛ يكاد العقل وحده يتسيطر على العالم الارضي سيطرة مطلقة

٢ — هيمنة العقل عجلت الارتقاء

سبب هذا التقدم العمراني السريع الذي كان من جملة مظاهره سؤدد العقل على الطبيعة هو استلام العقل زمام الهيمنة على القوات الطبيعية . فلما كان التطور متروكاً للطبيعة كانت الطبيعة تبرز للوجود مركّبات مختلفة بلا حساب ، ولا سيما مركّبات حية من حيوانية ونباتية ، وكانت توكّل البيئة في غربلة تلك الاحياء ، فتحتفظ بالاكثر موافقةً ، وتطرح غير الموافق . ولهذا كان التطوُّر بطيئًا تبعًا لبطء تطور الارض الطبيعي . فقد مرَّت المـلايين من السنين على الفيل والتمساح والحوت واشجار الارز والسنديان والزيتون ، وهي لا تزال كما كانت ؛ لأن البيئة استبقتها ونبذت غيرها مرّة ؛ والى الآن لم تظهر الطبيعة أفضل منها لتنبذها البيئة وتحل تلك محلها . فالطبيعة تبرز للوجود مصنوعاتها بافراط ، والبيئة تتلف باسراف . فالعملية الطبيعية غير اقتصادية وان كانت موجهة الى النجاح

أما العقل فمـذ شرع يتسيطر جعل يقتصد في عمليات التطور ، ويسرع فيها اقتصاداً في الوقت أيضاً . فهو يرى الشيء الموافق للمصلحة قبل حدوثه ، فيوجّه قوات الطبيعة اليه . وحالما يرى أن هـذا الشيء لم يعد صالحًا يستنبط غيره ليحل محله و يستغني عنه . ولا يصبر حتى يغيره عامل البيئة البطيء .

لما رأى العقل البشري ان قطار السكة الحديدية بين الاسكندرية ومصر والسويس لم يعد كافياً كصلة بين الشرق والغرب ، وان وصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط يدفع بالمدنية الى الامام دفعة عظيمة ، لم ينتظر الى أن تخسف الطبيعة برزخ السويس ويتصل البحران ، بل كاف القوات الطبيعية ان تحتفر قناة السويس . فحلت القناة محل الخط الحديدي بين مصر والسويس . على هذا النحو حلّ القطار البخاري محل القافلة ، وستحل اسراب الطيارات الجوية محل جانب من القطرات ، وسيحل التلغراف الاثيري محل التلغراف السلكي ، والتلفون الاثيري محلهما . ولهذا السبب ترى كثيراً من الانظمة الاجتماعية قصيرة العمر اقتصاداً في الوقت واسراعاً في التطور الدافع بالمدنية الى الامام

٣ — هيمنة القوة الادبية

لبعض القوات الأدبية ايضاً عمل في السيطرة على عمليات التغيير — التنويع أو التطوير . وأهم قوة المكر أو التحايل . وقد تتطرف الى جانبي الخداع والدهاء

تجد هذه القوة حتى في الحيوانات الدنيا . فبعض الزحافات الصغيرة، أو الطيور التي تصطادها الافاعي تلتقم حجراً أو قطعة من غصن حتى يتعذر على الافعى أن تبتلعها . بعض الطيور لون بطنها كلون تربة الارض ، فاذا طاردها صقر انقضت على الارض وانقلبت على ظهرها ، فلا يعود الصقر يميز بينها وبين الارض ، فيضل عنها . العنكبوتة تنسج نسيجها لتصطاد به الذباب . وهناك امثلة كثيرة على المكر في الحيوانات . وكلها تأول الى احد أمرين : اما حفظ نوع جديد ، أو انقراض نوع قديم

في المجتمع البشري كثير من شواهد عمل هذه القوة الادبية . فانحناء الخط الحديدي انما هو تحايل على القطار لكي يعدل عن خطه المستقيم . السلم الذي تصعد عليه الى منزلك انما هو تحايل للصعود بقدميك .

ارتقاء الفرد الى منصة السيطرة على جماعة يكون على الغالب بدهائه ، لانه بمجرد قوته لا يستطيع هذه السيطرة . الفنون الحربية تعتمد كثيراً على الدهاء . الفنون السياسية مدارها الدهاء . النظامات التي خولت طبقة من الناس أن تجمع الاموال من اتعاب العمال وتتسيد بها عليهم ، انما هي زبدة دهاء فئة المتسيدين . أنظمة اليانصيب المختلفة وضمانات الحياة والحرائق الخ نما هي دهاء في الامور المالية يفوق كل دهاء

فكل هذه الانظمة التي هيمن عليها المكر لها قسطها في البناء الاجتماعي مدة محدودة نعيشها ، ثم تندثر لتحل محلها أنظمة أخرى . هب ان الاشتراكية فازت تسقط حينئذ انظمة ليانصيب وضمانات الحياة والحريق ، لان النظام الاشتراكي يكون ضمانة لكل فرد في حياته وبعد مماته لبنيه

# الفصل السادس

## توازن القوات الاجتماعية

### أ – مقدمة – فلسفة التوازن

١ً – سنن التوازن ٢ً – عملية التوازن ٣ً – التوازن الاجتماعي بناء

### ب – المماثلة

١ً – التنازع البطيء ٢ً – ارتداد فعل القوات المتنازعة ٣ً – تحوّل المتباينات الى متماثلات ٤ً – الاقتباس والتقليد ٥ً – المناهضة والتساهل ٦ً – التحالف والتعاون ٧ً – أربعة عوامل هي اساس الائتلاف

### ج – الاندماج : التنضيد

١ً – التزاوج الاجتماعي ٢ً – التوحيد : الوطن ٣ً – الاندماج المركب ٤ً – لقاح الانظمة واندماجها ٥ً – بطء الاندماج ٦ً – الصدام الخفي

### د – رد فعل الاندماج الى الفرد الاجتماعي

١ً – تطوّر الملذات والملاهي ٢ً – تأثير الملاهي والملذّات في عملية الاندماج ( القوة الذوقية ) ٣ً – تأثير الاندماج على خواص الفرد الاجتماعي

### هـ – الانظمة الاجتماعية

١ً – الانظمة الاساسية ٢ً – روابط الانظمة

# ا - مقدمة - فلسفة التوازن

١ - سنن التوازن

اذا رجعت الى نواميس التصادم في الفصل السابق ( الخامس ) استخلصت منها الحقائق التالية للتوازن :

اولاً : أن توازن القوات يستلزم وجود قوتين او اكثر ، لان قوة واحدة لا تنتج الاَّ حركة واحدة الى جهة واحدة

ثانياً : أن هذه القوات تعمل متفاعلة ، لانها اذا عملت متحدة اصبحت كالقوة الواحدة في جهة واحدة ، واذا عملت مستقلة بعضها عن بعض كانت كل منها كالقوة الواحدة . ولكنها اذا عملت متقاطعة الجهات متصادمة افضت الى حركة مستقلة عنها هي حاصل تفاعل تلك القوات . فالتوازن انما هو حاصل حركات مركبة صادرة من قوات متفاعلة

ثالثاً : تبقى الحركة الحاصلة توازناً ما دامت هذه القوات المتفاعلة كما هي في اتجاهها وقدرها . ولكن اذا طرأت عليها قوة اخرى غيرت اتجاه بعضها ، او لاشت بعضها، أو انضمت الى بعضها ،اختل التوازن فى الحال وحدث اصطدام ، وكانت نتيجتهُ حركة جديدة في اتجاه جديد - أي انه يحدث بعد ذلك الصدام توازن آخر يختلف عن التوازن الاول . ولكن انتبه جيداً.لم يحدث التوازن الجديد الاَّ بعد هدم التوازن السابق ، وحلّ تلك القوات التي كانت تنتجه، استعداداً لتألفها في احداث توازن جديد . فكل تغيير فى الكون يستلزم حل السابق أو هدمه ، لتركيب الجديد أو بنائه

( ١ - التمثيل على ذلك بالتوازن الكوني)

الافلاك تتوازن قواتها محافظةً على نظامها. فاجرامها تدور في دوائر محدودة وفي سرعة معينة ، لان قوتي الدفع والجذب المتفاعلتين فيها انتجتا حركاتها النظامية . فلو انتفت قوة الجذب وبقيت قوة الدفع وحدها لتدافعت الاجرام عن افلاكها ، وتركت دوائرها ، وتشتتت في الفضاء غير المتناهي. ولو انتفت قوة الدفع وبقيت قوة الجذب وحدها لصدمت هذه الاجرام بعضها بعضاً وصارت كتلة واحدة . ففي كلتا الحالتين تفضي القوة الواحدة الى نتيجة غير نظامية

كذلك لولا القوة الجاذبة نحو المركز لانحلّت الكرة الارضية وكل كرة فلكية الى اثير يتدفق في بحر هذا الفضاء . وبالعكس، لولا القوة الدافعة عن المركز انتقاصت الارض الى كتلة لا ندري كم يكون حجمها وكم تكون صلادتها

فمبدأ تفاعل القوات موجود في الطبيعة بغية الحصول على التوازن النظامي. لا السكون المطلق الذي ليس الا فناء او عودة الى العدم — الى البحر الاثيري

( ٢ — التمثيل بالتفاعل الميكانيكي )

لاحظ شراع المركب تجد ان ثلاث قوات على الاقل تعمل فيه . الاولى قوة الريح ، والثانية قوة الحبل الذي يشد زاوية الشراع الى المركب ، والثالثة قوة الدفة التي تعدّل التوازن حتى تسير السفينة في الجهة المبتغاة . فاذا ازلتَ الدفة وتركت السفينة لرحمة الريح فلا بد أن تلعب الرياح بها فتغرقها،أو أن تصدمها بالشاطىء أو بسفينة اخرى فتكسرها . واذا أفلتّ الحبل الذي يشد زاوية الشراع اتجه الشراع مع جهة الريح وصار كالراية تخفق في الهواء ، ولم تعد السفينة تسير في طريقها المنتظم ، بل تبقى تحت رحمة الامواج ، واذا شئت ان تغير اتجاه السفينة استعملت قوة عضلك لتحريك الدفة بحسب الجهة المبتغاة

فترى أن التوازن النظامي ، أو النظام التوازني ، انما هو نتيجة قوتين أو قوات متفاعلة بتصاقب ، أو تحت سيطرة احدى تلك القوات . فالسفينة تسير بتفاعل قوة الريح وقوتي الحبل والدفة المسيطرين . وانفراد أي قوة من هذه القوات بالفعل في السفينة يفضي الى اغراق السفينة أو صدمها أو تركها تحت رحمة الامواج المضطربة ، ولا يمكن ان يفضي بها الى الجهة التي يراد تسييرها فيها بامان

( ٣ — التمثيل بالتوازن الحيوي والاجتماعي )

ذلك في الجماد. ننتقل الى الحياة ونأخذ نظام نمو الاحياء النباتية مثلاً ، فنرى ان هناك قوات تعمل في انماء النبات،اهمها اهتزاز أشعة النور والحرارة من جهة،والجاذبيات الكيمية في الكربون والهيدروجن والاوكسيجن والنتروجن من جهة اخرى . فهذه القوات تفعل في حلّ الماء الى عنصريه ، والحامض الكربوني الى عنصريه ايضاً ، ثم في تركيب هذه العناصر في مركب واحد هو المادة الخشبية(سليولوز). اما فعل قوة واحدة فقط من هذه القوات فلا يفضي الى هذه النتيجة بتاتاً

ننتقل الى أنظمة الحياة العليا ونأخذ نظام التنوع في الاحياء . مثال ذلك ، تجد في كل حي قوة الوراثة الطبيعية تعمل بنقل خواص الحي الى نسله جيلاً بعد جيل ، فلو استقلت قوة الوراثة وحدها بعمل سلالة من السلالات كزنوج اعالي السودان مثلاً ، لبقي الزنوج زنوجاً الى الابد. ولكن هب ان هؤلاء الزنوج تكاثروا لاستفحال القوة النسلية ، ولقلة الوفيات لانتفاء الامراض والخمود القتال فيما بينهم، وهاجر جانب الى اسافل النيل والى شواطىء البحر الاحمر، وتنقلوا على تمادي

الزمان الى سوريا والاناضول ، كانت ثمت قوة أخرى تعمل في سلالتهم غير قوة الوراثة ، وهي قوة البيئة التي تقضي عليهم بالعمل لاجل مقاومة البرد ، وبالكدح في تحصيل الرزق ، فلا تلبث حينئذ ان تراهم وقد اختلفوا في خواصهم عن ابناء عمهم زنوج اعالي السودان . أضف الى ذلك تزاوجهم مع العناصر الاخرى . فترى ان عمل الوراثة قد اتجه ايضاً الى جهة اخرى

فقوة الوراثة وقوة عوامل البيئة ، وقوة عامل من عوامل الاجتماع ( التزاوج المختلط ) تألبت وتفاعلت فانتجت سلالة أخرى تختلف عن السلالة التي اشتقت منها . وبعبارة أخرى قُلْ انها انتجت « تنوُّعاً » . فنظام التنوُّع هذا الذي هو من الانظمة البيولوجية والاجتماعية أيضاً انما هو نتيجة تفاعل قوات مختلفة ، ولا يمكن ان يكون نتيجة قوة واحدة . فالسلالات التي نراها متأخرة في المدنية ، بل لا تزال حتى اليوم في وحشيتها ، ليست حديثة العهد ، ولم يكن لها الوقت الكافي للرقي كما يُظَنُّ ، بل هي قديمة كقدم الامم التي ارتقت ، ولكنها بقيت تحت عامل قوات معينة متوازنة ؛ فما انتجت هذه القوات الاَّ نتيجة واحدة لم تتغيَّر . بقيت هذه السلالة الهمجية في بيئة واحدة وتحت قوة وراثية واحدة ، أي لم تزاوج غيرها فلم ترقَ . واذا بقيت تحت هذه العوامل المتحدة غير المتغيرة بقيت في همجيتها اطول عهداً

## ٢ً — عملية التوازن

يكفي ما تقدم من الامثلة على سنَّة تفاعل القوى المختلفة لانتاج توازن نظامي . بقي أن نبحث في كيفية حدوث هذا التفاعل . فهل هو مجرد التقاء هذه القوى واصدارها حركة واحدة ؟ كلاً . بل هو اصطدام ينتج سلسلة حلّ وتركيب حتى يبلغ الى التوازن النظامي الاخير

تلتقي القوَّات فتصطدم ( وقد ينفصل شيء منها ويذهب في جهة أخرى لا فائدة منها للنظام المقصود ) ، فتتقاوم راجحةً بعضها على بعض ، فيناظر بعضها بعضاً في اتخاذ الجهة الواحدة ، فيعدّل بعضها بعضاً حتى تتوازن ، فتتعاون في العمل الواحد

تفهم ذلك حالما تنشر شراع السفينة ، وتشد حبل زاويته وتحرك الدفة . حينذاك ترى السفينة متداعية في اول الامر ، ولا بد ان تتمايل ، وتنحرف هنا وهناك ، قبل ان تتخذ جهة سيرها

وتفهمه كذلك جيدا في تفاعل قوتي الوراثة والتزاوج الممتزج بين ابيض وزنجية مثلاً . فترى الاولاد بعضهم بيض وبعضهم سود ، وبعضهم بين بين ، ولا تجد النسل كله بين بين ، الا بعد توالي بضعة اجيال — في احفاد احفاد الاحفاد . لان تصادم القوتين لا ينتج توازناً في الحال ، بل لا بد من حدوث اضطراب قبل التوازن

كذلك تفهم الامر جيداً ، اذا راجعت ما قلناه آنفاً عن تفاعل القوات الكيماوية واهتزاز الامواج النورانية والحرارية في تركيب النبات . فان حل عناصر الماء والحامض الكربوني يسبق التركيب ، اي لا بد من الهدم قبل التعمير ، او الحل قبل التركيب

﴿ التوازن الاجتماعي أنظمة ﴾ . بقي أيضاً أن نوجه نظر القارىء الى حقيقة جوهرية عظيمة الشأن في بحثنا وهي ، كما رأى آنفاً أن تفاعل القوى لا ينتج حركه فقط ، بل ينتج مركباً جديداً يتخذ تلك الحركة نظاماً له .

فقوتا الجذب والدفع في الفضاء أوجدتا أنظمة فلكية تتحرك حركة نظامية على وتيرة ثابتة كنظامنا الشمسي . وقوتا الجذب نحو المركز والدفع عنه انتجتا الاجرام في اشكالها ، كما انتجت الكرة الارضية في قوامها الحالي

وقوات الريح وحبل الشراع والدفة انتجت سيراً للسفينة معيناً . وقوات النور والحرارة والالفة الكيمية أوجدت مركباً نباتياً نظامياً مضبوطاً جداً . وقوات الوراثة والبيئة والامتزاج الاجتماعي اوجدت سلالةً .

اذاً تفاعل القوات يوجد «مركبات منظمة» : يوجد أنظمة جديدة ، لا حركات اعتباطية بلا غاية ولا غرض

كذلك قوات الاجتماع او عوامله التي بسطناها فيما تقدَّم تنتج بتفاعلها أنظمة اجتماعية . فليس مآل هذه القوات تجميع أفراد في جمهور ، بل تأليف الجمهور في جماعة ذات أنظمة . والاَّ فاذا كانت الجماعة بلا أنظمة بتاتاً فلا تكون مجتمعاً ، بل تكون شرذمة من الناس لا رابط بين أفرادها . وحينئذٍ تخرج من دائرة بحثنا

فالمجتمع البشري يُعَدُّ مجتمعاً ، او هيئة اجتماعية ، بفضل ما له من الانظمة . و يعد بنيةً ، او بناءً او نسيجاً ملتحماً ، بما فيه من هذه الانظمة التي تلحم أجزاءه . فالعوامل او القوات الاجتماعية هي التي تبني المجتمع او تنسجه بنظام . وبحثنا الآن في كيفية عمل عوامل الاجتماع يدور على ما تنشئه هذه العوامل من الانظمة الاجتماعية التي بها يُعَدُّ المجتمع مجتمعاً ، ولولاها لعدَّ عرمةً من الناس ، او حشداً ، او شراذم كاسراب القطا

٣ — التوازن الاجتماعي بناء

العالم الاجتماعي كما نعرفه الآن ، وكما عرفناه في التاريخ ، من أمم متمدنة وقبائل متوحشة او همجية ، انما هو سلسلة عمليات تجمُّع وتماثل وائتلاف واندماج ، تتكون بها جماعات ، وتنشق جماعات ، وتتألَّف جماعات كبرى من جماعات صغرى منحلة من جماعات كبرى الى غير ذلك .

هذه العمليات التجمُّعية والائتلافية والاندماجية انمـا هي الحركات الاجتماعية المتسلسلة على الدوام ، والحاصلة من جرَّاء تفاعل العوامل الاجتماعية . فلا نستطيع أن نستقصي لها بداية ولا نهاية الاَّ بالتصور التخميني المستَدل عليه من ظواهر العمليات الحادثة في التاريخ

فهذه العمليات الاجتماعية انما هي كالتفاعلات الـكيماوية الحادثة بين العناصر الارضية على الدوام ، ولا سيما العناصر التي تتكون منها المركبات العضوية من نباتية وحيوانية ، فهي سلسلة عمليات كيماوية دائمة لا نستطيع ان نستقصي بدايتها الاَّ بقدر ما يرشدنا اليه علم الحياة ( البيولوجيا )

فبحثنا في عمليات الاجتماع البشري تحت فعل العوامل الاجتماعية يشبه بناء البناية ، الذي يستلزم : اولاً قطع الحجارة ، ثم نحتها حتى تصاقب بعضها بعضاً ، ثم «تدميكها» ، او تنضيدها ولأْمها بطين الـكلس والرمل او بالاسمنت . فاذاً يقوم بناء المجتمع بالعمليات الآتية :

١ — الاشتقاق . أي حل جماعات لاستخراج أجزاء منها وتأليف جماعات جديدة . وهو يشبه عملية قطع الحجارة من الصخور أو هدم الابنية القديمة لاستعمال حجارتها . وقد مرَّ قسمٌ كبير من البحث في هذا الموضوع في الفصل السابق (الحرب العظمى تعدّ اعظم هدم اجتماعي حدث في التاريخ)

٢ — التمثيل . أي جعل الجماعات متماثلة لـكي يمكن تأليف جماعة جديدة منها . وهو يشبه نحت الحجارة على أشكال متوافقة ، وفي أحجام متصاقبة

٣ — الادماج . أي تأليف الجماعات . وهو يشبه تنضيد الحجارة في البناء

٤ — التوحيد . أي جعل الجماعات المؤتلفة جماعة واحدة ملتئمة بأنظمة عامة شاملة الجماعة كلها بحيث تكون امة واحدة . وهو يشبه لأْم الحجارة بالاسمنت . واليك تفصيل ذلك :

﴿ تنوُّع الجماعات ﴾ نحن نرى الآن الامم تتباين في كثيرٍ من أحوالها الاجتماعية ، حتى في بعض أحوالهــا الفسيولوجية ، حتى الجماعات المتوحشة يختلف بعضها عن بعض ، وما التقت او احتكّت أمة بأمة أخرى الاَّ كان أول ما تشعر به وتراه كل منهما في الاخرى الصفات المخالفة لصفاتها هي . ولا يندر أن يفضي هذا الشعور الى النفور ، وقد يؤدي الى التصادم

ومهما رجعنا القهقرى الى الازمنة المــاضية وجدنا العالم كما نراه الآن — أمماً متباينة . بل اذا رجعنا بالتصور الى ما قبل للتاريخ ، الى العصور التي نستدل على بعض أحوالها البشرية من بقايا البشر وآثارهم ، نلاحظ أيضاً أن البشر كانوا جماعات متباينة متنوعة

واذا بقينا نرجع في البحث والاستدلال والتصور تقف أمامنا مسألة ذات شأن وهي : هل هــذه الجماعات سلسلة من سلالة واحدة ، او من عدة سلالات مستقلة منذ الخلق ؟ وهذه المسألة تجر الى مسئلة أخرى وهي « أصل الانسان » وهذه المسألة قلما تخص عــلم الاجتماع ولــكنه لا يستطيع أن يتجافى المساس بها ولو بإشارة

فان ثبت ان البشر من ابوين واحدين قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وكان العالم البشريّ كله مسلسلاً من سلالة واحدة . واذا قبلنا مارجحه العلم الحديث من تسلسل البشر من الاحياء العليا بقيت المسألة تحتاج الى نظر ، وانتقلت الى ما وراء مركزها ، وتحولت الى مسألة اخرى ، وهي : هل كان الانتقال من الحيوانية الى البشرية الهمجية في مكان واحد ، ومنه تفرعت الجماعات وتوزعت في المسكونة ، أو ان هذا التحول أو الانتقال حدث في عدة اماكن أو بضعة ، ثم تسلسلت الجماعات من تمازج هذه الجماعات المحوّلة من اشباه الانسان ؟ وهذا البحث من خصائص الانثروبولوجيا والاثنولوجيا ( تاريخ الانسان الطبيعي ) . وسنتوسع قليلاً في هذا البحث في باب «تطور الاجتماع التاريخي» من الـكتاب الثاني.وجلّ ما يهمنا منه الآن ان نعلم كيف يحدث اندماج الجماعات . وهو ما تراه في النبذات التالية :

# ب - المماثلة

في الفصل السابق رأينا كيف انشقت الجماعة الى عدة جماعات بتفاعل العوامل البيئية والنسلية والحيوية، ثم بحثنا في كيفية تصادم هذه الجماعات. والآن قد حان ان نبحث في كيفية نشوء جماعات جديدة من جرّاء تصادم الجماعات ، أي أن نبحث في توازن تلك العوامل المتفاعلة

١ً — التنازع البطيء

في نهاية كل حرب حاسمة لابد من حدوث أحد ثلاثة أمور : ١ — اما أن تحتل الجماعة المنتصرة بلاد الجماعة المكسورة وتستعبد الجماعة نفسها : ٢ — او ان تأسر الجماعة المكسورة وتسبي ضعفاءها وتغنم اشياءها وتستعبدها ايضاً : ٣ — او ان تخلي بلادها وتضرب عليها ضريبة سنوية أو تفرض عليها غرامة

الامران الاول والثاني كانا أغلب من الثالث عند الجماعات الاولى الهمجية ، والاخير أصبح غالباً عند الامم المتمدنة فيما بينها ، الاّ في حالة الاستعمار فان الامة التي أصبحت غنيمة للامة المستعمرة تصبح شبه رقيقة لها .

في الحالة الاخيرة قلما يفضي الصدام الى ائتلاف واندماج ، لان القوتين المتصادمتين متعادلتان ، فاصطدمتا وارتدتا ، كاصطدام كرتي البلياردو المندفعتين من جهتين متقابلتين في خط مستقيم بزخم واحد. واما في الحالتين الاوليين فلا بد أن يحدث الامتزاج المفضي اخيراً الى الاندماج. ولكن قبل حدوث هذا الاندماج لابد من حدوث التماثل اولاً ، والا فلا اندماج مطلقاً

اذا احتلت الجماعة المنتصرة ارض الجماعة المنكسرة او سبتها وساقتها الى بلادها كانت الجماعتان مختلطتين اختلاطاً في المعاملة . ولكن لا تكونان ممتزجتين امتزاجاً في المعيشة ، لان بينهما تبايناً في أمور كثيرة وتنافراً الى حد الحنق . فالجماعة المكوّنة منهما تكون مستقطبة ، أي أن قواتها الاجتماعية تكون متحولة الى جانبين (قطبين) : جانب الجماعة المنتصرة ، وهي الحاكمة الآمرة ، وجانب الجماعة المأسورة ، وهي المحكومة المؤتمرة . تلك تريد وهذه تعمل . تلك تنعم وهذه تشقى . ولذلك تظل كل منهما مستقلة في عاداتها وأخلاقها ولغتها وعقيدتها . والجماعة المسبية على الاخص لا تتنازل عن شيء من خواصها هذه ، ولا تذعن لشيء من خواص الجماعة الغالبة ما عدا السلطة . ولهذا تبقى كل من الجماعتين متمايزة عن الاخرى ومفترقة عنها

حتى في الدم لقلة التزاوج المتبادل على الغالب . وأن حدث تزاوج فقلما يكون متبادلاً ، بل يكون بعض نساء الجماعة المغلوبة زوجات او جواري الجماعة الغالبة.ولكن نساء هذه لا يكنّ زوجات لرجال تلك ، ولذلك تبقى الجماعتان منفصلتين في الجنسية

من امثلة ذلك سبي نبوخذ ناصر ملك بابل لبني اسرائيل . ووجود الاسرائيليين اسرى في مصر وبقاؤهم منفصلين عن المصريين الى أن خرجوا . وفي التاريخ القديم امثلة كثيرة له . وفي أزمنة التوحش والهمجية لم تكن نتائج الحروب الا هكذا في الاغلب

٢ً — ارتداد فعل القوات المتنازعة

على ان هذا التنافر المستمر ليس قاعدة مطردة ، فلا بد ان تلاشيه العوامل المختلفة مع الزمان . فالجماعة الغالبة تملُّ على التمادي استعباد المغلوبة ، لانه يكلفها كثيراً من القوات الحربية لاخضاع هذه ، فضلاً عن انه يعرضها لخطر تمرد هذه وخروجها عليها ؛ فتضطر ان تضيق دائرة الاستعباد وتوسع دائرة الحرية للجماعة المغلوبة ؛فتقلل هذه من حَرَدِها ،وتبدي شيئًا من عطفها وطاعتها. وفي هذه الحالة تفرض الجماعة الغالبة عقوبات معينة على مخالفات محدودة ؛ وتتساهل في مخالفات اخرى . تخفف السخرة عن الجماعة المستعبَدة ، وتقلل الواجبات عليها اكتسابًا لرضائها

ومع تمادي الزمان تجعل السلطة الحاكمة هذ العقوبات قوانين عامة لاسراها ولرعاياها على السواء . وهكذا رويداً رويداً يتمتع المغلوبون بحقوق كحقوق الغالبين ، فيقل التنافر بين الجماعتين تدريجًا الى حــد التلاشي . وانما تفعل السلطة الحاكمة كذلك لانها تجــد بعد الاختبار أن هذه المساواة أفيد لمصلحتها من الاستعباد . ولذلك تتمادى في تعميم القوانين على الفريقين بلا تمييز . على هذا النحو يرتد فعل القوات المتفاعلة في الجانبين ، كارتداد الموجتين المتلاطمتين ، ويتوزَّع في جسمي الجماعتين

على أن تعميم القوانين أو الشرائع المحلية على هذا النحو لا يحدث بسهولة كما يُظَنّ ،بل يصادف صعوبات كلية بسبب تباين خواص الجماعتين.فالشريعة التي توافق عادات هذه وعقائدها قد تناقض عادات تلك وتقاليدها ؛ فلذلك لا بد من حدوث

امرين في خلال هذا التطور التشريعي : الأول ان الجماعة الغالبة تتساهل في بعض عاداتها وتقاليدها وعقائدها في مقابل اكراه تلك على الخضوع لهـذه القوانين . والثاني أن هذه تخلص في الخضوع في مقابل تساهل تلك . أي يجب ان يكون التساهل متبادلاً بين الفريقين . وعلى هذا النحو ،ومع تمادي الزمان ، تتقارب عقائد الجماعتين وعاداتهما واخلاقهما شيئًا فشيئًا — يقل التباين ويكثر التماثل

﴿ الاسموسس الاجتماعي ﴾ — تغلُّب بعض القوات المتفاعلة على بعض — ترى أن العامل الذي حمل السلطة الحاكمة على هـذه المساواة بين الفريقين اقتصادي تحققت صوابيتهُ بالاختبار . ولـكن هناك عوامل اخرى تمهد السبيل لهذا العامل،واهمها وافعلها ميل كل من الجماعتين الى اقتباس النافع من عادات الاخرى وعقائدها بغية الانتفاع بها واجتناء الخير لمصلحتها منها . وارقاهما في المدنية اكثرهما تأثيراً في الاخرى حتى ولو كانت مغلوبة

فخواص كل من الجماعتين انما هي كالسوائل في وعائين بينهما منافذ يتسرب السائل الاعلى من احدهما الى الاوطإ حتى يستويا في سطح واحد . أو بالاحرى هما كمحلولين مختلفي كمية المحلول فيهما ،وهما في وعائين بينهما فاصل ذو مسام، فيتسرب السائل الواحد الى الآخر على مبدا الترشيح المتبادل ( الاسموس Osmosis )

٣ — تحوُّل المتباينات الى متماثلات

لاحظ ان لقاء الاصدقاء الاعزاء غير المنتظر، بعد فراق طويل ، يحدث رجَّة عصبية ، كما لو التقت ام بابنها بعد هجر طويل أيأسها من لقائه ، فقد تقتلها الرجة العصبية . كذلك لو التقى عدوٌّ بعدوٍ حدثت في نفس كلٍّ منهما ثورة غضبية . فكلا الامرين يُعدُّ تصادماً

كذا اذا التقى غريب بغريب حدث في نفس كلٍّ منهما استغراب من شيء في الاخر . ومن ذلك نفهم ان اول ما يطرأ على الذهن عنـد كل لقاء هو ادراك المتباينات . أي ان كل شخص يلاحظ في الاخر ما فيه من المخالفات لمألوفه .

الطفل يدرك وجود القطة حين يراها لاول مرة لانه يراها شكلاً مخالفاً لشكل امه . ومتى أدرك وجود القطة أدرك وجود امه التي لم يكن منتبهاً لوجودها قبلاً . كذا يشرع في ان يميز بين امه وابيه وخالته . بالرغم من تشابههم العمومي

متى توالى ادراك المتباينات ، او متى توالى تأثر ذهن الشخص من الأمور المخالفة لمألوفه ، يصبح هذا المباين المنفور منه رويداً رويداً مألوفًا. لماذا ؟ لان الذهن

يعود بعد ملاحظة المباينات فيتنبه للمماثلات استئناساً بها . يعدل عن مستهجنات الغريب عنه او مستغربات خصمه ، فينظر الى ما فيهِ من المماثلات لما عنده هو ؛ ينظر الى ما يشاركه بهِ من الصفات . هنا يقل التنافر و يتمهد السبيل رويداً للتماثل

لاحظ طفلين التقيا لاول وهلة ، فيقفان الواحد في مقابل الآخر، ويتأملان احدهما الآخر غاضبين . وقد يتحفزان للتضارب ، ويهاب أن يبرد غضبهما شيئاً فشيئاً ، اذ يكتشفان ما فيهما من المتشابهات ، بعد أن أيقظت المتباينات ذهنهما . ثم لا يلبثان أن يصبحا صديقان مؤتلفين

حتى الحيوانات العليا متى التقت تتحقق بعضها بعضاً بالشم او الاحتكاك لتتأكد من المتشابهات بينها وتطمئن ، والبشر يجتمعون ويتخاطبون ويتناقشون ويتعاملون ، والنتيجة الاخيرة من اتصالهم ان كلا منهم يتحقق ما في غيره من الصفات المشابهة لصفاته التي تسهّل توافقهما

٤ً — التقليد والاقتباس

اذا استمرَّ الاتصال كان المعنى أن الائتلاف جعل يتوطَّد . ذلك لأن الائتلاف يدل على أن الاتصال ( التخاطب والتفاهم والمعاملة الخ ) أرضى الفردين ( او الافراد ) المجتمعين اللذين يحاول كل منهما أن يؤثر على الآخر ( او يتغلب عليه كانهما مادتان متصادمتان احداهما تندمج في الاخرى ) . على انه لا يتحتم أن استمرار الاتصال يكفل أن يكون اجتماعهما دائمًا ساراً . لذلك ترى أن الشعب الخليط من عناصر مختلفة يكون التصادم فيه أحيانًا عنيفًا في أثناء دور الاندماج الطويل

يؤثر الواحد في الآخر ، او الجماعة في الاخرى ، في اثناء رد الفعل الذي هو تقليد الواحد للآخر ، بقدر ما يؤثر فيه ذلك الآخر . فالاقتباس انما هو منتهى التقليد . و بتكرار الاقتباس يتم التماثل متى صارت كل صفات الفريق الواحد عند الفريق الآخر واليك احوال التصادم الاقتباسي المختلفة :

﴿ ١ — أمواج التصادم ﴾ يشبه التصادم الاقتباسي تلاطم الامواج .

لاحظ ان أيَّ سبب مُحدِثٍ للاضطراب في أي نقطة من بركة الماء ينشيء دوائر امواج الى كل الجهات . فان الصدمة التي اصابت تلك النقطة اوجبت دقائق الماء التي فيها أن تصدم ما حولها، وهذه تصدم ما حولها، وهكذا دواليك الى ان ينتشر زخم الصدمة الى جميع دقائق الماء

هكذا كل فكر يبدو وكل عمل يظهر ، يصدم المراكز العصبية في الاشخاص الذين يشعرون بالعمل او يدركون الفكر . وهؤلاء بموجب السنَّة الرابعة ( سنة رد

الفعل ) من سنن التصادم التي بسطناها في الفصل السابق ، يبدون نفس الفكر ، او نفس العمل كثيراً او قليلاً ، أي يقلّدونه ، الاّ اذا قام مانع من قِبَل الضمير او التعقل او عوامل خارجية أخرى فيمتنعون عن تقليده

على هذا النحو ترى المجتمعون يصفقون اذا صفق احدهم. يتثاءبون اذا تثاءب واحد منهم. يضحكون او يكتئبون كذلك . اذا قال احدهم فكراً تناقله الآخرون. وكثيراً ما ينقله كل واحد منهم كأنه من عنده . واذا روى أحدهم رواية رواها الآخرون لسواهم . كما علمت في فصل المحاكاة في باب العقل الاجتماعي

﴿ ٢ — الاقتباس المركب ﴾ ذلك على افتراض أن واحداً فقط أبدى حركة او فكراً ، او أن صدمة واحدة اصابت نقطة في البركة

ولكن هب أنك تناولت حفنة من الحصى الصغيرة وبذرتها في البركة ، تنشأ حينئذ عدة دوائر امواج يصادم بعضها بعضاً . فقد تصطدم موجة بموجةٍ اخرى في سطح واحد، فتندمج الواحدة في الاخرى فتكوّن موجة أعظم ، او قد يلتقي مرتفع الواحدة في منخفض الاخرى فتفني احداهما الاخرى، أو أن يكون رأس الواحدة في جنب الاخري فتُختزلان الى موجة صغيرة

هكذا تكون حركات أفراد الجماعة وأفكارهم مجموعة أمواج أفكار وأعمال في بحر أعصاب يلاطم بعضها بعضاً بواسطة المحاكاة والاقتباس . فالفكرة التي تصادف فكرة تناقضها تفنى . والفكرة التي تصادف فكرة توافقها تعظم ، وهكذا الاعمال والحركات

على هذا النحو سادت فِكَرٌ ونظريات ، وتلاشت فِكَرٌ ونظريات أخرى . وبهذا الاسلوب سادت مبادىء وقويت أخلاق ، وتغلبت عادات ، وسقطت مبادىء وأخلاق وعادات أخرى – بعامل المحاكاة والاقتباس المركب .

اين تتصاقب وتتوافق الافكار والمبادىء والعادات فتتقوّى وتعظم وتدوم ؟ ومتى تتناقض فيفني بعضها بعضاً وتتلاشى ؟ اليك الجواب :

الافكار والتصورات والنظريات والمبادىء والعادات السارّة اللاذّة هي الامواج العصبية المتوافقة التي تتعاظم،وأما المؤلم الممقوت من هذه المذكورات فيتنافر ويتلاشى . تتكرر تلك بعامل المحاكاة والاقتباس،الى أن تصادف أفكاراً وحركات الدّواسرّ منها، فتستغرقها هذه فيها وتدمجها في نفسها وتصبح الجديدة قائمة مقام القديمة

﴿٣ — سلاسل الاقتباسات﴾ فلذلك ترى أن المدنية هي سلاسل محاكاة واقتباسات لا تنقطع. وفي كل عصر من عصور المدنية تقدر أن تميز كل نظرية او فكر او مبدأ او عادة كيف أنه تقليد مستمرٌّ من الاعصر التي سبقته.

مثال ذلك: الشرائع الاوروبية الحاضرة انما هي تقليد مستمر من عهد الرومان. الفنون الجميلة الاوربية انما هي تقليد مستمر من عهد اليونان. الديانة المسيحية انما هي في اوربا واميركا تقليد مستمرٌّ منذ جهاد بولس الرسول في نشر الديانة المسيحية. التمدن الاسلامي انما هو مجموعة تقاليد مستمرة من عهد النبي محمد (صلعم) وصحبه (رضه)

الامواج التي تصدر من نقط الاصطدام كبيرة تتغلب على الامواج الصغيرة فتلاشي بعضها وتُدغِم بعضها الآخر فيها. كذلك التقاليد والعادات العرفية يتغلب بعضها على بعض ويندمج بعضها ببعض بحسب سنة تنازع البقاء

تظهر عدة عادات في مرسح الاجتماع، ولكن معظمها يتلاشى او يضعف، وقليلها يعيش مدة طويلة، وبعضها مدة أطول.

مثال ذلك: عادة الاشربة الروحية فقد تقادم عهدها، ومع ذلك تنوعت وتفوَّق منها انواع في بلد دون انواع اخرى، كتفوق الوسكي في انكلترا، وتفوق البيرا في المانيا. ومن ذلك انتشار الافيون في الصين اكثر من سائر المكيفات. اوضح من ذلك انتشار السيجار في اميركا، والسيكارات في الشرق الادنى، والنارجيلة في البلاد الفارسية وما حولها.

ومن ذلك انتشار اللغة الانكليزية في اميركا والمستعمرات الانكليزية، حتى التهمت سائر اللغات. وانتشار اللغة الفرنساوية في تونس والجزائر حتى كادت تقتل اللغة العربية فيهما

ففي كل جماعة ترى ان الجمهور يتقدم خطوة فخطوة الى توحيد عاداته باغفال بعضها والاجماع على بعض، حتى يكون جميع الافراد مشتركين في عادات عامة شائعة. وبهذه الوسيلة، وسيلة المحاكاة والاقتباس، يتحول الجمهور رويداً من افراد متباينين في عاداتهم الى افراد متماثلين في عاداتهم، تمهيداً لتآلفهم

﴿٤ — الاقتباس المعدّل﴾ اما هذا التحوُّل فلا يكون دائماً بالاقلاع البات عن عادة واعتناق عادة أخرى مباينة لها. بل كثيراً ما يكون بتعديل العادات نفسها حتى يتوافق بعضها مع بعض وتندمج الواحدة في الاخرى، وبتهذيبها حتى تزول الفروق بينها

مثال ذلك : اختلاف لهجات عناصر الناس في الكلام حتى في اللغة الواحدة ، فاذا اختلطوا تلطفت لهجة كل فريق مع الزمان ، ونشأت من لهجاتهم لهجة جديدة واحدة للكل

ثم تلاحظ ان المحاكاة،أو الاقتباس الذي هو ضرب من الموج في انتشاره،ليس كامواج المياه أو امواج الصوت في الهواء ، بل كامواج النور،أي انه قابل للانكسار بحسب الوسط الذي يمر فيه

مثال ذلك : هب ان لفظةً انتشرت حتى تجاوزت اللغة التي نشأت منها الى لغة اخرى ترَ انها لم تبق على اصلها ، بل تحرفت بعض التحرُّف . القانون الفرنساوي الذي اقتبسته مصر عدلت فيه حتى يوافق طبيعة البلاد الاجتماعية . المعنى الشعري الذي يترجم من لغة الى لغة يتعدل كثيراً حتى يكاد في بعض الاحوال يخرج عن اصل معناه

﴿ ٥ — الاقتباس في التاريخ ﴾ في التاريخ ترى امثلة كثيرة من ذلك . فان الاشوريين والمصريين واليونانيين اكتسبوا كثيراً من علوم الفينيقيين وفنونهم وعاداتهم في كل عهد غزوهم فيه وغلبوهم . والرومان غيَّروا كثيراً من احوال الشرق الادنى في حين حكمهم له . واليونان غيروا كثيراً من عادات المصريين لعهد البطالسة . بل الآن ترى ان الفرنساويين قد غيروا كثيراً من عادات واخلاق الجزائريين . واوضح من ذلك ان طقوس الكثلكة تختلف في بعض البلاد عنها في بعض البلاد الاخرى ومثل ذلك ترى فروقا في عرضيات الاسلام بين الهنود والعرب والترك. ولا يخفى ما في ذلك من الدلالة الواضحة على تطور العادات تبعا لاحتكاك الجماعات الممتزجة . وترى ايضا ان بعض طقوس النصرانيــة قد اكتسبت في عرضيلتها شيئاً من طقوس الوثنيّــة ، من قبيل التساهل ، بغية جعــل الطقوس النصرانية مشتركة بين الامم الوثنية التي نصرها بولس الرسول والطقوس اليهودية التي عدَّلها المسيح

في ولاية لوزيانا احدى الولايات المتحدة ترى الآن شاهداً حيًّا ناطقا على حقيقة امتزاج الجماعتين، وتلاشي تباينهما،وتقدم تماثلهما بتفاعل خواصهما الاجتماعية . فهذه الولاية كانت من املاك فرنسا ،ومعظم سكانها فرنساويون ،ولــكن مع الزمان تدفق اليها ايضا العنصر الانجلو سكسوني، فاصبحت تبدو لك من جهة فرنساوية ومن جهة اخرى انكليزية في عاداتها بل في لغتها . ففي كل مجلس هناك يمكن ان تسمع اللغة الفرنساوية تارة واللغة الانجليزية اخرى . وترى فيه بعض الاناقة الفرنساوية وبعض الجمود الانكليزي ، ترى فيه بعض تقاليد الفريقين

٥ً — المناهضة والتساهل

كلما استجدَّ فكر أو رأي أو نظرية أو عادة او زي أو نحو ذلك حدث نزاع بينه وبين التقاليد والعادات السابقة التي من نوعه . ولهذا لا تفرغ الهيئة الاجتماعية من التصادمات — التصادمات بين الاقتباسات القديمة والجــديدة . اذاً في الهيئة

الاجتماعية عامل المعارضة فضلاً عن عامل الاقتباس والمحاكاة وغيره . أي انه مهما وفقت المحاكاة بين الافراد تبقى ثمت اسباب للمعارضة والمقاومة

اولها — اختلاف التقاليد الخ . فاصحابها يناهضون بعضهم بعضاً في تغليبها بعضها على بعض

ثانيها — اختلاف الاخلاق الاصلية بين عنصر وعنصر . فهو يوجب تنازعها قبل ان تتوحد وتشترك توطئة لاندماج العناصر بعضها ببعض

ثالثها — وهو أهم اسباب التنازع — الميل الغريزي الى الاستئثار الذي يوجب اهلاك حياة لحفظ حياة اخرى من الهلاك ، ويوجب ان يغلّب كل واحد اوكل قوم عاداته على عادات غيره ، حتى لا يعاني كثيراً في تكييف نفسه حسب عادات غيره

رابعها — تنازع المعايش . فهو ، وان كان تجاذباً للرزق ، لا يشتد الى حد ان يكون كل واحد عدوًّا قتّالاً للآخر . ان الخطر الذي يحيق بالواحد لا تسوغ ازالته بتعريض شخص آخر له او بالتضحية بحياته

على انه في بعض الاحيان تشتد الاخطار ، فلا ينجو منها الاَّ القوي اذ يسابق غيره الى وسائل النجاة . مثال ذلك : أن الجماعة يهلك فيها أولاً الضعفاء لعجزهم عن تحصيل رزقهم . واذا اشتدت قليلاً كان الخطر عليهم أشد اذ يجرؤ الاقوياء على اختلاس اشياء الضعفاء واستلابهم بل نهبهم عنوةً . واذا اشتدت كثيراً جعل الاقوياء يقتلون الضعفاء لكي يخلو مكان هؤلاء لاولئك . واذا اشتدت ايضاً وايضاً بحيث لم يبقَ رزق حتى للاقوياء اكل الاقوياء الضعفاء . والارجح أن اشتداد المجاعات هو سبب نشوء عادة اكل البشر لحوم البشر . روي حدوث شيء من ذلك في الحرب العظمى الاخيرة

ترى أن نتيجة المناهضة اخيراً تلطف المناهضة كثيراً الى وشك أن تزول — الى أن تنتهي في التساهل أو التوافق أو المداراة بين من يبقون بعد انتهاء المناهضة

القوي يقتل الضعيف . والاقوياء اذا لم يؤالفوا رفاقهم بل بقوا خطراً عليهم تألب هؤلاء عليهم ؛ فالفريق الظافر يقتل الفريق الآخر أو يطرده . وأن تفوّق فريقٌ على فريق ارشدهم طول عهد النزاع الى التوافق والمسالمة وتساهل كل فريق مع الآخر . في هذه الحالة تكون قوتا الجانبين متوازنتين . ومع ذلك لا ينفك كل من الفريقين حيناً بعد الآخر يمتحن قوة خصمه حتى اذا توسم منه ضعفاً نازعه

فترى مما تقدم ان تصادم القوات هو منشأ التساهل والعدالة والتلاقي عند مركز

الحق . وليس منشأ التساهل والعدل الحكم العقلي في الحق والبطل. وما وظيفة العقل في هذه الحالة الاَّ اقناع الشهوات والعواطف بأن استمرار النزاع يفضي الى هلاك الخصمين ، فمن الصواب ( لا من العدل ) ان يتفقا .

والدليل على ذلك أن المناهضة موجودة عند كل نوع من الاحياء ، وأن المسالمة والتساهل موجودان ايضاً عند جميع الاحياء . فترى ان الحيوانات المتعادية تتسالم احياناً، فتعيش متوافقة ، كالجواميس والابقار البرية ، وكالثعالب والضباع والذئاب ، وكالبشر الهمج المتوحشين .

والمتمدنون، مع ما بلغوا اليه من التمدن والرقي، متى توسمت امة منهم تفوقاً على امة اخرى لا يردها الضمير عن محاربتها ، ولا تميل لمسالمتها الاَّ متى اقتنعت بالمحسوس ان خسارتها من القتال اضعاف نفعها من المسالمة – فاين ضمير المتمدنين من ضمير الوحوش

٦ً — التحالف والتعاون

حالما يستتب التساهل ينشأ التحالف والتعاون . يبدأ التعاون المتبادل في التعاضد للاحتماء من العدو . متى شعر اثنان بتفوق ثالث على كل منهما أدركا أنهما اذا تعاونا عليه غلباه ؛ وأدركا أن نجاتهما منه متوقفة على هذا التعاون .

لاحظ الدجاج اذا هجم عليها ثعلب انضمت بعضها الى بعض كأنها تريد ان تقاومه . الخراف تتألب اذا هاجمها ضبع

فكيف بالناس ! الا يتعاونون للدفاع ؟ ومتى أدرك الاحياء أن التعاون يحميهم مارسوه . وعلى التمادي يصبح غريزة موروثة . وهكذا يحفظ ناموس الانتخاب الطبيعي مبدأ التعاون فيصبح خالداً في الجنس او النوع . ومتى خبر الاحياء فائدة التعاون في الدفاع ادركوا فائدته في الهجوم وفي تحصيل الرزق أيضاً

الجمل او الخنافس والجرذان والفئران تتعاون في نقل الاجسام . من منا لم يرَ عدة نملات متألبة على حشرة ميتة لنقلها الى وكرها ؟ الطيور الضعيفة تتعاون في بناء اعشاشها . بعض انواع البط تتعاقب اناثها على حضانة البيض في عش واحد . وهناك أغرب من ذلك ان نوعاً من السمك

Pelicans يتعاون عدد وافر منه، ويتألب في شكل نصف دائرة دافعاً امامه السمك الصغير حتى يحبسه في جون صغير او في الشط لكي يفترسه . الخنازير البرية تؤلف دائرة تحمي في وسطها صغارها من الذئاب . الافيال تتعاون على حمل رفيق لها جريح

عند الطبقات الدنيا من البشر كثير من انواع التعاون البسيطة كهذا . من ذلك ان الزنجي الاوسترالي يعتمد على كل فرد من عشيرته في الدفاع ساعة الخطر المفاجيء من غير ان يكون هؤلاء الافراد جنوداً نظاميين . العربان جنودٌ دائمون في قبائلهم ، يكفي ان يستفزهم شيخ القبيلة فينبري كل واحد بسلاحه للحرب

في القرى وفي بلاد الفلاحين الصغيرة في كثير من البلدان يتعاون الاهالي في بناء اكواخهم وفي حصادهم وفي اجتناء محصولاتهم ، وفي بناء كنائسهم او معابدهم

## ٧ً — العوامل الاربعة أساس الائتلاف — الاتصال . التقليد . التساهل . التحالف

رأيت فيما تقدم أن اتصال الافراد بعضهم ببعض في تجمعهم واجتماعهم يفضي الى احتكاكهم . فأمّا أن يؤثر الواحد على الآخر فيحمله على التشبه بهِ او تقليده فيتماثلان في أفعالهما وأميالهما وافكارهما وثم في عاداتهما وأخلاقهما . او قد يتنافران ويتنازعان . ولكن عوامل أخرى خارجية عنهما تقضي عليهما أن يتساهلا ويتفقا تحامياً لأذى ، او تعاونًا على تحصيل منفعة فيتحالفان . اذاً ترى أن الاتصال والتقليد والتساهل والتحالف انما هي عوامل رئيسية لاحداث الائتلاف . وبهذا الائتلاف تتم الاجتماعية . ولولاها لكان المجتمع عبارة عن مجموعة أفراد لا ارتباط بينهم سوى حدود المكان ، وأقل العوامل تشتتهم

على ان هذه العوامل الاربعة التالية التي هي عناصر الائتلاف انما هي أساس لظواهر اجتماعية خرى مكيفات لحركات اجتماعية راقية :

١ً — الاتصال أساس المجاملة والملاعبة واللهو الى ما هنالك من درجات التفكهة والتسلية

٢ً — التقليد اساس التطور الاقتصادي في الصناعات والمعاملات الخ

٣ً — التساهل أساس تقرير العدالة وتطور القضاء

٤ً — التحالف والتعاون أساس النظامات السياسية والاقتصادية والدفاعية الحربية

# ج - الاندماج - التنضيد

١ — التزاوج الاجتماعي

في غضون تلاشي التباين وتعاظم التماثل بين الفريقين يحدث التزاوج المتبادل [1] بينهما ، وهو الالفة الكيمية الاجتماعية . وكلما تعاظم التماثل تواتر التزاوج المتبادل حتى يصبح شائعاً ، فتكثر المواليد المنتسبة الى الفريقين معاً . هـذا هو الاندماج التام . وكلما كثرت المواليد عظم الاندماج الى أن تتلاشي ذاتية كل جماعة في الاخرى تماماً . هذا هو العمل الكيماوي الاجتماعي الذي يفضي فيه تصادم العناصر المتفاعلة تفاعلاً كيماوياً الى توازنها في مركب جديد ، تختلف خواصه عن خواص كل من العناصر التي تألف منها .

متى تمّ الاندماج على هـذا النحو بدت للوجود جماعة جديدة ذات عادات وأخلاق وعقائد جديدة تختلف عن اخلاق وعقائد كل من الجماعتين اللتين اصطدمتا في أول الامر . هكذا ينتهي تصادم القوات الاجتماعية باتحادها متوازنة

على هذا النحو ينشأ « الشعب » وينمو الى أن يصبح « أمة » بكل معنى الكلمة . فالامة انما هي نتيجة عمل فسيولوجي بيولوجي ، كما هي نتيجة أعمال سياسية واقتصادية واجتماعية

٢ — التوحيد . الوطن

حينئذ يشعر الشعب بوحدانية تامة ، وبمتانة في ائتلافه ، وتنشأ فيـه العواطف الشعبية المتبادلة . حينئذ تتضح في كل فرد عاطفة الحب للامة والبلاد معاً — حينئذ يهتف الجمهور « الوطن » ، « فليحي الوطن »

---

(١) التزاوج الاجتماعي من طرف واحد ، اي ان تزوّج الغالبين نساء المغلوبين وحده لا يكفي لعملية الاندماج

والظاهر ان هذا الشعور ،او الحب للوطن، انما هو كشعور الابن لابويه ، لحسبان ان الفرد وليـد الوطن كله . ومن ذلك القول « اولاد وطن واحد » . ولفظ الوطن في بعض لغات اوربا مشتق من لفظ الابوّة . كما ترى في الفاظ Patria, Patrie Vaterland, (١)

فالوطن او الوطنية هو نهاية الصدام بين الجماعتين او الجماعات الملتقية . هو توازن قوات هذه الجماعات — هو اتحاد عاداتها وأخلاقها وعقائدها بتوازن — هو الهدنة الاخيرة بين الجماعات المتنازعة — هو حلول التعاون والتعاضـد والتآزر بين عناصر الامة محل التنازع القديم الذي حدث عند التقاء الجماعتين — بعد ذلك ينتقل النزاع بين هاتين الجماعتين الى ما بين الامة الجديدة وأمة أخرى مثلها تصطدم بها — ينتقل من ضمن الوطن الواحد الى ما بين وطنين آخرين

ترى مما تقدم ان نشوء الجماعة يحدث باحدى طريقتين : الاولى بالاشتقاق على حد نشوء الجراثيم ذوات الخلية الواحدة ، اذ تتوالد هذه بانشقاق كل واحدة الى اثنتين ، او بانفجار غلاف الجرثومة الواحدة الى بضع بزيرات ، كل واحدة منها تنمو جرثومة قائمة بذاتها . هكذا جماعة عدن (كما سبق التمثيل ) انشقت الى جماعات درجت كل منها في جهة

الثانية باللقاح أو التزاوج الاجتماعي ، اي باندماج جماعتين ونشوء جماعة جديدة منهما كما رأيت . وهذان الامران من الادلة على شدة التشابه بين الجسمين الحيواني والاجتماعي كما سترى في الـكتاب الثاني

### ٣ — الاندماج المركب

فيما تقدم صوّرنا للقارىء عمليات الاصطدام والتغيير والمماثلة والاندماج والتوحيد بأبسط صورة تسهيلاً للفهم ، وغضضنا النظر عن تعدُّد هذه العمليات من جهات اخرى واعتراض بعضها لبعض

فلما كنا نتخيل جماعة فلسطينية وجماعة مصرية متصادمتين غضضنا النظر عن جماعة ثالثـة سطت من الغرب او من البحر او من شواطىء فينيقية مثـلاً وصادمت الجماعتين في درجة من درجات اختلاطهما . فقد تتحول حينئذ القوات المتصادمة عن وجهة توازنها قبل تمامه الى وجهـة

---

(١) ولا يبعد أن تكون اللفظة العربية شريكة ايضاً ، فان لفظة «وطن» قريبة من لفظة فاتر . وكثيراً ماقامت الواو مقام الفاء المثلثة في الشرق الادنى كما في لفظة «فان» و «وان» . ويؤيد ذلك ان لفظـة الاب في الفارسية التي هي أخت العربية « بادر » ، وهو في الألمانية فاتر وفي الانكليزية فاذر

توازن آخر . وقد يمكن انه قبل ان يتم هذا التوازن الآخر يحدث اصطدام ثالث يغير وجهة هذا التوازن الآخر ايضاً . فالعالم الاجتماعي من هذا القبيل انما هو بحر متلاطم الامواج ، وقلما تجد أمة في طريق توازنها الا وجدتها مصطدمة بامة اخرى . وهكذا لا تجد نظاماً يستتم توازنه حتى تراه يصطدم بنظام آخر

ولذلك ترى الامم متفاوتة في درجات اندماجها ووحدانيتها . فبينما ترى امة تامة الوحدانية والاندماج ترى أمة أخرى في إبان عملية التمثيل ، وتكاد تبلغ الى درجة الاندماج ؛ وترى أمة ثالثة لا تزال في إبان التنازع الذي عقب الاصطدام ؛ وأمة رابعة في بدء الاصطدام

قابل انكلترا بالمانيا والنمسا ايضاً ترَ ان انكلترا ( استثنِ ارلندا ) اتمُّ اندماجاً من المانيا . وكلتاهما اتم اندماجا من النمسا . وقبل ان يتم اندماج النمسا حدث اصطدام جديد هائل غيَّر وجهة توازنها بل حلها الى بضع وحدات

ليس ذلك فقط بل ترى الامم متفاوتة فيما تعاقب عليها من الاندماجات ؛ فقد يمكن ان يكون قد حدث لامة عدة اندماجات ، في حين ان أمة أخرى لم يمرّ عليها سوى اندماج واحد او اندماجين

خذ الامة الاميركية مثلاً وتقهقر في تاريخ عناصرها ترَ انها حاصل عدة اندماجات سابقة لاتكاد تدرك اولها في حين ان هنود اميركا لا تقدر ان تحقق في تاريخ تطورهم اكثر من اندماج واحد على الارجح .

يمكن ان الامة اليونانية لم تجتز الا بضع اندماجات ، في حين ان الامة الايطالية اجتازت عدة اندماجات جعلت بونا واسعا بين خواصها القديمة وخواصها الجديدة

٤ً — لقاح الانظمة او اندماجها

والغالب ان الامة تكون أقوى وأرقى بقدر ما اجتازت من الاندماجات ، لان عملية الاندماج انما هي تطور يكسب الامة خواص جديدة ؛ وبعبارة أوضح ، يكسبها معارف جديدة وأنظمة جديدة ومبادىء جديدة ، كلها افضل مما كان لها — هو الارتقاء في الحضارة والتمدن

فالاندماج انما هو لقاح الانظمة الاجتماعية — لقاح تمدنين لتوليد تمدن آخر .

لقاح أمتين مختلفتين في العادات والاخلاق والعقائد . والامة الحاصلة من اندماج الامتين انما هي وليدة هذا اللقاح .

وسنن اللقاح الرئيسية تنطبق على الاندماج الاجتماعي بعض الانطباق او معظمه . فاولاً : ان الاندماج لايحدث الا بين جماعتين مختلفتين، فاتحاد جماعتين متشابهتين تمام التشابه لا يُعد اندماجاً بل انضمام جزئين في كلٍّ ، لان انضمامهما لا ينتج جماعة جديدة ذات خواص تختلف عن الابوين. اذاً لا بد من اختلاف الجماعتين المندمجتين حتى يكون الاندماج لقاحاً يلد جماعة جديدة افضل . فانضمام كريت الى اليونان لا يعد اندماجاً بين الشعبين

ثانيا : كلما كان التباين بين الجماعتين بعيداً كانت الامة الوليدة من جراء اندماجهما افضل، طبقا لسنة التوليد من الاقربين او الابعدين . فالامة الانجليزية التي هي وليدة اندماج العنصر الجرماني بالعنصر السلتي تعد اقوى من الامة الفرنساوية التي لم تجتز اندماجاً بين امتين بعيدتين عن دائرة اللاتينية

ثالثا : يجب ان تكون الجماعتان المندمجتان من جنس واحد ، ليس في الدم بل في المدنية ، اي في درجة اجتماعية واحدة ، والا فهيهات ان يحدث اندماج . مثال ذلك : الاميركان وهنود اميركا تساكنوا حتى الآن نحو اربع قرون ، والى الآن لم يحدث بين الفريقين اندماج . ولا ينتظر ان يحدث اندماج بينهما في قرنين او بضعة قرون على الارجح ، لان كلا الفريقين متباينان في المدنية عظيم التباين، فهما من جنسين مختلفين .والامر كذلك بين الزنوج الذين في اميركا ( وهم سلالة السود الذين اخذوا في الاصل من افريقيا وبيعوا هناك عبيداً ، ثم حررهم اهل الشمال الاميركان) وبين الاميركان انفسهم، فلا ينتظر ان يندمجوا معاً في قرون. بل ان اليابانيين والصينيين الذين هاجروا الى اميركا سيبقون منفصلين عن الاميركان امداً طويلاً ، بينما النزالات الاوربية تندمج شيئا فشيئا مع الاميركان

٥ — بطء الاندماج

قلنا ان الاندماج هذا انما هو نهاية ما عقب الصدام من سلسلة النزاعات تمهيداً للتماثل . اي هو حاصل تفاعل قوات اجتماعية كحاصل تفاعل عناصر كيماوية . فالمركب الجديد يعظم شأن خواصه بقدر ما اتحد فيه من العناصر المختلفة . كذلك الامم ، فالامة التي تسنّى لها أن تتألف من عناصر متعددة مختلفة كانت على الغالب اقوى وأرقى، وهي الامم الموغلة في التمدن . واما الامة التي لم تقع في تيار التمدن ولم يتسنَّ لها ان تحتكَّ بأمم أخرى حتى تتعدد اندماجاتها فتبقى بطيئة في رقيها . جميع الامم التي لم تزل في حالة الهمجية انما هي من هذا القبيل

الغالب ان الاندماج ، او تعدد الاندماجات ، يأول الى تقوية الامة الجديدة وارتقائها . ولكن هذه القاعدة لا تطّرد ، فقد يكون الاندماج أحياناً مقهقراً بالأمة الى الوراء — شيخوخة اجتماعية لاسباب في شخصية الجماعات المندمجة ، كالتمادي في الترف ، او فساد الانظمة ، الى غير ذلك من الامراض الاجتماعية التي تعتور بعض الامم دون بعض

٦ً — الصدام الخفي

قلنا في طالع هذا الفصل ان لقاء أي جماعتين يعقبه اصطدام – قتال او حرب . ولا بد من هذا الصدام لحدوث التفاعل توطئة للائتلاف . ولكن كثيراً ما تلتقي الجماعتان ولا يحدث الصدام كلقاء المهاجرين بالامة التي هاجروا اليها

ففي اميركا عدة نزالات التقت، باهلها من غير ان يحدث صدام. نعم لم يحدث قتال ولا حرب وانما يحدث صدام اجتماعي بطيء شبيه بالعمل الكيماوي البطيء — شبيه بالتاكسد البطيء الذي هو بالحقيقة احتراق ، ولكنه لا يُشعَر بحرارته لانه بطيء .

فالصدام بين النزالة واهل البلاد انما هو صدام انظمة ، صدام عادات واخلاق وعقائد . يحدث تدريجياً . اذاً لا بد عند التقاء الجماعات من حدوث صدام ولو خفي

# د - رد فعل الاندماج على الفرد الاجتماعي

الغرض من الحياة الاجتماعية أولاً : الحرص على الحياة الفردية بالتعاون على تحصيل الرزق وعلى دفع الاذى . وثانياً : الحصول على منتهى ما يمكن من اللذة والسرور من هذه الحياة ، والا فلا تستحق هذه العناية ، ولا هذه المقاساة في الفرد نفسه للائتلاف مع غيره ، وفي الخضوع للنظام . ولذلك يعد الغرض الثاني أهم من الأول في نظر الحي الاجتماعي . فالائتلاف لا يعد كاملاً مالم يؤدّ هذا الغرض ، اي ان تكون الحياة سارّة بهيجة

كلما توسع عامل التعاون والتعاضد في الهيئة الاجتماعية وقويَ وتعاظم وفرت القوة في الجماعة، وزادت كثيراً على اللازم لتحصيل رزق الجماعة. اي ان ما يستهلكه

تحصيل الرزق من قوة الافراد انما هو أقل مما عندهم منها . فماذا يكون من أمر الزائد من هذه القوة ؟

لا بد من من انفاقه ، لان الجسم السليم يولّد قوة . وكلما وفرت للجسم لوازم الحياة من غذاء ودفء الخ وفرت هـذه القوة فيه ، ولا بد من انفاقها . بل هي تفلت من نفسها . فأين تنفق ؟

تنفق في اللهو والسرور ؛ وهما ما يعود على الفرد الاجتماعي من عمـل العوامل الاجتماعية .

١ — تطور الملذات والملاهي

الاحداث على الخصوص الذين لا تزال مسؤوليتهم قليلة ينفقون هذه القوة في اللعب ، حتى الاطفال الذين لا يزالون في المهد ينفقون هذه القوة في حركات ايديهم وارجلهم ، واحيانا في صراخهم الذي لا داعي له . فليس صراخ الطفل احياناً الا مصرفا للقوة المدّخرة

( ١ — مرح الحيوانات ) حتى العجماوات وعلى الاخص صغارها تمارس اللعب . لاحظ ان الـكلاب تتداعب والخراف تتناطح . واذا لاحظت برهة طويلة بعض الطيور الصغيرة التي تتنقّل بين الشجر تراها احيانا تتداعب وتلاعب بعضها بعضاً . روى كروبوتكين ( رحالة في اميركا ) ان بعض الـكلاب البرية في اميركا تتداعب مداعبـة مدهشة . فهي تعيش متجمعة في مثل قرًى ، فترى في برية تلك الـكلاب اكواما من الرمل ، وعلى كل عرمة كلبا ينابح جيرانه من الـكلاب الاخرى نباحاً قليـل الخشونة ، كأنه مخاطبة او مفاكهة حديث . ولـكن اذا دنا انسان من تلك القرية الـكلبية هرع كل كلب الى وكره واختفوا جميعا في الحال . كأنّ كلاً منهم اخبر الكلاب الاخرى بظهور شخص غريب في احدى نواحي القرية . ولـكن متى انقضى الخطر عاد كلٌّ الى عرمته وهي يحادث بعضها بعضا . واحيانا تخرج كل هـذه الـكلاب من وكرها وتختلط بعضها مع بعض متلاعبة متداعبة ولا سيما الصغيرة منها . واحيانا تصارع بعضهـا بعضاً ، والـكلاب الـكبيرة تشاهدها من قمم اكوام الرمل حيث تراقب الجهات لئلا يداهمها منها خطرٌ . ثم تزور هذه العيلات بعضها بعضا احيانا

وقد روى المرحوم الدكتور امين بك ابو خاطر من رحلة للمؤلف انه كان يشاهد احيانا في بعض الهضبات في البرية زمرةً من الغزلان وقد وقفت في شبه دائرة وجعلت تتبارى بالوثب العمودي . فينتفض الغزال عن الارض حتى يرتفع نحو قامتين او اكثر . وندر ان وثب غزالان معا في وقت واحد ، بل كان يثب وثبته ثم يأتي بعده الآخر . فيستدل من ذلك ان هذه الغزلان كانت بلا شك تتبارى في الوثب

( ٢ — الرقص ) الهرج والمرج من رقص ونحوه عند القبائل الهمجية والمتوحشة انما هو قوة متدفقة عندهم ، لانك اذا حذفت من حياتهم هرجهم ومرجهم والعابهم لا يبقى فيها من العمل ما يستحق الذكر ، لان عيشهم بسيط جدًّا لا يستوجب جهاداً وعناء

وماهرج الهمج الاكرج الحيوانات، وانما يختلف عنه بكونه نظاماً اكثر من هذا. ومارقص الهمج الا تقليد لوثب الغزلان . وهمج تسمانيا يقلدون برقصهم حركات الكانغارو ، كما ان رقص زنوج افريقيا تقليد لحركات القرود . ويقال ان رقص الاسكيمو مع ما فيه من الغناء والتمثيل بالاشارات انما هو تقليد لحركات الطيور والحيوانات الاهلية

ثم ان كثيراً من انواع الرقص عند الهمج تمثل بعض حوادث الحياة اليومية . حتى عند بعض الامم المتمدنة نصف تمدن تجد رقصات تمثل الاعمال المنزلية ، كالعجن والحصاد والزرع والقطف والجني الخ .

وما زال الرقص التمثيلي يتطور حتى صار عند الامم المتمدنة يمثل بعض الاحوال الخاصة او بعض الحوادث المشهورة كرقصتي كليوبترا وسالومي الخ

( ٣ — المسابقات ) المسابقات او المنافسات التي هي مصرف آخر من مصارف القوة العاملة عامة جميع انواع البشر ، حتى الطبقات العليا من العجماوات

الطيور تتسابق في الطيران . الاسماك تتبارى في الانسياب . وكثير من ذوات الاثداء تتنافس وتتسابق احيانا من قبل اللهو واللعب والمداعبة. الثيران والمعاز ونحوها تتناطح .والجحاش تهارش بعض بعضها بعضا لهذا الغرض . وذكور النحل تتسابق في لحاق الملكة

ترى الكلاب والقطط تتسابق في مطاردة كرة او اي شيء يتدحرج . واحيانا يطارد الكلب او الهرة زميله . تتسابق هذه الحيوانات الى الطرائد لاجل الغذاء اولاً ، حتى متى كانت شبعانة طاردت اي شيء متسابقة لاجل اللهو

المصارعة والرماية والاستكشاف الخ كلها العاب عامة عند الهمج والمتوحشين ، كما هي عند المتمدنين . في كل امة تجد المصارعة والمغالبة ضرباً من اللهو

ترى الاحداث همجا وغير همج يختبيء واحدٌ منهم فيبحث عنه الاخر، حتى اذا وجده كان ذا حق بالاختباء لكي يبحث عنه آخر

وترى الكبار كالصغار في كل طبقة من الامم ينصبون اهدافا ويتنافسون برميها بالحصى او بالسهام او بالرصاص الخ

هنود النابو Napo في وادي الامازون يلهون بالترامي بالحراب لهواً لاذّاً جداً ودالا على مهارة غريبة . يقفون صفين ، وقد يبلغ كل صف نحو عشرين شخصاً ، ويترامون بالحراب او النبال بسرعة غريبة يسددها بعضهم الى بعض، وكل واحد يتلقى بقبضته نبلة خصمه قبل ان تبلغ اليه. ترى النبال مترامية من الجانبين بسرعة مخيفة ، ويندر ان يصاب أحد بها

من جملة شواهد المسابقات عند الهمج في جزيرة وود لارك Wood Lark في غينيا الجديدة New guinea ان سرباً من النساء ينشئن اكمة صغيرة من الرمل عند الشاطيء ، ويجلسن عليها مغنيات، كأنهنّ مستعصيات على الرجال وحمساتهم ومهوساتهم حتى يحاولوا اختطاف واحدة منهنّ. فيجتمع الرجال واحد بعد الآخر، ويكوّمون كومة من الرمل ايضاً في مقابل كومة النساء ، ويصعدون اليها ، ويغنون، ثم ينبري واحد منهم ويخطف امرأة، فتجتهد رفيقاتها أن يحمينها منه . كما ان رفاقه

يساعدونه على تخليصها من رفيقاتها ، وثم يحدث صراع عنيف قد ينتهي بأذى بعضهم او بعضهن

سباق الفرسان الذي تطوّر كثيراً في البلاد المتمدنة حتى صار ضرباً من القمار قديم عنـد العرب وجميع الامم التي تتباهى بالفروسية . ويصحبه ايضاً الرمى بالسهام والنبال والطعن بالرماح عن ظهور الخيل

المنافسة باعمال البطولة في الاعراس ، كشرط لاكتساب العروس،يوجد عند بعض الامم، حتى بعض الامم المتمدنة بعض التمدن .عند قبيلة الاكاك الهندية الاميركية عادة غريبة، وهي للابوين حق الزام ابنتهما العانس ان تتزوج من يختارونه لها عريساً ، اللهم الاّ اذا سبقته في الركض . ففي حفلة الزواج يصعد زعيم القبيلة الى عرمة من الرمل او التراب ، ويجلس حيث يرى ما حول العرمة جيداً ، ويقف العريس والعروس على جانبين متقابلين حول العرمة . ومتى اشار الزعيم الاشارة المعلومة يركضان معاً في جهة واحدة حول العرمة . فاذا أدرك العريس العروس قبل نهاية الدورة الثالثة حقّ له ان يتزوجها ، والاّ حق لها ان ترفضه . في لبنان كانوا يشترطون لاخذ العروس ان يرفع واحد من اهل العريس ثقلاً (كجرن الكبيبة مثلاً ) بيد واحدة الى فوق رأسه، اللهمّ اذا كان بين اهل العروس من يستطيع ان يرفعه هكذا

المنازلة او المبارزة انما هي ضرب من ضروب المسابقة الشرطية

﴿ ٤َ — المراهنة والمقامرة ﴾ وربما كانت المراهنـة مشتقة من المسابقة . فلما صارت الغايـة تجعل شرطاً لـكسب العروس او نحوها من جوائز الفخر صار المتسابقون يتوسعون في الشرط ، فجعلوا الجوائز مادة ذات قيمـة أو مالاً . ومن ثمّ نشأت المراهنة والمقامرة على صور مختلفة من سباق الخيل،الى سباق قذف الكرة، الى صيد الحمام،الى غير ذلك مما تفنن فيه المتمدنون كل التمدن،حتى صرتَ ترى كل يوم ضرباً من ضروب القمار ، بل توسعوا في ضروب المقامرة حتى لم يبق ربح الجائزة او المكافأة شرطاً لمهارة ، بل بختاً ومصادفة كلعب البوكر ونحوه ، وتفرعت من ذلك انواع اليانصيب المختلفة . ووفرت الحيل الابليسية لابتزاز الاموال باساليب غير عمرانية

﴿ ٥َ — المسكرات والمخدرات ﴾ ولعلّ من جملة فوارق الانسان عن الحيوان تماديه في المهيجات والمحمسات . فلما رأى بعض المواد تثير في نفسه شهوةً او بهجة تمادى في تعاطيها . وقد لا تجد الا بعض قبائل البشر القليلة لا تتعاطى مخدراً او مسكراً . فبالاجمال يمكن القول ان تعاطي الاشربة الروحيـة المختلفة والتدخين شائعان عند جميع الامم تقريبا . تعاطي الافيون كان محصوراً في الشرق الاقصى فانتشر قليلاً في بعض احيـاء المدن العظمى في الغرب . تعاطي الـكوكايين والمورفين يكاد ينتشر في كل العالم

٢ — تأثير الملاهي والملذات في عملية الاندماج

قد تجد في الملاهي والالعاب والسباق الخ اضراراً، ولكن لها فوائد اجتماعية عظيمة الشان . وربما كانت من أقوى عوامل الائتلاف الذي نحن بصدده . فهي تسهل مهمة عامل التقليد، وتعظم عملية تحويل التباين الى تشابه تسهيلاً للتعاون فالتحالف فالاندماج

في مملكة الحيوانات العجماء ترى ان اللعب والمداعبة عامل من عوامل التربية والتدريب، أفرخ العصافير تتعلم الطيران من جراء مرح العصافير الكبيرة . لذلك ترى الطيور لا تفارق صغارها حتى تنضج وتستطيع ان تعيش مستقلة ، ترى شاهداً واضحاً لذلك في الدجاج . بل ان الحيوانات ذوات الاثداء لا تفارق صغارها قبل النضوج ، بل تلازمها وتشركها معها في هرجها ومرجها تدريباً لها في نسق الحياة

كذلك في الحياة البشرية ترى أن ملاعبة الصغار في حين انها سارة و بهيجة لهم هي مهذبة ومدمثة لاخلاقهم ايضاً . في سياق الالعاب والمداعبات تتقوّم اخلاقهم بعض التقويم وتتلطف عواطفهم، وتنشأ فيهم المبادىء الادبية ، وتتولد فيما بينهم العواطف الودادية المتبادلة ، وتقوم بينهم قائمة الحق والعدالة

لا يقف تأثير الالعاب والملاهي في الاخلاق والعواطف والائتلاف الاجتماعي عند الحداثة،بل يستمر في جميع ادوار الحياة،لان لكل دور ضرباً من ضروب اللهو واللعب،حتى عند الهمج والمتوحشين والقبائل الضعيفة التمدن أو القليلة الحضارة

ففي كل قبيلة أو قوم توجد أيام خاصة للهو واللعب،أو مواسم أو أعياد،يجتمع فيها أفراد القوم فيلعبون و يرقصون و يهرجون و يمرجون و يتسابقون و يتساقون الخ . فهذه المواسم أو الاعياد أو الاجتماعات اللهوية انما هي عوامل شديدة الفاعلية في تلطيف المناهضة والمعارضة وتحويلهما الى موافقة وموادة ومحالفة ومعاضدة . وهي عامل عظيم في ملاشاة التباين وتعظيم التماثل بين الافراد والجماعات . بل هي عامل أعظم في اثارة روح التقليد والتشبُّه . والتقليد ينفخ روح التنافس بين الافراد والجماعات

وفي كل موسم او عيد او اجتماع قومي يتحمس الافراد والجماعات لكي ينافسوا بعضهم بعضاً في المواسم القادمة في الرقص وفي السباق وفي الفروسية ، بل في المظاهر كاللبس ونحوه . بل في

الصناعة والفن، كالغناء والشعر . وبعد كل موسم او عيد تتفرق القبائل وقد توثقت عرى الوداد والوفاق بينها ، ولا سيما اذا كانت تتقايض الزوجات

يقال ان الكوروبوري Korroboree وهو موسم عند قبائل اوستراليا الاهليـة يعد خير وسائل الاتصال الودادي بين هذه القبائل . فان هذا الموسم يعقد كل عام، وتجتمع فيه بعض القبائل آتية بالعسل واللحوم والطيور ونحو ذلك من اطايب المأكولات ، فيقضون بضعة أيام بين رقص وهرج وطرب واكل وشرب الى ان يكلوا ، فيتفرقون ، وقد صاهرت القبائل بعضها بعضا ، وتلطفت بواعث الخصام والقتال فيما بينها

ومن امثلة ذلك مواسم الفلاحين في كل امة تقريباً ، في ايام الحصاد وفي الاسواق الوقتية التي يتبادلون فيها السلع والحاصلات . من أفضـل الشو هد على تأثير المواسم الكبرى ، في تقوية عملية الائتلاف الاجتماعي وترقية شأن الاجتماعية القومية، سوق عكاظ التي كانت تجمع قبائل العربية، فتنفخ فيها روح الادب والعلوم والفنون والصناعات، فضلا عما تنشئه فيها من روح الاخاء والمودة

الامم المتمدنة لاتقتصر على المواسم السنو ية ، ولا تنتظر ميعادها ، بل أخذت تعقد الحفلات المختلفة : حفلات الرقص والطرب واللعب، وحفلات المدارس المتنوعة ، مما لايسعنا هنا تعداده، لتوسع هذه الامم فيه، حتى نشأت من ذلك فنون الرقص وفنون اللعب المختلفة كالالعاب الرياضية العديدة ، وفن التمثيل الذي حلّق في سماء الجمال وصار ضرباً سامياً من اللهو قائماً بذاته . وكذلك فن الغناء والطرب الذي جارى فن التمثيل . ثم اشتق من التمثيل فن السيناء الذي توسع في تمثيل المناظر

فجميع هذه الفنون الجميلة اللهوية المختلفـة ذات تأثير عظيم في الائتلاف الاجتماعي ، بل في جميع ضروب التربية الاجتماعية – تأثير يتعذر تقدير قيمتهِ ونتائجهِ الحسنة والسيئة . ولا يسعنا هنا التبسط في هذا الموضوع، وانما ألممنا بكثير من أطرافه في الفصول السابقة

وبالاجمال يقال ان الفضل الاكبر في تكوُّن الهيئات الاجتماعية الراقية انما هو لتأثير الملاهي والالعاب والحفلات السارّة ، بالرغم مما فيها من السيئات والاضرار والمفاسد . فهي لا تخلو من الافساد لبعض الافراد ، ولكنها غالبة التدميث والتأليف للجماعات

وقبل ختام هذه النبذة لا بد من الاشارة الى تأثير المخدرات والمسكرات من الوجهة الاجتماعية . فبالرغم من انها شيطان شرّ وفساد تطرّق الى المجتمع البشري

كانت عاملاً محمساً للقوى البشرية الجسدية والعقلية،ولا يمكن أن تنكر فائدة تأثيرها من هذا القبيل. وربما كان لها فضلٌ كبير في النبوغ في الفنون والاداب والاختراع ؛ وليس عندنا سعة للخوض في هذا الموضوع ومقابلة وجهي الفساد والنفع من جراء المسكرات

٣ — تأثير الاندماج على خواص الفرد الاجتماعي

الاندماج الاجتماعي يؤثر على الافراد المؤتلفين، ويكيّف طباعهم وأخلاقهم كما رأيت في الفصل السابق . وللاندماج تأثير أشد وأعظم شأناً من تأثير البيئة الطبيعية في الحياة العقلية والادبية . بل انه يؤثر على النظام الجسماني أيضاً بواسطة التأثيرات العقلية التي تفعل في الجهاز العصبي

﴿ ١ — التأثير على الحياة العقلية ﴾ فقوى الانتباه والتعليل والاستنتاج والاستدلال والتعقل والاختراع — كل هذه القوى العقلية تنمو وتتوسّع بتأثير الاندماج الاجتماعي . ونموُّ هذه القوى يستلزم نموَّ الوجدان ؛ أي ان الشخص يدرك وجود نفسه وكونه موضوع لتأمل نفسهِ بنفسهِ ودرس نفسهِ . ونمو الوجدان على هذا النحو انما هو نتيجة تأثير ملاحظة الانسان الاشخاص الآخرين الذين هم مثله ، وتقليدهم في حركاتهم وأفكارهم وأذواقهم الخ .

وبعد نشوء الوجدان ينشأ التفكير العلمي بالبيئة المحيطة بالانسان ؛ فهي تستلزم أن يدرك الانسان المتشابهات كما يدرك المتباينات . وهذا الادراك يستلزم استمرار الائتلاف ، وتوارث الملاحظات والاختبارات جيلٌ عن جيلٍ . والفكر المستجد يستلزم تعديل الاعتقاد أو الظن . وهذا التعديل لا ينجم الاّ عن تواتر الاختبار الذي لا يتسنى الاّ بواسطة الائتلاف فالاندماج

فهل رأيت كيف يؤثر الاندماج في انماء القوى العقلية ، وفي الحياة العقلية؟

﴿ ٢ — التأثير على الحياة الادبية ﴾ ترى مما تقدم أن عوامل الائتلاف الاجتماعي تسبك طبائع الافراد لتهيئها للحياة الاجتماعية ، أي انها تنشيء في الافراد

طبيعة اجتماعية تؤهلهم للاندماج في الجسم الاجتماعي . ولولا نشوء هذه الطبيعة الاجتماعية ، أو لولا هذا التطبُّع الاجتماعي ، لما تسنى الائتلاف فالاندماج، ولا تكونت هيئة اجتماعية

فهذه الطبيعة الاجتماعية تجعل الفرد يرغب في أن يواطن سائر الافراد ، وأن يجاريهم في اساليب الحياة، وأن يسترزق كما يسترزقون، ويطاوع النظام كما يطاوعون، وان يمتنع عن التعدي عليهم كما يمتنعون ، وان يعاونهم كما يعاونونه . وهذه الرغبة في أن يتمتع كما يتمتع رفاقه ، وأن يكدح كما يكدحون ، تحمله على تطلب الرزق من وراء الاجتهاد في العمل ، لا من وراء الطمع بحقوق سواه

لا يمكن أن تتألف الهيئة الاجتماعية الاَّ متى اكتشف اعضاؤها الافراد انه بعد أن لاشى الاقوياء جداً الضعفاء جداً ، وان الاقوياء جداً لاشاهم الاقوياء المتوسطون المتألبون عليهم — بعد هذا التصادم ( التنازع ) المدمِّر ، لا تبقى ثمت فائدة من تصادم هؤلاء المتوسطين المتوازنين ( المتماثلين ) في القوة . حينئذٍ لا بد أن تخمد حدة طمع كل واحد بحياة الآخر ، ويصبح كل فرد قانعاً بالرزق الذي يحصله لنفسهِ بعملهِ وكدحهِ ، وهو موفور في الدنيا ، ويكفي جميع أفرادها ويزيد . ذلك هو التساهل أو التسامح الذي يحوّل المناهضة الى معاونة ومحالفة .

والمناهضة في الجماعة تتلاشى حالما تخلي الميول المتنافرة،أو الشاذة والمطامع المتباينة، السبيل للميول المتماثلة والملذات التي يشترك الجميع بالتمتع بها . فالطبيعة الاجتماعية يجب ان تكون حائزة على روح التعاون وروح العطف وروح المجاملة السارَّة

## هـ — الانظمة الاجتماعية

فهمنا في ما تقدم ان تصادم القوات ينتهي بتوازنها في أنظمة جديدة ، فينبغي أن نختم هذا الفصل ببسط الانظمة الاجتماعية

النظام الاجتماعي حركة عقلية يشترك فيها أفراد الجماعة ، ويرتبطون بها بغية التعاون في المصلحة العامة للحصول على النفع المشترك . فالانظمة الاجتماعية اذاً كلها

تخدم المصلحة العامّة وترمي اليها دائمًا . والمصلحة العامة أساسها . فحيث لا مصلحة فلا نظام . وحيث لا نظام تضيع المصلحة . والانظمة الاجتماعية المقصودة هنا انما هي أس نظامات الاجتماع التي أوردناها في الفصل الثالث من الباب الاول

هذه الانظمة نشأت وتطوّرت مع الاجتماع ، بل هو اقتضاها كدرجات لسلم ارتقائه . ولذلك كان بعضها أقدم من بعض ، و بعضها أصل لبعض آخر تفرّع منهُ . ولذلك ايضاً كان بعض الانظمة أصلية و بعضها فرعية . واليك أهم الانظمة الأصلية وما تفرّع منها . و يكاد يستحيل تعيين الأقدم من هذه الأنظمة والالزم منها للمجتمع لأنها جميعها لازمة للاجتماع،ولا يكاد يتعين حدوث اجتماع بدونها كلها أو جلها . وكل واحد منها رابط للجماعة و يدعى رابطة أو جامعة :

١ً — الانظمة الاساسية

﴿١ً — اللغة﴾ لعلّ اللغة أقدم الانظمة البشرية أو من أقدمها على الاقل . لأنا لا نقدر أن نتصور جماعة اجتمعت لغرض مشترك من غير أن تكون لها وسيلة للتفاهم . وما حسب الانسان اجتماعيًا الاّ لما صار حيوانًا ناطقًا ، أو متفاهمًا ولو بالاشارة . والارجح أن التفاهم ابتدأ بالاشارة،ثم قرنت الاشارة بالصوت للدلالة على الحدوث المشار اليه بالاشارة ، ثم استغني به عنها.واللغة أول مظهر من مظاهر الذكاء البشري. وما الصوت الحلقي الاّ آلة لاظهار ذلك الذكاء . وما اتقنت هذه الآلة الاّ لخدمة الذكاء و بأمره . فالآلة لا شأن لها في استنباط اللغة . ولهذا ترى بعض الحيوانات ، كالببغاء التي تقلد صوت الانسان ، لا تستطيع أن تتفاهم مع الانسان بهذا الصوت . فاذاً العمل الاجتماعي عقلي.ولهذا قلنا ان أنظمته حركات عقلية . واللغة نتيجة تفاعل الافراد الاجتماعيين للتفاهم فيما بينهم

ولما ارتقى الانسان واتسعت دائرة تفاهمه،وصار للمعاني الفاظاً كما كان للاشياء معان أيضًا ، صار عنده الفاظ تدل على الحدوث-مقرونة بالوف الأفعال، والفاظ تدل على معاني الحدوث ، فضلاً عن الألفاظ الدالة على الأشياء . فكان هذا التنوُّع في الدلالة اساساً لنشوء النحو والصرف وسائر قواعد اللغة ، وهي نظام فرعي للغة

كذلك لما اتسعت دائرة التفاهم صار الانسان يشعر بالحاجة الى التفاهم عن بعد والى إبلاغ المعاني للاجيال القادمة. فاستنبط الخط فكان نظاماً فرعياً للغة. بل الخط نفسه تفرّع الى فروع أقلها ثلاثة. الخط بالرسوم، والخط بالرموز، والخط بالحروف

ثم لما جعل الانسان يستلذ التفاهم باللغة، ويوغل في تخيل المعاني، استنبط الشعر فكان نظاماً فرعياً جديداً للغة. وهكذا يمكنك ان تتبع سائر الانظمة التي تفرعت من فروع اللغة، كالتمثيل والطباعة والصحافة الى غير ذلك مما يمتزج بأنظمة أخرى متفرعة من أصول أخرى

﴿ ٢ً — العقائد الدينية ﴾ والغالب ان العقائد الدينية كانت من الانظمة الاولى التي نشأت مع نشوء اجتماعية الانسان. فأول ما تنبه عقل الانسان اليه هو أن يبحث عن مصادر النفع والاذى الخفية، فكان يعزوها الى مشاهد الطبيعة المؤثرة فيه كالشمس والجبل والنهر، ثم الى ما تصوره وراء ذلك من القوات الروحية، الى ان جعل لأجداده الذين عظمت أخبارهم بتواتر النقل قوات كقوات تلك المشاهد الطبيعية التي أثرت فيه. ومن ثم تنبه لعقيدة الروح

ومن هذه العقيدة تنبه لنظام العبادة، ومنه اشتق نظام الدين، ونظام الكهنوت الخ

﴿ ٣ً — الشريعة — والنظام السياسي ﴾ الغالب أن الشريعة نشأت مع العقيدة الدينية. ولعلها هي والدين فرعان من أصل واحد. فمنذ صار الناس يحتكون، ويتعرضون بعضهم لبعض ويتنازعون، صاروا يضطرون أن يعينوا المحلّل والمحرّم ويعزون ذلك الى ارادة الآلهة وأوامرها. فالشريعة قديمة أيضاً كقدمية الدين. ومنها تفرّع نظام الحكم المنفذ لها. فالحكومة فرع من فروع الشريعة

ثم تفرعت الشريعة الى النظام القضائي، والنظام الاداري، والنظام الشوروي. ومن هذه الانظمة تفرعت الانظمة السياسية التي لا يتعذر عليك أن تسلسلها الى آخر أطرافها. والنظام السياسي هو أهم الانظمة الاجتماعية في العصور الاخيرة. والشريعة الادبية انما هي فلسفة الشريعة المدنية، وهي لها كالزهرة للشجرة. فلا تعد نظاماً قائماً بنفسهِ، ولا فرعاً لنظام، بل هي روح نظام

﴿ ٤ً — الزواج ﴾ هذا نظام قـديم أيضاً كقدمية نظام العقيدة والشريعة . و يعد نظاماً منذ صار أساساً لوحدة العيلة ، بحيث يساكن رجلٌ مرأةً ولو الى حين ، و يشتركان في تربية البنين ، أو في المسأولية بحقوق البنين . لهـذا النظام الفضل الاول والاعظم في تكوين وحدة الجماعة ، كما علمت في الفصل الاول من الباب الاول . و به تألفت الجماعة

من هذا النظام اشتق نظام القرابة الدموية الذي به تتحدّد العشيرة وتتميز . وهو رابطة الجماعة السلالية ، و يسمى الرابطة العصبية او الدموية . وتليه رابطة القومية فالجنسية فالشعبية التي هي أوسع من تلك لاحتمال ان يكون الشعب مجموعة سلالات مندمجة

﴿ ٥ً — الجندية ﴾ نظام الجيش قديم أيضاً ، لأنه لما تكونت الجماعة واشتقت الى جماعات صارت الجماعات الفرعية تجد نفسها لقاء جماعات منازعـة لها ، فكانت تضطر ان تتألب للمقاومة . وهذا التألُّب كان منشأ الجندية

٢ً — روابط الانظمة

قلنا في بدء هـذه النبذة أن الانظمة الاجتماعية حركة عقلية يشترك بها أفراد جماعة و يرتبطون حرصاً على المصلحة العامة . فهي جامعات او روابط للجماعة . والجماعة تتميز بها ، او بقدر ما تشترك فيها .

ويمكن تصوُّر هذه الروابط او الجامعات كدوائر يجتمع ضمنها افراد الجماعة المرتبطون بها والمشتركون في مصلحة واحدة او غاية واحدة أو عاطفة واحدة . على ان هذه الدوائر ليست منفصلة بعضها عن بعض او متماسة دائماً ، بل تكون احيانا كثيرة متداخلة بعضها ببعض . مثال ذلك : رابطة الدين الاسلامي في الشرق ، ولا سيما تركيا القديمة ، فانها متداخلة في كثير من الروابط السياسية تقتطع بعضها وتشمله فتخرج البعض الاخر . كذلك رابطة اللغة متداخلة في الرابطتين السياسية والدينية ، فتقتطع من هذه وتلك وتشمل بعضها دون البعض . ترى ان دائرة الاسلام تشمل جانباً كبيراً من تركيا فضلاً عن غيرها من الممالك الشرقية والافريقية . وكذلك النصرانية تشمل قسماً من تركيا فضلاً عن الممالك الاخرى

وفي الوقت نفسه ترى في تركيا دوائر لغات مختلفة غير منحصرة . بل مقاطعة ممالك اخرى ، كاللغة العربية التي كانت تقتطع قسماً من تركيا وتشتمل ممالك افريقيا الشمالية . واللغة الارمنية التي

كانت تقتطع قسماً من تركيا وقسماً من روسيا القديمة وقسماً من بلاد فارس . وقس على ذلك دوائر الجنسية والقومية .

بقي أن نبحث في أي هذه الروابط أشد وثوقاً للجماعة ، وهو بحث من أدق المباحث وأوعرها ، ولا سيما لأنه يتعذر استخراج قاعدة لها تمشّى عليها جميع الامم على السواء .

ويغلب أن يتبادر الى الذهن أن الرابط الافيد لمصلحة الجماعة هو الأشد وثوقاً والأجمع لشمل الجماعة . ولكن هذه القاعدة لا تصدق دائماً ، اذ ترى بعض الجماعات منفصلة بعضها عن بعض بسبب وجود روابط أخص ضمن دائرة الرابطة الاعم التي تربطها جميعاً ، مع أن المصلحة تقضي بالتآمها جميعاً ضمن الرابطة الكبرى ، ولا سيما اذا كانت هذه الجماعات مختلفة ، وغير منفصلة انفصالاً جغرافياً .

مثال ذلك ان الروابط الدينية في الشرق كانت ، ولا تزال ، تتغلب على الروابط السياسية ، فتفصل المسلم عن النصراني في تركيا ، وتربطه مع مسلم العجم والهند ومصر والمستعمرات الفرنساوية ، كما انها تربط النصراني العثماني مع غيره من نصارى الممالك الاخرى

كذلك كانت رابطة اللغة تفرّق بين الترك والعرب، وتقرّب هؤلاء من أهل الممالك العربية الاخرى ، وتقرب اولئك من العناصر التترية في الممالك الاخرى الاسيوية ، مع ان المصلحة الشعبية تقضي بأن تكون الجامعة السياسية العثمانية هي المغلّبة والاوثق ، كما ترى الجامعة السياسية في سويسرا أوثق من الجامعات الالمانية والفرنساوية والطليانية المقاطعة لها جغرافياً ، والمكونة للوحدة السويسرية

كذلك ترى الجامعات الجغرافية ( التي لا تحسَب نظاما ) قد تغلبت على الجامعة السياسية في لوزيانا ( احدى الولايات المتحدة ) وضمت فرنساويي هذه الولاية الى انجلوسكسوني اميركا الشمالية ، وفصلتهم عن الدائرة السياسية الفرنساوية . كذلك الدائرة الجغرافية في كندا تحاول ان تفصل اهلها عن الدائرة السياسية الانكليزية ، لتدخلها ضمن الدائرة السياسية الاميركية

من ذلك نفهم أن المصلحة وحدها لا تكفل توثق الرابطة ، وكثيراً ما تكون موثقاً ضعيفاً للرابطة . فاذا تعمقنا في البحث عن أشد وثاق للرابطة او الجامعة ، فقد نجده في التماثل بين عناصر الجماعات . فالجماعات التي تَمَاثَلُ عناصرها في الاخلاق والعادات والعقائد أشد تكون أوثق ارتباطاً . وبالتالي الجماعات التي تتعدّد روابطها تكون أوثق ارتباطاً ، لأن هذه الروابط أنظمة مستخرجة من العادات والاخلاق والعقائد .

على أن لبعض الانظمة قوة في التماثل بين العناصر والافراد أعظم من بعض، لأنها تجرُّ معها بعض الانظمة الاخرى . فلا ريب اذاً أن رابطة العصبية التي تربط أفراد السلالة الواحدة هي أوثق الروابط وأشدها ؛ فأفراد العشيرة الواحدة أشد عطفاً بعضهم على بعض،لان هذا العطف مفعول الحب القرابي المتشعب بين أفراد السلالة والممتد الى ما بين أفراد القوم فالجنس . وبالطبع ترافقهُ رابطتا اللغة والدين، لأن أهل العشيرة الواحدة يدينون بدين واحد،و يتكلمون بلغة واحدة ؛ وقد ترافقه أيضاً الرابطة السياسية،اذا لم تنشق السلالة الى عشائر مختلفة ، ولم تتشاطرها البيئات المختلفة

ولـكن متى اتسع تشعُّب القرابة السلالية وتمازجت السلالات ، وتمزقت الرابطة العصبية ،تبقى الرابطتان :اللغة والدين ، وكلٌّ منهما شديدة الوثاق ،واللغة أشدهما وثاقاً

أما رابطة اللغة فلا ريب في شدة توثقها لأن اللغة واسطة التفاهم ؛ والتفاهم اداة المحاكاة والاقتباس؛وهما العملية التي بها ينسخ كل واحد عن الآخر خواصَّه وصفاته. فلا أشد من التماثل بين أهل اللغة الواحدة – التماثل في العادات والاخلاق والسجايا، حتى يكاد أهل دينين مختلفين في لغة واحـدة لا يفترقون بشيء في عاداتهم وامزجتهم واخلاقهم كما ترى في مصر،اذ يصعب عليك ان تعرف المسلم أو النصراني، ما لم تعرف اسمه

فبعد رابطة العصبية تكون اللغة أشد الروابط وثاقاً، لانها أفعل اداة في عملية التماثل الذي هو أساس الرابطة

أما الرابطة الدينية فقد تناهض رابطة اللغة . فاذا كانت تمنع التزاوج المتبادل بين اهلي دينين فتكون أشد وثوقاً من رابطة اللغة، لان انحصار الزواج ضمن أهل الدين الواحد يُبقي للرابطة العصبية شيئاً من القوة ، ولان عدم التزاوج المتبادل يبعد فريقي الدينين أحدهما عن الآخر اكثر مما تبعده اللغة ؛ ذلك لان اللغة قد تكون مكتسبة غير موروثة

فالجماعة التي اشتركت فيهـا الروابط جميعاً يكون أفرادها اكثر تماثلاً وأشد توثقاً ، وكلما قلت الروابط قلَّ التماثل وقلَّ التوثق

هذه القاعدة تمشى على الامم القديمة المتأخرة في الرقي ، حيث لا تزال العواطف التقليدية تتغلب على المصلحة . على ان الامم المستجدة الراقيـة يكون وثاق الروابط فيها المصلحة . ولهذا ترى ان رابطتي الدين والسلالة ضعفتا فيها، من غير ان يضعف التدين او تتلاشى العاطفة الجنسية ، وقويت رابطة السياسة ، لان هذه اكفل للمصلحة العامة

فبالرابطة السياسية قامت الولايات المتحدة الاميركية ، ونجحت نجاحا باهراً، بالرغم من تعدد العقائد فيها ، واختلاف الجنسيات واللغات . كذلك يمكن أن يقال عن سويسرا ، والاتحاد الالماني ، وجمهوريات اميركا الجنوبية

---

انتهى الكتاب الاول

وفي بحر عام ١٩٢٥ يظهر ان شاء الله الكتاب الثاني ﴿ تطور الهيئة الاجتماعية ﴾ وسيكون في حجم هذا تقريباً ، وفيه ثلاثة أبواب وخاتمة ؛ وبها ينتهي البحث المطوَّل في علم الاجتماع

---

# فهرس ابجدي للمواضيع

---

بالميزة القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل من كتابنا لا يبغي من وراء كتابته الا ان يقول عنه الناس كما يقولون عن البهلوان « ما ابرعه ! » في حين كان يجب ان يقولوا « ما أنفعه »

ولسنا نشك في اننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات النفيسة ، وغيرها مما لم يُنشر للآن ، حتى يتيسر للجيل الجديد قراءتها والانتفاع بها دون أن يحتاج الى الكد في البحث عنها في متفرق المجلات والصحف .

# تاييس

( قصة مزينة بالصور )

تأليف شيخ كتاب العصر

**أناتول فرانس**

ترجمة الاستاذ الاديب النابه

**احمد الصاوى محمد**

تاييس — صورة صادقة لمصر القديمة بعلومها وفنونهـا وفلسفتها وآدابها ، وقصورها وحقولها ، وصحاريها ووديانها ، وملاعبها وأديارها ، وعادات أهليها

تاييس — معجزة رائعة لا مثيل لها في الأدب العصري ، والفن القصصي . كان ظهورها فوزاً مدهشاً لعظمة الفكر الانساني

تاييس — قصة حب تملك عليك نفسك ، فتظل تقرأ حتى تنسى نفسك . وتحملك دعابات أناتول فرانس اللذيذة المشهورة الى عالم كله ضحك ومسرات ، ثم تحملك تبكي لآلام رجل راح ضحية الدنيا الغرور بعد ان عذبه فكره عذاباً فظيعاً

إقرأ تاييس — تجد الحكمة والمعرفة والردود الصائبة على الاسئلة التي تخـالج نفوس الشباب الفتية الحائرة ، وقلوب أهل الفطنة والذكاء المستيقظة .

ما الحب ؟ ما الكره ؟ ما الحكمة ؟ ما الضـلالة ؟ ما المعرفة ؟ ما الجهالة ؟ ما الفلسفة ؟ ما الغباوة ؟ ما الوطن ؟ ما الخيانة ؟ ما الشر ؟ ما الدين ؟ ما الكفر ؟ ما الجنة ؟ ما النـار ؟ ما الشهوة ؟ ما العفة ؟ ما التلذذ ؟ ما التقشف ؟ ما الحرية ؟ ما العبودية ؟ ما العشق الحـلال والعشق الحرام ؟ ما فلسفة الفضيلة والرذيلة ؟ ما حكاية الارض والسماء ؟ ؟

إقرأ تاييس — تاييس تحل لك ألغاز الوجود ! تاييس تبوح لك بأسرار الغرام ! إقرأ قصة تاييس الفاجرة ! تاييس القديسة

ثمن النسخة ١٠ قروش والبريد ٣ لمصر و ٥ للخارج

---

# المرأة وفلسفة التناسليات

تأليف الدكتور فخري طبيب الجلد والأمراض التناسلية، أول كتاب بحث طبيعة المرأة وتحضيرها وجمالها ومركزها الاجتماعي وتأثير نفسيتها على حياتها التناسلية يقع في ٦٥١ صفحة وبه ٥١ صورة وثمنه ٢٠ قرشاً والبريد ٣ قروش

---

# رسائل غرام

جديدة

بقلم الأستاذ سليم عبد الأحد ومزينة بالصور الحديثة ثمنها ١٠ قروش والبريد ٣

اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا امامها من البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطالب الشرقي . واول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو القاموس العصري

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . واننا ننصح لكل من لم يطلع عليه للآن ، مكتفياً بما عنده من القواميس العتيقة ، أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه الفائدة العظيمة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى . ثمنه سبعون قرشاً والبريد خمسة بداخل القطر المصري وعشرة للخارج .

---

# القاموس العصري

# عربي وانكليزي

## مصور

تاليف

## الياس انطون الياس

هو معجم لم يُنسج على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية

تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك يتسنى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانكليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه

إطلع عليه فتعلم أن اقتناءه ألزم لك من أي كتاب آخر مادمت من المشتغلين للغة الانكليزية —

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحوه ٥٢,٠٠٠ كلمة عربية ما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررته وزارة المعارف العموميه لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري. وثمنه مائة قرش والبريد خمسة قروش لداخل القطر المصري وعشرة للخارج

---

# قاموس عربي وانكليزي

## للغة المصرية الدارجة

تأليف

سقراط سبيرو بك

قد جمع هذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل واصطلاحات اللغة المصرية الدارجة في الكلام والكتابة .ولا نغالي اذا قلنا انه لازم لكل مشتغل باللغة الانكليزية من ابناء مصر خاصة والشرق عامة لما يحويه من الكلمات التي لا يمكن وجودها في غيره من المعاجم العربية انكليزية — ثمنه مائة قرش صاغ والبريد ٤ قروش صاغ لداخل القطر وعشرة للخارج ويطلب في جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر

# قاموس الجيب

## عربي وانكليزي

تأليف

الياس انطون الياس



* اذا . لَوْ If.
اذاً . اذَنْ Therefore.
o آذار . شهر مارس March.
* أذاع (في ذيع) * آذعن (في ذعن)
* اذِنَ لهُ To allow; permit.
آذَنَ To announce, declare.
اسْتَأذَنَ To take leave.
إذْن Leave; permission.
أُذُنٌ ج آذان Ear.
— . عُروة . مَسكَة Handle.
إذَنْ . إذاً Therefore.
اسْتِئذانٌ Leave-taking.
مِئذَنَة . مَأذَنَة Minaret.
آذَى . أضرَّ To injure; harm.
لا يُؤذي Harmless; innocent.
اذَى . اذِيَّة Injury; harm.
لمْ يصبهُ — . Uninjured.
مُوذٍ Injurious; harmful.
غير — Harmless; innocent.
* أراح (في روح) * أراع (في روع)
* أراق (في روق) To shed; spill.
* ارَبٌ . حاجة Need: want.
— . غاية Desire; wish.
— . مَهارة Skill, adroitness.
ارباً اربًا In pieces.
ارْبَةٌ . عقدة Knot, tie.

ارْبِيَّة ج ارَبِيّ الورك Groin.
اريب . ماهرٌ Skilful; adroit.
مَأرب Object; desire; wish.
* أربع * أربعاء (في ربع)
* إرتاب (في ريب) * إرتاح (في روح)
* إرتجل (في رجل) To extemporise.
o ارتوازي Artesian.
بِئرٌ إرتوازية Artesian well.
* إرثٌ (في ورث) Inheritance.
o ارثوذكسي Orthodox.
* ارِجَ . فاحَ شذاه To be fragrant.
اريج . شذا Fragrance.
* ارجأ (في رجأ) * أُرجوحة (في رجح)
* ارْجُوان * ارْجُوانيّ Purple.
* ارَّخَ الخطاب To date "a letter.
— . كتب تاريخًا To write a history.
تاريخ . تعريف الوقت Date.
— . ذِكر الوقائع وأوقاتها History.
— . زمن Time; epoch.
— . حكاية History.
علمُ الـ— . History.
بدون — Dateless; undated.
تاريخيّ Historical.
مُؤرَّخ . عليه تاريخه Dated.
مُؤرِّخ Historian.
o ارْخَبيل Archipelago.
* أرخى (في رخو) To relax.

ثمنه ٢٥ قرشًا والبريد ٣ لمصر و ٥ للخارج

# قاموس الجيب

## انكليزي وعربي



Adz,—e قدومٌ . مطرقةٌ
Aërate هوّى . شبّع بالهواء
Aërial هوائي . مختصّ بالهواء * عالٍ
Aerie وكرُ الطيور الجارحة
Aërify مزج بالهواء . هوّى
Aërolite حجرٌ ساقطٌ من الجوّ . رجمٌ
Aëronaut مسافرٌ في الهواء
Aëronautic مختصٌّ بسفر الهواء
Aëronautics علمُ السفر في الهواء
Aëroplane مركبةٌ هوائيّةٌ . طيّارة
Aërostat مركبةٌ هوائيّةٌ . منطادٌ
Aesthetics فلسفةُ الفنون الجميلة
Æstivation تصييفٌ ( عكسُ تشتية )
Afar من بُعدٍ . من بعيد
Affability أنس . لُطف . بشاشةٌ
Affable أنيس . ودودٌ . لطيفٌ
Affably بأنسٍ . بلطفٍ . برفقٍ
Affair مسئلةٌ . أمرٌ * شأنٌ * قضيّةٌ
Affect أثّر في . حرّك العواطفَ * تصنّعَ
Affectation تصنّعٌ . تكلّفٌ
Affected متأثّر . متألّمٌ * متصنّعٌ
Affecting مؤثّرٌ . محرّكٌ للعواطفِ
Affection ودادٌ . محبّةٌ . شوقٌ . ميلٌ
Affectionate ودودٌ . محبٌّ
Affiance خِطبةٌ . [ مخاوبةٌ ]
Affidavit إقرارٌ كتابيٌّ بقسمٍ
Affiliate تبنّى . اتّخذ كابنٍ * أشرك
Affiliation تبنٍّ * ثبوتُ النسبِ

Affinity مشابهةٌ . علاقةٌ * قرابةٌ
Affirm أكّد . أثبتَ * جزمَ
Affirmation تأكيد . اثباتٌ * جزمٌ
Affirmative ايجابي . يشمل الاثبات
Affix مضافٌ الى أول كلمة
Affix وصلَ . ألحق بشيءٍ آخر
Afflict أحزنَ . أغمّ . ضايقَ
Afflicted محزونٌ . مغمومٌ . مهمومٌ
Affliction حزنٌ . غمٌّ . ضيقةٌ . كربٌ
Afflictive محزنٌ * مؤلم . مؤذٍ
Affluence وفرةٌ . بحبوحة * ثروةٌ
Affluent ساعدةٌ * وافرٌ . غنيٌّ
Afford قدّم لـ . أمدّ * انتج * قدرَ على
Affranchise حرّرَ * خلّصَ على
Affray شغبٌ . مشاجرة . عراكٌ
Affright خوفٌ || خوّفَ . أفزعَ
Affront اهانة . تعيير || اهانَ . عيّرَ
Affusion رشٌّ * صبٌّ * انسكاب
Afire مشتعلٌ . متّقدٌ . مضطرمٌ
Afloat طافٍ . طافٍ * شائعٌ
Afoot راجلاً . ماشياً على القدمِ
Aforenamed متقدّمٌ ذكرُهُ .
Aforesaid سالفُ الذكر
Afraid خائفٌ . مرتعبٌ . مرتاعٌ
Afresh من جديد . أيضاً * ثانياً
Aft نحو مؤخّر السفينة
After بعدَ . في اثرِ * بحسبِ . بموجب
— ages في مستقبل الزمانِ

ثمنه عشرون قرشاً والبريد ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج





